

الحقوق الفكرية

تأليف

محمد عبد الوكيل

بك

المفتش بوزارة المعارف

لجبة الأول

الرقم
١٥

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م

يطلب من المكتبة التازية بشارع الصناديقية بمصر
إصايجها عند الواحد محمد التازي

مطبع محمد زكي

تليفون رقم ٥٥٤٨٠

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	تصدير
٣	منزلة علم الأخلاق
٣	ارتباطه بالدين
٤	الحاجة إليه
٥	أمثلة من نقائصنا الخلقية
٩	الفلسفة الخلقية
٩	تعريفها
٩	موضوع الفلسفة الخلقية
١١	أعلم الأخلاق نظري أم عملي ؟
١٦	نسبة الفلسفة الخلقية إلى مسائل العالم
١٦	تفصيل بعد إجمال
٢٤	الخلق
٢٥	نزعات النفس
٣٣	ينابيع الخلق
٣٥	الرغبات
٣٦	المطالب

الصفحة	الموضوع
٣٧	الخلال النفسية الذاتية
٤١	الانفعالات النفسية
٥٥	الغاية
٥٨	الداعى أو الباعث
٥٩	العادة
٦٥	البيئة
٧٢	العلم وأثره
٧٦	التربية من الطفولة
٧٩	التربية العقلية
٩٧	مخالطة الأخيار ، ومجانبة الأشرار

خلاصة ينابيع الخلق

١٠٢	الوراثة
١٠٣	المنزل
١٠٥	المدرسة
١٠٧	الأصدقاء
١١٠	طريقة دين الإسلام
١١١	وسيلة تقويم الخلق
١٥٦	أثر الأسوة فى تقويم الخلق
١٦١	القاعدة الخلقية
١٨١	الحقوق والواجبات القومية
١٨٣	

١٨٤	الموازنين الخلقية
١٨٧	الميزان الأول — العرف
١٩١	» الثاني — الفطرة
١٩٤	» الثالث — القول باللذة
٢٢١	» الرابع — الإيثار
٢٢٣	» الخامس — العاطفة
٢٢٤	» السادس — استمالة القلوب
٢٢١	» السابع — الافتداء بالله
٢٢٨	» الثامن — السعادة

فهرس

الصفحة	الموضوع
٣	تصدير
٣	منزلة علم الأخلق
٣	ارتباطه بالدين
٤	الحاجة إليه
٥	أمثلة من نقائصا الخلقية
٩	الفلسفة الخلقية
٩	تعريفها
٩	موضوع الفلسفة الخلقية
١١	أعلم الأخلق نظرى أم عملى ؟
١٢	أمن يدرس الفلسفة الخلقية يصير ذا خلق ؟
١٣	رأينا
١٦	نسبة الفلسفة الخلقية إلى سائر العلوم
١٦	تمهيد :
١٦	تفصيل بعد أجمال
١٦	نسبة الفلسفة الخلقية إلى العلوم الطبيعية
١٧	نسبتها إلى علم الحيوان
١٨	نسبتها إلى علم النفس
١٩	نسبتها إلى علمى المنطق والجمال
٢٠	نسبتها إلى الفلسفة الاجتماعية

الموضوع	صفحة
نسبتها إلى علم تدبير المال	٢٠
نسبتها إلى السياسة	٢١
الخلق	٢٤
نزعات النفس	٢٥
رأى سقراط	٢٥
رأى فلوطين وأبي العلاء	٢٦
رأى اليسوعيين والينسيين	٢٦
رأى رسو	٢٦
ابن مسكويه وجالينوس	٢٧
رأى أرسطو	٢٨
رأى صاحب سلوك الممالك	٢٩
رأى الغزالي في إمكان تغيير الخلق	٢٩
كل مولود يولد على الفطرة	٣٠
رأى ابن خلدون	٣٠
رأى الإمام علي في تغيير الخلق	٣٠
خلاصة آراء المتقدمين	٣١
رأى شارح المواقف	٣٢
رأى الشيخ محمد عبده	٣٢
ينابيع الخلق	٣٤
الغرائز مع العواطف ، والانفعالات . والاحساسات . فالعادة فليئة	٣٤
الغرائز مع العواطف ، والانفعالات والاحساسات	٣٤
أ - الغرائز :	٣٤
الأولى : النزعة إلى طلب الطعام والشراب .	٣٤

الموضوع	صحيفة
الثانية : النزعة الجنسية . الثالثة : النزعة الذاتية	٣٥
أ - الرغبات : التمني ، ثم الأمل : ثم الطموح	٣٥
ب - المطامع : الأول : الثروة .	٣٦
الثاني : الوجاهة .	٣٦
الثالث : السلطة . الرابع : الشهرة	٣٦
ج - الخلال النفسية الذاتية :	٣٧
الأولى : القناعة . الثانية : الاعتدال	٣٧
الثالثة : الشراهة	٣٨
ب - العواطف :	٣٨
الأولى : عاطفة الوالدين	٣٨
الثانية : عاطفة الأسرة . الثالثة : العاطفة الوطنية	٣٩
الرابعة : العاطفة الاجتماعية .	٣٩
الخامسة : عاطفة الشفقة .	٣٩
الرابطه بين العواطف والعرائز :	٣٩
أ - العواطف المقصورة :	٣٩
الأولى : الشمم . الثانية : احترام النفس . الثالثة : النور . الرابعة : الضعة	٤٠
ب العواطف المتجاوزة : الأولى : الكرم . الثانية : البخل	٤٠
الثالثة : الطمع .	٤٠
أثر العاطفة : الأولى : الشكر . الثانية : الكنود . الثالثة : الخيانة .	٤١
ج - الانفعالات النفسية :	٤١
أ - المنفرات الرئيسية : الأولى : الكراهة .	٤١
الثانية : الغضب . الثالثة : الخوف .	٤٢
٢ - الانفعالات الفرعية ، أورد الفعل :	٤٢

الموضوع	صفحة
أولها : الحق . ثانياً : الحق . ثالثاً : الحذر	٤٢
٣ — مقومات الانفعالات : أولاً : الشجاعة .	٤٣
ثانياً : التهور . ثالثاً : الجبن .	٤٣
د — الاحساسات :	٤٣
الأولى : التعجب .	٤٣
الثانية : الاستحسان . الثالثة : الإجلال .	٤٤
درجات المحبة : الأولى : الميل . الثانية : الود .	٤٤
الثالثة : الحب .	٤٤
الرغبة والخلق	٤٥
ارتباط الرغبة بالخلق . تعارض الرغبات	٤٦
الإرادة والعمل	٤٨
إن الخلق صورة الإرادة	٥١
مباحث نفسية لأبد منها	٥١
١ — الحال والملابس :	٥١
١ — ماهية الحال	٥٢
٢ — تغيرات الأحوال الرئيسية : أولاً ،	٥٢
ثانياً ، ثالثاً ، رابعاً ، خامساً ، سادساً	٥٣
الشخصية : متغيرة ومطلقة	٥٤
ب — الغاية : تنوع الغايات :	٥٥
١ — الرغبة ، والغاية	٥٥
٢ — وأهم هذه الأحوال مايلي : أولاً ، ثانياً ، ثالثاً ،	٥٥
رابعاً ، خامساً ،	٥٦
٣ — تسلسل الغايات وتعددتها . ٤ — السرور والغاية .	٥٦

الموضوع	صفحة
٥ - الغاية القصوى .	٥٧
٦ - الداعي ، أو الباعث .	٥٨
١ - الطبع بوصفه محركا للفعل وحده أو بمعاونة الغاية	٥٨
٢ - التعقل بوصفه محركا . ٣ - الحال بوصفها محركا .	٥٩
العادة	٥٩
ذرائع تكوين العادة	٦٠
الغريزة والعادة	٦٢
الخصائص التي تورث من الوالدین :	٦٤
الأولى : الخصائص الجسدية	٦٤
الثانية : الخصائص العقلية	٦٤
الثالثة : الخصائص الخلقية	٦٤
البيئة	٦٥
البيئة الطبيعية	٦٧
البيئة الاجتماعية	٦٩
العلم وأثره	٧٢
التربية من الطفولة	٧٦
واجب الأم . ما يجب أن تكون عليه الأم .	٧٧
تأمل مايلي . أثر جهل الأم	٧٨
التربية العقلية	٧٩
التربية الخلقية :	٧٩
١ - وجوب التبكير في غرس الفضيلة .	٧٩
٢ - أثر القدوة	٧٩
٣ - التشجيع على الفضيلة	٨٠

الموضوع	صفحة
تنشئته على الشجاعة — التربية الخلقية	٨١
التربية الاقتصادية	٨١
أثر الدين في الخلق	٨١
موازنة بين أثر الدين والقوانين الوضعية	٨٤
استعداد الأمة العربية للإصلاح الروحي	٨٥
محمل آراء الغربيين في التربية وعواملها	٨٨
أثر البيئة	٩٤
تنازع الوراثة والبيئة وأثر المربي	٩٥
أثر الوالدين	٩٥
العوامل المؤثرة في الطفل	٩٦
١ — الوراثة . ٢ — المحالطة . ٣ — المربون .	٩٧
مخالطة الأخيار ومجانبة الأشرار	٩٧
اختيار الخطاء	٩٨
خلال الخليط	٩٩
آثار المحالطة الصالحة	١٠١
خلاصة ينابيع الخلق	١٠٢
المؤثرات الداخلة : ١ — الغرائز . ٢ — العادات	١٠٢
٣ — الرغبات	١٠٣
المؤثرات الخارجة : الوراثة ، المنزل ، المدرسة ، الأصدقاء	١٠٣
البيئة	١٠٣
الوراثة	١٠٣
المنزل	١٠٥
المدرسة	١٠٧
الأصدقاء	١١٠

الموضوع	صحيفة
طريقة دين الاسلام	١١١
أمثل طريق لتكوين خلق الاسلام	١١١
الذريعة الأولى - تأديبه في مأكله ومشربه	١١١
الذريعة الثانية - تأديبه في حديثه	١١٣
الذريعة الثالثة - تأديبه في مجالسته	١١٨
الذريعة الرابعة - تأديب جوارحه ومشاعره	١٢٠
طرق التأديب :	١٢١
الأولى	١٢١
الثانية	١٢٣
الثالثة	١٢٥
الرابعة	١٢٧
الخامسة	١٢٨
السادسة	١٢٩
السابعة	١٢٩
الذريعة الخامسة - تنشئته على بر الوالدين والعطف على القريب ،	١٣١
صلة الرحم	١٣٦
الذريعة السادسة - غرس الإجلال للنبي صلى الله عليه وسلم	١٣٩
الذريعة السابعة - طبع نفوس النشء على التأديب في حق الله عز وجل	١٤٥
الذريعة الثامنة - تربيته على حسن معاملة أفراد المجتمع	١٤٨
وسيلة تقويم الخلق	١٥٦
تمهيد	١٥٦
الأولى :	١٥٧
الثانية :	١٥٨
سبل اعتقاد الإنسان الأخلاق الحمودة وإهمال المذمومة :	١٥٩

الموضوع	صحيفة
مراتب الناس في قبول التأديب	١٦٠
أثر الأسوة في تقويم الخلق : تمهيد :	١٦١
النفس مجبولة على حب المائلة والمحاكاة .	١٦١
الأسوة خير مرشد	١٦٦
العمل مظهر الخلق	١٧٣
عبادة الله أقوى أركان الخلق	١٧٧
الخلق عماد الإيمان	١٧٩
القاعدة الخلقية	١٨١
السنة الخلقية	١٨١
السنن العامة وأنواعها	١٨١
الحقوق والواجبات القومية	١٨٣
الموازين الخلقية	١٨٤
مقدمة ، دواعي الأعمال	١٨٤
الميزان الأول — العرف	١٨٧
» الثاني — الفطرة	١٩١
قدم مذهب الفطرة	١٩٢
نقد القول بالفطرة	١٩٣
الميزان الثالث — القول باللذة	١٩٤
أ — حقيقة اللذة	١٩٤
ب — اللذة والالتم	١٩٤
ج — ضروب اللذة : الأول والثاني والثالث	١٩٤
د — تعاقب اللذة والالتم	١٩٧
و — تفاوت اللذات	١٩٨
ز — ضروب اللذة في رأى علماء النفس	١٩٩
ح — رأى علماء الأخلاق من المسلمين في اللذة :	١٩٩
رأى الغزالي	١٩٩

الموضوع	صحيفة
رأى ابن حزم فى صنوف اللذة	٢٠١
اللذة البدنية بوصفها ميزانا	٢٠١
فرق أهل هذا المذهب	٢٠١
الفرقة الأولى — أولو الأثرة	٢٠١
تقد القول بالأثرة	٢٠٣
الفرقة الثانية — النفعيون	٢٠٦
تقد هذا المذهب	٢٠٨
رد النقد	٢١٠
أطوار النفعية	٢١١
رأى أبيقور	٢١١
الرغبات عند أبيقور	٢١١
تقد مذهب أبيقور	٢١٢
رأى بنتام فى النفعية	٢١٣
تقد مذهبه	٢١٤
رأى استيوارت ميل	٢١٥
تقد مذهب ميل	٢١٦
إجمال القول فى محاسن النفعية ومسايبها :	٢١٨
محاسنها :	٢١٨
مساوئها :	٢٢٠
الميزان الرابع — الإيثار	٢٢١
» الخامس — العاطفة	٢٢٣
» السادس — استمالة القلوب	٢٢٤
تقد هذا المذهب	٢٢٥
الميزان السابع — الاقتداء بالله	٢٢٦
تقد هذا الميزان	٢٢٨
» الثامن — السعادة	٢٢٨

الموضوع	صحيفة
ماعية السعادة	٢٢٨
رأى الإمام الغزالي في السعادة	٢٣٣
رأى أرسطوطاليس	٢٣٥
رأى الفلاسفة العصريين	٢٣٥
رأى الفريق الأول من الفلاسفة العصريين	٢٣٥
رأى الفريق الثاني	٢٣٦
سبب اختلاف الناس في تحديد السعادة :	٢٣٧
(ا) فصل الإنسان على غيره	٢٣٧
(ب) تفاوت العقول	٢٣٨
(ح) سبب تفاوت العقول :	٢٣٩
الأول — اختلاف الأمزجة	٢٣٩
الثاني — اختلاف أحوال الوالدين	٢٤٠
الثالث — اختلاف الأطفال	٢٤٠
الرابع — اختلاف أحوالهم في تأديبهم	٢٤٠
الخامس — اختلاف من يتخصص به ويخالطه ويعاشره	٢٤١
السادس — اختلاف الاجتهاد في تزكية النفس بالعلم	٢٤١
حظ الإنسان من السعادة	٢٤٢
الإرادة والسعادة	٢٤٧
عناصر السعادة	٢٥٠
عناصر السعادة عند الفرقة الفيثاغورية	٢٥٠
» » » » الأرسطوطاليسية	٢٥٠
سبب اختلاف الفرقتين :	٢٥١
(ا) وجهة نظر الفرقة الأولى	٢٥١
(ب) وجهة نظر الفرقة الثانية	٢٥٢
رأى تولستوى في تقسيم السعادة	٢٥٣
رأى الفلاسفة الإسلاميين في عناصر السعادة :	٢٥٥

الموضوع	صحيفة
(أ) رأى ابن مسكويه	٢٥٥
(ب) رأى الراغب الأصفهاني	٢٥٦
(ج) رأى الغزالي	٢٦٠
وجه الحاجة إلى الفضائل الخارجة	٢٦١
» » » » الجسمية	٢٦٣
معنى الفضائل التوفيقية ، ووجه الحاجة إليها	٢٦٤
رتب السعادة	٢٦٦
رأى أرسطو	٢٦٦
الرتبة الأولى من السعادة	٢٦٧
الحزن والمصائب لا تخرج السعيد عن سعادته	٢٦٩
شقاوة الأبناء لا تخرج السعيد بعد موته من زمرة السعداء	٢٧٠
الرتبة الأخيرة من السعادة	٢٧٢
رأى الغزالي في رتب السعادة	٢٧٤
أسباب السعادة :	٢٧٧
الأول - الإيمان :	٢٧٩
الاعتقاد	٢٧٩
اليقين	٢٨١
الرابطه بين الاعتقاد واليقين	٢٨٤
الإيمان	٢٨٤
الفرق بين الإيمان والتصديق	٢٨٩
المؤمن الكامل الإيمان لا يخرج له الابتلاء عن كمال إيمانه	٢٩٠
الدين	٢٩٢
الرابطه بين الدين والإيمان	٢٩٣
الإيمان بالالهية	٢٩٤
أثر الإيمان بالالهية	٣٠٠
إنكار الإلهية	٣٠٢

الموضوع	صحيفة
اختلاف العقائد واختلاف أنصارها	٣٠٨
إنكار الإسلام تعادى الأديان	٣٠٩
أصول دين الله واحدة	٣١٠
مأفاته الأديان من العقائد والحاصل	٣١١
الدين والعلم	٣٢٠
الدين الإسلامى والعقل	٣٢١
تظاهر العقل والدين	٣٢٧
الدين الإسلامى أعظم الأديان	٣٢٩
السبب الثانى من أسباب السعادة	٣٣٦
الفضائل التى بتحصيلها تنال السعادة .	٣٣٦
الذريعة إلى محاربة الهوى	٣٣٨
قد تصدر الفضائل ممن ليس بسعيد ولا فاضل	٣٤١
السبب الثالث من أسباب السعادة الإخلاص	٣٤٥
أنواع الإخلاص	٣٤٨
السبب الرابع من أسباب السعادة - الصحة	٣٥٢
ما يجب لحفظ صحة النفس :	٣٥٣
الأول - معاشره الأخيار	٣٥٤
الثانى - الارتياض بالأمر الفسكرة	٣٥٥
الثالث - عدم إثارة قوى الشهوة والغضب	٣٥٦
الرابع - التدبر فى كل الأمور	٣٥٨
الخامس - استقصاء عيوب النفس	٣٥٩
قيمة حفظ الصحة النفسية	٣٦٠
علاج النفس.	٣٦٣
التهور والجبن	٣٦٤
ما يندرج تحت التهور والجبن	٣٦٦
الغضب :	٣٦٧

الموضوع	صحيفة
الغضب المكروه	٣٦٩
» المحظور	٣٦٩
أسباب الغضب صنفان :	٣٦٩
لواحق الغضب	٣٧٠
حدم أسباب الغضب	٣٧٠
العجب والافتخار	٣٧٠
المراء والاعجاج	٣٧٢
المزاح والتيه والاستهزاء	٣٧٢
المزاح	٣٧٢
التيه	٣٧٣
الاستهزاء	٣٧٣
القدر والضميم	٣٧٣
القدر	٣٧٣
الضميم	٣٧٤
المقتنيات النفسية	٣٧٤
الخلط بين الغضب والشجاعة	٣٧٤
الشجاع الزيف والشجاع الحق	٣٧٥
أسباب الخوف وعلاجه	٣٧٦
الأمر الممكنة	٣٧٦
الأمر المحتومة	٣٧٧
أسباب الخوف من الموت وعلاجه :	٣٧٨
١ — عدم معرفة حقيقة الموت	٣٧٨
٢ — جهل المصير أو جهل بقاء النفس	٣٧٩
٣ — خوف العقاب الذي يقب الموت	٣٨١
٤ — جهل ما يقدم عايه بعد الموت	٣٨١
٥ — الحزن على ما يخاف من الأهل والولد والمال	٣٨٢

الموضوع	صحيفة
جملة القول في الخوف من الموت	٣٨٢
ذكرى الموت (للإنسان حالاً في تذكره) :	٣٨٤
الحال الأولى - حاله في التذكر قبل الموت	٣٨٤
مأليه الناس في هذه الحالة (ثلاثة أقسام) :	٣٨٥
القسم الأول : الأحمق الذي لا يتذكر الموت	٣٨٥
» الثاني : الذي يذكر الموت دائماً خوفاً منه	٣٨٥
القسم الثالث : الذي يتذكره دائماً بعقل وكياسة	٣٨٦
الحال الثانية : (حال الإنسان عند الموت)	٣٨٦
الناس فيها ثلاثة أقسام :	٣٨٦
القسم الأول : عاقل ذو بصيرة	٣٨٦
» الثاني : ردىء البصيرة منهك في الدنيا	٣٨٧
» الثالث : بين الرتبين	٣٨٧
علاج الحزن	٣٨٨
الحزن على ماض	٣٨٨
» على حاضر .	٣٨٩
» على مستقبل	٣٩٠
انتفاء الألم يستدعى وجود السعادة	٣٩١
اجتماع الألم والسعادة	٣٩٢
ضرورة الألم في السعادة	٣٩٢
الألم حقيقة لا بد منها	٣٩٢
الألم كالظل	٣٩٣
الحياة بدون ألم ناقصة	٣٩٣
الألم سر النبوغ - أمثلة على ذلك	٣٩٤
الألم كالأفراد في أثر الألم	٣٩٥
الشر والخمود	٣٩٥
تكتنف العفة وذيلتان : الشر والخمود	٣٩٦

الموضوع	صحيفة
يندرج تحتها ١٢ رذيلة :	٣٩٦
الوقاحة والتخذث	٣٩٦
التبذير والتقتير	٣٩٦
الرياء والهتكة	٣٩٦-٣٩٧
الكزازة والمجانة .	٣٩٧
العبث والتعاشي	٣٩٧
الشكاسة والملق	٣٩٧
الحسد والشماتة	٣٩٧
علاج هذه الأمراض	٣٩٧
الخب والبله وما ينتج عنهما ، وعلاج ذلك .	٣٩٨
الغبين والتغبين والجور . أنواع العدل :	٣٩٩
السبب الخامس من أسباب السعادة : الغنى - حقيقة الغنى والفقر	٤٠٠
» السادس من أسباب السعادة - القناعة .	٤١٧
حقيقة القناعة	٤١٧
القناعة والعمل	٤٢٠
انتصار الإسلام بعقائد أهله فيها	٤٢١
أمثلة على ذلك .	٤٢٢
المقوقس وعمرو بن العاص في فتح مصر	٤٢٢
عبادة بن الصامت والمقوقس	٤٢٣
عبادة وقوم من الروم	٤٢٣
الإسلام المنتصر بالقناعة قد حث على السعى	٤٢٤
لامنافاة بين القناعة وكثرة المال	٤٢٥
القناعة والادخار	٤٢٥
دفع الضرر في النفس والمال والوقاية منه	٤٢٦
كيف يكون الآخذ بهذه الأسباب راضيا متوكلا ؟	٤٢٧
الوقاية من المرض - الوباء وقصة عمر	٤٢٨

الموضوع	صحيفة
علاج المرض . قوله صلى الله عليه وسلم وفعله	٤٢٩
كيف يرضى القانع بالبلايا والمحن ؟	٤٣٠
الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب	٤٣٠
قول الغزالي في ذلك إنه من وجهين :	٤٣٠
أحدهما : أن يبطل الإحساس بالألم ... الخ أمثلة	٤٣٠
ثانيهما : الإحساس بالألم والرضا به - أمثلة	٤٣١
السعادة هي القناعة	٤٣٢
محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل في القناعة	٤٣٣
الرضا وجمال العالم	٤٣٥

أسباب السعادة

في رأى الفيلسوف الإنجليزى	٤٤٠
الأول - مبلغ الشعور باللذة	٤٤١
الثانى - العطف	٤٤٢
الثالث - الأسرة	٤٤٣
الرابع - آلمعمل من أسباب السعادة أو من أسباب الشقاء ؟	٤٤٥
الخامس - الجهاد	٤٤٦
السادس - التسليم	٤٤٧
السعيد	٤٤٨
أسباب الشقاء :	٤٤٩
١ - خطأ العقل وفساد حكمه	٤٤٩
٢ - السخط	٤٥١
٣ - التطرف أو الشذوذ	٤٥٢
أسباب الشقاء فى نظر « برترند رسل »	٤٥٤
الأول - الأثرة	٤٥٤
الثانى - الإسراف فى التنافس	٤٥٤

الموضوع	صحيفة
الثالث — الملل	٤٥٥
الرابع — الغيرة	٤٥٦
الخامس — الإجهاد	٤٥٧
السادس — وخز الضمير	٤٥٨
السابع — توهم عداء الناس	٤٥٨
الثامن — الخوف من رأى العام	٤٥٩
أهم أسباب الشقاء فى رأى الاستاذ « الدجوى »	٤٦١
الأول — الترف	٤٦١
الثانى — الإسراف	٤٦١
الثالث — عدم تنظيم الأوقات	٤٦١
الرابع — الاكتفاء بالعلم فى تهذيب النفوس	٤٦١
الخامس — عدم غرس الدين فى نفوس النشء	٤٦١
السادس — عدم رياضة النفس	٤٦٢
السابع — إنكار الروحانيات	٤٦٢
الثامن — عدم ملاحظة استعداد النشء	٤٦٢
تقبيه :	٤٦٤
جدول الخطأ والصواب	٤٦٥

جدول الخطأ والصواب

الخطأ	الصواب	السطر	الصفحة
الشريعة	الشريفة	١٤	٣
المستشرقين	المستشرقين	١٧	٤
وكانت	وكان	٤	٥
ينتحل	يتلمس	١٠	٦
تفصل	تفصيل	٤	٧
غشَاوة	غَشَاوَة	١٢	١٣
الفطرية	النظرية	١٤	١٦
تقدوا	تقدروا	١٤	١٧
رَدَاءَة	رَدَاءَة	٢٣	١٨
وء	سوء	٢٣	١٨
الحقه	الحقيقة	٢١	٢٦
ينطبع	وينطبع	١٢	٣٠
المُخترطان	المخترعين	١٢	٣٧
مها	مهما	٥	٣٩
اسديه	لمسديه	٧	٤١
ودعها	أودعها	١٥	٤٨
يختلفان	يختلفان	٩	٥٥
الله	الله	٤	٦٢
أبليها	أبله	٢٢	٦٤
وحسن	وأحسن	١٨	٦٦
مناخها	جوها	٢	٦٨
تشيد	تشيد	٢٣	٧٠

الخطأ	الصواب	السطر	الصفحة
غشاوه	غشاوة	٢٠	٧٣
أخذ	أخذوا	١٩	٧٤
فيلها	فيها	١١	٧٦
إن شب	إن تهمله شب	١١	٧٧
حسه	حنه	١١	٨١
جوستاف بون	جوستاف لوبون	٥	٨٣
وجبت	وحيت	١٤	٨٧
يله	سيله	١٥	٨٧
رحل	رجل	١	٨٨
شئت	شئت	٢	٨٨
تلك	وتلك	١	٩٢
الشبان	الشباب	٢١	٩٦
فبين	فين	١٠	١١٨
الحياة	الحياء	٨	١٢٨
الكبر	الكبر	٣	١٣٣
بتربيته	بتربيته	٢٤	١٣٥
تؤمل	تؤمن	٢٠	١٣٦
يستعيذه	يستعيذه	٢٢	١٤٠
مهما	مهم	٢٢	١٤٢
لمق	علق	٢٢	١٤٢
لقائه	لقائه	١٧	١٤٤
سهل	فسهل	١	١٤٨
المذموم	المذمومة	٨	١٥٩
على العنود	عن العنود	١٣	١٦٤
أثيرا	تأثيرا	٢٣	١٦٧
يفتل	يفلت	١	١٨١

الخطأ	الصواب	السطر	الصفحة
بما	ممن	٩	١٨٥
لوني	لولى	١٤	١٨٨
التاسع	الثامن	١٦	٢٢٨
تعط	تعطى	٤	٢٣٠
الناس بخير الخ	مثل لاحديث	١٦	٢٣٩
التقدر	التقدير	٦	٢٤٤
يَنْتَفِعُ	يَنْتَفَعُ	١٠	٢٦٢
المنبت	المنبت	٧	٢٦٣
خيارا	خييرا	١٩	٢٧٠
وحتى	ومتى	٩	٢٧١
وخارج	خارج	٢٢	٢٧٢
إليها	إليه	٢٤	٢٧٣
اليش	العيش	١٤	٢٩١
ما يفيدو الدين	ما يفيد أن	٣	٢٩٣
النيء	النئ	٩	٢٩٤
واحد	واحدة	٢٠	٢٩٤
تكوّن	تكوّن	١	٢٩٩
لعمل	العمل	٢	٣٠١
نجحت	نجحت	١٥	٣٠٢
مفارقة	مقارفة	٢٣	٣١١
عن اقتراف	اقتراف	١٨	٣١٣
مما يتفق	مما لا يتفق	١٠	٣٢٠
وتمحيص	وتمحيص	١٨	٣٢٤
من أعظم الأديان	أعظم الأديان	١	٣٣٣ ، ٣٣٤
وقتلَه	وقتلَه	٥	٣٣٩
من	عن	٥	٣٤٢

الخطأ	الصواب	السطر	الصفحة
أو	أن	١١	٣٤٢
مايعنيك	مايعنيك	١٥	٣٥٦
هال	هان	٨	٣٥٧
مه	منه	١٣	٣٦٤
لو كنت أنا أنت... لم أكن أنا أنت	لو كنت أنا إياك... لم أكن أنا إياك	١	٣٧٦
وَأَلَّا بَرء	وَأَنْ لَا بَرء	١٨	٣٧٩
النفس	النفس	١٩	٣٨٤
تحتك	تحنك	٢١	٣٩٨
جزأ	جزءا	٩	٣٩٩
بلى	بل	٢١	٣٩٩
يطلب	يطلبه	١٨	٤٠٠
وعشرين	أوعشرين	٦	٤١٥
لِكَيَّ لَا تَأْسُوا	لِكَيْلَا تَأْسُوا	١	٤٢١
لا شراب	لا شرابهم	٢٣	٤٢١
وَلِيَا خُذُوا	وَلِيَا خُذُوا	٩	٤٢٧
الرضا !! بالحال ؟	الرضا بالحال ؟ !!	٢	٤٤٠

اتهى

الحقوق الفكرية

تأليف

محمد جباري

بك

المفتش بوزارة المعارف

يُطْلَبُ مِنْ الْمَكْتَبَةِ التَّارِيخِيَّةِ بُشَارِعَ الصَّنَادِقِيَّةِ بِمَصْرٍ
لِصَاحِبَيْهَا عَبْدَ الْوَاحِدِ مُحَمَّدٍ التَّارِيخِي

(الطبعة الأولى)

١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م

مكتبة محمد جباري

تليفون رقم ٥٥٤٨٠

تصدير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

منزلة علم الاخلاق

الحمد لله الكريم الخلاق ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق المبعوث
ليتمم مكارم الأخلاق (وبعد) فان علم الأخلاق من أشرف العلوم ان لم
يكن أشرفها ، إذ أن قيمة المرء في الحقيقة تقدر بأخلاقه وأعماله ، لا بجسمه ،
ولا بعلمه ، ولا بماله ، ففي الحديث الشريف « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ
وَأَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » .
ومن كلام علي (قِيَمَةُ كُلِّ أَمْرٍ بِمَا يَحْسِنُهُ)
« وإِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فان هم ذهب أخلاقهم ذهبوا »

ارتباطه بالدين

من تأمل مقاصد الأوامر ، والنواهي الدينية ، وتغلغل في أسرارها ،
عرف أنها ترمى إلى غرض واحد ، هو طهارة النفس ، وكما لها الانساني ،
الذي تسعد به في الدنيا والآخرة ، أنظر قوله تعالى « وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ
لَفِي خَسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ
وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ » تجد أن فلاح الانسان منوط بسلامة عقيدته ، وصلاح
أعماله ، ومتانة أخلاقه . وقال صلى الله عليه وسلم (إِنَّمَا بَعِثْتُ لَأَتَمِّمَ مَكَارِمَ
الْأَخْلَاقِ) فقد جعل مكارم الأخلاق الغاية من بعثه الشريف ، وأثار الاهتمام
بالأخلاق بقوله : (أَثْقَلَ مَا يَوْضَعُ فِي الْمِيزَانِ الْخَلْقُ الْحَسَنُ) وقال الحكماء
(إن اعتدال الأخلاق في الانسان قد يكون السبب وحده في سعادته) .

الحاجة اليه

من البدهى أنه كلما انتشرت الأمراض ، اشتدت الحاجة إلى علم الطب لمقاومتها ، وإنقاذ الناس من فتكها ، وكذلك كلما انتشرت المفاسد ، ازدادت الحاجة إلى علم الأخلاق ، ومضاعفة العناية بهذيب النفوس وصقلها ، فهو طبها وواصف أدوائها . ولئن كان الانسان في حاجة الى العلوم ، فهو إلى الأخلاق أحوج ، لأن ما يصيبه من الظلم ، وما يفشو بين أفرادهِ من الاجرام ، منشؤه نقص الأخلاق ، أكثر من أن يكون منشؤه نقص العلم ؛ فان العلم يخدم الفضيلة والرديلة على حد سواء . أما علم الأخلاق فظهير الفضيلة ، وخصيم الرذيلة . الفضيلة لا تكون إلا بالقيام الفعلي بالواجب . ولا يكون المرء فاضلاً لمجرد أنه يعلم ما يجب عمله ، بل الفضل في أن يعمل ما يجب عمله ، ويترك ما يجب تركه . فكأى من عالم موسر يمر بذى الحاجة فيعرض عنه مع علمه بفضل مساعدة المحتاج ، وإغاثة الملهوف . وكم من جاهل سليم القلب تحمله سلامة قلبه على قضاء حاجته .

لست أحاول أن أبخس العلم حقه ، ولكنى أريد ألا تتجه رغبتنا الى محاربة الجهل فقط ، فالمتعلم السيء الخلق أضر من الجاهل . ولقد كان يسرنا أن تكون الأخلاق شنشنة المتعلمين . ولكن كثيراً ما نرى غير هذا . قال أحد المستشرقين (إن غير المتعلمين في مصر أذكى أخلاقاً من المتعلمين) وليس لهذا من سبب سوى أنهم لم يأخذوا قسطاً من العلم الصحيح ، ولم يتزودوا من الأخلاق الفاضلة ؛ لأن القوى الموهوبة إن لم يأخذ بزمامها قائد الأخلاق الفاضلة كانت آلات الشرور ؛ فمن كان ذا جاه وكرمت أخلاقه استخدم جاهه في مساعدة الضعفاء ، وقضاء حاجات المحتاجين ، وإذا ساءت أخلاق ذى الجاه ، توصل به الى الشر ، كذلك من أعطى المال ، إن كان حسن الأخلاق ، بذله في صنوف الخير ، وإن كان شريراً ابتاع به شراً ؛ والكاتب إذا لم يكن أميناً كانت معرفته الكتابة وسيلة

تمكنه من تزوير العقود والوثائق وإيقاع الناس في المشاكل ، والحداد إذا لم يكن أميناً مشترك مع اللصوص ، وصنع لهم المفاتيح التي تساعد على السرقة ، والفتاة المتعلمة إن لم تكن كريمة الأخلاق ، فإنها لا تجنى من تعلمها سوى الخلاعة ، والخروج على الأخلاق والآداب المرعية ، وكانت ضررها أكبر إذا تولت مهنة التعليم . والمدره إذا لم يكن صادقاً أضل القاضي ، وضيع الحقوق ، وساعد على أكل أموال الناس بالباطل ، وهلم جرا .

أمثلة من نقائصنا الخلقية

- ١ من النقص الخلقى أن يضحك الوالد عند سماع السب والفحش من طفله ، فرحاً بقدرته على النطق ، جاهلاً أنه خير للولد أن يكون أبكم من أن يكون سبباً .
- ٢ ومن النقص الخلقى احتقار الأعمال الحرة كالزراعة والصناعة والتجارة وكثير ممن قطعوا بعض مراحل التعليم يترفعون عن مزاولة هذه الحرف
- ٣ ومن النقص الخلقى لطم الحدود والعويل على الشبان الذين يجندون لخدمة بلادهم والدفاع عنها .
- ٤ ومن النقص الخلقى احتقار كثير من عاداتنا القديمة وإن كانت حسنة ، والتعلق بالعادات الغريبة وإن كانت سيئة .
- ٥ ومن النقص الخلقى الانغماس في الترف ومحاكاة الفقير الغنى .
- ٦ ومن النقص الخلقى تطلع الشبان إلى الزوجات الغنيات وإن كن ضيعات الأخلاق ، وتطلع الشابات إلى الأزواج الأغنياء وإن كانوا فاسدى الأخلاق .

٧ ومن النقص الخلقى أن نرى نصرة العدالة ضعيفة ، فالرجل يشهد الزور ويحلف اليمين الغموس إرضاء لنفسه ، أو صديقه ويعتبر ذلك ديناً له يسترد عند الحاجة ، والمدره يعرف أن موكله ظالم مجرم ومع ذلك يدافع

عنه ويعتبر ذلك مهارة . وكذلك من يعرف حقيقة الأمر ويكتم الشهادة ويتوارى عن الأنظار .

٨ ومن النقص الخلقى أن نرى القراء يقبلون على الروايات الهزلية الممقوتة ويضربون صفحاً عن الكتب القيمة .

٩ ومن النقص الخلقى أن نرى موظف الحكومة يأخذ راتبه من مال الأمة ليخدمها . ولكنه ينسى واجبه ويترفع عن خدمة أفرادها ، وكثيراً ما يهتم بشئونه الخاصة ويهمل واجبه فيعطل مصالح الناس ، بل قد يتخطى هذا الى استخدام مركزه الحكومى فى قضاء مآربه المعيبة .

١٠ ومن النقص الخلقى تكدر الموظف عند انتقاله الى جهة نائية لالسبب غير أنها نائية ، ويتحل الأعذار ، ويوسط الكبراء لالغاء النقل ، مع أنه يرى الأجانب يضربون فى الأرض ، ويتجشمون الصعاب .

١١ ومن النقص الخلقى الا متعاض من سماع الحق ومقت قائله ، والاطمئنان الى أهل الباطل والنفاق والرياء .

١٢ ومن النقص الخلقى ازدراء المعتصم بدينه المحافظ على شعائره ، وتقريب المستخفين والمستهترين ، وتكريم الزنادقة والملحدين .

هذه بعض عيوبنا الخلقية ، ولكننا كما نرى معاول اضمحلال وانحلال ولا دخل للعلم فيها ، بل القسم الأكبر منها يتفشى الطبقات المتعلمة .

وقد أخذنا أنفسنا بأن نجمع فى كتابنا هذا من الآراء الخلقية بين ما ارتضاه فلاسفة الغرب فى بحوثهم ، وذهب اليه حكماء الشرق فى مؤلفاتهم ، مستضيئين فى ذلك بنبراس كتاب الله تعالى ، ومسترشدين بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وما كان لنا أن نحيد عن ذلك فى أحدث كتاب يبحث فى فلسفة الخلق ، ويصف أقوم الطرق إلى تكوينه وتزكيته .

لأن فلاسفة الغرب - وان كان يرجع إليهم فضل السبق فى بحث أمهات الفضائل - لم يبينوا مناطها ، ولم يضعوا لها حداً فاصلاً بين ما يحقق الفضيلة ،

ومالا يحققها : فانهم لم يذكروا متعلق العفة ، ولا عن أى شيء تكون ، ولا مقدارها الذى إذا تجاوزه المرء وقع فى الفجور ، وكذلك الحلم لم يذكروا مواقفه ومقداره ، وأين يحسن وأين يقبح ، وكذلك الشجاعة .

وأما الدين الاسلامى فقد بين ذلك غاية البيان ، وفصله أحسن تفصل فى غير موضع من القرآن الكريم . وحسبنا فى هذا المقام أن نذكر آية من القرآن الكريم جمعت قواعد الأخلاق ، وحددتها أدق تحديد ، قال تعالى :- « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » فهذه الأنواع الأربعة التى حرّمها القرآن الكريم تحريماً مطلقاً لم يباح منها شيئاً لأحد من الخلق ، ولا فى حال من الأحوال ، ولا كذلك الميتة والدم ولحم الخنزير مثلاً : فانها تحرم فى حال وتباح فى حال ، وأما تلك الأربعة فهى محرمة دائماً : فالفواحش مرتبطة بالشهوة ، واعتدال قوة الشهوة فى اجتناب هذه الفواحش ، والبغى بغير الحق مرتبط بالغضب ، واعتدال القوة الغضبية فى اجتناب البغى .

والشرك بالله ظلم عظيم ، بل هو الظلم على الإطلاق وهو مناف للعدل والعلم ، وقوله تعالى : (وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا) متضمن تحريم أصل الظلم فى حق الله ، وذلك يستدعى إيجاب العدل فى حقه ، وهو عبادته وحده لا شريك له ، فان النفس لها القوتان : — العلمية والعملية ، وعمل الانسان اختياري تابع لإرادته وكل إرادة لها مراد ، وهو إما مراد لذاته ، وإما مراد لغيره ينتهى الى المراد لذاته . والقوة العملية تستدعى أن يكون للنفس مقصد تكمل بتحقيقه ، فان كان ذلك المقصد مضمحلاً فانياً ؛ زالت الإرادة بزواله ولم يكن للنفس مقصد غيره ، فقواتها أعظم سعادتها وفلاحها . ولذلك وجب أن يكون مقصد النفس الذى تكمل بتحقيقه والاحتفاظ به وإيثاره ؛ باقياً لا يفنى ولا يزول ، وليس ذلك الا الله وحده .

ذلك ما ينطوى عليه قوله تعالى: (وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سِطْرًا) أوردنا هذا لبيان أن فلاسفة الغرب لم يوفقوا الى فهم ذلك عند الكلام على كمال النفس ، وإنما جعلوا كمالها في اعتدال قوى الشهوة والغضب ، ومعلوم أن الشهوة جلب ما ينفع البدن ويبقى النوع ، والغضب دفع ما يضر البدن ، وليس في ذلك تحديد للمطلوب ، ولا بيان للمقدار المحبوب ، بل هو وقوف بالأخلاق عند حد العلم بها زعماً منهم أن مجرد العلم بها كاف في كمال النفس . وذلك خطأ من وجوه كثيرة : —

١ منها أن ما ذكره في كمال القوة العملية إنما غاية إصلاح البدن الذي هو أداة النفس ، ولم يذكر كمال النفس الإرادية والعمل بالمحبة والخوف والرجاء .
٢ ومنها أن كمال النفس في العلم والإرادة ، لا في مجرد العلم ، فإن مجرد العلم ليس بكمال للنفس مالم تكن مريدة محبة لمن لا سعادة لها إلا بإرادته ومحبه .
٣ ومنها أن كمال النفس ورقياً الروحي المستفاد من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، ليس ذا أثر ظاهر عندهم .

٤ ومنها أنهم أخطأهم التوفيق في بحوثهم الإلهية لعجزهم عن تحديد الفضائل تحديداً يحول بينهم ويأخذ بحجزتهم عن التورط في الزيف ، وتنكب جادة ، الحق

من أجل هذا توخينا ألا نورد إلا المستحسن من آرائهم ، والمرضى من مذاهبهم ، ليكون ذلك أعم فائدة وأوفر عائدة .

وإن لي في العباد الأصفهاني لأسوة إذ يقول : (إني رأيت أنه لا يكتب الإنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده : لو غيرَ هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر . وهو دليل على استيلاء النقص على البشر) والله سبحانه المسئول والمرغوب اليه والمأمول أن يجعل هذا الكتاب خالصاً لوجهه وأن يعيدنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ، إنه قريب مجيب ، آمين . وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

الفلسفة الخلقية

تعريفها

هى علم يبحث عن السنن الخلقية التى يجرى عليها العالم ويتخذها معياراً توزن به أعمال البشر وأقوالهم وأحوالهم فى معاشهم ومعادهم ، ويبين لهم كيف يجب أن يعيشوا لا كيف يعيشون ، ولهذا أسماه بعضهم علم ما يجب وعَنَوْا بذلك القواعد التى يجب أن يسير الانسان على مقتضاها ليتم لنفسه ماهى جديرة به من الكمال والرفعة ، وتبلغ ماهى حرية به من الخير ؛ وكذلك يبحث فى نزعات بنى الانسان ونزغاته ، وما اعتادوه من الأعمال والأقوال ويكشف الغطاء عن حقيقتى الخير والشر ، والغاية التى يعد الدنومنها قربا من الأول والبعد منها قربا من الآخر . ولما كان مبحث الخير هو الغاية التى ينشدوها الخلق غلا بعضهم فعرف علم الأخلاق بأنه علم الخير والارشاد إليه .

موضوع الفلسفة الخلقية

موضوعها : أعمال بنى الانسان الاختيارية الصادرة عن قصد وروية . فخرجت الأعمال التى لاسلطان للارادة عليها كالتنفس وماشابهه ، وهناك أعمال شبيهة بالأعمال الاختيارية والأعمال الاضطرارية فيلتبس أمرها على غير الناقد البصير ، ولذلك وجب أن نكشف الغطاء عنها ، لنبين فى أيهما تدرج والمثل خير موضح : من الناس من اعتاد أن يهب من نومه وهو حالم فيأتى من الاعمال خيرا وشرها ، فربما أنقذ طفلا كاد يهوى من النافذة ، أو أحرق منزلا . أفنحكم على عمله خلقيا بأنه خير فى الحال الاولى وشر فى الحال الثانية ؟ ومنهم من ابتلى بالسهو والنسيان ، فتفوته أعمال كان حقا عليه أن يعملها : فربما علم أن جماعة يأترون بتدمير مصنع ، أو نصف قطار فيها خلق كثير انتقاما من رب المصنع ، أو حاكم غاشم فى القطار ، ثم نسى كماداته

أن ينبه على درء البلية ، أفلتقى عليه التبعة ، ويحكم عليه بأنه شريك خلقيا للجناة في جريمتهم ؟ ومنهم من ابتلى بحدة الخلق ، وسرعة الغضب بحيث لا يستطيع الصبر على سماع كلمة تؤلمه ، أو إشارة تؤذيه إذا أكثر من الاختلاف إلى الأندية وغشيان المجالس ؛ تلقى عليه التبعة ، ويؤاخذ على بواده ، وإن كانت خارجة من إرادته ؟

الحق أن أعمالهم جميعاً في الامثلة الثلاثة مؤاخذون عليها خلقيا ، لأن قواعد الاخلاق توجب أن يحتاط المرء لدرء شر الحالات التي يكون فيها مسلوب الارادة ، فالنائم والساهي في المثالين الاولين عليهما تبعة إهمال اتخاذ الحيلة والحذر . والغضب في المثال الثالث لا يبرى صاحبه من اللوم والمؤاخذة ، لان له مندوحة عن الخصام والتنازع ، بانكفاه عن التردد إلى المجالس التي هي عادة مثار المرء ومباءة الخصام

قال الفخر في تفسير قوله تعالى : « رَبَّنَا لَا تَوَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا » ما ملخصه ان العقل يحكم بالعفو عن الناس لانه لا يجوز تكليف ما لا يطاق وقد جاء السمع مؤيدا لذلك ، فقد قال صلى الله عليه وسلم (رَفَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَا وَالنَّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهَا عَلَيْهِ) فاذا كان النسيان في محل العفو قطعاً ، عقلاً وشرعاً ، فما معنى طلب العفو عنه ، في الدعاء ؟ ويجاب عن ذلك بأن النسيان منه ما يعذر صاحبه فيه ومنه ما لا يعذر ، ألا ترى أن من رأى دما في ثوبه فأخر إزالته إلى أن نسي فصلى وهو على ثوبه عد مقصرا ؟ إذ كانت تلزمه المبادرة إلى إزالته ، وأما إذا لم يره في ثوبه فانه يعذر فيه ، ومن رمى صيدا في موضع فأصاب إنسانا ، فقد يكون بحيث لا يعلم الرامي أنه يصيب ذلك الصيد أو غيره ، فاذا رمى ولم يتحرز كان ملوما ، أما إذا لم تكن أمارات الغلط ظاهرة ثم رمى وأصاب إنسانا ، كان هاهنا معذورا وصفوة القول ، ان الناس يؤاخذون في ترك التحفظ قصدا وعمدا . ولقد ألمع الغزالي رضوان الله عليه الى ذلك في إحيائه إذ يقول : قد ينظر الانسان إلى وجه حسن فيميل

إليه ميلا ضعيفا ، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجاسة والمخالطة والمحاورة ، لتأكد ميله حتى يخرج من أمر اختياره فلا يقدر على النزوع عنه ، وكان حقا عليه أن يقطع نفسه ابتداء ، ويزجر ميله دفعا لبلوغه حالا يصبح فيها مسلوب الارادة ، وما ذلك بمنجيه من اللوم والتبعة .

فجدير بالعاقل ألا يغفل عن محاسبة نفسه ، ومراقبة حركاتها وسكناتها وما عساه أن يتأصل فيها من العادات الذميمة ، ويحذر ما مغبة الإهمال ، حتى لا تسهل عليها مقارنة العمل السيئ فتصبح عادة لازمة . والتقى من كان أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ، ومن شريك شحيح .

أعلم الإخلاق نظري أم عملي ؟

ذهب بعض الفلاسفة الخلقين وهم النفعيون^(١) الى أن علم الاخلاق عملي ، وزعموا أنه يمكن تحديد غاية معينة يجب أن يسعى اليها الناس جميعا هي في عرفهم : أن ينال جل الناس أكبر قسط من الهناة ، وأنه يجب على الخلقين أن يتكروا خير الوسائل لبلوغ هذا المقصد ، كما يجب على الاطباء أن ينقبوا عن أمثل الطرق الى توفير أسباب الصحة وتحصيلها . وذهب الجمهور الى أنه نظري وعَنَوْا بذلك أنه يصور المثل الخلقى الذى يجب أن يحتذى ، والقواعد التى يجب العمل بها لمحاولة بلوغ هذا المثل ، وإن تناولته البحث أحيانا فيما لدى الناس من المواضع والعادات ، استحسانا واستهجانا ، وفيما طرأ عليها من التبدل والتغير ، افتئات منه على علم الاجتماع الباحث فى تكوين الجماعات ، وتدرج حياتها ، والذى هو من العلوم الواقعة الباحثة فى الامور الثابتة ، فهم يرون أن مَثَل علم الاخلاق ، كمَثَل علم الجمال ، فعلم الجمال لا يبحث الا فى تصوير المثل الكامل للجمال ، وليس منه البحث فى وسائل تحصيله ، وكذلك علم الاخلاق لا ينقب فى رأى الجمهور إلا عن إمطة اللثام عن طبيعة المثل

(١) سيجىء الكلام عليهم فيما بعد

الكامل، لما يجب أن يكون عليه الناس في أحوالهم وأعمالهم.

أمن يدرس الفلسفة الخلقية يصير ذا خلق ؟

قال الشيخ الاكبر سيدى محي الدين فى كتابه فلسفة الاخلاق أهم مزايا دراسة الاخلاق ما يأتى : —

(١) إنها تبين ما الخلق وما علته وما أنواعه وما المرضي منه المغبوط صاحبه المتخلق به ، وما المشنوء الممقوت فاعله المتسم به ، ليسترشد بذلك من كانت له همة تسمو الى مباراة أهل الفضل ، ونفس أية تنبو عن مساواة أهل الدناءة والنقص .

(٢) وتدل على طريق الارتياض بالمحمود من أنواعه والتدرب به ، وتنكب المذموم منها وتجنبه ، حتى يصير للرتاض به ديدناً وعادة وسجية ، يهتدى به من نشأ على الاخلاق السيئة وألفها ، وجرى على العادات الردية وأنس بها .

(٣) وتصف الانسان الكامل المهذب الاخلاق ، والمحيط بجميع المناقب الجميلة ، وطريقته التى يصل بها الى الكمال ، وما يحفظ عليه الكمال ليشتااق إلى ستمته من تشوق الى الرتبة العليا ، ويحن إلى احتدائه من استشرف إلى الغاية القصوى .

(٤) تنبيه من كانت له عيوب قد التبست عليه وهو مع ذلك يظهر له أنه فى غاية الكمال فان من هذه حاله إذا تكرر عليه ذكر الاخلاق المكروهة تيقظ لما فيه من ذلك وأنف واجتهد فى اطراحه .

(٥) إذا تصفح الاخلاق المحمودة من كان متصفاً بأكثرها فاقدا لبعضها انبرى للخلق بما هو فاقده وتأقت نفسه إلى الاحاطة بجميعها .

٦ وتحت المذهب الاخلاق ، الجامع المحاسن على الاستمرار على سيرته ، والاصرار على طريقته ، إذا مر بسمعه ذكر الخلائق الجميلة والمناقب النفيسة ورأى أن تلك هى عاداته وسجاياه

(٧) دراسة علم الأخلاق تكسب صاحبها القدرة على تمحيص الأعمال ونقدها ، وتقديرها حق قدرها ، دون أن يخضع في حكمه إلى ألف أو عادة ، أو يتأثر بحكم الزمان والمكان .

(٨) وبها تقوى الإرادة على عمل الخير ، وسلوك السنن القويم ، وتنشط العزيمة للبضى في سبيل الفضيلة ، واتخاذها نبراساً في أعمالها .

رأينا : والحق أن مثل الخلق في تلقيه قواعد العلم ، وتوضيح مباحثه ، كمثل الطبيب ، يتعرف الداء ، ويصف الدواء ، فالطبيب لا يستطيع أن يستأصل جرثومة المرض اذا أهمل المريض نصيحته وإرشاده ، وكذلك ملقن الفلسفة الخلقية ومبين مزاياها ، ليس في مقدوره أن يجعل من يأخذون عنه ، أو يقرءون كتابه خياراً صلحاء ، اذا هم خالفوا قواعد علمه ، وانصرفوا عن الجرى على سنته ومذهبه «أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ، وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً، فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ»

أجل إن المواعظ الحسنة ، وقواعد التهذيب البينة ، قد تبعث العزائم في بعض الأحايين على القيام بصالح الأعمال ، وجلائل الفعال ، فالموعظة كما يقول محمد بن تمام : جند من جنود الله تعالى ، ومثلها مثل الطين يضرب به على الجدار ، إن استمسك نفع ، وإن وقع أثر ، من أجل ذلك استدعى الرشيد منصور بن عمار ليعظه ، فقال له : عظمي وأوجز ، فقال : يا أمير المؤمنين هل أحد أحب إليك من نفسك ؟ قال : لا ، قال : إن أردت ألا تسيء الى من تحب فافعل ، ودخل مالك بن أنس وابن طاوس على أبي جعفر المنصور وبين يديه أنطاع قد بسطت ، وجلادون بأيديهم السيوف يضربون الأعناق ، فأوماً اليهما بالجلوس ، فجلسا ، فأطرق زمناً طويلاً ، ثم رفع رأسه والتفت الى ابن طاوس وقال له : حدثني عن أيك ، قال : سمعت أبي يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ

الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَشْرَكَهُ اللَّهُ فِي مُلْكِهِ ، فَأَدْخَلَ عَلَيْهِ الْجَوْزَ فِي حُكْمِهِ)
فَأَمْسَكَ أَبُو جَعْفَرٍ سَاعَةً حَتَّى اسْوَدَّ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ، فَضَمَمْتُ ثِيَابِي مَخَافَةَ أَنْ يَنَالَهَا
شَيْءٌ مِنْ دَمِ ابْنِ طَاوُسٍ ، ثُمَّ قَالَ : يَا ابْنَ طَاوُسٍ : نَاوِلْنِي هَذِهِ الدَّوَاةَ ، فَأَمْسَكَ
عَنْهُ ، فَقَالَ : مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَنَاوِلْنِيهَا ، قَالَ : أَخَافُ أَنْ تَكْتُبَ بِهَا مَعْصِيَةً ،
فَأَكُونَ شَرِيكَكَ فِيهَا . فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ قَالَ : قَوْمًا عَنِي ، فَقَالَ ابْنُ طَاوُسٍ :
ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي . قَالَ مَالِكٌ : فَمَا زِلْتُ أَعْرِفُ لَابْنَ طَاوُسٍ فَضْلَهُ مِنْ
ذَلِكَ الْيَوْمِ .

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الطَّرْطُوشِيُّ : دَخَلْتُ عَلَى الْأَفْضَلِ بْنِ أَمِيرِ الْجِيوشِ وَهُوَ
أَمِيرٌ عَلَى مِصْرَ فَقُلْتُ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، فَرَدَّ السَّلَامَ عَلَيَّ
نَحْوَ مَا سَلَّمْتُ رَدًّا جَمِيلًا ، وَأَكْرَمَنِي أَكْرَامًا جَزِيلًا ، وَأَمَرَنِي بِدُخُولِ مَجْلِسِهِ
وَالْجُلُوسِ فِيهِ ، فَقُلْتُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنْ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَحْلَكَ مَحَلًّا عَالِيًا
شَامَخًا ، وَأَنْزَلَكَ مَنْزَلًا شَرِيفًا بَاذِخًا ، وَمَلَكَكَ طَائِفَةً مِنْ مَلَكَهَ ، وَأَشْرَكَكَ
فِي حُكْمِهِ ، وَلَمْ يَرْضَ أَنْ يَكُونَ أَمْرٌ أَحَدٍ فَوْقَ أَمْرِكَ ، فَلَا تَرْضَ أَنْ يَكُونَ
أَحَدٌ أَوْلَى بِالشُّكْرِ مِنْكَ ، وَلَيْسَ الشُّكْرُ بِاللِّسَانِ ، وَإِنَّمَا هُوَ بِالْفِعَالِ وَالْإِحْسَانِ
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « اْعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا » وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الَّذِي أَصْبَحْتَ
فِيهِ مِنَ الْمَلِكِ ، إِنَّمَا صَارَ إِلَيْكَ بِمَوْتِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ ، وَهُوَ خَارِجٌ عَنْكَ بِمَثَلِ
مَا صَارَ إِلَيْكَ ، فَاتَّقِ اللَّهَ فِي مَا خَوَّلَكَ مِنْ هَذِهِ الْأَمَةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَائِلُكَ عَنْ
الْفَتِيلِ وَالنَّقِيرِ وَالْقَطْمِيرِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا
يَعْمَلُونَ » وَقَالَ تَعَالَى « وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا
حَاسِبِينَ » وَاعْلَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ آتَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا
السَّلَامَ مَلِكَ الدُّنْيَا بِحِذَافِيرِهَا ، فَسَخَّرَ لَهُ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ ، وَالشَّيَاطِينَ ، وَالطَّيْرَ
وَالْوَحُوشَ وَالْبَهَائِمَ ، وَسَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ، ثُمَّ
رَفَعَ عَنْهُ حِسَابَ ذَلِكَ أَجْمَعٍ ، فَقَالَ لَهُ : هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ
حِسَابٍ . فَوَاللَّهِ مَا عَدَّهَا نِعْمَةً كَمَا عَدَدْتُمُوهَا ، وَلَا حَسَبَهَا كِرَامَةً كَمَا حَسَبْتُمُوهَا

بل خاف أن تكون استدراجا من الله تعالى ، ومكرا به ، فقال « هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ » فافتح الباب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم ، وأغث الملهوف ، أعانك الله على نصر المظلوم ، وجعلك كهفاً للملهوف .

وكذلك العلم اذا تغلغل في النفوس أورثها البأس والاقدام وكساها حلة العظمة واليقين ، بيد أن المتخلقين بما يعلمون ، هم الأقلون قديماً وحديثاً ، ومن أجل ذلك قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه (انما زهد الناس في طلب العلم ، لما يرون من قلة ارتفاع من علم بما علم) وهانحن أولاء نرى الناس يتلون الكتب السماوية ويسمعون الحكم الخلقية ، وهم خلوم من حلية التقوى وطابع الهدى لا تنهيم يد المراقبة ولا تكفهم خيفة المحاسبة ، فهم لدعائم الاخلاق مضيعون ، ولدواعي الفساد والهوى مطيعون ، جاء في التوراة « الرَّجُلُ الْحَكِيمُ فِي عِزٍّ » وجاء في الكتاب المقدس « كما تريدون أن يفعل الناس بكم ، افعلوا أتم أيضا بهم هكذا » وجاء فيه أيضا « وَأَنْتُمْ جَمِيعًا إِخْوَةٌ » وورد في القرآن الكريم « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ » . وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ » « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى » وجاء في الحديث الشريف (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِإِخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) فهل أقيمت مع هذا شريعة الانصاف ، وهدمت دعائم الاستعباد . أليس الناس يكره بعضهم بعضا ، ويتربص به الدوائر ؟ أليس سيف البغى مصلتا ، وشيطان العدوان والحرب مستيقظا ؟ حقا لقد صدق صاحب كلية ودمنة ، إذ يقول على لسان برزويه : إنا قد نرى الزمان مدبرا بكل مكان ، حتى كأن أمور الصدق قد نزعت من الناس ، فأصبح ما كان عزيزا فقد هفقودا ، وموجودا ما كان ضائرا وجوده ، وكان الخير أصبح ذابلا ، والشر ناضرا ، وكان الفهم قد زالت سبله ، وكان الحق ولي كسيرا ، وأقبل الباطل تابعه ، وكان اتباع الهوى ، وإضاعة الحكم ، أصبح بالحكام موكلا وأصبح المظلوم بالحيف مقرا ، والظالم بنفسه مستطيلا ،

وكان الحرص أصبح فاعرا فاه من كل جهة ، يتلقف ما قرب منه وما بعد ،
وكان الرضا أصبح مجهولا ، وكان الاشرار يقصدون السوء صعودا ، وكان
الاخيار يريدون بطن الارض نزولا ، فأصبحت المروءة مقذوفا بها من أعلى
شرف الى أسفل درك ، وأصبحت الدناءة مُكَنَّة ، وأصبح السلطان متنقلا
عن أهل الفضل ، إلى أهل النقص ، وكان الدنيا جذلة مسرورة ، تقول قد
غبت الخيرات ، وأظهرت السيئات .

نسبة الفلسفة الخلقية الى سائر العلوم

تمهيد

الفلسفة الخلقية : ضرب من ضروب الفلسفة العامة ، ونحن وان كنا
لا نقصد بسط القول في تبيان مناحيها في هذا المقام ، لانجد بدا من إجمال
الكلام في الرابطة بينها وبين العلوم فنقول :
الفلسفة « هي دراسة حقائق العلوم دراسة كلية » ومن أجل ذلك كانت
ذات وجوه وألوان شتى : لأنه ان كان المقام مقام تعرف حقائق الكائنات
وتَقَصَّى حكمة تكوينها ، سمي في عرف الفلاسفة « الحكمة الفطرية »
وان كان المقام مقام دراسة القوى العقلية ، وأحوالها وأسباب أحوالها ،
وكيفية وصول المعلومات اليها سمي « علم النفس » الى غير ذلك مما
لا يسعه المقام

تفصيل بعد اجمال

نسبة الفلسفة الخلقية الى العلوم الطبيعية

ان دراسة العلوم الطبيعية تكسب صاحبها ملكة الحكم على عواقب
ما يشاهده من اعمال الناس وسيرهم ، وان كانت لا تفيد معرفة الأصول

الخفية التي انبعثت عنها هذه الأعمال والسير . أضف إلى ذلك أن العلوم الطبيعية تمكن الخلق من تعرف البيئة ، ومبلغ أثرها في حياة الانسان وعقله وتصوراتهِ ، وما تجلبه إليه من الخير أو الضير ، ومن أجل ذلك قد اقتضت حكمة الحكيم أن يذراً الانسان في بيئة تحفه الكائنات من حيوان وجماد فيجد من نفسه باعثاً الى استخدامهما تحصيلاً لحاجاته ، وقضاء لمآربه . ولقد جاءت الأديان بما يُنم على وثوق الرابطة بين الفلسفة الخلقية والعلوم الطبيعية ، فقد قال الحواريون لعيسى بن مريم عليهما السلام « هل على الأرض اليوم مثلك » ؟ فقال : نعم « من كان منطقته ذِكْراً ، وصمته فكراً ، ونظره عبرة ، فانه مثلي » وجاء في القرآن الكريم « إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاختِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ ، وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَقْدِرُوا قَدْرَهُ » إلى غير ذلك من الأدلة على أن إدمان الفكر في السنن الكونية ، يفضي الى حال خلقية لا يسع صاحبها معها إلا أن يعمل ، ولا قيمة للاخلاق إلا بالعمل

(نسبتها الى علم حياة الحيوان)

ذهب القائلون بالنشوء والارتقاء الى أن الميزان الذي يوزن به حميد السلوك وذميمة ، هو ما يبدو من نزوع صاحبه الى النهوض بشئون الحياة نحو التقدم والارتقاء ، أو النزول بها الى الدرك الأسفل من التأخر والانحطاط ، وهذا القول شبيه بما يراه علماء حياة الحيوان في طبقاته فمن كان نزاعاً بفطرته الى مجاوزة مرتبته عدوه صنفاً مترقياً ، ومن مال الى ما هو أدون منه عدوه طبقة سافلة ، لقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى :

(٢ — الخلق الكامل)

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ . وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » وقوله تعالى « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِلَهِ كَيْفَ خَلَقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ » ولا مرية في أن الغرض من ذكر هذه الآيات هو الحث على البحث عن حكمة وجود الحيوان، وما آتاه الله من النظام والتدبير، أضف إلى ذلك أن في دراسة حياة الحيوان عوناً كبيراً على تفهم الخلال التي يراها الخلق في طوائف الحيوان وهي بالإنسان أحجى وأجدر
 ﴿ نسبتها الى علم النفس ﴾

لا غنى للخلق عن دراسة صنوف الرغبات والميول والارادات وطائفة من الغرائز، فلهذه الأشياء شأن كبير في تكوين الخلق كما سيأتى، إذ عنها تنشأ العادة، والعادة في الغالب أساس الخلق، أضف إلى ذلك أن علماء النفس لا يجدون محيصاً من تتبع العوامل ذات الأثر في تكوين الخلق، كاليئة والجماعة وما إليهما.

ألم تر إلى قطان المنطقة المعتدلة الشمالية مثلاً كيف أوتوا نصيباً حسناً من الرزاق، وسعة الصدر، والصبر على العمل؟ وإلى أهل المنطقة الحارة كيف عرفوا من قديم الأحقاب بالنزق والطيش، والخلود إلى الراحة، والميل إلى الكسل، كما سنبينه فيما بعد؟

وكذلك الخلقيون يسلكون نهج علماء النفس ويرون رأيهم دع عنك ما للأسرة والمدرسة والمعاشرة من التأثير في الخلق، فالأولاد في البيت والمدرسة ظل المربي وأثره: فان كان مثلاً حسناً يعمل بما يقول متبعاً آداب الدين، وسنن الشرع كسب من يربهم تربية طيبة، وسلوكاً جميلاً وأخلاقاً فاضلة، وكان لهم نموذجاً للخير، ومثالاً للآداب، ومرآة للفضيلة، وإن كان المثل السوء، أعدى من يربهم، رداءة السلوك وسوء المذهب، فكما تكون الآباء تنشأ الأبناء، فلا يستخرج من الحديد الذهب، ولا يجنى من من الشوك العنب. وأما المعاشرة والمخالطة فأثرهما عظيم: هل سمعت قول

النبي صلى الله عليه وسلم « المرء مع من أحب » وقول علي كرم الله وجهه « الصاحب مناسِبٌ » ، وقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه « ما من شئ أدلَّ على شئ ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب » وقول عدى بن زيد :

« عن المرء لا تسئل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدى »
 وقول عبد الله بن المعتز : « إخوان الشر كشجر النارنج يحرق بعضه بعضا »
 يد أن أول ما يهتم علماء النفس هو دراسة عقول الأفراد ، وما يعرض لها من
 من الاطوار والاحوال ، ولا يتصدون لدراستها من الوجهة الاجتماعية
 كالخلقين إلا استطرادا ، وبقدر ما تدعو إليه الحاجة ، فهم إن ذكروا اللغة
 مثلا فانما يذكرونها لما بينها وبين الفكر من الصلة والرابطة ، إذ يرون أنها
 المنعين الذى تستمد منه القوى العقلية مادتها ، فيزداد النكر اتساعا والرأى
 سدادا ، والخيال رقة ، والنية تهذيبا ، وانه لولاها لدفت الحقائق ، وانمحت
 المواهب . هم يرون رأى الخلقين فى أنها رمز رقى المجتمع وانحطاطه ، فان
 كانت مهذبة ذات أصول وضوابط ، مملوءة خزائنها من الآثواب ما يكسو
 ضروب المعانى المتجددة ، رأيت عقول أهلها فى رتبة سامية ، وشاهدت من
 رقيهم الفكرى ما يملأ قلبك روعة وجلالا ، وإلا ألفت أناسا هم بالحيوان
 الأعجم أشبه ، والى أخلاقه أقرب .

﴿ نسبتها الى علمى المنطق والجمال ﴾

بين هذه العلوم الثلاثة سُهْمَةٌ رَحم وتشابه كبير ، لأن لكل منهما قواعد كلية
 وغاية واحدة : هى تحرير ميزانها وتصوير مثلها الكاملة : فغاية المنطق اثبات
 الحق على الوجه الاكمل ، وغاية علمى الجمال والاخلاق تبيان معيارى الجمال
 ومحاسن الأعمال ، أضف إلى ذلك أن فريقا من فلاسفة اليونان وتبعهم كثير
 من جلة العلماء من بعدهم ، زعموا أن الجميل والطيب كلمتان مترادفتان ، فسوغوا
 لأنفسهم أن ينعثوا النفس الطيبة بالجمال ، كما وصفوا به التمثال الذى كمل حسنه

وأجيدت صنعته ، ومن هؤلاء الغزالي في كتابه « إحياء العلوم » إذ يقول في باب حقيقة المحبة وأسبابها مانصه : « فاعلم أن الحسن والجمال يكونان في غير المحسات : إذ يقال هذا خلق حسن ، وهذا علم حسن ، وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة . وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى ، والكرم والمروءة ، وسائر خلال الخير ، وشيء من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الخمس ، بل يدرك بنور البصيرة الباطنة »

لقد أخذ بعض المتأخرين في زمتنا هذا على المتقدمين جعلهم الجميل والطيب شيئين مترادفين فقال : « إن طيبة النفس ليست أثر من آثار الصنعة الفنية وإنما هي وليدة المجاهدة والمراقبة ، وحمل النفس على المكاره ، وصبرها على الأهوال والشدائد ، ونتيجة حرب طاحنة ، ظهرت فيها الإرادة القوية ، والعزيمة الصادقة ، على الميول والشهوات ، فجعلتها تحت سلطانها وهينمتها ، تصرفها أنى شاءت ، وليس في ذلك أثر للصناعة الفنية .
(نسبتها إلى الفلسفة الاجتماعية)

لا جرم أن دراسة سلوك الإنسان وأعماله تقتضي دراسة حياة الجماعة التي يعيش بينها ، فليس في مقدور أحد أن يحكم حكما صحيحا على امرئ منفصمة روابطه من جماعة بني الإنسان ، ومن أجل ذلك قال أرسطو « الْإِنْسَانُ حَيَوَانٌ سِيَاسِيٌّ » على أننا لا نستطيع دراسة ما في المرء من الفضائل ، الرذائل دون أن نجعل النظر في الأمة التي ينسب إليها ، وفي مالها من المواضع والعادات التي تؤثر في أخلاقه رقا وانحطاطا ، وهذا هو الذي حدا بأرسطو إلى اعتداد علم الأخلاق قسما من أقسام السياسة ، وانخاذ حال الفرد الخلقية أساسا لما يؤخذ به من ضروب السياسة والحكم ، وإلى هذا يشير قوله صلى الله عليه وسلم « كَمَا تَكُونُوا يَوْتَى عَلَيْكُمْ »

(نسبتها إلى علم تدبير المال)

ليست الثروة كما يقول بعض الغلاة من علماء تدبير المال غاية في ذاتها ، وإنما هي ذريعة إلى تجميل حال بني الإنسان ، واشتراك ذوى الاقلال والاكثر في

الاستمتاع بخير الدنيا ونعيمها ، فيقل بينهم التحاسد ، ويتقي عنهم تباغض
العدم ، وتكثر المواساة والتواصل ، وتنشط النفوس ، فتفرغ للذود عن
حريتها ، وتهض للضرب في الارض ، وشق عباب البحار ، وامتطاء متن الهواء
تقتنص شوارد العلم ، وتتلقن ضروب الصناعة والتجارة ، فتسع آمالهم ، ويتممون
من العمر ان ما قصرت أعمال السلف عن استيعابه ويرمون ما أحدثوه من شعث ،
وهكذا تكون أحوال أمتهم على الأعصار ملتئمة ، وأمورها على ممر الدهور
منتظمة ، ومن تم له ذلك فأحر به أن يحيا حياة أساسها الفضيلة ، وثمرها
رغد العيش في الدنيا ، والنعيم المقيم في الآخرة

(نسبتها إلى السياسة)

السياسة عند جمهور الخلقين هي تدبير شئون المجتمع وفقا لقوانين تسن ،
وأنظمه توضع ، لبيان ما بين الحاكم والمحكوم من الروابط والعلاقات ،
وما على كل منهما من الواجبات ، وماله من الحقوق ، فأما القوانين فقوامها
الأمر والنهي . وإذ أنها لا تأمر إلا بما ينفع الواحد والجماعة ولا تنهى إلا
عما يضرهما ، فالقانون الوضعي داخل في حدود القانون الخلقى ، والأخلاق
والسياسة في هذا متضافرتان ، على أن درجة حسن السلوك واستهجانه محدودة
في رأى الخلقين الغربيين بما تواضعت الجماعة على حسنه أو قبحه ، ودرجت
عليه أحقابا من الدهور ، ثم صار بعد قانونا مكتوبا واجب الطاعة والامثال ،
وهذا يفسر معنى قولهم : إن الواجب القانونى متأخر عن الواجب الخلقى
ومبنى عليه ، ومن أجل ذلك قرر هؤلاء الخلقيون وجوب الطاعة للقوانين
الوضعية ، وإن اشتملت على ما يثقل على النفوس احتماله ، أو كان الواضع لها
مستبدا ، معللين ذلك بأن سلامة الحكومة ، وعمارة البلدان ورفاهيتها لا تتم
إلا بانتظام الشمل ، واجتماع الكلمة ، ونبد الشقاق والتنازع ، وهذا لا يتم
إلا بالخنوع لقانون تتألف برهته الأهواء المختلفة ، وتجتمع بهيبته القلوب
المتفرقة ، وتنكف بسطوته الأيدي الغالبة ، وتنقمع من خوفه النفوس

المتعادية ، لأن في طباع الناس من حب المغالبة على ما آثروه والقهر لمن عاندوه ،
 ما لا ينفكون عنه إلا بمانع قوى ، وراذع ملى . لقد أدرك الامام على كرم الله
 وجهه سر اجتماع الأهواء ، وانتظام الشمل وعرف أنه أس نظام العمران ،
 إذ خطب جماعته يستحثهم على الجهاد فقال « والله لأظن أن هؤلاء القوم
 سيّد الون منكم باجتماعهم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم ، وبمعصيتكم إمامكم
 في الحق . وطاعتهم إمامهم في الباطل ، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم ، وخيانتكم ،
 وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم ، فلو ائتمنت أحدكم على قعب لخشيت أن
 يذهب بعلاقته » يريد الامام بهذا أنه متى تم لقوم اجتماع كلمتهم ، وأداؤهم
 الأمانة لبلادهم ؛ كان النصر حليفهم ، والعزة ظهيرهم ، فالحق ضعيف بتفرق
 أنصاره ، والباطل قوى بتكاتف أعوانه .

بما تقدم يتبين أن بين الأخلاق والسياسة رابطة في النشوء والتدرج وهناك
 علاقة ثانية هي - كما يقول النفعيون - إن واجب الخلق أن يضع القواعد
 التي ينبغي أن يسير عليها الآحاد في أعمالهم وسلوكهم بوازع النية ، والراذع
 النفسى الذى يهيمن على النفوس فيصرفها عن شهواتها ويراقبها في خلواتها ،
 وينصحها في ملاتها ، ثم يبين منها ما لا بد لانفاذه وإمضائه ، من الالتجاء إلى
 القانون الوضعى فى حمل الناس على اتباعه والعمل به . فمن الأمور التى تصدى
 لها القانون - وهى بقانون الأخلاق أحجى وأجدر - كف الأذى عن الناس
 واجتناب إغضابهم إلا دفعا لهزيمة أو خسيفة ، وحظر التعرض لهم
 فيما اقتسوه من الأموال بكدهم وجدهم ، أو ورثوه عن آبائهم وأسلافهم ،
 أو أعطوه منحة وتفضلا . والوفاء بالعقود التى أبرمت طوعا واختيارا ، إلا
 ما كان الوفاء به ضارا بقوم آخرين ، أو كان ضرره أكثر من نفعه للوفى به ،
 أوقام البرهان القاطع على أن الفريق الآخر المتعاقد مزعم عدم الوفاء بما
 يلزمه إياه العقد ، وإطعام الأولاد وتربيتهم ، والاحسان إلى الفقراء واليتامى
 والمساكين .

ومن الأمور التى لا مناص فيها من الاستعانة بالقانون السياسى - إذ هيئته

أشد زجرا وأقوى ردعا - السرقة والقتل والبغى وشهادة الزور وأكل
الأموال بالباطل ، وانتحال المخترعات الفنية ، والافتئات على أنصبة الورثة ،
وخيانة الوطن ، وما شابه ذلك مما يعجز عن الفصل فيه قانون الأخلاق ، وتمس
الحاجة فيه إلى قوة تقيم الحدود على مستحقها من غير تجاوز فيها ، ولا تقصير
عنها ، وتبنى صروح العدل ، فيأوى إليها كل مظلوم ، ويلتجئ إليها كل
مضطهد ، حيث يرون عدلا شاملا ، به تعمر البلاد ، وتنمو الأموال ، إذ ليس
من شيء أسرع في خراب الأرض ، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور ، لأنه
لا يقف على حد ، ولا ينتهى إلى غاية ، وحسبك برهانا قول المصطفى عليه الصلاة
والسلام « بئس الزَّادُ إِلَى الْمَعَادِ الْعُدْوَانُ عَلَى الْعِبَادِ » وقوله « أشدُّ النَّاسِ
عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ أَشْرَكَ اللَّهُ فِي سُلْطَانِهِ فَجَارَ فِي حُكْمِهِ » وقول عيسى
ابن مريم عليهما السلام إذ قام خطيبا في بني إسرائيل : « يا بني إسرائيل
لا تتكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ،
ولا تكافؤوا ظلما ، فيبطل فضلكم . يا بني إسرائيل الأمور ثلاثة : أمر تبين
رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اختلفتم فيه فردوه إلى الله تعالى »
وقول بعض الحكماء « الْمَلِكُ يُبْقَى عَلَى الْكُفْرِ وَلَا يَبْقَى عَلَى الظُّلْمِ »

وصفوة القول إنه يجب في كل مجتمع إنسانى أن يتخذ القانون السياسى
ظهيرا في الشئون المحفوفة بالمخاطر ، حتى يحيط بالناس أمن عام تطمئن إليه
نفوسهم ، وتيسر فيه همهم ، ويسكن فيه بريئهم ، ويأنس به ضعيفهم ،
فليس الخائف كما يقولون - راحة ، ولا الحاذر طمأنينة ، ولقد جاء عن عثمان رضى
الله عنه ما يؤيد هذه القاعدة إذ قال : « إن الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن »
وأما في غير الأمور المحفوفة بالمخاطر فكفى بقانون الأخلاق زاجرا ، وبسلطانه
على النفوس رقيبا ، وما أحسن قول بعضهم : « القانون السياسى هيكल نظام
الجماعة والقانون الخلقى لحمه ودمه »

الخلق

يجدر بنأ أن نسرّد آراء المتقدمين والمتأخرين من علماء الأخلاق في الخلق ليكون المطلع عليها بمختلف الآراء في مبحث زلت فيه الأقدام، وتضاربت الفهوم . قال ابن مسكويه في كتابه « تهذيب الأخلاق » : الخلق حال للنفس تحملها على أداء أعمالها دون فكر وروية ، وهذه الحال إما طبيعية من أصل المزاج : كالغضب لأذى الأسياب ، والفرع من ضعيف الأصوات ، والحزن على تافه الأشياء ؛ وإما مستفادة بالعادة والتدرب ، حتى صارت ملكة وخلقاً كشجاعة البدو وبأسهم المستفادين من تفردهم عن المجتمع ، ومساكنتهم الوحوش والضواري . اهـ بتصرف

وقال الغزالي في كتابه « إحياء العلوم » الخلق هو عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، وإنما قلنا هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال مثلاً على الدور لحاجة عارضة لا يقال : خلقه السخاء ، واشترطنا صدورها من غير روية ، لأن من تكلف بذل المال ، أو السكوت عند الغضب مثلاً لا يقال : خلقه السخاء والحلم ، ثم قال بعد كلام طويل ، وليس الخلق عبارة عن الفعل إذ رُبَّ امرئ خلقه السخاء ولا يبذل ، إما لفقد المال وإمّا لما منع آخر وقد يكون خلقه البخل ، وهو يبذل رياء وتفاقاً

وليس الخلق القوة ، لأن نسبة القوة إلى الاعطاء والامساك واحدة ، ولأن كل إنسان خلق بالفطرة قادر على الاعطاء والامساك ، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء ، وليس الخلق المعرفة ، لأنها تتعلق بالجميل والقيح جميعاً على وجه واحد . اهـ

وقال المحدثون من الفرنجة : الخلق صفة نفسية مكنونة راسخة تصدر عنها الأفعال دون قصد وتكلف ، وهي إما جبلية في نفس صاحبها ، وهي الناشئة

عن الغرائز : كمن يولد وخلقه الكرم والبأس ، أو مستفادة من تدريب الإرادة في عمل ما ، وهي الناشئة عن العادة : كمن اعتاد التحلم حتى صار حلما ، والبذل حتى أمسى كريما ، أو مكتسبة مما يحيط بالمرء : كالشاهد الطبعية ، والمجتمع . فان صدرت الأفعال من امرئ قصد أو تكلفا فليس ذا خلق ، وإنما هو متخلق كأن يفعل المكرمات ابتغاء الشهرة ، وحسن الاحدوثة ، أو يتصنع الحلم والتواضع لينال الحمد والثناء ، وهذا هو سر قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فشله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا »

لأن حكمة الشارع في الحث على الانفاق سرا وعلانية في غير ما آية ، ليست سد حاجات ذوي القرى والفقراء والمساكين فقط ، بل ارتياض النفس أيضا وابتلاءها وإعدادها للإيقاع مما تحب ، حتى يتم لها خلق الإعطاء والبذل ، وفي هذا يقول الله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »

نزعات النفس

اختلفت آراء الباحثين قديما وحديثا في حال النفس : فمنهم من رأى أنها مفطورة على الخير ، ومنهم من رأى أنها مفطورة على الشر ، ومنهم من رأى قبولها للأمرين ، ومنهم من رأى خلوها منهما .

رأى سقراط : (١) فمن الذين ذهبوا إلى أنها مفطورة على الخير سقراط إذ كان يقول : إن نفس الطفل خباء الكمال لا تظهره إلا بالمناقشة والتحاور

(١) سقراط : حكيم إغريقي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد وكان جنديا بالجيش الأثيني ممتازا بالأقدام ، ثم وجه همه إلى السياسة فكان فيها علما من الأعلام ، ثم ابتدع طريقة في إصلاح شئون الشعب جذبت إليه النفوس ، وأحلت له المكانة السامية التي جعلت معاصريه من العلماء يحقدون عليه ، ويصمونونه بالزندقة وإفساد عقول النشء . لذلك حكم عليه بالاعدام ونفذ فيه بهد ذلك بشهر سنة ٣٩٩ قبل الميلاد

رأى فلوطين وأبو العلاء : ومن رأى أنها مفطورة على الشر فلوطين (١)
وجاء من بعده أبو العلاء المعري (٢) فأذّن في شعره بأن الانسان شرير بطبعه ،
وأن الفساد غريزة فيه

رأى اليسوعيين والينسيين : ثم تلاه من الفرنجة فريقان كبيران اشتبرا
في القرن الثامن عشر وهما « اليسوعيون » و « الينسيون » ، إذ بنيا آراءهم على
عقيدة أن الانسان جبل على الشر ، ولا يحوله عنه الا صارم العقاب ، وإرهاق
الحد ، وغالوا في ذلك كل المغالاة ،

رأى رسو (٣) : ولهذا لم يطق « رسو » تقبل غلوهم ، بل وجه اليهم سهام
مطاعنه ، وما زال يشن عليهم الغارة حتى ألف له عصبة من المفكرين ناوأتهم
ورصدت لهم في كل مرصد .

(١) فلوطين : فيلسوف مصرى ، ومن أسرة يونانية ، اعتمد في نظرياته
على فلسفة افلاطون . وتوفي سنة ٢٦٢ قبل الميلاد

(٢) أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعري الشاعر الفيلسوف ، ولد ومات بالمرعة
كان نادرة في الحفظ والذكاء ، وعمي في صغره ، وحرم على نفسه أكل اللحم ، وما
يخرج من كل ذي روح توفي سنة ٤٤٩ هـ عن نحو ٨٦ سنة ، وله شعر على روى
وأخر التزم فيه روين وضمنه أغلب رأيه في العالم ونظامه .

(٣) هو الكاتب الروائي والفيلسوف الفرنسي (جان جاك روسو) ولد بمدينة
جنيف سنة ١٧١٢ وهو صاحب نظرية العقد الاجتماعي أى أن الناس قبل أن
يستظلوا بحكومة كانوا فوضى ، ثم اجتمعوا وتعاقدوا على أن يتنازل كل منهم عن جزء
من حريته ، ويهبوا فردا أو أفرادا منهم السلطة لتولي شئونهم . ومذهبه إعادة الناس
إلى الحالة الطبيعية ، زاعما أنهم بخروجهم عنها خرجوا عن دائرة السعادة الحقة . وآراؤه
في التعليم نظرية لاعملية وقد انتقد مبادئ اليسوعيين ، واخط نظاما جديدا ألف
فيه كتابه : أميل وتوفي سنة ١٧٧٨

ابن مسكويه (١) وجالينوس (٢) : ولقد أجمل ابن مسكويه آراء المتقدمين في هذا المبحث فقال : والحق أن الانسان يولد مطبوعا على قبول الخلق ، إذ نراه ينتقل بالتأديب والمواظظ إما سريعا ؛ واما بطيئا ، لأن القول بعدم قبول الخلق يؤدي الى ابطال قوتي التمييز والعقل ، والى رفض السياسات كلها ، وترك الناس جميعا مهملين ، والى ترك الاحداث والصبيان على ما يكونون عليه بغير سياسة ولا تعليم ، وهذا ظاهر الشناعة . ثم قال : ولم يخلق الناس أشرارا بالطبع كما ذهب اليه بعض المتقدمين ولا أخيارا بالطبع كما ذهب اليه الرواقيون ، لأن الناس كما قال « جالينوس » ان كانوا أشرارا بالطبع وينتقلون إلى الخير بالتعليم ، فاما أن يكونوا تعلموا الخير من غيرهم أو من أنفسهم ، فان كانوا تعلموه من غيرهم فعملوهم أخيارا بالطبع ، وحيثئذ فليسوا كلهم أشرارا بالطبع ، وإن كانوا تعلموه من أنفسهم ، فاما أن تكون فيهم قوة نزاعة الى الخير فقط ، فهم اذن أخيارا بالطبع ، واما أن يكون فيهم مع القوة التي تنزع الى الخير قوة أخرى تنزع الى الشر ، غير أن قوة الخير غالبية قاهرة ، فهم أخيارا بالطبع أيضا . وان كانوا أخيارا بالطبع كذهب الرواقيين ، وينتقلون الى الشر بالتعليم ، فهم بين أمرين : فاما أن يكونوا تعلموا الشر من أنفسهم أو من

(١) هو الشيخ أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه وهو فاضل في العلوم الحكيمة خبير بصناعة الطب ، جيد في أصولها وفروعها . وكان - فيما ذكره - بعض المؤرخين خازنا للملك عضد الدولة بن بويه أثرا عنده ، وله مؤلفات جمة منها كتاب تهذيب الاخلاق والفوز الأصغر بناها على أصول الفلاسفة الالهيين ، وانصرف فيها للدين . وله في الطب كتاب الاشربة ، وله مشاركة حسنة في العلوم الأدبية وعلوم الاوائل واجتمع بالرئيس ابن سينا وتوفي سنة ٤٢١ هـ

(٢) جالينوس : حكيم فيلسوف طبيعى يونانى من أهل مدينة (فرغاموس) ببلاد اليونان وكان امام الأطباء في عصره ، ورأس الطبيعيين في وقته . قال المسعودى : لا أعلم بعد أرسطو أعلم بالطبيعات من بقراط وجالينوس ، وماش بعد المسيح بنحو مائتي سنة

غيرهم فان كانوا تعلموه من غيرهم فعلموهم أشرار بالطبع ، وحيثئذ فليس الناس كلهم أخيارا بالطبع ، وان كانوا تعلموه من أنفسهم ، فخالهم لا تعدو اثنتين : فاما أن يكون فيهم قوة تجنح الى الشر فقط ، فهم اذن أشرار بالطبع واما أن يكون فيهم مع هذه القوة التي تجنح الى الشر قوة تنزع الى الخير غير أن قوة الشر غالبه قاهرة ، فهم اذن أشرار بالطبع . اه بتصرف قليل

وقال في موطن آخر لقد دل الاستقراء على أن من الناس من هو خير فاضل من مبدأ تكوينه ترى فيه النجاة طفلا ، وتتفرس فيه الفلاحة ناشئا ، رزق الحياء وكرم الشيم ، وحُبُّ اليه مجالسة الاخيار ، وموانسة الفضلاء . رأى أرسطو (١) في الخير الفاضل : ويرى «أرسطو» أن هذا الصنف قد منح العناية الالهية العظمى ، فسعادته الهية بحتة ليس فيها أدنى نصيب من الكسب والتحصيل ، وعلم الأخلاق لا يعنى فى بحوثه الا بما كان ثمرة العمل والسعى والمجاهدة والكدح

ومنهم من يكون فى مبدأ تكوينه مستعدا للخير والشر كسائر الأحداث إلا أنه يسعى ويجتهد ، ويطلب الحق اذا رأى اختلاف الناس فيه ، ولا يزال كذلك حتى يبلغ مرتبة الحكماء فيصير علمه صحيحا ، وعمله صوابا ، ولا مرية فى أن هذا الصنف من الناس هم الذين يقدر الخلقون أعمالهم حق قدرها ، وَيَسْمُونَهُم بِالْعَدْلِ وَالْفَضِيلَةِ جزاء سعيهم وكدحهم ، وإقرارا بكبر همتهم وعظيم شجاعتهم ، أما من ولد بالطبع خيرا فاضلا ، فذلك بمحبة الله إياه ، وعنايته به ، وليس من شأن الخلقين أن يصدروا حكمهم فى أمره ، فالقدرة الصمدانية قد كفلته جنينا ، وتعهدته وليدا وطفلا يافعا ، وشيخا كبيرا

(١) (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م) أرسطو كان تلميذا لافلاطون مدة عشرين سنة ،

وكان يسميه العقل ، وإليه انتهت فلسفة اليونان ، وهو خاتمة حكمائهم ، وسيد علم الاسكندر المقدوني ، وأسس مذهبا يسمى مذهب المشائين ويلقب بالمعلم الاول ، لانه اول من جمع المنطق ورتبه .

رأى صاحب سلوك الممالك : وقال صاحب سلوك الممالك وهو شهاب الدين ابن أحمد بن أبي الريح . أما مراتب الناس في قبول هذا الأدب الذى سميناه خلقاً فإنها كثيرة ، وهى تشاهد وتعاين فيهم وبخاصة الأطفال ، فإن أخلاقهم تظهر فيهم منذ نشأتهم ، ولا يسترونها بروية ولا فكر ، كما يفعل الرجل التام الذى انتهى فى نشوئه وكاله إلى حيث يعرف من نفسه ما يُستقبح منه فيخفيه ، بضروب من الحيل ، والأفعال المضادة لما فى طبعه ، وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان ، واستعدادهم لقبول الأدب ، ونفورهم منه ، وما يظهر فى بعضهم من القحة وفى بعضهم من الحياء ، وكذلك ما يرى فيهم من الجود والبخل ، والرحمة والقسوة والحسد ، وضد هذا مما تعرف به مراتب الإنسان فى قبول الخلق ، وتعلم من أن الناس ليسوا على مرتبة واحدة ، وأن فيهم المواتى والممتنع ، والسهل السلس والفظ العسر ، والخير والشرير ، والمتوسط بين هذه الأطراف فى مراتب لا تحصى كثرة . وإذا أهملت الطباع ولم تُرَض بالتأديب والتقويم ، نشأ كل إنسان على سوم طباعه وبقي عمره كله على الحال التى كان عليها فى الطفولة ونبع ما وافقه بالطبع . اه بتصرف

رأى الغزالي فى امكان تغيير الخلق : وقال الغزالي : يزعم بعض الناس أن الأخلاق لا يتصور تغييرها ، ويستدلون بأمرين : أحدهما أن الخلق صورة الباطن ، كما أن الخلق صورة الظاهر وإذ أن الخلقة الظاهرة لا يمكن تغييرها كالدميم لا يستطيع أن يصير جميلاً ، فكذلك القبيح باطناً لا يستطيع أن يكون ذا خلق حسن ، وثانيهما أنهم ضربوا مثلاً فقالوا : إن حسن الخلق فى قمع الشهوة والغضب ، وقد شاهدنا من جاهد طوال عمره فى قمعها ، فأبت عليه فطرته ، ومزاجه إلا بقاءها ونحن نرى أن هذه مغالطة ، وإنكار للواقع ، لأن أحداً لم يشترط لحسن الخلق محو الشهوة والغضب فهذا محال ، ولأن الواقع يشهد أن البازى ينقل من الاستيحاش إلى الانس ، والفرس من الجحاح إلى السلاسة والانقياد ، والآدمى أولى ، بيد أن الجبلات مختلفة ، بعضها سريعة القبول ، وبعضها بطيئة ، ولاختلافهما سبيان :

« أحدهما » قوة الغريزة في أصل الجبلة وامتداد مدة الوجود ، فان قوى الشهوة والغضب والتكبر مجبول عليها الانسان ، ولكن أصعبها أمرا وأعصاها على التغير قوة الشهوة ، لأنها أقدم وجودا
 « ثانيهما » أن الخلق يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه ، والطاعة له وباعتقاد كونه حسنا مرضيا .

كل مولود يولد على الفطرة : ورأينا أن كل مولود يولد مغتدلا صحيح الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، أى بالاعتیاد والألفة قد تكتسب الرذائل ، وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملا ، وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء ، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمل وتكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم . اهـ بتصرف

رأى ابن خلدون : وقال ابن خلدون إن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى ، كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها ، وينطبع فيها : من خير أو شر قال صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » وبقدر ما ثبت لها من أحد الخلقين تبعد عن الآخر ويصعب عليها اكتسابه ، فصاحب الخير إذا سبقت إلى نفسه عادات الخير وحصلت لها ملائكة ، بعد عن الشر وصعب عليه طريقه وكذا صاحب الشر ، إذا سبقت إليه أيضا عاداته . اهـ

رأى الامام على في تغير الخلق : وإلى تغير الخلق أشار الامام على كرم الله وجهه بقوله : أعجب ما في الانسان قلبه وله مواد من الحكمة ، وأضداد من خلافا ، فان سنع له الرجاء أذله الطمع ، وإن هاج به الطمع ، أهلكه الحرص وإن ملكه اليأس قتله الأسف ، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ ، وإن أسعد بالرضا نسي التحفظ (الاحتراز والتيقظ) وإن ناله الفزع شغله الحذر ، وإن اتسع له الأمن استلبته الغرة (الغفلة) ، وإن أفاد مالا أطفاه الغنى ، وإن أصابته فاقة مسه الجزع ، وإن نهكه الجوع قعد به الضعف ، وإن أفرط

به الشبع لظنه البطنة ، فكل تقصير به مضر ، وكل إفراط له مفسد

خلاصة آراء المتقدمين : يستخلص مما نقلناه في مبحث حال النفس

واستعدادها عن ابن مسكويه وعن شهاب الدين صاحب سلوك الممالك وعن الغزالي في كتابه إحياء العلوم ، وابن خلدون في مقدمته ؛ أنهم يجنحون إلى أن الانسان قابل للخير والشر معا وهذا هو الرأي الصواب ، ولا حاجة معه إلى إقامة البرهان ، فالوجدان يحسه ، والطبع يألفه ، والذوق يحكم به ، والعقل يتقبله ، وقد أيدته النقل ، إذ جاء في القرآن الكريم قوله تعالى (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ؟) طريقى الخير والشر ، وقوله تعالى (وَتَقْسِمْ بِنَاثِهَا ، فَالْتَمِهْهَا فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (إنا هدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) يبد أنه وإن كان قابلا للخير والشر فهو إلى الخير أقرب كما قال ابن خلدون في موضع آخر في مقدمته « إن الملك طبعى للانسان لما فيه من طبيعة الاجتماع ، ولأنه أقرب إلى خلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته ، وقوته الناطقة العاقلة ، لأن الشر إنما جاءه من قبل الحيوانية التى هى فيه ؛ وأما من حيث هو إنسان ، فهو إلى الخير وخلاله أقرب » ولقد تبع ابن خلدون فى هذا الرأى جمهور حكماء العرب الذين يقولون إن الانسان جزء من العالم والعالم فيه خير وشر فلو وازنت خيره بشره ، ومنافعه بمضاره ؛ لوجدت الخير أرجح ، والنافع أكثر . وهم فى ذلك يستدلون بالمشاهد والواقع ، ويؤيدون استدلالهم بمآلح لهم فى قوله تعالى يخاطب الملائكة . (إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الْاَمْءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَتَقْدِّسُ لَكَ قَالِ إِنِّى اَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) أى انى أعلم أن هذا النوع يناسب الحكمة لأن الخير فيه كثير

ومما يناسب ما أوضحناه في الخلاصة ماذهب إليه صاحب المواقف
والاستاذ الامام فيما يلي

(١) رأى شارح المواقف : ذكر شارح المواقف نقلاً عن بعض الحكماء أن
الموجود إما خير محض : كالعقول والأفلاك ، وإما الخير غالب فيه كما في هذا
العالم وتلك هي حكمته سبحانه وتعالى (وَكَوْنُ شَيْئًا لَا تَيْنًا كُلَّ نَفْسٍ هِدَاهَا)
جل شأنه وعز سلطانه

(٢) رأى الشيخ محمد عبده : وقال الاستاذ الامام المغفور له الشيخ محمد عبده في
تفسير قوله تعالى (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) لاشك في أن الميل إلى الخير
مما أودع طبع الانسان ، وأن الخير كل ما فيه نفع نفسك ونفع الناس ، وجماع ذلك
أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك ، كما جاء في الحديث الشريف (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ
حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) والانسان يفعل الخير بطبعه وتكون فيه
لذته ، ويميل إلى عبادة الله تعالى ، لأن شكر المنعم مغروس في الطبع ، ويظهر
أثره في كل إنسان ، وأقله البشاشة والارتياح للمنعم ، ولا يحتاج الانسان إلى
تكلف في فعل الخير ، لأنه يعلم أن كل أحد يرتاح اليه ، ويراه بعين الرضا ،
وأما الشر فانه يعرض للنفس بأسباب ليست من طبيعتها ولا مقتضى فطرتها
ومهما كان الانسان شريراً فانه لا يخفى عليه أن الشر ممقوت في نظر الناس ،
وصاحبه مهين عندهم ، فان الطفل ينشأ على الصدق حتى يسمع الكذب من
الناس فيتعلمه ، وإذا رأى إعجاب الناس بكلام من يصف شيئاً يزيد فيه ويبالغ
كاذباً ، استحب الكذب واقتراه لينال الخطوة عند الناس ، ويحظى باعجابهم
وهو مع ذلك لا ينفك يشعر بقبحه ، حتى إذا نبز أمامه أحد بلقب
الكاذب أو الكذاب أحس مهانة نفسه وخزيه ، وهكذا شأن الانسان عند
اقتراف كل شر يشعر في نفسه بقبحه ، ويجد من أعماق سريرته هاتفاً يقول
له : لا تفعل ، ويحاسبه بعد الفعل ويوبخه إلا في النادر ، ومن النادر أن
يصير الانسان شراً محضاً أي أنه قلباً يألف أحد الشر ، ويتطبع به حتى

يكون طبعاً له، لا تشعر نفسه بقبحه عند الشروع فيه، ولا في أثاثه، ولا بعد الفراغ منه، وقل أن تجد واحداً في (المليون) يفعل الشر وهو لا يشعر بأنه شر قيح في نفسه، والذين ذهبوا إلى أن الإنسان شرير بالطبع، قد أرادوا من الطبع ما يرون عليه غالب الناس، ولم يراعوا فيه معنى الغريزة ومناشئ العمل من الفطرة : ذلك بأن الإنسان ينشأ بين منازعات الكون وفواعل الطبيعة وأحيائها، ومغالبة أبناء جنسه على المنافع والمرافق، وقد يدفعه هذا الجهاد إلى الأثرة، وتوفير الخير لنفسه خاصة، ويلجئه الظلم إلى الظلم، فيفعله متعلماً إياه تعلماً، متكلفاً له تكلفاً، وفي نفسه ذلك الهاتف الفطري، يقول له : لا تفعل، وهو النبراس الإلهي الذي لا ينطفئ. فإذا رجع الإنسان إلى أصل فطرته لا يرى إلا الخير ولا يميل إلا إليه. وإذا تأمل الشر الذي يعرض له لم يخف عليه أنه ليس من أصل الفطرة، وإنما هو من الطوارئ التي تعرض لآسيا من ينشأ بين قوم فسدت فطرتهم. وأشد ما يضر الإنسان في ذلك نظره إلى حال غيره، ولذلك أمرنا في الحديث أن ننظر في شئون الدنيا إلى من دوتنا، وهذا الأمر خاص بالأفراد بعضهم مع بعض، فإن نظر الواحد إلى من دونه يجعله راضياً بما أوتيته من النعم، بعيداً عن الحسد الذي هو منبع الشرور. وأما الأمم فينبغي أن تنظر الواحدة إلى حال من فوقها لأجل مباراتها ومساماتها، هذا هو صفوة قول المخفور له الامام .

ولقد أضاف إلى ذلك الاستاذ السيد رشيد رضا ما نصه : والمسألة تحتاج إلى زيادة في البسط لكثرة اشتباه الناس فيها، ولشد ما عارضتنا في تقريرها الطلاب في الدرس والباحثون في المحاضرات، ولئن سألتهم ما الشر الفطري في البشر؟ ليقولن : حب الشهوات والغضب، وما ينشأ عنهما من الأعمال والأخلاق، ولو لا هاتان الغريزتان ما جلب أحد لنفسه ولا لغيره نفعاً، وما دفع ضراً، وما ظهر من أعمال الإنسان ما نرى من أسرار الطبيعة

ومحسن الخليقة ، بل لولاها لبادت الأفراد وانقرض النوع ، وفي الفطرة والدين المرشد إلى كمالها ما يكفي لاقامة الميزان القسط فيما غالباً ، حتى لا يغلب في الأمة تفريط ولا إفراط ، ويكون الخير أصلاً عاماً والشر عرضاً مفارقاً . والأصل الذي لا ينزع فيه أحد أن الانسان قد جبل على ألا يعمل عملاً إلا إذا اعتقد أنه نافع ، وأن فعله خير له من تركه ، وذلك شأنه في الترك أيضاً ، وأن هداياته الأربع : الحس والوجدان والعقل والدين ، كافية لأن يعتقد أن كل خير نافع وكل شر ضار ، فاذا قصر في الاهتداء بهذه الهدايات فوقع في الشر ، كان وقوعه فيه أثراً لتكسب طريق الفطرة لا للسير على جادتها ، وأكثر أعمال الناس نافعة لهم غير ضارة غيرهم ، اهـ

ينابيع الخلق

إن نظرة في تعريف الخلق (على رأى المحدثين من الفرنجة) الذي أسلفنا ذكره تدل على أن مكونات الخلق ثلاثة :

الغرائز مع العواطف ، والانفعالات والاحساسات ، فالعادة ، فاليئة

((الغرائز مع العواطف والانفعالات ، والاحساسات))

(١) الغرائز : -

هي قرى فطرية أودعها الله جسم الإنسان فتسوقه بحركة داخلية ذاتية إلى المحافظة على بقاءه ، وبقاء سلالة ، فهي نزعات الفطرة . ومردّها إلى ثلاث

الأولى : النزعة إلى طلب الطعام والشراب : وهي أمر حيواني ، يستدعيه

ممر الإنسان وبقاؤه إلى أجل . ولا سلطان للعقل على هذه النزعة يحول بتاتا بينها وبين مطلوبها ، وإن روى التاريخ أن أناساً امتنعوا عن تناول الطعام حتى الموت فلم يكن سبب ذلك العقل ، وإنما هي نزعة أخرى فطرية قهرت نزعة الطعام والشراب

الثانية : النزعة الجنسية : ومن مظاهرها الحرص على بقاء النوع ، واتخاذ وسائل شتى لاستهواء قرين يتم به وجود النسل ، وليس للعقل أيضا سلطان عليها يحرمها بتاتا قضاء لباناتها . وما أثر من امتناع أناس عن استخدامها فرده إلى نزعة أخرى تغلبت عليها

الثالثة : النزعة الذاتية : وهي قوة كامنة في الأعصاب والعضلات ، منبثة في جميع المشاعر نزاعة إلى الحركة والعمل ، ومن شاهد الأطفال وهم لا يكادون يملكون الحركة ، أدرك أن العقل ليس هو الأمر بالحركة ، وإنما هو ينظمها على حسب ما يرى ، فهي خاصة من خواص الحياة ، يشارك الإنسان فيها غيره من الأحياء ، وقدانها نذير الفناء

ولما كانت النزعة الأولى تسوق الإنسان إلى طلب الرزق مستظهرة بالنزعة الذاتية ، وكان الإنسان لا يقف عند تحصيل رزق اليوم ، بل يسعى إلى التأنيق في المأكل والمشرب ، ويحاول الظهور بأحسن مظهر في المجتمع الذي يخالطه ، وكانت النزعة الثانية لا تقف عند حد طلب القرين ، بل تسوقه إلى ما هو أبعد من ذلك مدى ، نشأ عن هذه النزعات ثلاثة ميول : هي الرغبات والمطامع والخلال النفسية الذاتية

« أ » الرغبات

أما الرغبات فنزعات في قلوب الناس تدفعهم إلى نيل أمور فيها منفعة يفتشون بها : كالشهرة والثروة والبراعة في العلم أو الفن . ولها أطوار ثلاثة التمتي : وهو تشوف للحصول على الرغبة مع شعور بالقصور عن دركها

يمكن تمني أن يكون ملكا وليس لديه سبب من أسباب الملك

ثم الأمل : وهو شعور بأن في النفس شيئا من الثقة بذيل مرغوبها ومبتغاها

ومن أجل ذلك كان من مظاهره الجذ والمثابرة

ثم الطموح : وهو نمو الأمل وازدياد الثقة بالنفس في الظفر بالرغبة . ومن

أجل ذلك كان من مظاهره اندفاع المرء في العمل ، والجزم بالوصول إلى رغبته فان حصل المرء على هذه الرغبة تجدد سعيه وعمله ، وانتقل من حال إلى أخرى . وإن لم ينل المرغوب عاد إلى حاله الأولى ، سالكا طريقا آخر مرة بعد أخرى ، مادام الرجاء يتردد في قلبه ، وإلا استولى عليه اليأس وحيل بينه وبين ما يصبو إليه .

«ب» المطامع

وأما المطامع فتزعات في النفوس تدفع أصحابها إلى أن يحاولوا بمختلف الوسائل تعزيز قوتهم الذاتية بما يستطيعون الحصول عليه ، من قوى المجتمع الذي يعيشون فيه ، مستعينين بما أوتوا من الذكاء والدهاء ، أو القوى الذاتية الممتازة . وينشأ الطمع في النفس عن الوثوق بقوة الشخصية ، واتساع ميدان المجتمع الانساني وأحواله : فأقوى الناس شخصية أقدرهم على استزادة قواه من البيئة التي يعيش فيها ، وأضعفهم أكثرهم تعرضا لذهاب شيء من قواه والمطامع أربعة اقسام :

الأول الثروة : وهي قوة عظمى ينالها الانسان تارة بكده وكدحه ،

وأخرى باستغلال عمل غيره ، وثالثة بهاتين الناحيتين . ومن مظاهرها حب المال ، والشوق إلى الحصول عليه بمختلف الوسائل : من الخدق والذكاء والدهاء ، واغتنام الفرص في ميدان الحياة ، والاستيلاء على كثير من الأمانى للتمتع بلذاتها

الثاني الوجاهة : وهي أن يكون الانسان ذا منزلة سامية بين جماعته ، ينال

بها احترام هذه الجماعة ، والتفافها حوله . وللوصول إلى هذه المنزلة خصائص يجب أن تتوافر في المرء : كالذكاء والدهاء ، أو الغنى ، أو الحسب ، أو البطولة والعبقرية ، وما إلى ذلك مما يفضل به على غيره

ومن مظاهرها القبض على أئنة الجماعة ، واستخدامها وفق مشيئته ، وجمعها

تحت إمرته ، فلا يلبث أن يكون له القسط الأوفر من الانتفاع بها ، نافذ الكلمة مهيب الجانب . ومن أجل ذلك لا يألو جهدا في العمل على إسعادها ورفاهيتها ، والذود عن مصالحها

الثالث السلطة : وهي قوة شرعية مستمدة من قوة الجماعة . ويؤيدها الدستور ، أو القانون أو العرف ، على الأقل ، وهي أرفع شأنا من الوجاهة ، ينالها المرء غالبا بمواهبه وكفايته ، وأحيانا يصل إليها بوجاهته ، أو بماله . ومن مظاهرها استخداما كثيرا فيما يجلب له الخير ويسعده ، واتخاذها وسيلة للوصول إلى ما ينشده من مختلف الأمانى ، فحسبها أنها قوة تبعث في الإنسان الجد والسعى إليها

الرابع الشهرة : وهي أن يعرف المرء بين قومه أو غيرهم بمزية تجعله ممن يشار إليهم بالبنان ، يصل إليها باستخدام مواهبه مستشعرا الثبات والمثابرة . ومن مظاهرها أن يتذرع بها صاحبها إلى تحقيق المبتغى . وتتجلى هذه الشهرة في القوادح الحريين والسياسيين ، والكاشفين والمخترعين وأهل الفنون الجميلة . وما يمت إليها من مختلف الحرف التى لها صلة بالجمال . مما تقدم يتبين جليا أن نمو الطموح بدء هذه الأخلاق الفرعية ، وأنها أقوى شأنا من الرغبات .

« ح » الخلال النفسية الذاتية

هي صفات تصدر عن الوازع الداخلى ذات مغبة لا تتجاوز صاحبها سواء أكانت محمودة ، أم غير محمودة وتنحصر هذه الصفات فى ثلاث :

الأولى القناعة : وهى الاكتفاء باليسير من الخير ، يتصف بها من الناس قليل الطمع ، تصير الطموح . ومن مظاهرها أن يشعر القانع بالغبطة والسرور ، وأن يكون بمنأى عن المجازفة ، وألا يطمع إلى نيل بعيد الأمانى ، وأن يبذل المجهود فى الوصول إلى الضرورى

الثانية الاعتدال : وهى ألا يقف المرء عند حد اليسير من الخير ، بل يطمح إلى إدراك ما تصبو إليه نفسه ، وتستطيع الحصول عليه ، دون إفراط أو تفريط

ومن مظاهرها التماهى فى طلب الخير ، والاستزادة منه مادام قادرا على نيله
والاكتفاء بما نال ، متى بلغ حد العجز ، واجتناب المجازفة والمخاطرة ، وبذل
المجهود قدر الطاقة

الثالثة الشراهة : وهى صفة تدفع المرء إلى مجاوزة حد الاعتدال ، وتكليف
النفس مالا تطيق . ومن مظاهرها أن يجاهد الانسان ويكدح طول العمر ،
غير راض بمختلف الأحوال ، وأن يكثّر من المخاطرة ، وألا يغتبط بما يناله
ويصل إليه من متاع الحياة الدنيا .

(ب) العواطف

العاطفة هى قوة جاذبية داخلية تثيرها العوامل الخارجية ، وتتدرج فى النمو
والارتقاء ، تابعة فى ذلك إرشاد العقل ووحيه ؛ فلا تلبث أن تعد من القوى
العقلية أو تكاد ، والعواطف الرئيسة خمس

الأولى عاطفة الوالدين : وهى الحنو المشرب بالحب ، فعطف الوالد على
ولده يرجع إلى عاملين : أحدهما ما يراه الوالد فى ولده من صورة جوهره ،
وثانيهما ما يتمثل فى الولد من استمرار هذا الجوهر . ولذلك قد تنمحي هذه
العاطفة ، أو تستحيل إلى شفقة ؛ فاعراض ، فنفور ، فحقد ؛ إذا ما عرف أن
هذا الولد أجنى منه . ومن هذا يتبين جليا أنها عزيزة مفهوم سببها عند بنى
الانسان ، مجهولة السبب عند العجاوات . ومن مظاهرها عكوف الأم على
حضانة ولدها ، وتعهده منذ نعومة أظفاره ، وكدح الأب فى ميدان الحياة
حرصا على نمو الأسرة وتكوينها .

الثانية عاطفة الأسرة : وهى نوعان بنوية وأخوية : فالبنوية ثمرات الحنو
الأبوى ، أضف إلى ذلك أن الولد متى أدرك الحياة وقيمتها ، رقيت فيه هذه
العاطفة ، واشتد ميله إلى والديه ؛ والأخوية تنشأ عن المحاكاة ، لأن الولد حينما
يشاهد أبويه يعطفان على أخيه أو أخته ، يندفع بفطرته إلى محاكتهما فى العطف
على الاخوة والأخوات

هذا وكما يكون التعاطف بين الاخوة يكون بين أبناء الأعمام والخالات ،
بل بين جميع أفراد الأسرة بعامل التجاذب الفطري ، سنة الله في خلقه (وَكَانَ
تَبْدِيلَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)

الثالثة : العاطفة الوطنية : - وهي عطف الفرد على مجموع قومه ، وشعوره
بأنه عضو في هذا الجسد الممثل في المجموع . ومما رقيت هذه العاطفة ، فلن
تبلغ شأوا عاطفة الوالدين في القوة

ومن مظاهرها شعور المرء بأنه مدين بكيانه وسعادته لرفعة وطنه ، وعلو
شأنه ، وبأنه يجب أن يفتديه بنفسه إذا دعا الداعي

الرابعة : العاطفة الاجتماعية : - وهي عطف الانسان على مجموع آحاد
المجتمع دون تفرقة جنسية . ومن مظاهرها أن يدعن الانسان إلى معاونة
المجتمع ، ويخضع لقوانينه وشرائعه وأنظمته . وبما تقدم يتبين جليا أن العاطفة
الوطنية بين فرد وآخر من أمته ، والعاطفة الاجتماعية بين فرد وآخر من المجتمع
من أمته أو من غيرها

الخامسة عاطفة الشفقة : وهي أوسع شمولا من العاطفة الوطنية ، والعاطفة
الاجتماعية ، فلا تتقيد بقراية ولا وطن ولا مجتمع ، لصدورها عن الانسانية
المطلقة . ومن مظاهرها أن يتألم الانسان لآلم غيره ، فلا يلبث أن يكون عوناً
له على ما نزل به من المكروه

الرابعة بين العواطف والغرائز . وعلى الجملة فالعواطف أخلاق تشارك
الميول الغريزية في صدورهما عن الدافع الداخلي ، غير أن تحركها مقرون
بالمؤثر الخارجي . هذا ويتفرع من العواطف الرئيسة عواطف بعضها
مقصود على نفس المرء ، والبعض الآخر يجاوزه إلى غيره :

(١) العواطف المقصورة

تنحصر هذه العواطف في أربع :

الأولى الشمم : وهو خلق نفسى يعنى به المرء لنفسه ، غير أنه يود من غيره الاعتراف له به . ومن مظاهره أن يربأ بنفسه عن الدنيا ، وأن يكون بمنأى عن ارتكاب الآثام ، وألا يأتمر بمن هم دونه فى المنزلة . هذا والتغالى فى هذه العاطفة يحدث فى النفس خلق الكبرياء الذى ينشأ عنه احتقار غيره

الثانية احترام النفس : وهو اتخاذ المرء الشمم وسيلة للاحتفاظ بالمنزلة التى وضع نفسه فيها . ومن مظاهره أن يصون المرء مقامه ودرجته فى ميدان الحياة ، وأن يكون مهيب الجانب لا يتسنى لغيره أن ينال منه

الثالثة الغرور : وهو مجاوزة المرء حد الشمم ، وميله إلى وضع نفسه فى منزلة فوق منزلته ، ولذلك لا يقره الآخرون على هذه المنزلة ، ولا ينال من هذا الادعاء سوى الاستهجان .

الرابعة الضعة : وهى وضع المرء نفسه فى منزلة دون المنزلة التى يجب أن يكون فيها . ومن مظاهرها التزلف والذبذبة ، وما إلى ذلك من الصفات التى لا تتفق واحترام النفس . هذا وتعظيم المرء غيره ، مع حرصه على منزلته ، يسمى تواضعا ، فالتواضع غير الضعة

(ب) العواطف المتجاوزة

تنحصر فى ثلاث :

الأولى الكرم : وهو أن تفيض نفس المرء خيرا حبا للإنسانية . ومن مظاهره النجدة ، والاغاثة ، ولين الجانب ، وما إلى ذلك من الأعمال الخيرية

الثانية البخل : وهو الاحجام عن فعل الخير مع القدرة . ومن مظاهره

الثالثة الطمع : وهو رغبة المرء فى هضم حقوق غيره الشرعية ، والاستئثار بما لاحق له فيه . ومن مظاهره انتهاز الفرص للاستيلاء على حقوق الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة ،

أثر العاطفة : ولاختلاف جلات الناس وطباعهم اختلف أثر العاطفة
فيهم وظهر في أحوال ثلاث

الاولى الشكر : وهو مقابلة الجميل بمثله أو بأعظم منه ، إن كان الشاكر
قادرا ، والاعتراف بالجميل إن كان عاجزا عن المكافأة بالمثل ، (إنما يعرف
الفضل من الناس ذووه) ويصدر الشكر عن الجبلة الطيبة الصالحة . ومن مظاهره
أن يعرف الشاكر بالصدق والأمانة والأخلاص وحسن الظن وسلامة الطوية .
الثانية الكنود : وهو جحود النعمة ، وعدم الاعتراف بالخير لمسيديه ،

فهو لا يصدر إلا عن جبلة رديئة

الثالثة الخيانة : وهي مقابلة الحسنة بالسيئة ، والخير بالشر . ومن هذا يتبين
جليا أنها لا تقف عند حد نكران الجميل ، بل تتعداه الى ما هو أشد مغبة .
ومن مظاهرها انتهاز الفرص للايقاع بذوى الجبلات الطيبة الذين طهرت
نفوسهم ، وخلصت نياتهم .
هذا وكثيرا ما يكون أحد هذه الطباع ملازما للشخص طوال حياته ،
وقد ينتقل البعض من خلة إلى أخرى بالتربية والأحوال الاجتماعية .

«ح» الانفعالات النفسية

(١) المنفرات الرئيسة

هي ما تصدر عن أمر خارجي ينفر منه الخلق ، أو يخالف ميل النفس
ورغبتها . وتشارك العواطف في صدورهما عن أمر خارجي ، وتخالفها في أنها
دافعة لا جاذبة ، كما تخالف الغرائز فيما تصدر عنه ، لأن هذه تصدر عن أمر
داخلي ولذلك يصح أن نسميها عواطف سلبية وتنحصر في ثلاث :

الاولى الكراهة : وهي أثر ما خالف الرغبة ، أو نافي الذوق ، من الأمور
التي لا يرتاح اليها في مختلف الأحوال . ومن مظاهرها الاعراض عن المكروه

الثانية الغضب : وهو أثر ما يصل إلى المرء من الضرر والاساءة سواء أكان مباشرا أم غير مباشر . ومن مظاهره حمل الغاضب على دفع مالهقه من الأذى والشر بما أوتى من قوة غير منتظر حكم العقل وتديره

الثالثة الخوف : وهو أثر ما يهدد المرء من الحوادث الفجائية التي ترتاع منها النفوس ، وترتعد لها الفرائص . ومن مظاهره الميل إلى الهرب إن استطاع المرء الى ذلك سبيلا ، فان لم يستطع عمد إلى اتقاء الخطر بالحيلة ، فان لم يستطع نشط إلى الدفاع غير منتظر في كل ذلك حكم العقل وتديره . مما تقدم يتبين جليا أن وظيفة الانفعالات النفسية الوقاية من الخطر والأذى ، وأن وظيفة الغرائز الحرص على البقاء الفردي والسلالي ، وأن وظيفة العواطف الحرص على الكيان الاجتماعى

(٢) الانفعالات الفرعية ، أورد الفعل

أوضحنا فى النوافر الرئيسة أنها تدفع المرء الى الفعل قبل أن يتولى العقل الأمر ، ويشرع فى التدبير ، فاذا انبرى العقل للتدبر فى حالى الخوف والغضب نشأ عن ذلك ما يسمى الانفعالات الفرعية أورد الفعل ، ولذلك أساليب مختلفة : أولها الحنق وهو تحفز المرء لرد الشر بالمثل . ومن مظاهره اشتراك العقل

معه فى تدبر رد الفعل ، وسكون الغضب وذهاب الحقد ، إذا ما عجز عن التعجيل برد الفعل

ثانيها الحقد : وهو بقاء الغضب محتدما مع الكظم . ومن مظاهره

إصرار الحاقد على رد الفعل ، والانتقام متى سنحت له الفرصة

ثالثها الحذر : وهو تنبه الانفعال لما ينذر بالخطر أو الأذى قبل وقوعه .

ومن مظاهره أن يعمل المرء على تأويل أعمال غيره بغير ظواهرها ، وأن يبالغ فى سوء الظن ، حتى يصل إلى درجة الغدر الذى يحمله على التعجيل بأذى غيره ، قبل الثبوت من احتمال مجيء الأذى منه . وقد يؤدي فرط الحذر

إلى تورط المرء في المحذور ، غير أن الحذر قد يكون عوناً على النجاة من الأذى والخطر إذا ما كان مصحوباً ببعد النظر خالياً من سوء الظن

(٣) مقومات الانفعالات

وهناك أخلاق فطرية ثانوية أخرى وظيفتها تقويم الانفعالات النفسية ورد الفعل بحال بين الشدة والضعف ، تابعة في ذلك وحى العقل وإرشاده ، وهى :
أولاً : الشجاعة ، وهى الاقدام على العمل حيث يجب - وفق ما تحمل القدرة ومن مظاهر هذا الخلق أن يستطيع المرء أن يروض الضارى من العجاوات ، وأن يلقي الرعب فى قلب خصمه ، وأن يحمله على مهابته .

ثانياً التهور : وهو تطرف فى الشجاعة وغرور بالمقدرة . ومن مظاهر هذا الخلق الوقوع فى الخطر فى الغالب الكثير

ثالثاً الجبن : وهو الاحجام عن اتقاء ما ينزل به من الخطر ، أو دفع ما يناله من الأذى مع القدرة على ذلك . ومن مظاهره الالتجاء تارة إلى الحيلة ، وأخرى إلى الاستعانة بالكذب والرياء والمواربة ، وما إلى ذلك من الصفات الذميمة . وماورد من الفضائل والردائل فى الانفعالات ، فقد جاء لضرب المثل فى هذا البحث النفسى ، وسيأتى الكلام عليها مفصلاً فى مواضعه

(٤) الاحساسات

الاحساسات من الحالات الانفعالية تشبه العواطف فى الانجذاب وتحالفها فى أنها ناشئة عن أمور عليا ، وهى شعور المرء بما هو فوق تصوراتة ، وغريب عن اختباره وتجاربته من مختلف الأمور والحوادث ، ولهذا الشعور ثلاث حالات :

الأولى : التعجب وهو انفعال نفسى من سر مجهول يحمل المرء على استقصاء السبب ، ولذلك لا يفارقه العجب إلا إذا فهم السبب . هذا وتختلف الدهشة عن التعجب بأنها تحدث لمفاجأة أمر غير متوقع ، وإن كان مفهوم

السبب : كروية من نشأ في البادية البحر الخضم لأول مرة ، وكشاهدة ابن السهل الشاهق من الجبال لأول مرة أيضا .

الثانية الاستحسان : وهو انفعال ينشأ عن الجميل مما نشاهد أو نسمع أو نشم ، فلا يلبث أن يصل إلى الأجهزة العصبية فتهتز اهتزازا متساوقا ينتقل إلى المراكز الدماغية التي تهتز مثله اهتزازا نظاميا . وعلى النقيض من ذلك الاستهجان الذي يحدث في الأجهزة العصبية أثرا تمجده النفس ، وتنفر منه الثالثة الاجلال : وهو رد الانفعال بالأمر العظيم كالقوة والشجاعة . ومن مظاهره الشعور بوجوب عبادة الخالق ، وإجلال الزعماء ، وأولياء الأمور ، وما إلى ذلك مما هو جدير بالتبجيل والتكريم ، ثم المحبة الناشئة عن تفرع الاحساسات الفارطة . وبخاصة الاستحسان . إلى احساسات تحرك بعض العواطف فلا يلبث أن يفوق الفرع الأصل .

ولهذه المحبة ثلاث درجات :

الأولى الميل : وهو رغبة المرء في التمتع بما يستحسنه من الجمال ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا . ومن مظاهره طلب الأمور التي لا تكلف النفس نصبا

الثانية الود : وهو اشتداد الميل نحو الجميل ونيله . ومن مظاهره اندفاع المرء إلى طلب الجميل ، ومواصلة بذل الجهد للوصول إليه

ما تقدم يتبين جليا أن الميل والود يشتركان في الرغبة في نيل الجميل ، غير أن الأول يقتصر على الأمور التي لا تكلف النفس عناء . والثاني لا يقف بالمرء عند هذا الحد

الثالثة الحب : وهو شعور راق في المرء يدفعه إلى توخي المثل الأعلى من

الجمال ، ويرتفع بالعاطفة إلى أسنى درجات الخيال ، وفيه يتمثل جل الأخلاق الكريمة . ومن مظاهر هذا الشعور أنه العامل الكبير في تصرفات الإنسان وأن جل مساعي الإنسان وأعماله صادرة عن حبه .

وقصارى القول فى طوائف الأخلاق الأربع الرئيسة وفروعها أن الغرائز تدفع الإنسان بحركة داخلية ذاتية إلى المحافظة على البقاء ، والعواطف تربطه بما يتفق ومزاجه من مختلف الأشياء ، والانفعالات تجعله بمعزل عن الأمور التى تخالف مزاجه ، والاحساسات تسمو بروحه إلى أرفع درجة فى الجمال والصلاح . هذا ولما كانت أفعال الإنسان لا تصدر عن مؤثر واحد ، لأن مبتغى المال يصل إلى مبتغاه بدافع الود والطموح والبخل والطمع ، والمدافع عن نفسه يقهر عدوه بدافع الغضب والشجاعة ؛ قيل : إن الإنسان مجموعة أخلاق

الغبة والخلق

الغبة هى انبعاث النفس نحو ما يلوح أنه ملائم لها وهى خاصة بالإنسان ، ويقابلها عند الحيوان الحاجة ، وهى الداعية العمياء التى تدفعه إلى مساوقة الفطرة ، وتحصيل ما به ينمو الجسم ، ويستكمل قواه ، دون أن يدرك بوجه ما منشأها وعلتها . ومظهرها فى الحيوان على اختلاف أجناسه وطبقاته السرور والألم ، فالحاجة إلى الطعام وقت اشتداد الجوع مدعاة إلى الألم ، وإسعاف تلك الداعية سبيل السرور والابتهاج ، ومعنى هذا أن أخص دلائل هذه « الحاجة » عند الحيوان وإن تباينت أجناسه وتعددت مراتبه ؛ هو السرور أو الألم أما الإنسان فرغبته مظهر خلقه ، ومعيار نفسه : ذلك بأن الإنسان فى حاله البدوية والحضرية يجد للجوع ألما فيطلب سده ؛ بيد أن له فى كل منهما قصدا يطلبه ، وغرضا يرمى إليه : فالبدوى يطلبه لسد نهمه وشرهه وملء بطنه ، وتقوية جسمه وعضله ؛ والحضرى يقصده ليقيم به أود صلبه ، ويستعينه على نماء عقله ، وإعداد جسمه لاحتمال مطالب نفسه ، ومعاونتها على اقتحام المخاطر وركوب متن الأهوال .

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

على أن رغبتهما فى الشئون المعنوية مختلفة كذلك : فالحضرى يرغب فى

الهدى (١) والتقوى، ومؤازرة الفضيلة وإقامة دعائم الحق، ونشر ألوية الانصاف والبدوى البعيد عن تزكية الدين الخالي من حلية العلم، وجمال الأدب، همه شن الغارة على جاره، وأخذ مافي أيدي الناس، مغرما أونهباً، وتحصيل الأرزاق بحد السيف وتحت ظلال الرماح، إلى غير ذلك من قبيح العادات وسوء الملكات.

يستخلص مما تقدم أن رغبات الانسان تضرب بسهم في تكوين أخلاقه، ومن أجل ذلك يجدر بنا نفهم الرابطة بين الرغبة والخلق وإليك البيان: ارتباط الرغبة بالخلق: لقد أوتيت كل نفس رغبات هي الآخذة بزمام عقله، المالكة لشعوره وحسه، وهي مختلفة على حسب اختلاف صاحبها صحة ومرضاً، سعة وضيقاً، يسر وعسراً، هناء وبؤساً. ولذلك قال الخلقون: إن في نفس الانسان عشائر من الرغبات كل عشيرة مؤلفة من وحدات، بينها وشيعة قربي وسهمة رحم متضافرة متوازرة، لا تفارق واحدة صواحباتها مادامت النفس في حال طبيعية، فاذا ما عراها حادث فجائي: كنعى عزيز، أو تذكر وعيد، أو وخز ضمير أو داعية شرف أو عرض، حصل اضطراب في نظام الوحدات واختلط بعضها ببعض

تعارض الرغبات: لقد أسلفنا أن في النفس عشائر من الرغبات مؤلفة من وحدات متضافرة، وشأنها شأن عشائر بني الانسان قد يقع بينها التخاصم والتطاحن: فان همت واحدة من عشيرة من عشائر الرغبة بدفع صاحبها إلى العمل على تحصيل غرض ما، انبرت واحدة من عشيرة أخرى لمبارزتها، وقصد الانتصار عليها، مستصرخة ببنات

(١) بدهي أن الخلقي لا يعنى في مباحثه إلا بالقواعد العامة، فان كانت هناك طائفة من أهل البدو أقرب إلى الفضيلة والتقوى من طائفة من أهل الحضرة الذين تعلموا الدين ودرسوا الأخلاق، فذلك مما لا يقدح في عموم القاعدة

عشيرتها ، مدلية إليهن بحق العصية ، ووجوب مظاهره القريب على البعيد تلك سنة الله في خلقه (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) .

ولنضرب مثلاً : قد يخلو السياسى نفسه فتجول فى صدره رغبات مختلفة تتجالد وتتكافح ، فينا هو مسوق برغبة عمل الخير لوطنه ، متشوف إلى سلوك سبيل يفضى به إلى قضاء أمانته ، وتحقيق غرضه ؛ إذا هو بجيش من رغبات أخرى يهجم على قلبه ، فتنبى من بينها رغبة المجد لنفسه ، والهناء لأسرته وفصيلته ، ونيل الرفعة لعاضديه وعصبته ؛ مشيرة عليه بإثارة نفسه ، محسنة له أن من كسب المجد لنفسه ، وأحرز لها نباهة الذكر ، وأورث أسرته الجاه الرفيع ، والصوت البعيد ؛ فقد أدى الواجب الأعظم وسقط عنه كل تكليف آخر .

وبينا تجول فى خاطره رغبة حمل أمته على إذكاء نار الحرب على جارتها ، وشن الغارة على بلادها لا تنزع ملكها ، وثل عرش مجدها ؛ إذا برغبة حب السلم تدور بخلد حقا للدماء ، واجتناباً لاصلات سيف البغي ، وحباً فى نشر السلام والوئام

هذا مثل من تشاحن الرغبات وتطاحنها ، فلا يها صاحبها يخضع ؟ وإلى أيها يجنح ؟ فان كان ممن رست قواعد خلقه ، وتوطدت دعائمه ، وقويت مرائره ؛ جمع عشائر هذه الرغبة المتجالدة ، ورد أمرها إلى « الواجب » فهو الحاكم الذى لا يجحد قيد شبر عن سنن الحق وصراط العدل ؛ فما ناصره الواجب منها وقضى له ، فهو الحق الذى يجب أن يتبع ، وما قضى عليه فجدير به أن يستأصل ويمحق .

مما تقدم يتبين مبلغ الرابطة بين الرغبة والخلق ، وأن ذا الخلق القويم هو الذى يناوىء الرغبة الفاسدة ، ويدرك أنها مطية الفتنة ، وسبيل المحنة ، وأن طاعتها داء وعصيانها دواء ، وأن الجرى وراءها يصرف النفس عن أن تترك الأفضل من خلائقها ، والاجمل من طرائقها . ألم تر إلى قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه (اقْدَعُوا هَذِهِ النُّفُوسَ عَنْ شَهَوَاتِهَا فَإِنَّهَا بَطْلَاءَةٌ تَنْزِعُ إِلَى شَرِّ

غاية ، إِنَّ هَذَا الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبَيءٌ .
 ذو الخلق القويم هو الذى يتخذ الواجب وزيره ومشيره ومعيار قوله
 وعمله ، والواجب من شأنه أن يستعين العقل ، فيوقظه إلى سطوة الرغبات
 وسلطانها ، ويبصره حيلها وخداعها ، ويحذره أن يتورط فى شراكها ويقع
 فى فخوخها ، فلا تلبس أن تصير بالعقل مدحورة ، وبحكمته مقهورة . فالعقل
 وزير ناصح ، والرغبة وكيل فاضح ، لاشك فى أن الرغبة التى قضى عليها الواجب
 ولم ينصرها ، لهى أخت الهوى ، ولقد قال على رضى الله عنه (الهوى عمى)
 ووصفه بعض البلغاء فقال (الهوى مطية الفتنة ، والدنيا دار المحنة ، فترك
 الهوى تسلم ، وأعرض عن الدنيا تغنىم ، ولا يغرنك هواك بطيب الملاحى ،
 ولا تفتنك دنياك بحسن العواري ، فمدة اللهو تنقطع ، وعارية الدهر ترتجع ،
 ويبقى عليك ما تركته من المحارم ، وتكتسبه من المآثم)

وقال على بن عبد الله الجعفرى : سمعتنى امرأة فى الطواف وأنا أنشد
 أهوى هوى الدين واللذات تعجبني * فكيف لى بهوى اللذات والدين
 فقالت هما ضربتان : فذ رأيهما وخذ الاخرى

الارادة والعمل : الارادة هى القوة التى ودعها الله الانسان ، وأسلها زمام
 عقله ، فيها تعقد العزيمة على إمضاء عمل عاجل أو آجل ، فان كان آجلا ولم
 تحل دونه الحوائل الخفية ، تم انفاذه على الفور ، وإن كان آجلا بقى فى
 النفس مكنونا حتى يحىء حينه ، وربما طال عليه الامد فتعذر انفاذه ، إذ قد
 تسخو النفس بالعزيمة على أمر ، وصاحبها متأثر بأحوال ومقتضيات ، غير
 محيط بعواقب الامور حميدها وذميمها ، منطوية نفسه على أمور مخبوءة فى
 غياهب ثنياتها ، حتى إذا جاء زمن الامضاء والانفاذ ، وحقت الحقائق نجمت
 أحوال جديدة ، وانكشفت الامور المكنونة ، فانحلت عزيمة النفس ، وثقل
 عليها العمل ، فتغيرت عن عزمها ، وخذلت صاحبها . ولنضرب مثلا :

يعقد السياسى العزيمة على أنه اذا تولى رئاسة الحكومة مثلا التزم الاستقامة

فيها ، والانقياد للحق في مجاريها ، وأقام أركان العدل واجتنب الميل والمحابة والتشيع والمماراة ، واستأصل جذور الظلم والظالمين ، وخضد شوكة المرتشين والراشدين والرائشين ، واتخذ ظهيرا له أشياع الحق ، وأنصار العدل وأهل الدين والخلق ، وحماة الفضيلة والادب ، حتى اذا تولى صادف عزيمته الضعف والوهن ، واستحوذ عليه الهوى ، فصرفه عن الرشيد ، وزين له قبيح عمله ، فأضله عن سواء السبيل ، فركن الى شيعة الباطل ، وأعداء الحق ، واستمد رأيه من أتباع الغي وبطانة السوء .

من أجل ذلك قال علماء الاخلاق : (عقد العزيمة لا يستلزم حتما إنفاذا لعمل) فطالما هبت ريح العزائم على النفس فأنعشتها ، وأفعمتها بحجم المقاصد ، ثم ما لبثت أن سكنت ، وهدأت ، كأنها كانت حلماً لصاحبها ، وإلى ذلك أشار على رضى الله عنه إذ يقول : « ما أنقض النوم لعزائم اليوم » فكم خطط هدرت بالمخاطر ثم قرت ، وكم عزائم صالت ثم انهزمت أمام تبدل الأحوال مذعورة من اشتباه العقبي ، وغموض المآل .

يتبين مما تقدم أن الارادة غير العمل ، وإن القول بأنهما شيء واحد باطل . حقاً قد تتصف الارادة بالقوة فيقترن بها العمل ، ولذلك يخيل لغير المدقق أنها والعمل أمر واحد ، والحق أن لا اشتباه ، لأن اتصافها بالقوة لم يغير من حقيقتها ، بل جعلها وسيلة قربى للعمل مفضية اليه ، وقوتها : إما فطرية ، وإما كسبية مستفادة . فإن كانت فطرية فصاحبها يوسم غالباً بأنه غليظ الكبد قاسى القلب ، رابط الجأش ، لا يخشى ركوب متن الأهوال ، واقتحام المصاعب والمخاطر . وإن كانت كسبية فأصحابها من ذوى الفكر الواسع ، الذين خبروا الأمور وسبروها ، وتعرفوا ما يهم منها وما لا يهم ، فالى المهم وجهوا الهمم ، وله شحذوا العزائم . ألا ترى قوة الارادة متجلية في قول عمر رضى الله عنه : « لأن أقدم فتضرب عنقى أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر رضى الله عنه » إذ معنى هذا أنه وجد من نفسه العزم

الجازم على أنه لا يتأمر مع وجود أبي بكر، وأكذلك بما ذكره من القتل، ومثل عمر من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر، لفداه نفسه، وآثر حياته على حياته.

حقاً لقد أراد عمر رضي الله عنه أن يجعل نفسه قدوة صالحة، ومثلاً كاملاً، وعبرة نافعة، لمن رمت الشكوك بنوازعها عزيمة اعتقادهم، واعتركت الظنون على معاهد يقينهم، وقدحت قاذحة الاحن فيما بينهم، ثم عدت على عزائمهم خدائع الشهوات، وطهست بصائرهم بلادة الغفلات، وتولاهم غل التحاسد، وشعبتهم مصارف الريب، واقتسمتهم أخفاف الهمم. يستخلص مما تقدم أن الإرادة القوية سر النجاح، ورائد الظفر، وحياة الشعوب والأمم، ولا شيء أدل على متانة الخلق، واستحفاف قواعده، من إرادة قوية تحبب إلى صاحبها الاستماتة والاستبسال في الدعوة إلى مكارم الخصال، ومحامد الأفعال، والتعصب لخلال الحمى: من الحفظ للجوار، والوفاء بالذمام، والطاعة للبر، والمعصية للكبر، والأخذ بالفضل، والكف عن البغي، والانصاف للخلق، والكظم للغيظ، واجتناب الفساد في الأرض.

وكل أمة يكثر في أبنائها ذوو الإرادة القوية، والعزيمة الصادقة، لا تلبث أن تشر النعمة عليها جناح كرامتها، وتُسيل لها جداول نعيمها، ويمنحها الله سلطاناً قاهراً وعزاً غالباً، يثبت ملكها، ويؤيد دولتها، ويجعل منها حكماً على العالمين، وملوكاً في أطراف الأرضين، يملكون الأمور على من كان يملكها عليهم، ويمضون الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم.

إلى درجة صدق الإرادة والوفاء بالعزم يشير قوله تعالى في كتابه الكريم «رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا» فلقد روى أن أنس بن النضر لم يشهد بدرامع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال: أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه، أما والله لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله صلى الله عليه

وسلم ليرين الله ما أصنع ، فلما أتى العام شهد واقعة « أحد » فاستقبله سعد بن معاذ فقال : « يا أبا عمرو إلى أين ؟ » فقال : « واهالريح الجنة ، انى أجد ريحها دون « أحد » !! فقاتل حتى قتل فوجد فى جسمه بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة ، فقالت أخته بنت النضر : « ما عرفت أخى الا بثيابه » وكذلك تفعل قوة الارادة بأهلها ، وكذلك يكون اليقين .

لما كانت الأرادة بهذه المنزلة قال جمهور الخلقين : « إن الخلق صورة الارادة »

ان الخلق صورة الارادة : ومرادهم أن للنفس أحوالاً شتى ، وخلقها هو الحال التى تتغلب عليها وتصرفها : فمن رسخ فى نفسه مثلاً ، وتغلب عليها حال تقديس الواجب ، فاتخذ المرد الأعلى ، والمرجع الاسمى ، الأمر الزاجر ، الناهى القاهر ، فهو صاحب الارادة الصادقة ، والخلق الحسن . ومن تغلب عليه حب جمع المال ، ومنعه أهله ، فهو البخيل الشحيح . ومن تغلب عليه الانفراد بالرأى ، والاعراض عن النصيحة والمشورة ، فهو العنيد المستبد . ومن كان قلباً حولاً ليس له حال متغلبة عليه ، فهو المتعطل من الخلق ، العارى من الارادة الماضية ، والعزيمة الصادقة ، اذا عاشر الأسخياء ، شا كلهم وحا كاهم ، فجادوا عطى ، واذا عاشر البخلاء ، تقيل أثرهم ، فمنع وأكدى ، اذا حبت اليه النجدة والاغاثة سارع وأبلى ، واذا زين له الكيد والوقعة بالناس انقاد ولبى ، ذلكم الامعة .

يتبين مما تقدم أن الخلق المكون جدير بالعناية والبحث ، ولذلك يقمن بنا أن نبحث فى مظاهره : وهى الأعمال التى يأتىها صاحبها عادة وإلفاً . وتلك الأعمال هى ما اصطلح الخلقون على تسميتها بالاسوك

مباحث نفسية لا بد منها

١ — الحال والملابس :

يصل الفعل ، إلى الغاية بمرافقة الارادة أو الرغبة فاذا تغيرت الرغبة تغير

الفعل ، وقد تتغير الغاية أيضاً . ولما كان تغير الرغبة مقروناً بتغير الحال التي تنشأ فيها مست الحاجة إلى البحث في الحال .

(١) ماهية الحال :

الحال هي ملابسات الشيء المطيقة به ، فكل رغبة مرتبطة بالحال التي تنشأ فيها . فإذا تغيرت الحال لسبب ما ضعفت الرغبة أو تغيرت ، وكذلك الحال تعدل أو تتبدل تلبية للطوارئ التي تؤثر في محركات الفعل وبواعثه ، ومسيرة لاختلاف الرغبات والغايات : فهبك تساوم شخصاً على أمر فيه منفعة لكليهما ، وترغب في الاتفاق معه على شروط العقد ، وبينما أنت تناقشه ويناقشك ، إذ بدر منه ما أغضبك فعدلت عن الاتفاق ، فلما استأت من المناقشة تغيرت من حال المادة إلى الحال المغاضبة ، وتغيرت الرغبة والغاية أيضاً وهبك آنست في مناقشته إياك لينا يطعمك في منفعة أخرى ، تفوق المنفعة التي ترمى إليها ، فلينه هذا غير حال المساومة كما غير الرغبة .

مثال آخر : رغب تلميذ في الطب ، فاشتغل بالدرس لتحقيق هذه الرغبة وفي أثناء اشتغاله مات أبوه ، أو أفلس فلم يستطع الاتفاق ، فعدل عن الدرس ، ونزل إلى مضمار العمل والاسترزاق . فالحال في الأولى تغيرت بتغير حال الأب ، فتغيرت معه رغبة الابن وغايته وعمله . ومن هذا يتبين أن الأحوال ليست في قبضة الانسان ، بل هي كالرياح تجري بما لا تشتهي السفن . ولذلك تتغير أحوال الانسان من وقت إلى آخر ، ولحصر هذا التغير في أحوال رئيسة نذكر ما يأتي :

(٢) تغيرات الأحوال الرئيسة :

أولاً - قد يكون سبب تغير الأحوال في المحركات الباعثة للفعل : كما لو كنت تطالع رواية ، فهاجت حادثة الرواية عاطفة الحب فيك ، فاندفعت أفكارك في الخيالات الغرامية . وقد يلوح لك أن تنظم قصيدة في الموضوع ، فتترك الرواية وتشرع في النظم .

ثانياً — قد يكون السبب تصويب الرأي إذ يعرض للانسان ما يغير حكمه ، فيعدل عن مجرى فعله ويوجهه في ناحية أخرى : كما لو كان يضارب في السوق ، وفهم أن المضاربة تؤدي إلى الخسران والافلاس ، فيعدل عنها إلى التجارة المشروعة بلا مضاربة .

ثالثاً — قد يكون السبب طارئاً خارجياً يطرأ على عملك فيغير مجراه ، أو يقطع السبيل عليه ، كما لو كنت تصطاد طيوراً ، فصادفت غزالاً ، فتجنح عن صيد الطيور إلى صيد الغزلان ،

رابعاً — قد يكون السبب تغير الحال الصحية ، فينا تشتغل إذ أصبت بمرض فتجنح إلى السرير للاستشفاء ، وقد يكون المرض عضالاً يحول بينك وبين العودة إلى هذا العمل ، فتضطر أن تزاوّل عملاً آخر ، أو أن تسافر للاستشفاء .

خامساً — قد يكون السبب الأحوال التي تقضى على الانسان بتغيير مجرى الحياة ، فهو اليوم تليذ ، وغدا مستخدم ، وبعد الغد تاجر أو صانع ، والآن مسرور ، وبعد برهة كئيب ، والآن في عزلة ، وبعد برهة بين جماعة ، وهلم جرا من الأحوال التي تجعله في شأن جديد ، يغير رغباته ، وغاياته ، ومجاري أفعاله سادساً — وأخيراً تختلف الأحوال باختلاف الأشخاص ، فقد يتفق اثنان في الرغبة ، ويختلفان في الغاية : كلاهما يقدم مالا لمشروع خيري ، أحدهما بدافع الشفقة ، والآخر بدافع الشهرة ، فالباعثان مختلفان ، وقد يقترح نائبان في مجلس نواب على مشروع : أحدهما يقصده الخير العام ، والآخر يرمى إلى نيل منفعة له من هذا المشروع : فالخير العام غاية النائب الأول ، وغاية النائب الآخر توخي المنفعة لنفسه .

هذا وقد تعدد أحوال الانسان ورغباته المختلفة في وقت واحد ، فلا تلبث أن تتضارب أو تتباين ، وأن توشك أفعاله أن تعدد في وقت واحد : ذلك أن السياسي يمكن أن يجد نفسه في ثلاثة أحوال معاً ، وهو يفاوض سياسياً آخر في دولة أخرى : إحداها الرغبة في السلم العام ، وثانيها الرغبة في مصلحة بلاده ، وثالثها الرغبة في إرضاء ضميره ، ولا يعدم التضارب في هذه

الأحوال ، فإذا أصر على مصلحة بلاده ، فقد يعرض السلم للخطر ، أو لا يرضى ضميره ، لأن المصلحة الوطنية المبتغاة ليست حقاً مثلاً ، وإذا لان محافظة على السلم ، فقد يضيع حق وطنه ، ويخالف ضميره إذا كان حق وطنه ثابتاً حقاً . فمثل الرغبات الثلاث مثل قوات متضاربة ، وأقواها توجه الفعل وجهتها . فالإنسان يجد نفسه في مختلف الأوقات والساعات مقوداً برغبات مختلفة يغلب عليها التضارب أو التباين ، فهو يريد الإحسان إلى الفقراء ، ويحجم لقلّة المال ، ويريد التوجه لسماع محاضرة ، فيحول بينه وبين إنفاذ إرادته اضطراره إلى ملازمة عمله ؛ ويريد الهجرة في طلب العلم غير أنه ذو أسرة لا معين لها سواه ، فيبقى إلى جانبها ، وما إلى ذلك من الرغبات المختلفة في الأحوال المختلفة .

الشخصية : متغيرة ، ومطلقة

لما كانت الدواعي المحركة للفعل متغيرة بتغير الأحوال ، ولما كانت الرغبة التي تندب الإرادة إلى الاقتران بالعمل أو الترك متغيرة أيضاً ، كانت الشخصية (التي هي مظهر اتحاد الدواعي المحركة مع التعقل المرشد في إجراء الفعل) - متغيرة : فأنت الآن مسالم ، وبعدهنية مخاصم . وأنت الآن عادل ، وبعدهنية ظالم ، وأنت الآن فيك أثرة ، ثم فيك إيثار ، ومسرور ثم مكتئب ، ورزين ثم أهوج .

أما الشخصية المطلقة التي يتصف بها المرء ويعرفها له معارفه ، فهي أثر تفاعل الشخصيات المتغيرة ، مع ما يغلب عليه من السجايا : فيوصف بالكرم ، لكثرة إحسانه ، وإن أسسك في بعض الأحيان . ويوصف بالشم وعزة النفس ، وإن تزلف أو تصاغر في بعض الأحيان .

ولا جمال الأساليب التي يجرى فيها الفعل بقوة المحركات وحكم الإرادة . نذكر لك بيان أحوال الغاية :

الغاية

تنوع الغايات

١ - الرغبة والغاية :

الرغبة ترمى إلى غاية ، فلكل فعل تفعله غاية تتجه إليها الرغبة ؛ لذلك كان تطلب الغاية يستدعى اصطحابها ، لأنها ترافق الفعل الى أن يبلغ الغاية ، ومن أجل ذلك يتبين جليا أن الرغبة تتضمن أمرين : أحدهما الباعث الذي يدعو الى الفعل ويرافقه الى الغاية ، والآخر الغرض الذي ترمى إليه الرغبة . ويتضح ذلك الفرق بين الأمرين اذا كان اثنان يرميان الى غرض واحد ، ولكنهما يختلفان باعثا كلاهما فيتبني انقاذ غريق : فأما أحدهما وهو أبوه فيتبني إنقاذه للبنوة ، وأما الآخر وهو غريب عنه فيتبني انقاذه للانسانية ، ولهذا اختلف الباعث واتحد الغرض . هذا وتختلف البواعث باختلاف الأحوال :

٢ - وأهم هذه الأحوال مايلي :

أولا - يختلف الباعثان من حيث البعد والقرب ، فيكون أحدهما بعيد المرمى ، والآخر قريبه : هب اثنين ينقذان غريقا : أحدهما للانسانية ، والآخر لأن له عنده دينا يريد استيفاءه . ففي الحال الأولى ينتهى مرمى الباعث بالانقاذ ، وفي الأخرى لا ينتهى إلا باستيفاء الدين .

ثانيا - أن يكون أحد الباعثين من الداخل والآخر من الخارج : كما لو صنع الواحد جميلا لارضاء ضميره . والآخر صنعه للشهرة ، أو الثواب ، أو المكافأة .

ثالثا - أن يكون أحد الباعثين مباشرا ، والآخر غير مباشر ، كما لو رام فوضويان قتل حاكم ، يتحين أحدهما فرصة لقتله وحده ، في حين أن

الآخر ينسف قطارا ، لأن الحاكم فيه . يقتل كل من في القطار مع أنهم ليسوا مقصودين ليصل الى غايته

رابعا - أن يكون الباعث كامنا مستورا : كما لو خدم المرء وطنه خدمة جليلة قاصدا خير أمته ، مستبطننا نيل الفخر لنفسه ، فقصده الفخر كامن مستور وإن لم يكن مرماه الأول . وفي كثير من الأحوال يتعذر الفرق بين هذين الباعثين

خامسا - أن يكون أحد الباعثين حزيا ، والآخر نفعا : كما لورام حزبان - أو شخصان من حزيين - أن يغيرا الحكومة . فأحد الحزبين أو الشخصين يصوت ضدها ، لأنها تخالف مبدأه ، وثانيهما لأنها تضر بمصالحه أو مصالح حزبه

على أن هذه الأحوال الخمس غير مستوعبة لجميع ضروب البواعث وأحوالها ، إلا أنها جمعت أهمها .
٣ - تسلسل الغايات وتعددتها :

قد تكون الغاية واحدة : كالوأأكلت لتسد الجوع . فالغاية هنا واحدة ، والفعل مباشر . لكن إذا طبخت ، فنضج الطبخ هو الغاية المباشرة ، والأكل من الطبخ هو الغاية الأخرى . فالغاية الأولى صارت وسيلة للأخرى . فالغايات يتشعب بعضها عن بعض : فأنت تتاجر وتربح ، ثم تنفق بعض الربح في قضاء الحاجات ، والبعض الآخر تضمه إلى رأس المال ، لكي توسع المتجر ، فاتساع متجرك غاية قائمة بنفسها ، ثم ترمي باتساع المتجر إلى جمع المال لكي تسعد أسرتك ، فاسعادها غاية أخرى . وهكذا دواليك الغاية الواحدة وسيلة للأخرى .

٤ - السرور والغاية :

اختلف الباحثون في ماهية الغاية فكانوا فريقين : فريق يقول : إن الغاية سرور النفس ، وإشباع شهوتها ، وترقية شعورها ، وفريق آخر يقول : بل هي

النفع المقصود والسرور يرافق القصد إلى الغاية . فمن ذلك لعب النرد مثلا أو أية مسابقة ، فاللاعب حين يشرع في اللعب ، لا يضمن الفوز ، بيد أنه يلتذ باللعب حين تستخدم المسابقة ، ومتى فرغ من اللعب لا يكون سرور الفوز عظيما ، كسرور اللعب نفسه ، فما السرور إلا استمرار اللعب طمعا في الفوز ، وأملًا في السبق . ومن ذلك أيضا أن كثيرين يجمعون المال ، ويدخرونه ولا يتمتعون به ، فهم يسعون إلى المال نفسه ، وليس السرور في المال المدخر ، وإنما السرور في جمعه والكدح في تحصيله ، فالسرور هنا سبق الغاية ، والغاية جاءت متأخرة .

ومن ذلك يتبين جليا أن السرور ليس غاية بل هو يرافق القصد إليها ، ومتى بلغ المرء غايته انتهى سروره ، وشرع يرمى إلى غاية أخرى لذلك بكى الاسكندر الأكبر حين انتهى من الفتح ، ولم يبق أمامه من البلاد ما يحتاج إلى تعبئة وحروب ، فكان سروره في الحرب للفتح ، فلما تم له ماسعى إليه ، انتهت لذته . وما تقدم يتبين أن الفريقين مختلفان في تحديد الغاية . فالأول يعد الغاية اللذة سوءا كانت اللذة في أثناء الفعل أم في نهايته . والغايات سلسلة كما أوضحت سالفا : فإذا كنت تبني بيتا ، فلا تلبث أن تشعر بلذة حين تنتهي من وضع الأساس ، لأنك وصلت إلى درجة من الغايات التي تتوصل بها إلى الغاية القصوى ، وهي سكنى البيت ، أو التمتع بأجرته . فقاصد الانسان سلسلة لا تنقطع والسلسلة تشمل حلقات ، كل حلقة قائمة بنفسها وفيها لذة ، فاللذة هي الغاية سواء أكانت الغاية نهائية ، أم مرحلة من المراحل

والفريق الثاني يعد الغاية ثمرة الفعل ، فمتى أثمر الفعل كان ثمره غاية . وأما السرور فيحدث في أثناء الفعل - أي أن السرور يرافق القصد إلى الغاية - هذا ، وسنزيد هذا الموضوع إيضاحا عند بحث موازين الأعمال الخلقية .

هـ - الغاية القصوى :

ما تقدم يتبين أن لكل من الفريقين وجهة ، والفرق بينهما قليل ، وللتوصل

إلى الحقيقة يجب أن تتعرف الغاية التى يتجه إليها الفعل ، ويرمى إليها القصد ، وهذا يستدعى العودة إلى المحرك للفعل ، لأنه سبب وجود الغاية ، فنبحثه بحثاً أوعب مما فعلنا من قبل . ذلك أنه مريبك أن الأَخلاق والسجايا التى تحرك الفعل ، منها غرائز بحتة كالشهوات والانفعالات . وأن الغرائز وظيفتها الحرص على بقاء الفرد والنوع ، فالقصد من الأفعال الحرص على الحياة والبقاء : فحين تأكل لدفع الجوع تفعل ذلك بغريزة الميل الممدى ، حرصاً على الحياة والبقاء ، وحين تهرب تفعل ذلك بدافع غريزة الخوف ، محافظة على الحياة والبقاء ، وحين تغضب تقاتل حرصاً على الحياة ، وهلم جرا . ومن ذلك يتبين جلياً أن للغاية دخلاً فى تحريك الفعل وشركة ، لأنها غرض الغريزة .

ح - الداعى أو الباعث

ظهر لك مما تقدم أن الغاية المرغوبة يرافق السرور وسائلها ، وأنها محركة للفعل أو من جملة محركاته : فالشهرة مثلاً غاية ، ومحرك للفعل المتجه إلى هذه الغاية . ولايضاح أمر التمييز بين المحرك من قبل الطبع ، والغاية التى تترامى لنا محركاً أيضاً للفعل المتجه إليها ، نوجه ذهن القارئ إلى مبدأ أعم من المحرك وهو الداعى أو الباعث للفعل : فالداعى قد يكون محركاً من قبل الطبع أو غاية مرغوبة ، أو تعقلاً أيضاً ، أو حالاً طارئة ، أو قد يكون كل ذلك أو بعضه ،

١ - الطبع بوصفه محركاً للفعل وحده أو بمعاونة الغاية :

المحرك من قبل الطبع الذى يستقل وحده فى نذب المرء للفعل هو الدافع الغريزى البحت ، ولا سيما إذا كان رئيساً : كالشهوات الغريزية والانفعالات ، فهذه تحرك المرء للفعل من غير أن ينظر إلى الغاية : فهو يغضب ويقاتل ، ويخاف ويفر ، ويجوع ويتلف على الطعام قبل أن يفكر فى الغاية ، سواء أكانت سارة أم مؤلمة . فالغاية - على هذا الاعتبار - لاتساهم فى تحريك الفعل ، وأما الطباع المتفرعة فلائها أقل سرعة فى عملها ، تقيم فى الذهن صورة الغاية المرغوبة ، وهذه الصورة تشترك معها فى تحريك الفعل : فحب المال

والشهرة ، والشفقة ، والميل إلى الاحسان ، وما إلى ذلك ؛ يقيم في الذهن صورة السرور بالحصول على الأمر المرغوب فيه ، فتكون الغاية المرغوبة عوناً قوياً في تحريك الفعل .

٢- التعقل بوصفه محركاً:

المحرك من طريق التعقل هو إثارة الوسيلة المحمودة التي يجب أن تجرى فيها حركة العقل إلى الغاية المرغوبة ، وهي التي تضبط الشعور وتجعله في قبضة التعقل : فقد تتحرك شفقة المرء عند رؤيته فقيراً ، وتدفعه إلى الاحسان إليه غير أن تعقل الغاية قد يقمع الشفقة ، لئلا يعود الفقير الشحاذة . فهنا كان التعقل باعثاً على قبض اليد عن الاحسان وتوخيخ الشحاذ هذا ، وقد يستقل التعقل وحده بتحريك الفعل فيحرك الخلق ، ويقيم له غايه مرغوبة عن نفسه وحينئذ يكون عمله عقلياً بحثاً كالحصم يواسي خصمه في كرب نزل به

٣- الحال بوصفها محركاً:

قد تعرض للمرء حال تسند اليه فيها الرياسة فلا يلبث أن تثير هذه الحال في نفسه حب الزعامة ، وقد كانت نفسه قبلاً غير طامعة فيها ولا طامحة إليها ، أو قد تعرض له حال ينال فيها شيئاً من المال ، أو يحسن صورة ، أو يتصدق مرة ، أو يناله شيء من التبجيل ؛ فيثير ذلك في نفسه حب الثراء ، والفن ، والاحسان ، والوجاهة ؛ فتكون الحال في الأصل ، هي علة تحريك الفعل .

العادة

لما كانت العادة ينبوعاً عظيماً من ينابيع الأخلاق حق علينا أن نقول كلمة في مبلغ أثرها في رفع الإنسان إلى درجات الكمال ، أو التدلى به إلى دركات الانحطاط

قال ابن خلدون في مقدمته : إن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من الحضرة ، وأصله أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه ، لا ابن طبيعته ومزاجه : فالذي

ألفه في الأحوال حتى صار خلقاً ومملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجملة ، واعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيراً صحيحاً . وقال في مقام آخر : إن أهل الحضرم لما ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة ، وانغمسوا في النعيم والترف ، وتوالت على ذلك منهم الأجيال ؛ أصبحوا عيالاً على غيرهم ، يبدأن أهل البدو لتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم في الضواحي ، وانتبأهم عن الأسوار ، ووثقهم بأنفسهم ؛ قد صاروا مدنيين يأسهم ، وصار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع ، أو استتفرهم صارخ اه من أجل ذلك قال علماء التربية : إن العادة طبع ثان ، وأثبتوا بكل ما في قوتهم من حجة ودليل ، أن تلقين الطفل الصدق ، والأمانة ، والعفة ، والاستقامة ، ألفاظاً منسلخة عن مدلولاتها ، ومعاني مجردة عن منازعها في عالم الحس ؛ سنة لا تورث إلا عقماً ، ولا تثمر إلا خيبة وندماً ، بل لا بد من إشراب النفوس تلك المعاني ؛ وتكوينها على العمل بالفضائل المقدم ذكرها ، حتى تحل منها محل الروح من البدن ، وتجرى فيها مجرى الدم من الشرايين ، ويصبح الصدق مثلاً طبيعة راسخة في النفس ، والعفة سمة من سمات الشخص ، ويتم للنفس عند مختلف الحوادث حال مبنية على عَمَدِ الاعتقاد الراسخ ، واليقين الذي لا يتزعزع . فكما أن البحر بمائه ، والشجر بشمره ، والدار بساكنها ؛ كذلك المرء بأدابه وأخلاقه ، فإذا غاضت مياه النهر ، وذوى ثمر الشجر ، وخلت الدار من ساكنها ؛ فقد حل بالعالم الهلاك . وإذا أقفرت النفوس من جميل العادات وسنى الخلال ؛ فقل على الدنيا العفاء ، وعلى العلم والعرفان السلام .

وليس بنافع بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خراباً

ذرائع تكوين العادة

ليس الإنسان آلة صماء يتلقى العادة من غير أن يكون للارادة نصيب في تمكينها وتثبيتها ، بل كل عادة تتخذ أو تهجر للارادة فيها قسط عظيم ،

وحسبنا أن تقتصر هنا على الذريعة الآتية : وهي تتلخص في التأليف تدريجاً بين البنية وما ينافرها : كالسموم واختلاف الأقاليم مثلاً : فالبنية بحكم استعداد تركيبها ومزاجها لا تلبث أن تتعود السم فلا يضرها ، وتحتمل حر الأقليم وبرده إلى أقصى درجاتهما . ولقد ثبت علمياً أن أشد ضروب السموم تُتَحَسَّى أولاً مقادير صغيرة ، حتى إذا اعتادها الجسم وألفها ، تقبل منها أقداراً كبيرة . ولقد أثر عن بقراط في شأن العادة قوله :

« مباشرة ما اعتدته ولو كان ضاراً في ذاته أقل أذى مما لم تعتدّه وإن كان نافعاً في ذاته » ، وكما أن العادة لا تتم إلا تدريجاً ، كذلك الإقلاع عنها لا يستطاع إلا تدريجاً . وهذا هو السر في أن القرآن الكريم حرم الخمر على ثلاث مراتب ، فقد ورد في الخمر ثلاث آيات : الأولى قوله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا أَثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِّنْ نَّفْعِهِمَا » فكان من المسلمين شارب وتارك ، إلى أن شرب رجل فدخل في الصلاة فحجرتزل قوله تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » فشربها من شربها من المسلمين وتركها من تركها ، حتى قيل إن واحداً من وجوههم شربها ، فكان منه أن شج رأس واحد من إخوانه ، ثم قعد ينوح على قتلى بدر بشعر الاسود بن يعفر وهو :

أيوعدني ابن كبشة أن سيئحيا وكيف حياة أصداء وهام ؟
أيعجز أن يرد الموت غنى وينشرني إذا بليت عظامي ؟
ألا من مبلغ الرحمن غنى بأني تارك شهر الصيام
فقل لله يمنعي شرابي وقل لله يمنعي طعامي

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج مغضباً ، فلما لقي الشارب ضربه بشيء كان في يده ، وعلى إثر ذلك نزل قوله تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ

فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ
وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ
أَنتُمْ مُنتَهُونَ». فقال عمر رضى الله عنه: انتهينا! انتهينا!

يعلمنا الله جل جلاله بهذه الآيات الثلاث قاعدة من أسس قواعد علم النفس،
ولقد جاءت التجارب فيما بعد مؤيدة لها، ودالة على أنه لا يجوز أن تهجر
العادة دفعة واحدة، ولو كانت ضارة كالخمر الذى حرمه القرآن على ثلاث
مراتب، إذ لو هجرها معتادوها جملة واحدة، لكان هذا هو السم القاتل،
لأن الخمر - كما يقول الأطباء - ينفذ أثرها إلى أعماق المراكز العصبية، فتورثها
حدة عنيفة، فاذا مات ترك شربها فجأة، حدث اختلال واضطراب فى النظام
العصبى بالانتقال جملة واحدة من حال الحدة القصوى، إلى حال السكون
التام، فتختل الموازنة الحيوية، دون أن يتأهب الجسم لهذا الاختلال.

من أجل ذلك يجب أن تكون طريقة هجر العادة والاقلاع عنها بمائلة
لطريقة تكوينها واعتناقها. ولولا خشية الاطالة والافتئات على مباحث علم
النفس لضربنا المثل الكثيرة لبيان الذرائع المختلفة لاعتناق العادة وهجرها.

الغريزة والعادة

الغرائز أصل من أصول العادة، وقاعدة من قواعدها الركنية: ذلك بأن المرء قد
تدفعه جبلته وغريزته إلى أن يفرك يده جبهته عند التفكير فى أمر ما، ثم لا يلبث
أن يعود إلى فرك جبهته ثانية وثالثة كلما ساورته فكرة، أو تهتم أمرا دون
تروى وانتباه، فيصبح هذا الفعل الغريزى عادة لا تتخلف، إلى غير ذلك من المثل
عما يدل على أن الجبلية تدفع بصاحبها إلى عمل ما، حتى إذا تكررت وتواترت نجمت
العادة، وصارت هى الحاكمة الغالبة. ولا يختلطن الأمر على المطلق، فيظن الغريزة
والعادة شيئا واحدا، إذ هما وإن اتفقتا فى أن كليهما تسوق أبدا إلى أعمال
آلية قهرية، غير مسبوقة بتروى وتدبر مع إحكام تام، فإن الغريزة هى الدافع
الفطرى الأول إلى اقتراف العمل، والعادة هى الدافع الثانى إلى تكراره.

على أن العادة قد تكون اختيارية كسبية غير مستندة إلى غريزة ما : وذلك كمن يختلف إلى منزله ابتغاء استراحة الجسم ، واستراحة النفس ، فما يعتم أن تقوى فيه نزعة التردد عليه ، فيجد نفسه مسوقا إلى التوجه إليه ما سنحت له الفرصة . وهذا الضرب من العادة شبيه بالغريزة في الغاية ، مباين لها في الوسيلة .

وقد سبق أن أوجزنا الكلام في الغرائز ، لأن التنقيب عن حقائقها وأقسامها يستدعى بحثا مطولا ليس من شأن الخلق أن يستوعبه - وهو شأن الباحثين في علم النفس - غير أن الخلق لا يسعه إغفال ذكر الغرائز ، لأن الخلق مكون من أصل داخلي هو الغرائز ، وأصل خارجي ، ويندرج تحته البيئة بأقسامها ، والعادة والتربية والتعليم . والأصل الداخلي هو جماع الصفات النفسية القابلة للتحول والنمو والذبول ، على حسب ما يوافقها أو يشاكسها من الأحوال ، ومن هذه الصفات ما يرثه المرء من أبويه وأسلافه ، وتلك صفات خاصة ، ومنها ما يرثه من نوعه وتلك صفات عامة : فمن الأولى صفات الشجاعة ، والاقدام ، والبأس ، وكرم الضيافة في أبناء العرب الذين نشأت آبائهم منتبذين الأسوار ، مساكنين الوحوش والضواري ؛ يذلون قراهم ، ويؤثرون على أنفسهم ضيفانهم . ومن الأخرى الحذر ، والمدافعة عن النفس ، واتخاذ الحيلة لما عساه أن يحل بها ، إلى غير ذلك من الصفات التي اكتسبها الإنسان في بداوته من ضروب الحوادث حتى أصبحت له خلقا ، وتنزلت عنده منزلة الجبل ، فورثها بناؤه ، غرائز فيهم تدفعهم إلى العمل قهرا واقتسارا .

يستخلص مما تقدم أننا نؤيد رأى القائلين : إن الغرائز تورث ، وإذ أننا فرقنا فيما سلف بين العادة والغريزة ، فواجب أن نضيف إلى الفوارق بينهما المقدم ذكرها (أن العادات لا تورث) : ذلك بأن رعاية الأغنام يترون أذناها من أحقاب متطاولة . وما رأينا تتاجها قد ولد دون ذنب وأن نساء أهل الصين يلبسن منذ أجيال أحذية ضيقة من الحديد ، لتصغر أقدامهن ، وماتم هن ذلك وقد توالى عليهن الادهار والاحقاب ، وأن المسلمين وقبلهم

اليهود يختنون أبناءهم ، ومارأينا من وُلِدَ منهم مختونا إلا شاذاً من شواذ الخلقة ، ولقد يعترض على منع وراثته العادة بما هو معروف مسلم به من أن كريم المحتد ، عريق النسب ، يحىء بأبناء كرام النفس . وأن الجياد تورث ذراريها سرعة العدو . وأن كلاب الصيد تأتى بنسل ممتاز في الصيد والقنص ، وجواب هذا أن الموروث في الأحوال الثلاثة هي العناصر المكونة للعادة . أعنى الغرائز كما قدمنا . ، بدليل أن نتاج الجياد لو ترك دون تمرين وترويض ، لفقد ميزته ، وقصر عن أصله . وكذلك القول في الباقي .

وصفوة القول أنه لا جدال في أن الأبناء يرثون من والديهم أو أسلافهم بالخصائص الآتية :

الأولى ، الخصائص الجسدية : كطول القامة وقصرها ، وياض اللون وزغبته ، وزرقة العيون وسوادها ؛ وسباطة الشعر وتجعده ، وجهارة الصوت وضعفه . بيد أن تشابه الأبناء بوالديهم أو أسلافهم ليس له نظام خاص يرجع إليه .

الثانية : الخصائص العقلية : لقد رأى بعض الخلقين أن الأبناء يرثون من آبائهم صفات عقلية ، قائلين : إن كبار المفكرين يرزقون بأولاد أولى عقول كبيرة ، والحق أن هذه قاعدة غير مضطردة ، فقد دلت التجارب ، وشهد التاريخ أن بعض المجانين وضعفاء العقول قد يرزق أولادا ذوى نظر ثاقب ، ورأى سديد ، وقد يرزق البله أولادا هم غاية في حدة الذكاء . وتوقد الذهن (١) وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

الثالثة : الخصائص الخلقية : لقد دل البحث على أن الأولاد يشبهون

(١) ورأينا أن أحدا لا يستطيع تعيين الجهة التي تأثر بها المولود ، فقد يكون الأب ذا عقل كبير ، والام ضعيفة التفكير ، وقد يكون الأب أبلها والأم ألمعية ، وقد يحىء الولد متأثرا من ناحية أبيه أو أمه ، وقد يتفق الوالدان ذكاء أو بلاهة ولا يأبى الولد مشابها لهما ، بل يرث من أصول أبيه أو أمه ، وقد يعطي مواهب غير موروثه .

آباءهم في كثير من الميول والصفات الخلقية حسنها وقييحتها ، فترى أبناء الأسر التي ألفت الكرم والبذل كرماء أسخياء ، العطاء سجيتهم ، والايثار ديدنيهم ، وترى أولاد الأسر المشهورة بالاقدام والشجاعة ذوى بأس شديد ، يخوضون غمار الموت ، ويقتحمون المخاطر ، غير هيايين ولا وجلين ، وترى أولاد الأسر التي نشأت في النفاق ، ورضعت ثدي الكذب والرياء ، ذوى حيل وخداع ، المين خلتهم ، والبهتان صفتهم ، يتلوتون ألواناً ، إذا وعدوا أخلفوا ، وإذا حدثوا كذبوا ، وإذا أوتمنوا خانوا .

وقد نشاهد في الانسان صفات خلقية لا بد أن يكون ورثها من نوعه ، فمنها صفات الحقد ، وحب الدفاع عن النفس ، والتحفظ لالتقاء الحوادث ، إذا سار في طريق مظلم رأته يتلفت عن كل جانب ، يتوجس للنبآت (١) والهيعات ، ومنها تقطيب حاجبيه ، والكشر عن أنيابه إذا أخذته ثورة الغضب للانتقام ، أوللذود عن نفس أو عرض أو مال . ومن هذه الصفات الخلقية النوعية ، أن الانسان في أول أمره قد تعلم باختباره الطويل أنه إذا سلك طريقاً مخوفاً مثلاً أخذ حذره ، فتحفز للقاء عدوه من الوحوش الضواري ، وبتقادم العهد استحال الخلال التي كان يفعلها السلف طوعاً واختياراً ، إلى حركة قسرية يفعلها الخلف دون تنبه وشعور . وذلك لأن كل خلية من الدماغ مثلاً قد أتقنت في غضون الأزمنة الغابرة وظيفتها حتى صارت قادرة على إنجازها دون مشورة العقل ؛ وعلى عمر المدهور والأحقاب نشأ في الذهن أداة فرعية ، تنزل منزلة الجبلية ، وامتزجت بطبيعة الانسان فورثها الخلف عن السلف غريزة وجبلية ، لا عادة ومألوفاً .

البيئة

البيئة ما يحيط بالانسان من مؤثرات حسية ومعنوية ، وإليك ما يقول ابن

(١) النبآت : جمع نبأة : الصوت ، والهيعات : جمع هيعة : الصوت الذي تفرع منه ونخافه من عدو . وقد هاع يهيع هيوفاً إذا جبن

(٥ - الخلق الكامل)

خلدون في شأنها : إن سكان الأقاليم المعتدلة هم أعدل البشر ألواناً وأجساماً وأخلاقاً وأدياناً ، ومن أجل ذلك اختصهم الله بالنبوات ، لأن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم ، قال تعالى (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) . وذلك ليتم القبول لما يأتيهم به الأنبياء من عند الله . وسكان الأقاليم غير المعتدلة يبعدون عن الانسانية بمقدار قربهم من الحيوان الأعجم في أمزجتهم وأخلاقهم ، فلا يعرفون نبوة ، ولا يدينون بشريعة ، إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال . وهانحن أولاء نرى أهل السودان متّصفين على العموم بالخفة والطيش ، ولعين بالرقص على كل توقيع ونغم ، وليس لذلك من سبب إلا أنهم لما سكنوا الاقليم الحار دهوراً طويلة استولى الحر على أمزجتهم ، وفي أصل تكوينهم ، فأصبحت نفوسهم تكاد تكون أبداً منتشية فرحاً وسروراً ، بحكمة انتشار الروح الحيوانية فيهم وسريانه في أعماق جسامهم ، وكانوا بذلك أقرب إلى الطيش من كل أمة أخرى . ثم قال في مقام آخر عند بيان تأثير حال المعيشة في العقول والآنفس ما سلخصه : إن أهل الأقاليم المخصصة العيش ، الكثيرة الزرع والضرع ، والآدم والفواكه يتصف أهلها غالباً بالبلادة في أذهانهم ، والخشونة في أجسامهم ، وإن المقلين المقتصرين على الألبان ، وخفيف الأغذية ، أحسن حالاً في جسامهم وأخلاقهم من المنغمسين في بحار الترف والبذخ : فالوانهم أصفى ، وأبدانهم أنقى ، وأشكالهم أتم وحسن ، وأخلاقهم أبعد من الانحراف ، وأذهانهم أثقب في المعارف والادراكات ، أضف إلى ذلك أن المتجافين عن اللذات في البادية والحاضرة أحسن ديناً وإقبالاً على العبادة ، وأقوم أخلاقاً وأمتن مذهباً من أهل الترف والرّفهنية الذين قست قلوبهم وطمست بصائرهم بما أكثروا من الطعام والشراب . ولقد دلت التجارب على أن أهل الخصب والترف يسرع إليهم الهلاك أكثر من المتقشفين في غذائهم إذا نزلت بهم السنون وأخذتهم المجاعات . اهـ بتصرف

يشير ابن خلدون إلى أن أهل الترف والبذخ نكبة على بني الانسان في

السراء والضراء . ولقد أعرب من قبله الامام عليّ عن رأيه فيهم إذ يقول :
(وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مثونة فى الرخاء ، وأقل معونة له فى
البلاء ، وأكره للانصاف ، وأسأل بالالحاف ، وأقل شكرا عند الاعطاء ،
وأبطأ عذرا عند المنع ، وأضعف صبرا عند ملبات الدهر ؛ من أهل الخاصة
وإنما عماد الدين ، وجماع المسلمين ، والعدة للأعداء ؛ العامة من الأمة ،
فليكن صفوك لهم وميلك معهم) .

هذا ابن خلدون وقد عاش فى القرن الثامن الهجرى قد جاء فى كلامه
تصريحاً وتليحاً بما أماط اللثام عن البيئة وصنوفها ، وتأثيرها فى جُسوم
نبي الانسان وعقولهم وأخلاقهم ، ولذا يحمل بنا أن نقول كلمة فى رأى
الغريين فيها :

البيئة الطبيعية : الأرض وطن الانسان ومهده ، وكل ما حوت من
بحار وأنهار وأودية وجبال وحيوان ونبات ؛ مؤثر فى جسمه وعقله وحاله
وخلقه . وقد تضمنت الآية الآتية عناصر هذه البيئة (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ
مِهَادًا ، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ، وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُباتًا ،
وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ،
وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ، لِنُخْرِجَ
بِهِ حَبًا وَنَبَاتًا ، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا)

هذه الأرض عليها أقوام أهل صناعة وتجارة وحضارة وإمارة أكبوا
على العلوم فحصلوها ، وسعوا إلى الحضارة فبلغوها ، ثم شحذوا سيوف عقولهم
فكشفوا كنوز الأرض ومعادنها ، وأعماق البحار وأغوارها ، وبذلك سخرت
لهم السنن الكونية ، فأحالوا الماء هواء ، وقلبوا الليل نهارا ، واستطاعوا
أن يتناجوا والبلد طروح ، والدار متراخية

وعليها أقوام لاتزال تهيم فى يبداء الوحشية والجهل ، أحوالهم فطرية ،
وعقولهم همجية ، كأن الزمان عليهم وجد ، ونوائب الحداث عليهم تألبت ،

فقلوبهم قاسية ، وأخلاقهم فاسدة ، فهل لذلك من سبب ؟ إن من أهم الأسباب حال الأقطار الطبيعية ومناخها ، وانضرب لذلك مثلاً : لقدلبث أهل الولايات المتحدة زهاء ثلاثة قرون يقطنون الأصقاع التي إلى الشرق من نهر « مسيسيبي » لا يرحونها إلى غيرها ، ولما طال عليهم الأمد ، وعيل صبرهم من الدأب على قطع الغابات ، لاعداد مكانها للزراعة ؛ نفر فريق منهم للضرب في الأرض ، فكشفوا السهل الكبير ، فألفوه خصبا وافر المياه ، فأثاروا الأرض وزرعوها ، وتعهدها بالسقى والتنمية ، فكثرت أرزاقهم ، ونما عددهم ، واختطوا الأمصار والمدن وبلغوا من الرقي والجسارة ما يذو به أهل أوربة . على أن نظرة في أحوال الأمم البحرية تبين ما أفادتهم مجاورة البحار من خلق المكافحة ، والمغالبة والمثابرة والمصابرة : فالملاحون لكثرة ما يعانون من منازلة الخطوب ، نما في قلوبهم حب الحياة التي يدمون عنها في كل يوم نوائب جمّة ، وكوارث متنوعة ، حتى إذا اشتدت بهم الريح في يوم عاصف ، واضطرب البحر وتلاطمت أمواجه ؛ هبوا لمقاولة الفواعل الكونية ودرء المخاطر المكنية ، وبذلك قويت قلوبهم ومضت عزائمهم .

ولقد ثبت عليها أن إغفال استخدام أعضاء الجسم يوهن القلوب ، فتمتلئ بالمخاوف ، ويفسد العقول ؛ فتكتظ بالوساوس ، وأشباح المخاطر . فما يلاقه سكان شواطئ البحار الزلازل الأرضية ، فكثيرا ما ترتج الأرض ، ويتولاها الاضطراب ، ويشتد صخب البحر ولججه ، فتكسر أناجر السفن ، وتتقطع سلاسلها ، وعند ذلك يعم الفزع ويبرز الناس من بيوتهم ، حتى الطيور من وكناتها ، والسباع من عرائنها ، والفمل من قراها ، ولطالما ارتجت الأرض فدمرت بلاداً كانت بالأمس عامرة ، لا يجد الباحث عنها في عرصاتها إلا أطلالا بالية ، ورسوماً دارسة ، ذلك إلى عقول طاشت ، وأموال ضاعت ، وأبناء فقدت ؛ كل هذه الشدائد كونت أخلاقهم فجعلتهم في عامة أوقاتهم على حذر واتباه ، لا يذوقون النوم إلا غررا ، متأهبين دوماً لمقاولة الحوادث ، ومكافحة النوائب .

وما تأثير البيئة الطبيعية في الأخلاق بأقل منه في العقول ، والتاريخ بيئة ناطقة بأن الأودية الخصبة الغنية بالأشجار والنبات كانت ولا تزال نبعا يفيض على عقول ساكنيها ، رقيق الخيال ، ولطيف الوجدان (الشعر والنثر في الأندلس وبغداد) ألم تسمع الكاتب الشهير « واشنجتون إرفنج (١) » الذي استهوى الأبواب ببدايع طرفه ، وخاب الأفتدة بدقائق وصفه ، إذ يقول : إن كان في طبعي لطف ودمائة ، فلأني نشأت على ضفاف بحر « إتش » (٢) إذ كنت وأنا حدث أعتقد أن بهذا النهر روحاً يقوم به ، وأنه قد طوى على الحرية والشجاعة والصدق والاستقامة ، لا يعرف المصانعة والمماذقة والخداع ، خلصت نيته ، وطهر قلبه ، واستقام مجراه ، وعلته السكينة ، وخيمت عليه السعادة ، فاستمد عقلي منه ، واستنار خيالي بنوره .

(البيئة الاجتماعية)

ليس ذلك مقصورا على التربية المنزلية ، بل قد يكون ذلك التأثير للجو والمعاشرين ، فان للأجواء من التأثير ما لا ينكره المطلع على خصائصها ، ألا ترى البلاد الزائدة الخصب إذا قلت فيها المراحة وجد أهلها من ذلك ما يكفيهم مثونة الحياة على قليل أتعابهم ، فيركنون إلى الراحة والبطالة ، قانعين بما سهل لديهم من وسائل المعيشة ، فيعتادون الكسل ، ويقل فيهم خلق المثابرة على العمل ، ويؤثرون الراحة على المشقة . ويقرب من هؤلاء من وكلوا أمور نفقاتهم إلى الخدم ، وكلفوهم القيام باستدراار الأرزاق : انظر إلى أهل السودان لا تجد في أخلاقهم زمن إكثارهم من الأرقاء والخدم ، المداومة على الأعمال واحتمال المشاق في سبيل الرزق ، وإلى أهل الحجاز في فرضهم على عبيدهم العمل ، وإعطائهم الأجر ، فان ذلك حجب إليهم الراحة ، وعدم الادمان على

(١) هو أديب قصصى أمريكي ولد سنة (١٧٨٠) ومات سنة (١٨٥٩ م)

(٢) هو خليج متسع على السواحل الشمالية من القسم الانجليزى من أمريكا

الأعمال الجالبة لخيرات الأرزاق ، مع ما يساعد على هذا من الحرارة في بلاد السودان وماشا كلها ، فان شدتها تورث في الانسان خمودا في القوة الفكرية والبدنية ، حتى لا يستطيع المثابرة على كثرة استعمالها ، اللهم إلا إذا زاحم أولئك أقوام ذوو غيرة وعمل ، فان مخالطتهم إياهم تولد فيهم غيرة ونشاطاً ، لما جبلت عليه النفوس من حب استباق المنافع والخيرات ، ولا نذهب بك بعيداً ، بل نوجه نظرك إلى نفسك وقومك قبل وفود أبناء الأمم الأخرى إلى ديارهم ؛ تجد أنهم كانوا لا يثابرون على الأعمال ولا يتسابقون في الوصول إلى ما يجلب الثراء ، فكنت ترى الزارع لا يشتغل إلا أياماً قليلة في تهيئة أرضه للزراع ، وإلقاء البذر ، ثم يتركه وشأنه بدون سمد وتنقية من الحشائش الغريبة حتى إذا جاء وقت حصاده نقله إلى البيدر ، واشتغل بدراسته وتدريبه ، وقضى الكثير من أوقاته في ملازمته منزله ما بين نوم ولعب ومسامرة ، قانعا بما يكفيه من تلك الأرزاق التي حصل عليها بقليل من العمل . وكذلك التاجر كان لا يسعى ويكد في جلب عروض تجارته من المصانع التي بالأماكن البعيدة ولو كانت رخيصة الأثمان ، ولا يفكر في اتخاذ طريق للوصول إلى الجيد الرخيص منها ، مفضلاً الاكتفاء بالقليل من الراحة من عناء الأسفار ، وشتات الأفكار ، عن الكثير المستصحب لذلك ، ولكن لما زاحمه الغرباء في طريق الكسب وموارد الرزق ، ووجد من نشاطهم ما يعوقه عن الوصول إلى مرافق الحياة ، أخذ في الحركة والمثابرة أكثر من حالته الأولى ، وإن كان لا يزال في ذلك قليل الكد ، قصير الفكر ، لو نسبناه لمزاحمه ، فان تغير الحال أفهمنا أن المخالطة تؤدي إلى تغير في الخلق : فلو خالطنا أقل منا كدا وأخط فكرنا نما فينا خلق المزاحمة والمثابرة . غير أن ذلك لا يمنعنا من القول بأن تلك المخالطة أظهرت فينا حب التأنيق في المآكل والمشارب والقصور والرياش ، فأصبحنا مع كدنا وعملنا القليل نبذل ما زاد عن الكسب والربح على تشيد تلك القصور الباذخة ، والملابس المنوعة ، والألوان المختلفة ، وباليتنا وقفنا عند ذلك ، بل

تجاوزناه إلى الاكثار من معاقرة الخمر ، والمباراة في ميادين القمار ، والمضاربات
 المجتاحة للثروة ؛ فذهبت أموالنا ، وصاعت أرباحنا . خالطنا قوم أشد منا معرفة
 في طرق الثراء والاقتصاد ، وأقدر تفتنا في وسائلهما ، ذوو جد ونشاط
 رسخ فيهم خلق المثابرة ، فأكسبونا منه قليلا ، وأقبلنا إقبال الهيم على مالديهم
 من الزخارف ، ومن وسائل الثروة التي نحن فيها عيال عليهم ؛ كالمضاربة
 وماشا كلها فربما نخلق قليلا من الأولى وخسرنا أضعاف ذلك من الثانية ، ولو كان لدينا
 سياج من العقل الراجح ، والرأى الركين ما كسبنا إلا ما به صلاحنا وفلاحنا .
 إذا نشأ المرء بين أسرة مهذبة سرت أخلاقها إليه من حلم وأناة
 وشجاعة وقوة إرادة ، وغير ذلك من الفضائل ، فاذا عاش كبيرا بين قوم أخيار
 بررة لا يعرفون النقيصة ، ولا يالفون سوى الفضيلة ؛ أصبح كاملا فاضلا ،
 خيرا لنفسه ، خيرا لأسرته ، خيرا لأصدقائه وقومه ؛ فانه لا يجد لديهم مدحا
 إلا للفضيلة ، ولا ذما إلا للرديلة ، فيعتاد ذلك ، وتتأصل فيه الفضائل ، ويجانب
 الرذائل . وعلى العكس من ذلك التريبة الفاسدة ومعاشرة الأشرار ، ذوى
 الدعارة والفجور ، فانه بمصاحبتهم لا يبتعد عن الرذيلة المنطوية في أقوالهم
 وأفعالهم ومدائحهم ، وغالب أحاديثهم ، فيمرن عليها ، والمرء إذا اعتاد شيئا
 لا تردعه مذامه ، ولا تنفر قلبه قبائحها ، بل ربما تخيلها محاسن . أليس الشرف
 الانسانى يمنع صاحبه من ارتكاب الرذيلة ، فتراه يتباعد عنها استحياء وخشية
 من سوء الأحداث ، فاذا وجد قرنائه لا يتحاشونها ، سهل عليه أن يغشاها
 مرة أخرى ، فلا يجد فيها غضاضة على حسن سمعته ، وثلها لشرفه ، وهذا ما يحملنا
 على القول بأن الشرف الانسانى كالزجاج إذ كسر تعسر جبره

المرء يتخلق بخلق أحبابه وأصدقائه ، ومن يعتقد فيهم الكمال والفضل
 فان المفضول مولع بالتخلق بأخلاق الفاضل ، وهذا أمر سائر في عامة الناس ،
 كما نص عليه العلامة ابن خلدون ، ولذا ورد مامعناه « المرء على دين خليله ،
 فلينظر أحدكم من يخال » وعلى هذا فاذا رأيت قوما يقلدون أخلاق أمة

أخرى وعاداتها، ويألفون مألوفاتها، فاحكم بأن عظمتها ملأت قلوب أبنائهم حتى إذا حاربوها لا يقدمون على ذلك إلا وقلوبهم بين جناحي طائر، لئلا يملأها من تجلّة تلك الأمة وإكبارها، فلا يلبثون أن ينكصوا على أعقابهم مغلوبين مخذولين.

يؤيد هذا ماورد (إذا شابه الزى الزى فقد شابه القلب القلب فافتى أثره فيما يستقبحه وما يستحسنه. ومن ثم حظر بعض الدول القوية على الجند تقليد غيرهم من جند الدول الأخرى

العلم وأثره

إن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا، ولا نظام لآلئ إلا بانتظام الدنيا، ولا يستقيم نظام الدنيا إلا بتفهم عالم المخلوقات، بالبحث عن طبائع الموجودات وخواصها، وذرائع استخدام ما لا غنى عنه، في بقاء الإنسان أو كماله، ثم استقرار شئون الاجتماع وما يتبع ذلك من سنن التعاون على أسباب المعيشة وضبطها وطرق إصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس، وإرشادها إلى ما فيه رفعتها في الدنيا وسعادتها في الآخرة. ومن هذا يتبين أن الإنسان لا تتم له حكمة خلقه، وتسخير هذا الكون له إلا بالعلم والتربية، فهما سعادة الدنيا، وهما طريق الفوز في الآخرة. قال تعالى وهو أحكم القائلين: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ الْأُمِّيَّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» فالقرآن حوى المقصدين: التعليم، وهو مثقف العقول ومروضها. والتربية، وهي مقومة الأخلاق ومطهرتها

العلم هو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والمصبر على السراء والضراء، والوزير عند الإخلاء، والقريب عند الغرباء، حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم، أهله سادة قادة، آثارهم متبعة، وأفعالهم مرموقة، أولئك سرج الأزمنة، وأئمة الخير.

وكفى العلم رفعة قوله تعالى في محكم كتابه العزيز: (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) وقوله جلّت حكمته: (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) وقوله عز شأنه: (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْحِكْمَةَ تَزِيدُ الشَّرِيفَ شَرَفًا، وَتَرْفَعُ الْمَمْلُوكَ حَتَّى يَذَرِكَ مَدَارِكَ الْمُلُوكِ» وقوله عليه الصلاة والسلام: «أَقْرَبُ النَّاسِ مِنْ دَرَجَةِ النَّبُوَّةِ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْجِهَادِ» أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بسيوفهم على ما جاءت به الرسل، وجاهدوا أنفسهم على اتباع ما جاءت به الرسل. ولقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، فرأى مجلسين: أحدهما يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه، والثاني يعلمون الناس فقال: «أَمَّا هَؤُلَاءِ فَيَسْأَلُونَ اللَّهَ تَعَالَى فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَيَعْتَمُونَ النَّاسَ، وَإِنَّمَا بَعِثْتُ مَعَدًّا» ثم عدل إليهم وجلس معهم. وقال صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَتْ مِنْهَا بَقْعَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَ الْكَلَاءُ، وَالْعَشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا بَقْعَةٌ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا عِزًّا وَجَلَّ النَّاسَ، فَشَرَبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ قِيَعَانِ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تَنْبِتُ كَلَاءً»، الأولى لمن تعلم واستفاد وأفاد، والثانية لمن تعلم وأفاد غيره ولم يفد نفسه، (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ) والثالثة للمحروم المطرود (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غَشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) العلم الذي نعينه ليس استظهار المسائل، واستيعاب فروعها، بل هو تحصيل ملكة في الاحاطة بمبادئ العلوم، والوقوف على مسائلها، واستنباط فروعها من أصولها، وإذا لم تحصل هذه الملكة، فلا أثر له في تكوين القوى العقلية: ذلك بأن العلم صناعة، وكل صناعة منظمة يرجع إلى النفس منها أثر يكسبها

رجاحة في العقل . وإضاءة في الفكر ، ووفرة في الكيس ، يجعل صاحبه أدنى إلى كمال الذهن . وتفهم حقائق الأمور ، والاختذ بالأحسن من الأعمال والعادات والمعاملات ، مما يزيد في بناء الأخلاق ، ويمكن دعائمها ، وهذا هو سر التذرع بتريية العقول وترويضها إلى بلوغ كمال الأخلاق . ألم تر (كما يقول ابن خلدون) إلى أهل الحضرم مع أهل البدو كيف تجدد الحضري متحلياً بالذكاء ، ممتلئاً من الكيس ، حتى أن البدوي ليظنه قد فاته في حقيقة إنسانيته وعقله ، وليس كذلك ، بل إن الحضري قد جادت ملكاته في الصناعة والآداب والعادات ، حتى ظن كل من قصر عن بلوغ تلك المرتبة أن ذلك ناشئ عن كمال في عقل الحضري ، وأن نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرته ، وهذا خطأ : فكأن من بدوي هو في أعلى رتبة من الفهم والكمال في عقله وفطرته ، بيد أن الحضري يفترقه بما كسبه من روثق الصناعة وطلاء التعليم . انتهى بتصرف

هذا الضرب من التعليم هو الذي يوقظ الشعور الغرزي ، وينمي العقول ويروضها على طويل التفكير ، والنظر في كتاب الكائنات ، ونظام المخلوقات حتى تقوى ملكة الترقب ، ويتحقق سر قوله تعالى (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيَاتِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

ولقد جنى الغريون ثمرة هذا النمط من التعليم فتفهموا به أسرار الصنعة الإلهية في الكون ، وأخذوا ينتهجون نهجها ، فدأبوا على محاكاتها ، والجرى على سنتها ، وبذلك ارتقت صناعاتهم ، واتسعت متاجرهم بما سخر لهم من الأرض ومعادنها ، والبحار ومسالكتها ، والرياح ومهابها ، ومن ذلك أنهم يمموا وكنات الطيور ، فأروا ضروباً كثيرة ، وأجناساً مختلفة القدو والتقطيع والألوان ، ثم راقبوا عن كذب الحمامة وهي في محضنتها ، والقطا وهي في أفحوصها ، والبازي وهو في ميقعته ، ثم نظروا في خلق الطير عامة نظرة استقصاء وتبع ، فتفهموا أقسام ريش الجناح : من القوادم

والمناكب والأباهر والخوافي ، ثم فطنوا الى تكوين منقارها ودوابرها وقطونها ، فأماطوا اللثام عن علاقة هذا التصوير البديع بطيران الطير وعكوفها ، فشاهدوا منها القوى والضعيف ، والسريع والخفيف ، والبطيء والثقيل ، وكلها لا تعدمها الصرامة ، وذكاء الفؤاد والشهومة ، ثم صنعوا على مثلها سفائن هي كالطير إذا نشرت (١) ثم إذا أسفت (٢) أو كفتت (٣) ، أودومت (٤) في السماء ، أو اصطفت (٥) ، أو حامت (٦) على شيء . لقد نقلوا الى هذه السفائن هيئة العقاب إذا خاتت (٧) ثم إذا كنعت (٨) ألم تركيف تدف (٩) دفيف الطائر فهي كالجمامة في زوفها (١٠) والعقاب في وحاتها (١١) تخترق جو السماء ، فلا اضطراب ولا اختلاط ، وتنفذ في طبقات الجو صعدا ، وريما حال السحاب دونها ، فتوارت عن الأبصار .

نعم إن الله سبحانه وتعالى قد يخص بالطالفة الخفية من يشاء من عباده ، فيفيض عليه من خزائن مواهبه ، رزاقه عقل ، وزيادة معرفة ، تخرجه عن حد الاكتساب ، يصير بها راجحا على ذوى التجارب والآداب . أولئك الانبياء صلوات الله عليهم الذين أدركتهم العناية الأزلية ، فأشرقت على بواطنهم أنوارها الكونية ، وشملتهم الهداية الربانية ، فاتصفت بالفطنة والذكاء قلوبهم ، وأسفرت عن وجه الاصابة ظنونهم . وحسبنا دليلا آثارهم وأعمالهم وسيرهم وأخبارهم ، وتلك مرتبة دونها خرط القتاد ، فلا ينبغي لعاقل أن يطمع في بلوغها بالكسب والعمل والمثابرة . بيد أن هناك مرتبة هي من متناول العقول التجريدية الكسبية يبلغها من ييضت الحوادث سواد ملتهم ، وأخلقت التجارب

-
- (١) نشرت : أسرع في هويها (٢) دنت من الارض وكل قريب مسف
(٣) تقلبت في طيرانها ظهرا لبطن (٤) جعلت تدور (٥) صفت أجنحتها دون
حركة (٦) استدارت عليه (٧) انقضت (٨) ضمت جناحيها للاقضاض (٩) دف
الطير حرك جناحيه ورجليه في الارض (١٠) زوفها أن تنشر جناحيها وذنبها
وتسحب على الارض (١١) وحاة العقاب هو صوت اقضااضها

لباس جدتهم ، وتلك هي التي يطمع فيها المتمسكون بأهداب العلم ، الدائبون على دراسته ، العاكفون على العمل به . وآية هذه المرتبة أن يكون صاحبها بحيث لا يرى شرفا إلا شرف العقل ، ولا غنى إلا غنى النفس ، يقول إذا فكر ، ويعمل إذا تدبر ، رأيته في إمداد ، وعقله في إرشاد ، عند العقلاء موسوم بالعقل ، مرموق بعين الفضل

(التربية من الطفولة)

نريد بها هنا تنمية الفضيلة النفسية والجسمية تدريجا حتى تصل بالمربي إلى حد الكمال فيهما

ذكرنا فيما سبق طرفا مما يراه بعضهم من أن الطفل يولد خاليا من مدركات النفس الناطقة التي تكلمنا عليها ، والآن نفصل القول تفصيلا : استعداد الفطرة لما يليق فيها :

ليس لدى الطفل إلا المدركات الحسية التي تناسب القوة الشهوية والغضبية فهو في هذه الحال بمنزلة الحيوان ، يهوى المحسّات إذا تخيل فيها نفعاً ، وينفر منها إذا تخيل ضرراً فقومته العاقلة بمنزلة جوهرة نفيسة خالية من النقش قابلة لما يرسم فيها من حسن أو قبيح ؛ فهو أمانة في يد أبويه أو من وكلت إليه تربيتهم (فعليه أن يحفظه من موارد التلف) فان نقش فيها المعلومات الحقّة المفيدة ، وطبعه على الأخلاق الفاضلة ، وجنبه الأباطيل والرزائل ، وعوده خير الأعمال ؛ أثابه الله على حفظ تلك الأمانة ، والعمل الصالح الذي كان به كمال ذلك الطفل ، ذلك الكمال الذي أفاده ، وأفاد ذلك المربي وأسرته ومعاشره بل أمته وبنى الانسان ، وإلا كان ضارا لنفسه بعدوله عن حفظ ما أوّتمن عليه ، ضارا لتلك الأمانة ، ولأسرتها ولأمتها ، يرشد إلى هذا قوله عليه السلام « كل مؤلود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » والمرء كما هو مسئول عن إصلاح نفسه وإفسادها مسئول عن إصلاح نفس من وكلت إليه تربيته وإفسادها .

واجب الأم :

ينبغي للأم أو من يقوم مقامها أن تتعهد الطفل في نظافة جسمه وملبسه وما كله ، فلا تتركه لحظة غير نظيف فان ذلك مجلبة للضرر ،

الطفل لا يصون نفسه عن وضع أصابعه على عينه وداخل فمه ، وأسرع شيء إلى اتلاف الأعين قذارتها ورماسها ووسخ ملامسها، إن وسخ الثياب والجسم يوجب تراكم الذباب الناقل لجراثيم الأمراض، وتراكم الأوساخ يضعف التنفس الجلدي ، وكل هذا من وسائل ضعف الصحة . فعليها ألا تدعه في الأماكن القذرة ، ولا تكثره من الرضاع ، بل تنظمه تنظيمًا يطابق الصحة، ولا تهمل في ذلك خشية عويله وصياحه، فانه إذا رأى ذلك مجلباً لما يرومه أكثر منه كما قال :

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ شَبَّ عَلَى حَبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَقَطَّعَتْ يَنْقَطِعَ
على أن كثرة الصراخ أيام الطفولة الأولى أحسن للصوت ، وأوصل إلى إصلاح طرق التنفس ، وقد عرفت ذلك العرب قديماً ، وذكر في نصائحها وألا تنيمه حزينا باكياً ، فقد ورد عن القدماء من الامة العربية (أن النوكى تنيم ولدها باكياً ، والحاذقة تغني له حتى ينقلب أسفه سرورا ، ثم تنيمه على هذه الحال)

ما يجب أن تكون عليه الأم : يجب أن تتعلم الام نظام منزلها ، وتربية أولادها ، وهي رهنية خدرها ، أليفة عفافها ، فانا لا نطلب منها شيئاً فوق القيام بذلك ، وتكليفها أن تكون كالرجل في كل أعماله شطط - لو تعلمون وييل . للمرأة أعمال كثيرة ، فان القيام بالنظامات المنزلية على تنوعها ، لا يدع لها الا وقتاً يسيراً للراحة ، فياجبذا لو وصلنا بها إلى هذه الغاية . وعلى الرجل القيام بما هو خارج المنزل ، فيكفي زوجته همه ، وعليها ما هو داخله فتكفيه مئوته (قسمة عادلة وحكم حسن) .

تأمل مايلي :

اختلف على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وفاطمة رضى الله عنها عنها في ذلك فناط رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بقضاء ما هو خارج منزله ، وفاطمة بما هو داخله . وأسد الأحكام وأنفعها حكم محمد صلى الله عليه وسلم ، وكل حكم يأتى على خلاف ذلك ليس منشؤه إلا ما استهوى العقول من رفعة قوم ، واتساع سلطان ملكهم ، فنسب المقلدون ذلك إلى كل مألديهم من الأخلاق والعادات ، ولم يفتنوا إلى أن في بعضها قبحا ، يألم منه القوم ، ألمنا من بعض مألدينا من العادات ، فحاكوه في الضار وحده لعجزهم عن التمييز بين الغث والسمين ، وجهلهم بأسباب الرقى المكين .

الرقى الحق ثمرة الاتحاد والتعاون على المنافع العامة العائدة على الأفراد بمنافعهم الخاصة ، والمثابرة على الأعمال العظيمة ، والتنقير وراء ما يفيد اختراعه قوة ومالا ، وجاها وملكا .

لو تم لنا الوصول بنسائنا ورجالنا إلى ما قلنا ، فقام الرجال بما وكل اليهم من الأعمال الخارجية حق القيام ، وثابروا على العظيم النافع منها ، وتخلقوا بفاضل الأخلاق ، وتعاونوا على المنافع العامة ، وولجوا إليها من بابها الممكن ، ولبسوا لكل حال لبوسا في ذلك السبيل ، وقامت النساء بقسطهن الذى بيناه ، لتوقعنا خيرا ، ولتوسمنا للأمة رقا وفلاحا .

فعلينا أن نلج في الوصول الى هذا الطريق القويم ، ولا يقنطنا منه تباين الأفكار ، واختلاف الآراء ، وصعوبة المسلك ، مع تقاعد الهمم ، متمسكين بشريعة القادر الرحيم : (وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ)

أثر جهل الأم : ما أكثر جرم الامهات الجاهلات على أبنائهن في التربية العقلية والجسمية ، فكم من جواهر نفوس ذهبت نقاستها ، وتأصل فيها الظلام بعد صلاحها للانارة ، ودنست بعد نقائها بياطل المعلومات ، وكاذب الأقاويل !!

وكم من صحة بدلت سقما استعقب فناء ، بجهلن طروء الامراض القتالة ،
فلا تفتن اليها حتى تعرض طفلها على الطبيب قبل أن يستحكم الداء ولا
يجدى الدواء

(انظر الى مرض الخناق المسمى (بالدفترية) فان جهل الامهات إياه أودى
بالاولاد وهم رياضنا صغارا ، ورجال مستقبل بلادنا كبارا ، فأصبحوا رهائن
القبور ، ومضامين اللحد

التربية العقلية

يجب أن يعلم الطفل من المعلومات النافعة شيئا فشيئا على المقدار الذى
يصل اليه عقله ، كما يجب الاحتراس من تعليمه شيئا أعلى من مداركه ، ولا
يلقى إليه شيء من المعلومات الباطلة ، والأقاصيص الكاذبة ، فان ذلك مجلبة
فساد الاخلاق ، وباطل الآمال : فمن الأشياء الموجبة لسوء تربية النشء
قراءة الأقاصيص والروايات المملوءة بالباطيل فانها تؤصل فيه الأمانى
الكاذبة ، فوق ماتجلبه من الخوف والكذب ، واتباع هوى النفس ، وليس
ذلك بمقصود فى مبحثنا هذا لأنه من مباحث علم النفس

التربية الخلقية : ولنذهب بك إلى القول فى طريق إنماء القوة الحكيمة
والأخلاق الفاضلة ، والأعمال الصالحة فيه ، وهو خلو من هذه أو من
أضدادها ، فانه أسهل وأنسب بطريقنا ، وأنفذ للوصول إلى الكمال المطلوب :
١ - وجوب التبكير فى غرس الفضيلة : إذ إلقاء بذر فى مغرس خال . لا يحوج

إلى عناء ، كالعناء الذى ينشأ عن إلقائه فى أرض مملوءة بالحشائش الفاسدة
والجذور المتلفة لنماء ذلك البذر ، فانه يستدعى قبل الإلقاء تعباً عظيماً فى
تنقية ذلك المغرس من تلك الحشائش والجذور العائقة عن إنبات البذر نباتا
طيبا ، يثمر ثمرا حسنا

٢ - أثر القدوة : يجب أن يعود الطفل الصدق فى كل أقواله ، ومن أقوم السبل

إلى ذلك نشأته بين أسرة لا تقول إلا حقا ، فلا يرغب ترغيا كاذبا عن هو بينهم لأنهم بذلك يجرونه إلى الكذب ، وإذا درج عليه مرة ، درج أخرى وهكذا حتى يكون خلقا راسخا يصعب علاجه ،

فالطفل قابل لما يودع في نفسه من حسن أو قبيح ألا يرى أنه ينبت على مثال كافله ومربيه ، وأخلاق مربيه تصل إلى قرارة نفسه من حيث لا يشعر ، فانه يراه أعظم منه لكونه قائما بشأته ، صاحب أمره ونهيه ، فيحاكيه محاكاة المفضل للفاضل . ولذا ترى الأبناء يتشبهون بأبائهم في حركاتهم وسكناتهم ، فيجب أن يكون القائم بتربيته ممن عرفوا بمحاسن الأخلاق ، والتمسك بالتقوى جهد الاستطاعة ، ومن ثم حظرت الشريعة أن يعهد في تعليمهم إلى معلم فاسق

إذ افقحت ذلك علمت أن المريات لأبنائنا سبب في جهالتهم ، وفساد أخلاقهم ، وسقامة أجسامهم ، فيجب أن تكون الأمهات على جانب عظيم من العفة والديانة والتقوى ، عارفات بالفضائل ووسائل الصحة التي قدمناها ويضعض المعلومات المشمرة التي يناسب تعليمها الأطفال ، حتى تحسن لدينا تربية أبنائنا

٣ - التشجيع على الفضيلة : ويحسن بالمربين تشجيع الطفل على الفضيلة

بالاحسان إليه إذا قال صدقا ، وترك معاقبته إذا أجرم ، وسئل عما ارتكب فقال حقا ، وأن ينهى عن الكذب ، ويؤمر بالصدق في كل أقواله ، ويكافأ عليه بما يعده حسنا ، وعن ترك النيمة لكبير الأسرة فيما يحصل داخل المنزل من أحد أفراد أسرته ، ويعالج في ذلك بالقضاء عليها قبل نموها ، وأن يعود العطف والخير على من معه ، والغضب في موضعه ، وأن يستحسن منه ما هو حسن ، ويكافأ عليه ، ويستقبح منه ما هو قبيح بالنصح وإظهار الاستياء منه . فان رأى أن النصح كاف في الردع والزجر فلا يعدل عنه إلى العقوبة لأنها تولد في القلب هلعاً وخوفاً يذهبان بالصراحة والحرية المطلوبة في المقال والأفعال وكذلك يجب أن يربي فيه خلق المثابرة على العمل بحمله على مداومة

المزاولة لما يتعلق به من غسل الوجه والأطراف، وصون الملابس، والقيام ببعض الأشياء المنزلية متى استطاع إلى ذلك سبيلا .

فإن رأى أن النصيحة كاف في الردع والزجر فلا يعدل عنه إلى العقوبة، لأنها تولد في القلب هلعاً وخوفاً يذهبان بالصراحة والحرية المطلوبة في المقال والأفعال تنشئته على الشجاعة: ويجب ألا يحدث بالأحداث المفزعة التي تملأ

القلب مخافة: كأقاصيص العفاريت وماشاكلها، بل يعود الشجاعة والاقدام، وذلك بالامساك عن ذكر المخوفات، وبحملة على الذهاب إلى بعض قاعات المنزل منفرداً، وقضاء حاجته كذلك، مادام في أمن عليه من الحشرات والهوام حتى ينمو فيه هذا الخلق، ولذا كان النشء في البدو أكثر شجاعة وأعظم إقداماً .

التربية الخلقية ويجب حسه على التمسك بأذيال تقوى الله، فيعود القيام بامثال أوامر الشرع واجتناب نواهيه قدر استطاعته، حتى إذا جاء طور التكليف، وجده مألوفاً. فلا يصعب على مريه في بدء أمره تهذيبه، وحمله على الأخلاق الفاضلة متى كان القائم بتربيته حكيماً، عالماً بطبائع النفوس ووجوه إصلاحها

التربية الاقتصادية: وعليه أيضاً أن ينمي فيه خلق الاقتصاد فيأمره بإدخار شيء من النقود التي تعطى له، وكلما رآه مقتصداً نمي فيه ذلك بزيادة عطائه واستحسان هذا الخلق منه، وإذا رآه مسرفاً متلفاً، قلل من إعطائه أو أمسك وأظهر له الاستياء، إلى غير ذلك من الأشياء التي تبغض إليه الاسراف، وتحبب إليه الاقتصاد .

أثر الدين في الخلق: جاء في مجلة المنار الجزء السادس من المجلد التاسع عشر (ص ٣٤٠) ما ملخصه: إن الكفر بالبعث والجزاء، واعتقاده أنه لا حياة بعد هذه الحياة، يجعل هم الكافر محصوراً في الاستمتاع بلذات الدنيا وشهواتها البدنية والنفسية: كالجاه والرياسة، والعلو في الأرض ولو بالباطل، وهو

(٦ — الخلق الكامل)

ما يسمونه الشرف ، ومن كان كذلك يكون في اتباع هواه ولذاته الشهوانية أسفل من البهائم كالبقرة والقردة والخنزير ، وفي اتباعه لهواه في لذاته الغضبية ، أضرى وأشد أذى من الوحوش الضارية المفترسة كالذئب والنمر وفي اتباعه لهواه ولذاته النفسية شرا من الشياطين يكيد بعضهم لبعض ويفترس بعضهم بعضا ، لا يصددهم عن باطل ولا شر هوى وثمة ، إلا العجز ، ولا يرحبون بفضل بينهم إلا القوة التي جعلوها فوق الحق ، وطالما غشوا أنفسهم وفتنوا غيرهم في هذا الزمان ، بما كان من تأثير التوازن في القوى من منع كثير من البغى والعدوان الذي كان يصول به قوى الأمم على ضعيفها ، والحكومات الجائرة على رعيّتها ، فزعموا أن الحضارة المادية والعلوم والفنون البشرية هي التي تفيض روح الكمال على الإنسان إذا لم يؤمن بالبعث والجزاء ، بل ولا بالاله الديان ، واستدلوا على ذلك بما أجمعت عليه أممهم ودولهم من ذم الحرب ، والتفاخر ببناء سياستهم على أمتن قواعد السلم ، وزعموا أن الباعث لهم على ذلك حب الإنسانية ، والرغبة في الخروج بجميع البشر إلى قمة السعادة المدنية ، وقد جاءت الحرب العظمى ، فقوضت كثيرا من مزاعمهم وأوهامهم ، إذ رأينا فيها أرقى أهل الأرض في الحضارة والعلوم والفلسفة يخربون بيوتهم بأيديهم ، ويقوضون صروح مدنيّتهم بمدافعهم ، ويستعينون بكل ما بلغوه من العلوم والفنون والصناعات والحكمة والنظام لاهلاك الحرث والنسل ، وتخريب العمران بمنتهى القوة والشدة التي لا تشوبها عاطفة رافة ولا رحمة . ولو كان من بأيديهم أزمة الأمور منهم يدينون بالمدنية الروحية ، فيؤمنون بالله واليوم الآخر ، وما فيه من الحساب ، والجزاء بالحق ؛ ما انتهوا في الطغيان إلى هذا الحد .

حقا إن هذه الشعوب كانت تتقاتل لنصر المذهب والدين في القرون التي كانت تعمل فيها كل شيء باسم الدين ؛ ولكنها لم تصل في التقتيل والتخريب في ذلك الزمان إلى عشر معشار ما هي عليه الآن ، وإن كانوا يسمون هذا العصر عصر النور ، وتلك العصور بعصور الظلمات . على أن الرؤساء كانوا

يتخذون اسم الدين وتأويل نصوصه ، وسيلة لأهوائهم التي ليست من الدين في شيء كما يعلمه جميع علماء هذا العصر .

وجملة القول : أن الأمم التي سارت على منهج الشريعة الغراء لم تثر حرباً إلا دفاعاً عن النفس ، وتقريراً للحق والعدل والمساواة في الحقوق بين أصناف الخلق ، وحسبهم شاهداً على ذلك الحكيم (جوستاف يون) إذ يقول : ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب .

وها نحن أولاء نرى شبهات المفتونين بالمادية المادية قد ضعفت بهذه الحرب الساحقة الماحقة ، وقويت بها حجة أهل الدين عليهم ، بل تنبه بها الشعور الديني في الجمل الغفير من الأوروبيين ، حتى الفرنسيين منهم ، بعد أن كانوا قد نبذوه وراء ظهورهم ، وآثروا عليه الشهوات البدنية الحقة حتى ضاقت بهم المعابد التي كانت مهجورة ، قلباً تفتح أبوابها ، وقلماً يلم بها أحد إن فتحت . وذلك شأن المسرفين في أمرهم من الناس لا يتوجهون إلى خالقهم إلا عند الشدة والبأس . (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) *

وصفة القول أن تأثير الدين في الاخلاق أمر ظاهر لا يسع أحداً إنكار سلطانه على القلوب وتأثيره في النفوس (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ، وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ) وقد وعد أهله بالخير العميم والفضل الجزيل إذا اتسمروا بأوامره ، واجتنبوا نواهيه وأوعدهم إذا خالفوا ذلك بالسخط المروع والعذاب الآليم ، وهو العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مبین) وهو القادر على تحقيق ما وعده المتقين ، وأوعده غيرهم ، وهو القاهر

فوق عباده ، ولا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ، فمن آمن بما جاءت به الرسل وجسد على نفسه رقياً في خلواته ، أنه يثيبه إذا أطاعه ويعاقبه إذا عصاه ، فيقبل على المأمورات ، ووجوه الطاعات سرا وجهراً ، ويعرض عن المنهيات في وحدته ومجتمعاته .

موازنتين بين أثر الدين والقوانين الوضعية

القوانين الوضعية على فرض إصابتها الغرض المقصود فيما يناسب سعادة المجتمع لاتزع الناس عن الأخلاق الذميمة والأفعال الضارة لإظهارها ، لأن ما ترتب عليها من أنواع العقوبات لا يتحقق إلا إذا علم من صاحب ذلك الخلق تلك الأفعال ، بخلاف ما كان خفياً في الأفراد ولا يطلع عليه أحد ، أو تواطأ المطلعون على إخفائه ، على أن كثيراً ما يحصل الإغضاء عن العقوبة بوسائل المحبة وما جرى مجراها ، وعلى فرض كل ذلك فمن أين لنا أن المسيطر لا يعوقه عن الحكم بالعقوبة أو تنفيذها عوائق أخرى ؟

علمت مما سبق في مدح الأخلاق الفاضلة وذم السافلة أن كل ذلك بعض ما انطوت عليه الشريعة الطاهرة فإن آي الكتاب الكريم والأحاديث الشريفة أتت في بيان ذلك بما لا يفوقه بيان ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه « من لم يؤدبه الشرع فلا أدبه الله » وليس لدينا شيء أحسن في هذا الباب من أن نحيلك على كتاب الله تبارك وتعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فإنك إذا تدبرت ما جاء فيها رأيت العجب العجيب ، وقلت ليس في الامكان أبدع مما كان . إذا قرأت تاريخ العرب قبل البعثة وعلمت ما كانت عليه اعتقدت أن للشريعة السمحة في تهذيب الأخلاق التأثير الأكبر ، وسبب ذلك أن الترية إذا صادفت نفوساً مستعدة غرست فيها فضيلة الانتصار للحق وأشربتها حب الانصاف ، وأرتها أن العدل ميزان الله تعالى في الأرض الذي يؤخذ به للضعيف من القوى ، والمحقوق من المبطل ، فأصبحت لا تحفل بعظيم ولا كبير ما دامت للعدل ، والعدل لها .

استعداد الأمة العربية الاصلاح الروحي :

من أجل ذلك ما كاد يتصل بالأمة العربية ذلك الاصلاح الروحي المدني العام حتى ملكت الأقطار ، وأصلت سيف الحق ، فانتشر العدل ، وزخرت بحور العمران ، وأطلقت العقول من قيودها وأغلاها ، التي ظلت أدهارا ترسف فيها .

وجدير بنا في هذا المقام أن نسرّد طرفا من مزايا الأمة العربية نبين به علة اصطفاء الله لها ، ومبلغ استعداد نفوسها لاحتلال تلك الأمانة العظيمة ، وحسبنا أن ننقل ما كتبه الأستاذ الشيخ محمد رشيد رضا في كتابه « ذكرى المولد النبوي » وهو بنصه :

(كانت العرب ممتازة بالذكاء واللوزعية ، وكثير من الفضائل الموروثة والكسبية : كقري الضيف ، وأغاثة الملهوف ، والنجدة (١) والآباء (٢) وعلو الهمة ، والسخاء والرحمة ، والايثار (٣) ، وحماية اللاجئين ، وحرمة الجار أيام كانت الأمم مرهقة بالآثرة (٤) ، والآنين من ثقل الضرائب (٥) والآتاوى (٦) ورؤساؤها منغمسين في الشهوات البهيمية ، وفساد الأخلاق قد عم الراعى والرعية .

كانت العرب قد بلغت أوج الكمال في فصاحة اللسان ، وبلاغة المقال وكادت تتحد لغات قبائلها أولهجاتها العربية ، وتتغلب المضربة منها على الحميرية ، بما كان لقريش وغيرها من الرحلات التجارية ، والأسواق الأدبية ، فاستعدت بذلك للوحدة القومية ، وللتأثر والتأثير بالبراهين العقلية ، والمعاني الخطائية

(١) النجدة: مضاعف يبعث صاحبه على المضى فيما يعجز عنه غيره (٢) الآباء: الترفع عن الخسائس (٣) الايثار : تقديمك غيرك على نفسك بما تحتاج اليه مما تملك (٤) الآثرة بالتحريك : تقديم نفسك على غيرك ولو بما هو أولى به منك فهي ضد الايثار ، والباء للسبية (٥) الضرائب : جمع ضريبة وهي ما يضرب على العبيد ونحوهم يؤدونه أقساطاً ، ومنها الجزية (٦) الآتاوى : جمع أتاوة وهي الرشوة وتطلق على الخراج ونحوه

والشعرية، وللتعبير عن جميع العلوم الإلهية والشرعية، والفنون العقلية والكونية، أيام كانت الأمم تنقسم عرا وحدتها بالتعصبات الدينية والمذهبية، وتتفرق وشائجها (١) بالعداوات الجنسية، وتمزق دولها بالحروب الأجنبية والأهلية. فتلك أمهات مزايا الأمة العربية التي أعدها الله تعالى بها للبعثة المحمدية والسيادة الدينية والمدنية، بعد أن طال العهد على مدنيهم العادية، واستعمارهم للبلاد الكلدانية البابلية، والبلاد الفينيقية (السورية)، والمصرية التي تشهد لهم سيادة لغتهم للغات السامية، وبقاياها في اللغة الهيرغليفية وبعد أن غلبت عليهم الأمية، وخرافات الوثنية، وعصية الجاهلية.

وأعظم مزاياهم أنهم كانوا أسلم الناس فطرة، على كون أمم الحضارة كانت أرقى منهم في كل فن وصناعة، والإصلاح الإسلامي مبني على تقديم إصلاح الأنفس باستقلال العقل والارادة وتهذيب الأخلاق على إصلاح ما في الأرض من معدن ونبات وحيوان، ولهذا كأن الله تعالى يُعِدُّ هذه الأمة للإصلاح العظيم الذي جاء به محمد عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم وإليك مثلاً من أثر التربية الإسلامية

مات مسلمة بن سعيد وكان عليه ديون للناس ولأمر المؤمنين المنصور، فكتب المنصور لعامله وقته: أن استوف لأمر المؤمنين حقه ثم فرق ما بقى بين الغرماء، فلم يحفل هذا العامل بكتابه، بل ضرب للمنصور بسهم كما ضرب لأحد الغرماء، فلما بلغ المنصور ذلك كتب إليه « ملئت الأرض بك عدلاً » حقا إن التربية إذا تغلغت في أعماق النفوس أمكنت فيها الأثار وأوهنت فيها الأثرة، وحببت إليها المصلحة العامة، ورغبتها في المعاونة والمؤازرة، وجعلتها تجد السرور كل السرور في العمل بقوله صلى الله عليه وسلم « خير الناس أنفعهم للناس » فتغيث الملهوف، وتسعف المكروب، وتنجد من

(١) الوشيج والوشيجة: اشتباك القرابة وتداخل بعضها في بعض وأصله شجر الرمح ونحوه مما يشتبك

استنجد بها ، وتصرخ من استصرخها ، هي التي تجعل صاحبها يلقي الناس بالبشر والابتهاج ، ويعاملهم بالكرم والصفح ، ويسع الناس جهدا استطاعته بأمواله وحسن شيمه ، ويعمل رغبة واغتيابا بقوله صلى الله عليه وسلم « حسن الخلق زمام من رحمة الله تعالى في أنف صاحبه ، والزمام بيد الملك ، والملك يحجره إلى الخير ، والخير يحجره إلى الجنة ، وسوء الخلق زمام من عذاب الله تعالى في أنف صاحبه ، والزمام بيد الشيطان ، والشيطان يحجره إلى الشر ، والشر يحجره إلى النار » الترية هي التي تقود صاحبها إلى مسالك الخير ، والتنقيب عن وجوه البر والاحسان الصحيحة ، وتَبْغُضُ إليه أفعال أهل العلم السقيم ، الذين لا يعملون إلا رياء للناظرين ، وتصنعوا للمخلوقين . ليستعطفوا القلوب النافرة ، ويخدعوا العقول الواهية ، حتى يعدوا من الأخيار العاملين ، وكبار المصلحين والواقع أنهم متشبعون بما لا يملكون ، والمتشبع بما لا يملك كما ورد في الحديث كلابس ثوب زور .

الترية إذا صادفت تربة صالحة كما قدمنا كستها علو الهمة والاباء ، وكرهت إليها النفاق والرياء ، وجبت اليها القناعة والصيانة ، ومجانبة الريب والشبهات وأنارت منها البصائر فعلت أن الذود عن الحق ، واحتمال الأذى في ميله ، والصبر على مكارهه من أشهى الأمور ، وأوفر اللذات ، وأدركت معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا تَزَالُ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِخَيْرٍ تَحْتَ يَدِ اللَّهِ وَفِي كَفِّهِ مَا لَمْ يُمَالِئْ قَرَأُوهَا أُمَرَاءُهَا ، وَلَمْ يَزَلْ صَلَحَ أَهْوَاهَا تَجَارَهَا ، وَلَمْ يَجَارِ أَخْيَارَهَا شِرَارَهَا . فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ، رَفَعَ عَنْهُمْ يَدَهُ ، ثُمَّ سَلَطَ عَلَيْهِمْ جَبَابِرَتَهُمْ فَسَامَوْهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، وَضَرَبَهُمْ بِالْفَاقَةِ وَالْفِقْرِ ، وَمَلَأَ قُؤُوبَهُمْ رَغْبًا » وآية كمال الترية ورسوخها أن يكون صاحبها أجرا ما يكون على استنكار الخبائث والمحظورات ، وفقت سفساف الأمور ، وساقط الشهوات ، للذود عن حياض الجماعة الانسانية ، ومدافعة البلاء العام الذي يشير إليه قوله صلى الله عليه وسلم « مَا أَقْرَبَ قَوْمٌ الْمُنْكَرَ يَبِينُ أَظْهَرُهُمْ إِلَّا عَمَّتْهُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مُحْتَضَرٍ » وقوله عليه الصلاة والسلام « إِنْ قَوْمًا رَكِبُوا سَفِينَةً فَأَقْتَسَمُوا ، فَأَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ

مَوْضِعًا، فَتَقَرَّرَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مَوْضِعَهُ بِقَاسٍ، فَقَالُوا: مَا تَصْنَعُ؟ فَقَالَ: هُوَ
مَكَانِي أَصْنَعُ فِيهِ مَا شِئْتُ، فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ فَهَلَكَ وَهَلَكُوا» وهكذا
مصير من يتركون بين أظهرهم ذوى المبادئ الفاسدة والآراء السقيمة،
والمعتقدات الضالة، متعللين بأن كل واحد حر في قوله وعقيدته، ونسوا أن ذلك
وبال عليهم، وتدمير لكيان قوميتهم ووجودهم، (لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا
يَعْتَدُونَ، كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

مجهل آراء الغريبيين في التربية وعواملها

أرسل من ثاقب فكرك شعاعا على الكون وما يكتفه، والعالم وما يسبح في
بحاره، ويدرج في مهد أرضه، تقرأ على ضوئه عبارة تحمل في جوفها تلك
الحقيقة الآتية:

تأثر الأحياء في نموها بضروب متنوعة من المؤثرات، وتجرى في بناء كيانها
وراء عوامل تحيط بها، وتنفذ إليها آثارها، فتصورها صوراً تلائمها وتجعلها
خاضعة لسلطانها:

فالأسماء تتباين أشكالها لتباين عوامل التكوين في دار مقامها، والأشجار
التي يمت بعضها إلى بعض بسبب من وحدة النوع يخلع عنها لباس تشابهها
تشابهها تاما اختلاف المؤثرات في أوطانها، والحيوان تتميز صبغة الأفراد في
نوعه لتمييز خواص البناء في مستقرها، وديار نموها.

كلمة التأثير لا تدل على أن هناك مؤثرا فقط، بل تدعو لزاما إلى وجود
ذات أخرى يقع عليها التأثير ويميزها بما يشاء من مميزات النمو وضروب
التكوين. تلك الذات لها شخصية مستقلة، ووجودها ظاهر ليس لتلك المؤثرات
التي نحن بصددناها في إنشائها وتفتح أكام الحياة عنها، وبعثها من مرقد
فنائها صورة بارزة تتمتع بالحياة وتجرى عليها الليالي والأيام.

فالنهر الذى يشق طريقه فى بطن الأرض ليس للبشر يد فى إيجاد نهرا ينساب انسباب الأفاعى ، تصونه قوة اندفاعه وتدفعه هية جريانه ، وغاية ما يصنعه البشر بهذا الخلق العظيم أن يغيروا اتجاهه أو يوقفوا جريانه إلى حين أما إقامة صرح وجوده فانها ترجع إلى قوة أخرى ليس للبشر إليها من سبيل .

والبذر الذى يأوى إلى الأرض يخرج نباتا ، ويطلع شجرا بقدره الله الذى بيده كل شيء ، ولا يستطيع البستاني أن يتناوله بشيء يؤثر فى نموه ، إلا أن يتعهد بالاصلاح ، ويرعاه رعاية تقيه الشمس أن تجففه ، وتمتص ماء حياته ويجعله فى مأمن من العابثين وعارمى (١) الأطفال أن ينزعوه من مقره . وهل الطفل إلا كائن حى يجرى عليه ما يجرى على الكائنات الحية ويصيبه ما يصيبها ؟

من هذا نستطيع أن نفهم قول الاستاذ « فردريك العالم الألمانى :
« المربون والمربيات بستانيو الأطفال وبستانياتهم »
أى إن عملهم مقصور على ذلك التأثير المحدود الذى يشبه فى امتداده إلى مدى غير بعيد تأثير البستاني فى النبات إذا رعاه حق رعايته .
نخلص من فهم تلك الحكمة البالغة إلى فهم معنى التربية والوقوف على حقيقتها ، إذا خلعنا عليها ثوب الكلمة الآتية :
« التربية تأثير الكبير فى الصغير قصدا »

ولقد أتى على علماء التربية حين من الدهر كانوا يعتقدون أن المربي بيده كل شيء ، وأن المربية قادرة لا يعجزها شيء ، لأنه قد ملك عقائدهم أن الطفل يولد صفحة بيضاء يخط المربي فيها ما يشاء ، وعجينة لينة هينة يصورها كما يريد ويغنى ، لا يصدده عن ذلك صاد ، ولا يحجبه حجاب .
من هذا مقاله إراسم الروتردامى :

« إن الفطرة (كذا) إذا وهبت لك ابنا فانما تسلك كتلة فجة ، ومن

شأنك أن تعطى هذه المادة القابلة للتهيئة والتشكل بكل شيء أحسن صورة تريدها : فانت إن أهملتها حصلت منها بهيمة ، وإن عنت بتربيتها حصلت منها ، - إن صح القول - ملكا كريما .

• ومافاه به الحكيم الألماني « لا يبنتر » : « آتونا التربية نغير لكم أخلاق أوربة في أقل من قرن » غير أن تقدم العلم وتعرف العلماء أعضاء كل مخلوق والوقوف على مميزاته وخواصه ، ومعرفة ماهو أساس نموه وعماد بقاءه ، والاعتقاد بأن كل حي يسير في طريق وجوده ، ويقطع مرحلة حياته على سنن خاصة ، وضروب من النمو مرسومة ، وأنماط من الكيف معينة بقوة قاهرة أزلية ، لا يدللغير في إقامة دعائهما ، وإجراء أنهارها ، وإرسال رياحها . كل ذلك جعلهم في منأى عن ركوب متن الشطط في تعريف التربية وبيان حقيقتها ، إذ قالوا ذلك القول المتقدم « التربية تأثير الكبير في الصغير قصدا » نظر الأستاذ بستالترزي إلى الإنسان وقال : أنا إن عرفت الإنسان ، وماركب فيه من ميول وجبل عليه من خواص ، وأودع فيه من ضروب الاستعداد ؛ استطعت حين ذاك أن أريه ، أي أثر فيه تأثيرا يوجه ميوله واستعداده وخواصه إلى حيث يعيش إنسانا كاملا ، ويحيا ملكا كريما .

وجد الإنسان ذا غرائز كثيرة فطر عليها ، وصحبته جنينا وطفلا وشابا وكهلا وشيخا كبيرا تظهر جليا في أفرادها ، وتتناولهم على اختلاف أجناسهم وتنوع نحلهم ، وتفرق مواطنهم

تلك الغرائز العامة التي تكمن في الإنسان تتخذ طريقها إلى الوجود ، وسمتها إلى الظهور عند الظروف المناسبة ، والأحوال الملائمة ، التي تنفخ في صورها فاذا هي لديها حاضرة .

فمثلا : يظهر السرور إذا ظهر باعثه : كروية منظر يقيد الخواطر جماله ، ويسترعى النواظر حسن نظامه ، ويبدو الغضب عند الاحساس بالظلم ، ويتحرك حب الاستطلاع عند رؤية شيء خفي مغلق يثير العجب والدهشة ،

إلى غير ذلك مما كان ويكون أساسا لما يتجمل به الانسان من كل أمر عظيم ، وما يمتاز به من خصائص لها أثرها البالغ في توسيع العرصات الكبرى للحضارة الانسانية . يمكننا أن نفهم الآن أن التربية في استطاعتها أن تمديدها إلى الطفل لتخرج غرائزه الصالحة من أكامها ، وتكشف عنها غطاءها ، وتحفظها من كل ما يعوق نموها ، وتحوطها بشيء من الرعاية حتى يستطيع الطفل بعد نضوج جسمه ، وتسوية خلقه وتهذيب عقله أن يزج بنفسه في المجال العام لحضارة الانسان ورفقه ، وذلك عمل إيجابي تقوم به التربية الغرائز الكامنة في الطفل ليست كلها من ذلك النوع الشريف الذي يتخذ أساسا لكل رفعة وكمال ، بل بجانب تلك الغرائز الشريفة غرائز أخرى لها خستها وحقارتها ، لأنها دعامة كل مبتذل وخسيس يلح في الطفل : كالجن والكذب والكسل ، وغير ذلك من كل رذيلة تفيض بها الأثرة الانسانية . فالتربية أمام تلك الغرائز الدنية تخضع شوكتها ، وتغير وجهتها ، وتحسن استخدامها ، فالتربية إذا عملان :

١ إيجابي : وهو إحياء الغرائز الشريفة ورعايتها حق رعايتها
٢ سلبي : وهو إضعاف سلطان الغرائز الدنية ، وتصريفها في طريق غير طريقها وغير خاف أن هذين العاملين ضروريان ، ولا يغني أحدهما عن الآخر . وكل منهما شرط في الثاني ، فالشيئان المتساويان لا ترجح كفة أحدهما إلا إذا خفت كفة الآخر

لهذا كان لزاما أن يبدأ العملان في وقت واحد وأن يسيرا جنباً لجنب ، دون أن يتقاعدا أحدهما ، أو يتباطأ أو يخلد إلى الأرض ، أو يثاقل ، حتى ينشأ عنهما إنسان كامل .

نرى التربية وهي قائمة بعملها : الإيجابي والسلبي ذات يد غير مبسوطة إلا إلى حد معين ، وذات قوة لا تظهر إلا بقدر معلوم ، إذ يحجبها عن القدرة المطلقة ، والارادة الحرة في اختيار سبيل غير ذي عوج ؛ حدوداً كامنة خافية

ومظاهر سافرة واضحة : هذه المظاهر ، تلك الحدود تقعد بالتربية عن السير في طريقها سيرا حرا .

أما الحدود الكامنة فانها تعرف من غرائز الطفل التي خلقت معه ، ومصدرها الوراثة .

وأما المظاهر السافرة فانها تتجلى في بيئة الطفل الكفيلة بتحايدها وتعيينها فمصدرها البيئة يطلع الجنين ويشرق وجهه ، فتطلع معه مواهبه الباطنة وتشرق وإياه خواصه الذاتية التي ورثها عن آباءه السالفين .

يولد فتولد معه تلك الغرائز الكامنة ، وينمو فتتمو معه دون أن يبدأ المربي أول خلقها ، أو يكون له أثر في نشأتها وتكوينها .

فالطفل إذ ذاك صورة آباءه الصادقة ، وتاريخ أجداده الصامت الناطق تهدي سطورهِ القارئة إلى ماتحلى به أسلافه من مزايا ، وماتوطن في نفوسهم من خواص ، ومادرجت عليه عقولهم من ميول ، وبرزت فيه همهم من شئون ، وما استقر فيهم من عادات ذات خلق سوى أو غير سوى . وما أشبهه في ذلك بالغصن تعرف به شجرته والأثر يدل على مؤثره ، فالطفل صورة مصغرة لحياة سابقة قطعت دهورا ، وأفنت أعواما .

على هذا الأساس يرجع تحليل مانراه في كثير من الأسر من مواهب بارزة ، وكفايات نادرة تظهر في أفرادها حيناً بعد حين ، وتنقل بين أبنائها جيلا بعد جيل ، وهذه أسرة « باخ » الألمانية من أعضائها ماينيف على الثلاثمائة من ذوى القرائح الموسيقية برز منهم على أقل تقدير اثنان وعشرون سارت بذكرهم الركبان ، وذاع صيتهم في كل مكان ، وطبق نبوغهم الآفاق بين سنتي ١٥٥٠ — ١٨٠٠ ومثل ذلك في أسرات كثيرة ألمانية .

ولاننسى أن هذا التوارث عام يشمل الخير والشر كليهما : فكما يمر نسيم خلال الخير في غرائز الطفل الموروثة يدب بينها أيضا عقارب الشر في غرائز أخرى لا تقل استحكما في ارتباطها بنفسه وتعلقها به عن الأولى .

وأظهر مثال لذلك تلك الأسرة الجوكية بولاية نيويورك فقد نبتت من بذرة فاسدة شريرة إذ أن أصلها رجل هولندي من سكان البادية ، لا يكاد يفوق من سكره أو يصحو من سبات لهُوه ، عاش عيشة وحشية في بركة صخرية ينسب إليها في خمسة أجيال من تاريخ حياته ٧٠٩ أشخاص :

١٨٠ شخصا يعيشون على ما تجود به الصدقات العامة

٧٦ شخصا باض الاجرام في نفوسهم وفرخ فكانوا مجرمين

٥٢ ٪ من النساء أي إن أكثر أفرادها نساء منهن ١٤٠ امرأة تقريبا كن

يعشن من طرق غير شرعية لا يبيحها الدين ولا تقرها الانسانية

لم يصل العلم إلى معرفة ما تجرى عليه سنة التوارث من ضوابط ، وما تسير على ضوئه من قوانين ، وغاية ما في استطاعتنا أن نحفظ تلك المواهب جلالها ، ونعد لها عدتها باعتبارها قوة هائلة ، ذات سلطان قاهر وحياة بارزة تحدد من موقف المربي أمامها ، فلا يدور بخله حينئذ أن يحصل من الطفل على ما ترمى إليه إرادته ، ويشير إليه رأيه .

ولكن الذي يستطيع الوصول إليه من الطفل ما يوحى إليه به استعداد ذلك الطفل ، وتدل عليه غرائزه ، وتولى وجهها شطره خواصه التي ركبت فيه وانتقلت إليه في طريق طويل من أجيال عمرت آلافا من السنين

نقف أمام الطفل فاذا به لغز مظلم ، وعقدة وثيقة محكمة لا يجسر أحد بادىء ذي بدء أن يحلها ، ويعرف ما انحنت عليه من مواهب الطفل التي استقرت فيه ، لأن سماءه لا تطلع فيها غرائز أسرة واحدة بل غرائز أسر كثيرة .

فالطفل له أبوان لكل واحد منهما أبوان ، والأربعة لكل واحد منهم أبوان وهكذا ... وكل أب وأم من أسرة تختلف عن الأسرة الثانية في خواصها وغرائزها .

فالطفل إذاً مجال تجرى فيه غرائز أسر عديدة مختلفة، وصفحة ترقم فيها خواصها المتباينة.

من ذلك يمكننا أن نفهم التباين الذي يقع بين الاخوة الأشقاء والأخوات الشقيقات في الأخلاق والعادات، وقوة الفكر وحصافة الرأي، إلى غير ذلك مما يرجع تكوينه إلى أسر سابقة، وينسب ظهوره إلى الوراثة المتعاقبة. أثر البيئة لقد عرفنا أن تأثير المربي في تلك الغرائز تأثير محدود فهو محكوم لها، خاضع لأمرها، نازل على إرادتها. لهذا كانت التربية أمراً غير ذي بال لو أن العامل الوحيد في نمو الطفل وتكوينه يرجع إلى الوراثة وحدها، ولكن العالم الفرنسي «لامرك» دلنا بنظريته على أن هناك عاملاً آخر لا يقل خطراً عن الأول ذلك هو عامل المخالطة، وهي ما نسميها البيئة.

فكل مخلوق قدر له أن يتأثر نموه بما يخالطه ويشاركه في الوطن وما حواه. ومن شواهدهم على ذلك ما جاء في إحدى المجلات إذ قالت: «النبات المعروف بسن الأسد ينبت بين نباتين عالين من نبات المروج بأوراق قائمة على حين أنه إذا نبت وحده هنالك نامت أوراقه الوردية الشكل على الأرض وبعض أنواع الحسك والنبات المعروف بقدم الديك إذا نبت على الشاطئ الجاف يكون له أوراق ذات فلقين فقط وإذا نبت في الماء نبت له من أحد جانبيه أوراق عائمة عريضة ذات فلقين تطفو على سطح الماء، وفي جانبه الآخر أوراق دقيقة على شكل خيوط تحت الماء»

على هذه السنة تدرج نفس الطفل وتشق سفينته طريقها في الحياة لذلك كان لزاماً أن تعرف البيئة التي يلقي الطفل بين أناسها، إذ كل شيء في الحياة يدع في نفسه أثراً يختلف قوة وضعفاً على حسب قوة مصدره. غير أننا لا نستطيع أن نتق بيئة خيرة لا يزورها الفساد، ولا تمر بها عواصف الشر، وبخاصة المدن حيث يكثُر الازدحام ويطغى سيل الحضارة: فالطفل في بيئته أمام عوامل لا تحصى، كامنة له في كل مرصد، مقتنصة إياه.

في كل مكان ، تدخل عينه فتقيدها ، وتنفض في أسماعه فتملكها ، وتصل إلى قرارة نفسه فتأسرها وتغويها ، وتساور فؤاده مساورة السموم القاتلة ، لا يمتنع عنها بحيلة ، ولا يفر منها بوسيلة ، فهو مضطر إلى أن يختلط بالتلاميذ في مدرسته وبالناس في طريقه ، وأن ينظر ما يوضع على الجدران من « اعلانات » وصور ، إلى غير ذلك مما يقحم الطفل ولجأت الشر ، ويحله ورطات الفساد ويجعل واجب المربي شاقا غير يسير ينحني عجزا أمام تلك القوة الهائلة قوة المخالطة « البيئة »

تنازع الوراثة والبيئة وأثر المربي : فالوراثة والبيئة اذ ذاك يتنازعان الطفل

بقوة خارجة على الجملة عن دائرة المربي ، إلا أننا إذا لحظنا أن المربي نفسه من ضمن البيئة التي لها تلك القوة فانه يستطيع بجانبها أن يفعل شيئا في نفس الطفل ويؤثر فيها تأثيرا ما ، لذلك كان من الضروري اتقاء المربين واصطفائهم أخيارا بررة صالحين ، لينقضوا لمؤثرات البيئة الضارة غزلها ، ويميتوا ما عسى أن يظهر من ضروب الاستعداد السيئة أو يوجهوها وجهة صالحة ، وأن تقوم رقابتهم على دعائم من اليقظة الصادقة والاحساس الحى حتى يكونوا في التأثير أورى قدحا ، وأعلى كعبا ، وأرجح وزنا ، وبذلك يصلحون أبوابا فتحا الى تهذيبه وأسبابا ذللا إلى كماله

أثر الوالدين : لانكون بعد هذا متجانفين لغلو إذا قلنا : إن التبعة الكبرى

منسبة على الوالدين : لأنهما أكثر الناس اختلاطا بالطفل ، وهو أخشع لهما ، وأعظم استكانة لأمرهما ، واستسلاما لطاعتهما ، يهوى إليهما فؤاده وتسكن لجوارهما نفسه .

فعلى الوالدين والمربين أن يضعوا أمام عينهم أنهم قدوة طيبة ، ومثل مشكور ، يحتذيه أبناؤهم وأن يخلعوا قناع الخسة ، ويدرعوا لباس الكمال الذى يملأ القلوب جلالا ، والعيون جمالا ، وأن يتنازلوا عن كثير مما يشتهون نفيا للرديلة أن يراها الطفل ، وإبعادا للنقيصة أن يدنو منها .

قال جيته (١) أكتب كتاب الألمان من جد في إرشاد غيره إرشادا حسنا فعليه أن يستعد لحرمان نفسه محابها « وقد سبقه إلى ذلك على كرم الله وجهه إذ يقول : « من نصب نفسه إماما للناس فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، ففعل نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم » وعلى الوالدين أن يحكما الصلة بينهما وبين الطفل ، ويفسحاه الطريق إلى الجلوس أمامهما يحاورانه ويجاذبانه أطراف الحديث ، وفي تلك الفترة التي يأنس الطفل إليها ويشغف بها يقص على والدته مثلاما فاجأه من الحوادث طوال يومه ، وما كان له من أثر بالغ في نفسه ، وإذ ذاك تستطيع الوالدة أن تميز الخبيث من الطيب فتميت الأول وتقضي عليه ، وتحیی الثاني وتبارك فيه .

العوامل المؤثرة في الطفل : نستخلص من هذا أنه يعمل على تنمية الطفل

تنمية صالحة بأيد مترادفة ، تحتازه عن كل أمر يكسر الفقرة ، ويوهى المنة ، ويدنيه إلى البهيمه ، إلى حيث ينشر الخلق القيم عليه جناحه ، ويسيل له جداول نعيمه ؛ يعمل على ذلك ثلاثة أمور :

(١) ولد « يوهان فولفجانج فون جيته » في مدينة (فرنكفورت على الماين) في أغسطس سنة ١٧٤٩ وكان أبوه مستشارا ملكيا وأمه عظيمة الاخلاق وكان لها أكبر الأثر في نفسه ، قال : ورثت من أبي قوامي ، وعزيمة السير في الحياة ، ومن أمي الطبع المرح ، وهوى القصص « وجونه هذا كان أشعر شعراء الألمان ، وأعظم كتابهم ، ومن كبار فلاسفتهم ، وكان لرواياته الكثيرة أبلغ الأثر في الألمان من أشهرها : آلام فرتر ، وافجنيا ، وليلى ، والشقيقتان ، وفاوست . وله كذلك كثير من القطع الشعرية والغنائية البالغة التأثير . وقد قابله نابليون سنة ١٨٠٨ وأبدى له عظيم إعجابه به ، وقد وصف نفسه بأنه طبيعة عبقرية متجددة الشبان . وفي ٢٢ من مارس سنة ١٨٣٢ توفي جيته بعد أن رفع بجمال فنه ورق شعره منزلة الآداب الألمانية إلى الجوزاء ، وبعد أن أثر في عقلية أمته أثرا لا يمحي

١ - الوراثة

٢ - المخالطة

٣ - المربون

تبدأ الثلاثة عملها من حين الولادة بدرجات مختلفات ، فقد ينشط أحدها ويتباطأ غيره ، ولهذا لا يحمل الوالدان الهجينة وحدهما إذا نما الطفل نزاعاً إلى الشر كما لا ينسب إلى المربي وحده ما يحمل الطفل من استقامة محترمة ، وسلوك حازم ؛ لأن للربي شريكين لهما أثرهما : الوراثة والمخالطة .

مخالطة الاخيار ومجانبة الاشرار

ليس شيء من أخلاق الانسان وعاداته ومعتقداته إلا وهو قابل للتغيير والتبديل ، كما هو مشاهد معلوم ، أما الاخلاق فيقع التغيير في بعضها ببطء وفي بعضها بسرعة تبعاً لقوة المؤثر وضعفه ، وأما العادات وكثير من المعتقدات فصائرة إلى الانسان من مزاولة العمل أو القول مرة بعد أخرى ، وبقاء أثر له في النفس ، يزداد ثباتاً فيها بازدياد تكرره ثم يستقر ، ويصبح عادة لازمة ، واعتقاداً راسخاً

وسبب هذا أن الأعصاب في الانسان تأثرت بذلك العمل وتلك الفكر حتى أخذت شكلاً خاصاً ، وكلما تكرر ذلك ازداد تأثر الأعصاب حتى يكون لتلك الأعمال فيها مجرى تجرى فيه ، وتوجه إليه وينشأ من هذا أن يألف الانسان الأعمال ، ويجرد مباشرتها أمراً سهلاً عليه ، حتى لقد يفعلها بدون تفكير ، ولا معاناة مشقة ، ولا نظر إلى ما تفعله يده أو رجلاه ، وتوافق أوضاعها أو اختلافها ؛ إذ كان الشأن في هذا كالماء الذي يجري إلى المنحدرات فيشق لنفسه فيه وادياً ينحدر إليه بسهولة ، ويجرى فيه كلما تدفق من نحو سيل أو مطر .

وما يوضح هذا أن القول يمر بسمعك ، والأمر تشهدده وهو يخالف منك

دينك أو عادتك أو اعتقادك قرى من نفسك إنكارا له ، وثورة عليه فإذا تكرر ذلك فقد تألفه وتجنّب اليه ، وربما تفعله راضيا له ، مسرورا به ، إذ كثيرا ما نرى إنسانا يحاكي آخر في قول أو فعل ، ازدراء به ومقتاله ، ثم لا يلبث أن يدرج على ما حاكاه ويصبح من عاداته ، ولا سيما إذا وجد ممن يحيطون به من يستحسنون ذلك منه أو يطلبونه إليه للتسلية واللّهو .

وإذا وجدت العادة أو الاعتقاد ما يعارض الميل الذى من أجله نشأ فانهما يضعفان فى الإنسان وقد يزولان ، تبعا لقوة المعارضة وضعفها ومن أهم ما يعارض ذلك الميل المخالطة : إذهى التى تغير فى الإنسان كثيرا من أخلاقه وعاداته من حيث يدرى ولا يدرى ومن حيث يريد ولا يريد . وأثرها فىنا لا يستطيع إنكاره منكر ؛ بل إنك لتجد أثرها فى الجماد والحيوان وهما دون الإنسان قبولا للتأثر ، فالماء يطيب ريحه ، ويعذب فى الفم مذاقه ، إذا جاور الأزهار ، ويخبث ريحه ويشد غصصه إذا جاور الجيف ، والحصان الشرود إذا قرن بآخر ذلول صار ذلولا سهل القياد وإن العوامل التى تتخذ فى التربية لتجعل الشرير خيرا ، والفاسد صالحا : من وعد ووعد ، وتحذير وترغيب ، وثواب وعقاب ؛ قد لا تأتى فى الغالب على ما فى نفس الإنسان ولا تنتقل به من حال إلى حال . أما المخالطة فانها لا تحصل بدون أن يكون لها أثر ظاهر فى حال الإنسان الخلقية والاعتقادية والفكرية وكل أنواع التربية تعرض وتزول كالمدرسنة والبيت الا المخالطة فانها تربية لا تنقضى إلا بالموت ؛ فان حسنت أثمرت ثمرا طيبا ، وإن سامت كانت شرا وبلاء .

اختيار الخلطاء :

عنى الباحثون وعلماء الأخلاق والدين والمتقون فى كل أمة وعصر بوصف العشراء والخلطاء ، وأرسلوا القول فى ذلك شعرا ونثرا ، ماشاءت لهم البلاغة ووحى البيان ؛ ولم تفرط الشريعة الإسلامية فى شيء من ذلك ،

والأحاديث الواردة فيها أكثر من أن تعيها أذن واعية ، أو يلم بها قلب حافظ أو راوية .

من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « مثل المجلس الصالح كمثل الدارى إن لم يجذك من عطره يعلقك من ريحه ومثل المجلس السوء كمثل القين إن لم يحرقك بشره يؤذك بدخانه » وقوله « من أراد الله به خيراً رزقه خليلاً صالحاً ، إن نسي ذكره ، وإن ذكر أعانته »

ذلك لأن للمخالطة أثراً بيناً فى تكوين أخلاق الانسان ، وفيما يصدر عنه من أفعال الخير والشر ، وفيما يناله من سعادة وشقاء ونعمى الحياة وبؤسها ، ولأن الانسان موسوم بسمات من يخالطه ومنسوب اليه فعله قال عبد الله بن مسعود : (مامن شئ أدل على شئ ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب) وقال عدى بن زيد

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى
إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى
لهذا ينبغى للانسان أن يعرف فيمن يختارهم لمخالطته ويصطفاهم لمعاشرته
أمورا لا بد منها لتستقيم الصحة وتدوم الألفة :

خلال الخليط :

فمن ذلك أن يكون العشير موفور العقل ، كامل التجربة لأن الأحق لا تدوم مودته ، ولا تطول عشرته ، وقد يصيب الانسان بضرره أكثر مما يصيبه نحيه ، وقد أبان القرآن الكريم عن هذا أوضح بيان ، قال تعالى :
(وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ،
يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
البداء لوئم ، وصحبة الأحق شؤم » وقال بعض الحكماء « (عداوة العاقل أقل ضرراً من مودة الأحق) وحكاية الدب وصاحبه فى هذا الباب مشهورة معلومة

ومنها أن يكون ذا دين يقف به على الخير وينهاه عن الشر، لأن تارك الدين عدو نفسه، فكيف يكون صديق غيره، ولهذا قال بعض الحكماء: (اصطف من الإخوان ذا الدين والحسب، والرأى والأدب، فانه رذء لك عند حاجتك، ويد لك عند نائبتك وأنس عند وحشتك وزين عند عافيتك) ومنها أن يكون رضى الأخلاق، حميد الفعال، يؤثر الخير على الشر، ويفعله ويأمر به، فان مخالطة سيء الخلق تكسب العداوة، وتفسد الأخلاق، ولاخير في مودة تجلب عداوة، وتورث صاحبها مذمة وملامة، وقال بعض العقلاء (مخالطة الأشرار على خطر؛ والصبر على صحبتهم كركوب البحر: من سلم منه يبدنه من التلف لم يسلم بقلبه من الحذر منه)

ومنها أن يكون ذا ميل الى الصحبة، ورغبة في المعاشرة؛ فان ذلك أوكد لها. وأمد لأسباب المصافاة، وأدعى إلى الاستفادة.

هل يكثر الانسان من الإخوان والأصحاب؟

سؤال يتردد في جوانب نفس كل انسان، فاذا ألقيت به على قوم انقسموا فيه ثلاث فرق: فرقة ترى الاكثار، وفرقة ترى الاقلال، وفرقة ترى ألا يكون واحد منهما، ولا بد لمن يريد علم هذا أن يقف على رأى المتقدمين من علماء الأخلاق والدين، ومن بلوا الأيام، وعركوا الحوادث، فعرفوا خيرا وشرها، فان ذلك أدعى إلى اطمئنان النفس، وأهدى الى سبيل الخير

يرى بعض هؤلاء أن الاستكثار من الأصحاب ضرورة تدعو إليها حاجة الانسان إلى المعاونة والمعاونة وفي هذا قيل: (حلية المرء كثرة إخوانه) وقيل: (المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه) وفي الأمثال: (يد واحدة لا تصفق)

ويرى فريق آخر أن الاقلال منهم خير من الاكثار، لأنه أخف مثونة وأيسر كلفة وأذهب للبغضة والتنازع الذى يحدث من الكثرة ولهذا قال الاسكندر: (المستكثر من الإخوان من غير اختيار كالمسروق من الحجارة، والمقل من الإخوان المتخير لهم كالذى يتخير الجوهر) وقال عمرو بن العاص: (من كثر إخوانه كثر

غرماءه) وقال إبراهيم بن العباس: (مثل الإخوان كالنار: قليلها متاع، وكثيرها بوار) وقال ابن الرومي:

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ماتراه يكون من الطعام أو الشراب
ودع عنك الكثير فكم كثير يعاف وكم قليل مستطاب
فما اللجج الملاح بمرويات وتلقى الرى في النطف العذاب

وفريق ثالث يرى الخير في الوحدة، والانصراف عن الناس جملة، فإن هذا أصون للدين، وأحفظ للوقت، وأضمن لراحة الانسان وسلامته، وأذهب للعناء الذي يجده الانسان عادة من تكلف ما يترضى به كل واحد من إخوانه وخير الآراء ثانيها، وهو الأجدر بالتقدمة والأولى بالاتباع، إذ لا إفراط فيه ولا تفريط، ولكن على الانسان أن يتعرف فيمن يختاره لصحبته ما تقدم من الصفات والا يثق به قبل ابتلائه ولا سيما في هذا الزمان الذي كثر شره، وقل خيره، وأتقن الناس فيه التصنع ولباس الرياء، حتى أنه ليعجز أعقل الناس وأكثرهم دهاء وحزما عن كشف ما انطوت عليه نفوسهم من خبث وسوء نية، وإن في الحوادث التي يسوقها الدهر كل يوم عظات بالغة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد،

آثار المخالطة الصالحة:

للمخالطة الصالحة نتائج حسنة، إذ يستحي الانسان في الغالب من إظهار عيوبه أمام رفقائه والمتصلين به، ولا سيما من عرفوا منهم بالترفع عن الدنيا، وفي هذا ما يبعده عن الشر ويدنيه من الخير، كما يأمن على أخلاقه بمعاشرتهم. ومن آثارها أن يذكره إخوانه بالخير فيفعله، والشرف فيجتنبه، وأنه يكتسب بصحبته شرفا، ويمجد منهم عوناً في الملل، وعضداً في النائبات

فالمخالطة عامل من عوامل التربية: - ومن أجل ذلك: يجب على الآباء

والمرين أن يعيروا المخالطة عنايتهم كلها، لأن أثرها في التربية تنقطع دونه جميع الأبواب، ولتحقيق الغرض الصالح منها يجب أن يمنع الأطفال من

مخالطة من ساءت أخلاقهم ، ولو زمنا قليلا ، وأن يمنعوا من الذهاب إلى المجتمعات العامة وحدهم ، ولا سيما التي يغشاها ذوو الدناءة ، والأخلاق السيئة ، وأن يختار لهم آباؤهم وأولياؤهم إذا بعثوهم ليتعلموا في بلد بعيد ناسا من عرفوا بكرم الأخلاق وصحة الآداب ، ليشرّفوا عليهم ، وألا يتركوا لهم الحبل على الغارب في اختيار الأصدقاء والخلان ، فإن قلة خبرتهم ونقص تجربتهم تدعوهم في الغالب إلى اختيار من يضرّون ولا ينفعون ، ويفسدون ولا يصلحون

وقد أدرك الناس على اختلاف منازلهم ومنازعهـم خطر المخالطة ، واتصال عدواها بالدين والأخلاق والعادات والمعتقدات ، فاتحى كل فريق ناحية في أسلوب معيشته ، وسلك سبيلا خاصة به ، في تربيته وتعليمه وعاداته وآدابه ، وأسلوبه في مأكله ومشربه وحديثه وملبسه ، حتى في إشاراته وحركاته وسكناته ليمتاز عن سواه . وقد سرى هذا التمييز في كل شيء تقريبا ، فحيث تلتفت لا تجد إلا ذلك : ففي قطر سكة الحديد ومركبات الكهرباء ومشارب القهوة والفنادق والمطاعم والملاهي ودور التمثيل والمستشفيات والمصاح ومحال التجارة والمدارس التي هي أما كن تهذيب وتعليم ، ترى أما كن للخاصة وأخرى للعامة ، حتى لتجد هذا في أرباب المهن والحرف والصناع : كالخياطين والتجارين والبنّاءين والمهندسين والأطباء والمداره ممن جعلوا لهم جعلا خاصا صاروا بسببه يختصون بطبقة من الناس دون طبقة .

خلاصة ينابيع الخلق

بما تقدم يتبين أن المؤثرات في تكوين الخلق ضربان : داخلية وخارجية : وأهم المؤثرات الداخلة ما يلي :

١ - الغرائز : وهي تبعث على العمل ، وهو يكون العادة ، والعادات

أمهات الأخلاق

٢ - العادات : وهي كثيرا ما تكون قواعد للأخلاق ، وإذا عرفنا أن العادة

تكون من العمل سهل علينا أن نعرف أن منع الناشئ تكرار أى عمل سيء يضمن لنا سلامته من العادات السيئة، ومتى سلم منها سلم من الأخلاق السيئة، ولكن علينا إذا منعنا ناشئاً عملاً سيئاً أن نستبدل به عملاً صالحاً نشغله به، ونحمله على مزاولته، حتى تتكون عنده عادة صالحة يقوم عليها خلق صالح (العادة طبع ثان)

٣- الرغبات : وهى ميول النفس، وتعتبر من العوامل الفعالة فى تكوين الخلق، لأن الرغبات أكبر دافع للعمل أو مانع منه، ولذا قال أحد الحكماء: (نبئنى بما يرغب فيه الانسان أنبئك بأخلاقه) وأهم المؤثرات الخارجة :-

الوراثة . المنزل ، المدرسة . الأصدقاء . البيئة

الوراثة

الانسان خاضع لقانون الوراثة كالحوان والنبات ، وقد أثبت العلماء صحة هذا القانون بتجارب كثيرة لا تخفى على المتأمل ولا يقتصر تأثير الوراثة على حالات الانسان البدنية، بل يتعدى الى عقله وأخلاقه، فالانسان يكاد يكون جسماً وعقلاً نتيجة لازمة لما كان عليه أسلافه ينشأ الصغير على ما كان والده إن الأصول عليها ينبت الشجر بنى كما كانت اوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا ولقد كان العرب يؤمنون بتوارث الطباع والعادات. كان لأبى اخزم الطائى ابن يقال له اخزم كان عاقاً، فمات وترك بنين ، فوثبوا يوماً على جدهم أبى اخزم فأدموه ، فقال :

إن بنى ضربونى بالدم شنشنة أعرفها من أخزم

يعنى ان احفاده لطخوه بالدم وقد أشبهوا أباهم أخزم فى الحقوق . وكذلك كانوا يعترفون بالتوارث عن الأم ويظهر ذلك فى قول شاعرهم :
إن الكريمة ينصر الكرم ابنها وابن اللئيمة للثام نصير

وقد أشار إلى ذلك النبي الكريم بقوله (تَخَيَّرُوا لِنَظْفِكُمْ فَإِنَّ الْعِرْقَ دَسَّاسٌ) وفي الأمثال (انولد سر أياه)

ويظهر تأثير الوراثة واضحا في زمن الحمل إذ هو الزمن الذي يوضع فيه أساس القوى الانسانية ، فنبليون الذي طبقت شهرته الحرية الآفاق نقل المؤرخون عن والدته أنها لما كانت حاملا به رافقت زوجها مرارا في الحروب من غير أن ترتاع، بل كان يلذ لها منظر الوقائع الحرية فظهر على نابلون في صغره الميل إلى الحرب وقد أثبت الأطباء أن انفعالات الحامل من سرور وخوف وحزن وحب وبغض وغيرها تؤثر في جنينها، وأوصوا بادخال السرور على الحامل، والعناية بصحتها، وترويح نفسها بالمناظر الجميلة، والبعد عن كل ما يثير انفعالا سيئا في نفسها ونرى العامة يحكمون على أخلاق الناشئين والناشئات بما يحكمون به على آبائهم وأمهاتهم، وهذا تصديق منهم بتأثير الوراثة في الأخلاق

من أجل ذلك حرم كثير من الأمم الغربية الاذن بالزواج إلا بعد التأكد من خلو الزوجين من الأمراض المعدية . وفي عام ١٩٢٩ . قررت حكومتنا الاقتداء بهم، وستصدر قانونا بذلك محافظة على النسل، وقد أرسلت وزارة الحقانية المنشور رقم ١ سنة ١٩٢١ إلى المحاكم الشرعية بناء على طلب مصلحة الصحة القاضي بوجوب التشديد في الحصول من طالب الزواج ذكورا وإناثا على الاقرار الخاص بسلامتهم من الأمراض السرية، وقد أذاعت جريدة الأهرام الاجراءات التي جرت بين مصلحة الصحة والحقانية في هذا الشأن بعدها الصادر في ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٢٩

وكثير من المتعلقات فطن لقانون الوراثة، وعملن على غرس الأخلاق الحميدة في نفوس أجنتهن وهم في طور التكوين بارتياحهن في أثناء الحمل إلى الفضيلة ونفورهن من الرذيلة ، فجاء أطفالهن على ماشئ أن يكونوا عليه ، وعلى ما اتخذن من الوسائل الموصلة إلى غرضهن .

ومهما كان الانسان خاضعا لقانون الوراثة ومهما كان إيماننا بهذا القانون

فلا يمكننا أن نقف جامدين أمام تأثير التهذيب والصقل . ومهما كانت قابلية النفس البشرية للتأثر بالتهذيب ، فليس في الامكان مقاومة ما استكن في النفس عن الوراثة والغرائز مقاومة تامة ، فقد نرى بعض أبناء الصالحين صالحين كما نرى بعض أبناء الأشرار أشرارا .

المنزل

المنزل أول بيئة يعيش فيها الطفل ، وهو أقبل ما يكون للتهذيب المنزل هو المدرسة الأولى التي يتأدب الطفل بآدابها ويتعود عاداتها ، ويقف على كثير من أفكارها وآرائها واعتقاداتها . فان كانت الأسرة التي تسكن في المنزل شريفة تنسم فيه الطفل نسيم الفضيلة ، وإلا انغمس في حمأة الرذيلة . ولانشك في أن البيئة التي عليها مدار تربية الطفل عندنا الآن موبوءة : بالكذب والبذاءة والخرافات متفشية فيها بحال مروعة لا تتفق وتربية الأطفال الذين نعدهم للحياة

. والأسرة الشريفة والدينئة سواء في تكوين الأخلاق وإن اختلف الأثران ، غير أن الأسرة الدينئة خير من بعض الوجوه من الأسرة المهملة لأن الدينئة كثيرا ما تغرس في نفس الحدث مضاء العزيمة ليصل الى غاية وضعية . ولكن قد يدركه حسن الطالع ، فيغسل وزره بالتوبة ويضرب في سبيل الفضيلة ، وحيثذاك يجد ما نبت في نفسه من قوة العزيمة سلاحا نافعا له في الوصول إلى محاسن الأعمال . أما من نشأ في أسرة مهملة فانه يقف أمام مصاعب الحياة مغلول اليدين يذهب مع كل خاطر ، ليس له رأى سديد ولا إرادة حازمة

وغير خاف أن رؤساء المنزل ومعلميه هم الآباء والأمهات ، فاذا كانوا على بينة من المهمة الخطيرة الملقاة على عواتقهم ، قادرين على أن يربوا أولادهم تربية حسنة ، أمدوا أمتهم برجال نافعين أصحاب الأجسام كريمي الأخلاق وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه فالناشئون بحكم غريزة المحاكاة مدفوعون إلى محاكاة آبائهم وغيرهم من المحتكين بهم .

وإذا عرف المربون قيمة هذه الغريزة واستثمروها، بأن حفظوا عيون أولادهم من أن تقع إلا على كل جميل وأذانهم من أن تسمع إلا كل قول حميد، وصانوهم، من مخالطة الخدم وغيرهم من ذوى النقائص، ومن غشيان مجالس اللهو والمجون نشئوا نشأة حسنة. قال أحد فلاسفة اليونان: «أعطا ابنك عبدك يريه يكر. لك بدل العبد عبدان»

وإذا أراد الوالدان مثلاً أن ينميا الاحساسات الطيبة في نفس الناشئ عرضاً عليه مواضع الشفقة على الإنسان والحيوان، ووجهاه إلى مواضع الرحمة ومساعدة الضعفاء، واشتركا معه في أعمال البر، وأبعداه عن كل ما يمت هذا الشعور عنده. وبذلك يمهدان له السبيل إلى أرقى الأخلاق. وإن لم يحسن الآباء تربية أولادهم شبوا على الرذيلة، وضعف الرجاء في إصلاحهم فإن من شب على شيء شاب عليه

ان الغصون إذا قومتها اعتدلت ولن يلين إذا قومته الخشب وأكبر جناية يجنيها الآباء على أولادهم سوء تربيتهم قال سبنسر: «لم يهمل الآباء شيئاً إهمالهم إنعام الفكر في تأديب أطفالهم، وتعويدهم حميد الخصال وجميل الفعال، ولعلمهم ظنوا الأمر هينا، وحسبوا أنهم قادرون بلا فحص ولا بحث على أن يودعوا طبائع صبيانهم ماشاءوا من المناقب، وجهلوا أن علم تهذيب النفس علم صعب المأخذ، عسر المتمسك، من جهل قواعده خاب في تأديب غلامه، وبدهى أن من سار إلى الشيء من غير طريقه لا يصل، ومن دخل الظلام بغير سراج فقد ضل.» ويؤخذ من كلام سبنسر أن علم النفس ضروري للآباء والأمهات، وبدونه لا يهتدون إلى الطريقة المثلى في تهذيب أبنائهم. ولتكون على بينة من خطأ الآباء في تربية أولادهم إذا جهلوا علم النفس، أذكرك حكاية يتبين لك منها كيف يسرون في طريقهم على غير هدى:

أراد والد أن يعلم ابنه الصدق وأن يحبيه إليه ليشب صادقا فأخذ يذكر له جملة مما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف خاصة بفضيلة الصدق وجزاء الصادقين، وبينما هو يسدى إليه من عبارات النصيح والوعظ ما هو

كفيل بتثيـث هذه الفضيلة في نفسه إذ بقادم دق على الباب، فنهض الولد ليفتح له، فأستـهـله الوالد وأطل من النافذة، فرآه زائراً لا يود مقابلته فأمر ابنه أن يقول له: إن والدي ياسيدي غير موجود هنا. فمن الخطأ نسبة الشر إلى الأطفال وتبريء آبائهم منه، فما الأطفال إلا صورة آبائهم. وما أصدق قول سبنسر في ذلك: (ولقد نرى الناس ينسبون الهفوات والعيوب إلى الأطفال ويخلون الآباء منها، شأنهم مع الحكومة إذ يرثون الولاية من كل عيب وينسبون إلى الرعية كل نقص، والحقيقة أن سوء معاملة الآباء أصل أكثر ما ينسب إلى عناد الأطفال وتشبثهم)

وإذا انتقل النـشء من المنزل إلى المدرسة شيد المدرسون أخلاقهم على الأساس الذي وضع في المنزل: فإن كان وطيدا زادت المدرسة توطيدا، وإن كان واهيا صعب إصلاحه على المدرسة، وهي مهما بذلت من المجهود في تقويمه فلا بد أن يبقى للتربية المنزلية أثر ظاهر أو خفي في نفوس النـشء، ولذا كان السلف الصالح يمتنع من تعليم الأرزال والوضعاء ما يزيد على قدر حاجتهم، حذرا مما يترتب على قدر الزيادة من الضرر العام، إذ قد يتخذون العلم آلة للشـرور. وبالأجمال، فانا لا ننتظر من وراء التربية المنزلية نتيجة خلقية سارة إلا إذا كان الآباء والأمهات على خلق عظيم

المدرسة

ليست مهمة المدرسة تلقين المعلومات فحسب، بل هي عامل كبير يلى المنزل في تكوين الأخلاق، ففيها يقف تيار أسرة الطفل، ويشعر بواجبات لم يشعر بها من قبل، وفيها يجد أفرادا تمتزج بينهم وبينه صلة الصداقة بالمشاركة والمعاونة، وفيها يجد سلطة تحاسبه على زلاته وأعماله بدون محاباة، فيمرن على طاعة أولى الأمر. مهمة المدرسة إعداد النـشء لأن يكونوا رجالا نافعين وأمهات صالحات، ولا غرو فقد عزا بسمارك العظيم انتصار الألمان في حرب السبعين إلى المدرسة ولا يمكن أن تقوم المدرسة بهذا المهم العظيم إلا إذا كان القائمون بأمرها

من تربوا تربية حسنة، عاملين بأوامرهم منتهين عن نواهيهم، قدوة صالحة في أقوالهم وأفعالهم، عاملين بأحوال النفوس وغرائزها واستثمارها، فلا يكفي أن يكونوا من ذوى الأخلاق الكريمة فقط، بل يجب أن يكونوا قادرين على بث هذه الأخلاق في نفوس من وكل إليهم أمر تعليمهم.

ولاشك أن مانراه من النقص في المتعلمين لا يجبر إلا باصلاح المعلمين، فالمعلم الذى يملى الحقائق إملاء ولا يعنى بإشراك تلاميذه معه فى تعليم أنفسهم بأنفسهم (التعليم الذاتى) نرى تلاميذه يخرجون من المدرسة قليل الثقة بأنفسهم، فاقدى الهمة، ضعاف العزائم، مغلقى الحواس، قليلى الملاحظة والخبرة. ولعل ذلك من أكبر أسباب الزهد فى العلم بعد الخروج من المدرسة، والتقاعد وتهيب الاقدام على الأعمال، وتلك من أضر الأخلاق التى تعوق رقى الأمم. فيجدر بالمعلم أن يحمل تلاميذه على استنباط كل ما يمكن من الحقائق ليربى فيهم خلق الاعتماد على النفس، وهو من أنفع الأخلاق وأعونها على النجاح

وإنما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول فى الدنيا على رجل

والمعلم الذى يرهق تلاميذه بالمعلومات يقضى عليهم بالتحول فيصل بهم إلى عكس المطلوب، ألم تر أن الحرص على أن يسرع النبات فى النمو بتسميده بكمية فوق حاجته يحرقه السهام ويفسده، وأن الحرص على سرعة الشفاء بمضاعفة الدواء يؤخر الشفاء. وكذلك حشو الذهن بالمعلومات قبل استعداد النشء لها يفضى إلى الانحطاط العقلى

والمعلم الذى يخس زملاءه حقهم، ويحط من أقدارهم أو أقدار العلوم التى يدرسونها أمام تلاميذه، يبت فىهم أخلاقا ذميمة. فيجب أن يسود بين القائمين بالتعليم الوفاق والاحترام والتعاون على إنهاض تلاميذهم، فإن أقل خلاف أو تخاذل يقوم بينهم يسرى منهم إلى تلاميذهم ويؤخر تقدم المدرسة العلى والخلقى.

وإذا عاملت المدرسة تلاميذها بالعدل فانهم يتخلقون به ويقدسونه وتبقى آثاره ظاهرة فيهم وهم كبار.

ومن الطرق المثلى فى تغيير أخلاق الطائفة الفاسدة بالمدرسة ألا نؤدرىها أو نخط من شأنها : بل علينا أن نغرس فى نفوس هذه الطائفة أخلاقا تناقض أخلاقها، وتتعبدها بالتنمية حتى يموت ما كان فيها من الأخلاق السيئة ، ويحيا ما غرسناه من الأخلاق الحميدة . وإذا لم تجد طرق الإصلاح عمدنا إلى بتر هذا العضو من جسم المدرسة حتى لا يعدى غيره، ومدرسة الحياة كفيلة بإصلاحه أو تحطيمه .

وجملة القول ان وسائل تربية الخلق فى المدرسة ما يأتى :

(١) الدروس الدينية والأدبية (٢) معالجة الأمراض الخلقية ووصف الدواء الناجع لها عند المناسبات وما أكثرها فى اليوم المدرسى

(٣) النظام المدرسى فيجب أن تبين للتلاميذ فائدته على التدرج حتى ينطبع فى نفوسهم فيقوموا به طائعين مختارين

(٤) مشاركة المدرس التلاميذ فى شعورهم ودرس أمزجتهم الخاصة فيظهر الشفقة لىء الحظ ، والانصاف للضعيف

(٥) تربية العادات الأدبية فى الأطفال كالطاعة والتبكير، والمواظبة، ومعرفة نتيجة العمل قبل الشروع فيه ، فان تكرار العمل يجعله مألوفا سهل المزاولة فيصبح عادة ثم خلقا

(٦) القدوة الصالحة إذ الطبع يسرق

(٧) الألعاب النظامية فيلاحظهم المدرس فى أثناء قيامهم بها .

(٨) محاربة ميل التلاميذ إلى مخالفة القانون

(٩) الشعور بالواجب فانه يبعث فى نفس صاحبه سرورا من عمل الخير وألما من عمل الشر

(١٠) وضع الثواب والعقاب فى موضعهما بأن يكون الغرض من الثواب

التشجيع على الأخلاق الطيبة، والمقصود من العقاب تجنب السيء منها.

وجملة القول إن وسائل تكوين الأخلاق فى المدرسة تكون بغرس الميول

الصالحة في الذهن وتوجيه النفس اليها، ويجب أن يتعاون البيت والمدرسة على نشأة الطفل وتهذيبه ،

الأصدقاء

لا ينبغي اختيار الصديق إلا بعد اختباره وتجربته ، ويجب أن يكون من بيت طيب منظم، متحملاً بكريم الخصال ، متمسكاً بجميل الفعال ، له عقل ودين وأدب، لأن الإنسان صورة من صديقه يحاكيه في زيه وأخلاقه وآدابه ، فكم من جبان القلب تعلم الشجاعة والاقدام من معاشرته الشجعان، وكم من بخيل أصبح كريماً بمخالطة الكرماء ، وكثير من النابغين له عقل وافر ودين وأدب ، وله همة عالية يحب الرفعة والمعالى ، فعاشرتهم لها أثرها ولا تثمر الصداقة إلا إذا كان بين الصديقين شعور متبادل وطباع متقاربة وميول متناسبة . قال حكيم: (نبئني عن تصاحب أنبئك من أنت) وقال الشاعر :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى .
وكثير من النابغين ينسبون نبوغهم إلى أنهم وفقوا إلى اختيار صاحب أو أصحاب أثروا فيهم أثراً صالحاً، ونهبوا فيهم قوى كانت خاملة وللصديق حقوق أهمها :

- ١ — البحث عن حاجة الصديق وقضاؤها .
 - ٢ — مشاركته في السراء والضراء .
 - ٣ — الدفاع عنه حاضراً أو غائباً .
 - ٤ — شكره على حسن صنيعه والتودد إليه بجميل الكلام .
 - ٥ — المحافظة على أسرارهِ وعدم التكبر عليه ، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لها، وأن يخالفه بخلقه بحسن .
- ولتربية الصداقة وسائل :

- ١ — المنزل . على الآباء أن يعيشوا الألفة بين الأبناء حتى لا يظلم أحدهم الآخر
- ٢ — المدرسة . فعلى المدرسين أن يعودوا الطلبة حسن المعاشرة والكرم والمساعدة : لأن المال يولد الألفة ويبعث على المحبة . قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) أى يتوادلون ويتحابون ويحبهم الله . وقال عليه الصلاة والسلام « عليكم بأخوان الصدق فانهم زينة فى الرخاء وعصمة فى البلاء »

طريقة دين الاسلام

أمثل طريق لتكوين خلق الانسان

سلك الاسلام فى تكوين خلق بنى الانسان مسلكا شملهم من جميع نواحيهم ، فاتخذ من الوسائل أوقاها وأقربها ، ومن الذرائع أنبلها وأنجعها

هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

وإليك البيان :

الذريعة الأولى

تأديبه فى مأكله ومشربه

إن من أهم الأمور وآكدها الاعتناء بتربية النشء الصغار ، وتعويدهم التخلق بالكمال فى حال نشأتهم ، لأن الصبى عند ما يولد يكون ساذجا خاليا من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما ينقش عليه ، ومائل إلى كل ما يمال به إليه ، فان عود الخير وعمله نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة ، وشاركه فى ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب ، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك ، وكان الوزر فى رقبة القيم عليه والمتولى أمره ، انظر قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

وإذا كان الأب يصونه عز نار الدنيا فلا أن يصونه عن نار الآخرة أولى، وصيائته بأن يؤدبه ويعلمه مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات . وإذا إن أول ما يغلب عليه شره الطعام وجب على المربي أن يؤدبه فيه ، حتى لا يكثر من الطعام ، ولا يسرف فيه ، فإن الله سبحانه يبغيض من يفعل ذلك ، وإن يقبح عنده كثرة الأكل بتشبيهه كل من يكثر الأكل بالبهائم ، ويذم بين يديه كل من يكثر الأكل من أمثاله ، وألا يطعمه إلا حلالا طيبا طاهرا من ربا أو غصب أو سرقة ، ويبين له الحلال منه وطرق تحصيله ، والحرام ويأعده عنه ، ويبين له المواضع التي أباح الله له الأكل منها من بيوت أقاربه : كأبيه وأمه وأخيه، وأخته، وعمه، وعمته، وخاله، وخالته، أو صديقه . ويبين له آداب الأكل منفردا أو مع غيره ، وقبل الأكل وبعده .

وقد بين الله جل شأنه هذه الآداب على أحسن وجه وأكملها . فقال تبارك اسمه في النهي عن كثرة الأكل والشرب ، والاسراف فيهما وبغضه لذلك (كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) بأرشدنا إلى ما علمنا من الطب والحكمة ، وهدانا إليه ، بما تصح به أبداننا وتقوى به أجسامنا ، وتطيب به معيشتنا ، وتنهأ به حياتنا من عدم الافراط في الأكل والشرب والاسراف فيهما ، لأن كثرة الأكل والشرب تفسد المعدة ، وتضعف الجسم ، وبذلك يضعف الفكر ، ويخمد الذهن ، وينحط الإدراك . وإذا حجب القلب عن الإدراك ، ومنع الذهن عن الحركة في المعقولات ، خسر صاحبه بابا كبيرا من العبادات ، لأن المقصود من العبادات إنما هو الفكر الموصل إلى المعرفة والاستبصار بحقائق الحق ، وكثرة الأكل كما علمت مانعة منه . ولهذا قال لقمان لابنه « وإذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخسرت الحكمة ، وقعت الأعضاء عن العبادة » وقد بينت السنة حد السرف المنهى عنه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت » كما بينت القدر اللازم والمقدار الواجب استعماله منهما فقد قال صلى الله

عليه وسلم : « ماملأ ابنُ آدمَ وعاءَ شراً من بطنه : حسبُ ابنِ آدمَ لقيَمَاتُ يقمن صلبه ، فان كان فاعلاً لا محالة ، قلتُ لطعامه ، وثلاثُ لشرابه ، وثلاثُ لنفسه » هذا وبعد أن نهى جل شأنه عن الاسراف في الأكل والشرب ، أخذ يتوعد ويهدد من خالف أمر الله فأسرف فيهما ، ولم يقتصر على استعمال القدر الواجب استعماله منهما فقال : « إِنَّهُ لاَ يَحِبُّ المُسْرِفِينَ » أى ييغضهم ، وناهيك بغضب الله تعالى وعدم رضاه فانه داعية الهلاك ، وسبب كل المصائب : وأى عاقل يجرؤ على أن يغضب الله تعالى فى مقابلة مرضاة نفسه باتباعها فى شهوة هى سبب هلاكه ، وداعية لأسقامه وآلامه ؟

الذريعة الثانية

تأديبه فى حديثه

إن أعصى الأعضاء على الانسان اللسان فانه لاتعب فى إطلاقه ، ولا مثونة فى تحريكه ، ولذا ترى أغلب الخلق قد تساهل فى الاحتراز عن آفاته وغوائله ، والحذر من مصايده وحبائله ، فأوردتهم المهالك : وجرّ بهم إلى المصائب . وما كبّ الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم . فاللسان خطره عظيم ، ولا نجاة من خطره إلا بالجامه بلجام الشرع ، ووقوف صاحبه عند الحدود والآداب التى أدبه بها الشرع ، وعليه إياها فى محادثاته ومخاطباته ، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه فى الدنيا والآخرة ، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته فى عاجله وآجله ، وذلك بأن يعقله إلا عن حق يوضحه ، أو باطل يدحضه ، أو حكمة ينشرها ، أو نعمة يذكرها ، ولا يتكلم به إلا بقدر الضرورة والحاجة ، وأن يقتصر فى التكلم به على ما يقيم حجته ،

وَيُبْلَغُ حاجته ، وألا يغالب أحدا على كلامه ؛ وإذا سئل غيره فلا يجيب عنه ، وإذا حدث بحديث فلا ينازعه ؛ ولا يقتحم عليه فيه ؛ ولا يريه أنه عالم به ، وأن يكلم كل إنسان بما يليق ، فلا يخاطب السوق بكلام الملوك ، ولا الملوك بكلام السوق . وألا يتكلم إلا إذا دعا داع إلى الكلام ، فان مالا داعي له هذيان ، وأن يجتنب في محادثته ثلاثة أشياء ، هي أعظم الأشياء خطرا على الانسان وأبغضها لله . وأقبحها عند الناس ؛ وهي : الكذب ، والغيبة ، والتمية . وألا يتجاوز في مدح ، ولا يسرف في ذم ، لأن السلامة من الكذب في المدح والذم متعذرة ؛ وألا يتكلم إلا فيما يعنيه ، وأن يضع الكلام في موضعه ، لأن لكل مقام مقالا ؛ وأن يجتنب في حديثه كل ما يكدر مخاطبه ، وألا يرفع صوته فوق صوت من هو أكبر منه ؛ فان ذلك كله مما ندب إليه الشرع ، وسلم به سليم الطبع .

فان لاحظ المتكلم في حديثه هذه الاعتبارات السابقة . وألزم نفسه رعايتها في كل أحواله . كان ممن كملت أخلاقه ، وعظم قدره ؛ واستوى عقله ، فان عقل المرء مخبوء تحت لسانه . بمصدق قول علي كرم الله وجهه : (لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه)

تأمل قوله جل شأنه في الملائكة في القول ، والمجاملة في الحديث ، ومجانبة الخشونة فيه : « وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا » فأرشدنا إلى حسن الأدب في المحادثة والمخاطبة .

فقد أمر نبيكم صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباده المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم ومحادثاتهم : الكلمة الطيبة ، وهي الكلام الحسن الذي لا خشونة فيه ، فانهم إن لم يفعلوا نزغ الشيطان بينهم ، وألقى بينهم العداوة والبغضاء ، لأنه العدو المبين للانسان يترصد به الدوائر؛ ويتربص له

الفرص في حصول الشحناء بين بعض أفرادها.

فالعاقل من لم يجعل للشيطان حظاً من قلبه ، حتى يملكه من غرضه ، وينيله أمنيته ، ويحقق له رغبته ، وإلا كان قد أسلم نفسه لعدوه يفعل فيها كيف يشاء ، وهو لعمرى فعلٌ غير حكيم .

وقال تعالى في النهي عن التكلم فيما لا يعنى : والسؤال عما لا يعود على السائل منه أدنى فائدة ، بل ربما ساءه وأضر به : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ » فأرشدت الآية الكريمة الى بيان تأديب الله تعالى عباده المؤمنين ، وتعليمهم الأدب معه ومع رسوله صلى الله عليه وسلم وقت التشريع ، إذ نهاهم عن أن يسألوا عن وجوب ما لم يجب أو حرمة ما لم يحرم من التكاليف التي تشتهى نفوسهم الوقوف عليها ، ولم ترد على لسان الشارع صلى الله عليه وسلم عليه وسلم ، مع أنهم لو سألوا عنها لكان سؤالهم داعية إلى مشقتهم بتكليفهم ما لا يطيقون ، بما يضعفون عن القيام به فيحل بهم غضب الله ، وهذا ما يفيد قوله صلى الله عليه وسلم لعكاشة بن محصن ، أو سراقه بن مالك ، حين سأله عن وجوب الحج في كل عام : (ويحك وما يؤمنك أن أقول نعم ، والله لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت ما استطعتم ولو تركتم لكفرتم . فاتركوني ما تركتكم ، فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم . فإذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه » .

فأدب المرء بالنسبة لله سبحانه وتعالى هو أن يسكت عما ترك الله ذكره ، لأنه جل شأنه هو العالم بالمصالح والمحيط عليه بكل شيء ، ولو علم أن في ذكر هذه الأشياء خيراً كثيراً لذكرها

وقال جل ثناؤه في الحث على التكلم مع الناس بالحسنى ، واللين والرفق ،

ومجانبة الفظاظ في القول والغلظة في الحديث ، آخذوا العهود والمواثيق من بني إسرائيل على ذلك : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا » فأفادت الآية الكريمة بيان ما أمر الله به بني إسرائيل ، وأوجب عليهم أن يؤدوه من الحقوق والآداب نحوه جل شأنه ، ونحو عبادته ، وأخذ عليهم العهود والمواثيق بذلك ؛ فأعظم هذه الحقوق وأولها بالرعاية أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، لأنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الأوقات والحالات ، فهو المستحق أن يوحده ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته ثم يليه حق الوالدين وهو برهما وحسن معاشرتهما والتواضع لهما والرحمة بهما ، والنزول عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله تعالى ، ويوصل إليهما ما يحتاجان إليه ولا يؤذيهما ، وإن كانا على غير دينه . ولعناية الله تعالى ببر الوالدين ، وأداء ما يجب لهما من الحقوق قرن ذلك بأعظم الأشياء لديه وهو عبادته وحده لا شريك له ، وذلك في غير موضع من القرآن فنه قوله تعالى : « أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْ أَلَدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ » وقوله « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » إلى غير ذلك من الآيات .

ثم من بعده حق اليتامى وهم الذين مات آباؤهم وهم صغار ؛ وحقهم أن يتولى تربيتهم ، ويحسن تأديبهم . ويكفل مصالحهم ، ويسعى في صالحهم ، وبالجملة يجلب لهم كل خير ، ويدفع عنهم كل شر وضر .

ثم من بعده حق المساكين ، وهم الذين لا يجدون ما يقوم بكفائتهم . وحقهم أن يقوم بمساعدتهم بما تتم به كفائتهم وتزول به ضرورتهم ، ويكفيهم مشقة ذلك السؤال ، ولا يلجئهم إلى تكفف الناس ، ثم بعد أن أمرهم جل شأنه بالاحسان بالفعل على الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وأخذ عليهم العهود والمواثيق بذلك أمرهم بالاحسان بالقول مع سائر الناس ؛ ليجمع بين طرفي الاحسان الفعلي والقولي فقال : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا » أي كلموهم كلاماً طيباً عند محادثكم

لهم ، ومخاطبتكم إياهم ولينوا لهم جانبا ، وليكن حديثكم معهم هينا لنا وسطا
ليس بالغليظ المرتفع فيميج ، ولا بالمنخفض بحيث يكلف المستمع طلب إعادته ،
ويدخل في ذلك كل حسن من القول . سواء أكان أمرا بمعروف أم نهيا عن
منكر . وقال تعالى في الحث على خفض الصوت عند المحادثة : (وَاعْضُضْ مِنْ
صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتَ لَصَوْتُ الْخَيْرِ) وقال تعالى : (وَلَا تُطْغِ كُلَّ
حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنِيمٍ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) فبين حرمة صحبة من
لا أخلاق لهم من الناس ، ومجانبة المجالسة والمحادثة معهم ، وعدم طاعتهم في كل
ما يقولون بقوله : (وَلَا تُطْغِ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنِيمٍ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ
مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) فهذه سبعة أوصاف كلها مثالب ومعائب ، نهى الله تعالى نبيه صلى الله
عليه وسلم عن طاعة المتصفين بها وهو تعليم لنا ، وإرشاد لما يجب أن نتخلق
به من الأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة ، وتركه من الأخلاق الفاسدة
والصفات الكاسدة

ووجه النهي والله أعلم أن الحلاف وهو كثير الحلف سواء في الحق أو في
الباطل - قلما يتحرى الصدق في أيمانه ، فهو عرضة على الدوام للكذب والخطأ
فيها ، فضلا عما له من الجراءة على الله تعالى وعلى أسمائه ، ومثل هذا يجب بجانبه
وتحرم مخالطته ، وإذا جعله جل شأنه فاتحة المثالب ومقدمة المعائب . وإن طاعة
المهين وهو حقير الرأي والتدبير - ربما أوردته المهالك وجرت عليه أخبث
المسالك ، لأنه يريد أن ينفع فيضر ، فطاعة مثل هذا لا نتيجة لها سوى الضرر .
وإن الهماز وهو العياب الطعان لا تؤمن غوائله فهو اليوم له ، وفي غد
عليه فضلا عن أنه بطاعته يعد شريكا له في هذه المنقصة ، وتلك الرذيلة ،
لأنه لا يعيب غيره ولا يطعن عليه إلا لزمانة في مروءته ، وخسة في أصله ، ولؤم
في طبعه .

وإن المشاء بالنميم هو النقال للحديث من قوم الى آخرين ليفسد بينهم
لاهم له إلا الايقاع بين الناس والافساد بينهم ، وإلقاء بذور الشقاق والخصومات
فما بينهم ، وإيغار الصدور وتوليد الشرور ، ومثل هذا يجب مخالفته وتحريم

طاعته وتعاف مجالسته ؛ لأن صحبته غرّر ، وطاعته ضرر ، ومجالسته خطر ، فكثيرا ما هلك وأهلك ، وأراق الدماء وسفك ، وما حمد أيما سلك . وإن المناع للخير وهو البخيل المسك يمنع أحوج ما يكون إليه صاحبه ، ومثل هذا لا خير في صحبته وطاعته . وإن المعتدى وهو الظالم لا يؤمن شره ، ولا يؤمل خيره ، فهو أولى بالاجتناب ، وأحرى بنذ طاعته سد الباب . وإن الأثيم وهو كثير الأثم والمعصية لم يبال المجاهرة بمعصيته خالقه ولم يخش من جلاله وعظمته فلا يبال أن يجاهر صاحبه بأذيته ، وينابذه بعداوته ، ومثل هذا تنبذ طاعته وتجنب مخاطبته .

وقال في النهي عن الكذب في القول وقت المحادثة : (إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ) فبين قبح الكذب وذم فاعله ، وذلك بما أخبر الله تعالى به عن الكذابين من عدم الفلاح والنجاح ، وكفى بأى صفة ذما أن تكون تتيجتها عدم الفلاح والنجاح .

الذريعة الثالثة

تأديبه في مجالسته

من خلق الاسلام أن يوسع المرء لجليسه إذا أقبل عليه ، ولا يضيق عليه ، وأن يلتزم معه الأدب والسكينة والوقار ، إذا كان أكبر منه سنا أو علما ، وبخاصة إذا كان أباه أو أستاذه . وأن يرحب به ويقبل عليه إذا حدثه ولا يضع رجلا فوق أخرى بحضرة من هو أكبر منه ، إن كان ذلك يغضبه ، ولا يبصق ولا يمتخط إلا في منديل ، مواريا وجهه عن جليسه ، وإذا ثأب فلا يصحب الثأوب بصوت بل يضع يده على فمه ، فان مخالفة ذلك مما يستقذره الناس قال الله تعالى مشيرا إلى بعض هذه الآداب : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَقَسَّعُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا لِقَاعِ اللَّهِ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ

واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) فبين ما أدب الله به عباده المؤمنين ، وأمرهم به من حسن المعاملة والمجاملة ورعاية الأدب في حق بعضهم بعضا : فمن ذلك إذا كان جماعة في مجلس وقدم عليهم آخر أو جماعة أخرى - فعلى الجالسين أن يوسعوا للقادمين مسرعين في ذلك سواء أكان المجلس مجلس ذكر أم تعليم أم صلاة جماعة أم جمعة أم غير ذلك من مجالس الخير ، لأن ذلك يكون سببا للتواد والتوافق والتحاب ونبذ التباغض والتحاسد، وهذا ما أفاده الله تعالى بقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ)

وأما القيام منه للقادم فقد جوزه بعض العلماء إذا كان لعظم لقوله عليه الصلاة والسلام : (قوموا لسيدكم) . وذلك ليكون أنفذ لحكمه ، وأدعى لتوقيره وتمثل عظمته في قلوبهم . وفي غير ذلك لا يجوز فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم لا يقومون للنبي صلى الله عليه وسلم إذا قدم عليهم . ولم يكن أحد أحب إليهم ، ولا أمكن هيبه في قلوبهم منه وذلك لما كانوا يعلمون من كراهته لذلك أما القادم نفسه فليس له أن يقيم أحدا من مجلسه ليجلس مكانه ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا)

ولما كان الغرض من التوسعة في المجلس للقادم غرس المودة والمحبة في قلوب المؤمنين، ولا يكون ذلك إلا حيث كانت التوسعة مصحوبة بشيء من الحفاوة بالقادم والاحتفال بأمره والاعتناء بشأنه . ومن ذلك أن ينهض مسرعا في التوسعة، فلما كان الغرض من التوسعة ذلك حث جل شأنه على النهوض بسرعة للتوسعة في المجلس للقادم فقال : (وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) أى وإذا قيل لكم انهضوا للتوسعة في المجلس للقادمين عليكم فانهضوا وأسرعوا ولا تثبطوا فانكم إن فعلتم ذلك يرفع الله الذين آمنوا منكم في الدنيا والآخرة درجات عظيمة جزاء امتثالهم لأمر الله تعالى في قيامهم من

مجالسهم ، وتوسعتهم لآخوانهم ، ويرفع الله الذين أوتوا العلم منهم خاصة درجات أعظم وأرفع ، لأنهم إنما يفعلون ما يؤمرون به عن بينة وقوة يقين وإنما خص جل شأنه أولى العلم مع دخولهم في عموم الذين آمنوا ، لأنه لما علم جل شأنه أن أهل العلم بمكانة بها يستوجبون عند أنفسهم وعند الناس ارتفاع مجالسهم خصهم بالذكر عند الجزاء ، ليسهل عليهم ترك ما لهم من الرفعة في المجلس ، تواضعا لله عز وجل . وفي الآية مما يدل على فضل العلم والعلماء على غيرهم ما لا يخفى .

وإن لم تفعلوه بأن كرهتم أن تتأدبوا بآداب الله ، واستعظمت أن توسعوا مجالسكم للقادمين عليكم حسبما أمركم ربكم فإن الله بما تعملون خبير ، لا تخفى عليه خافية من أعمالكم من خير أو شر ، فيجازيكم بالخير خيرا وبالشر شرًا .

ومما جاء في آداب المجالسة قوله عليه الصلاة والسلام : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر ، حتى تختلطوا بالناس أجل إن ذلك يحزنه » والحديث صريح في أن التناهي بين الاثنين دون الآخر منهي عنه ، لأنه يدخل على قلبه الوحشة والريية فيحزن ويتألم ، ومن هذا القليل أن يتحدث الاثنان جهره بلغة يجهلها الثالث ، مع اشتراكهم جميعا في معرفة لغة أخرى .

الذريعة الرابعة

تأديب جوارحه ومشاعره

قصد الاسلام أن يجعل من الانسان في ذاته مثلا صالحا ، فلا يصدر منه ما يوجب الذم واللوم ، ولا يقع منه ما يخل بالمرورة أو يقلل من قيمته أو يحط من قدره . فلا تلقاه إلا محمود الخصال ، ولا تراه إلا شريف الشئائل جميل الخلال : إن نطق صدق ، وإن وعد وفى وحقق ، وإن ائتمن لم يخن ، وإن تمكن من فعل محرم عف وكف ، وإن رأى منكرا غيره ، وإن تكلم غص من صوته ، وإن مشى لم يخلل في مشيته ، وإن رأى كبيرا وقره ، وإن

مر بلغو من القول أو الفعل تجنبه وإن لم يقدر على دفعه . وهكذا من كل خصلة حميدة وصفة جميلة .

من أجل ذلك سلك به في التأديب الطرق الآتية :

الأولى : غض البصر وحفظ الفرج وعدم التبرج وعدم فعل أى شيء من دواعي الميول الحيوانية أو إثارة الفتنة سواء أكان ذلك للرجال أم للنساء : (قلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَاءِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْاِرْتَبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

فبين أكمل الآداب التي يجب على الرجال والنساء أن يتخلقوا بها ، ويتحلوا بحلاها ، وهي بالنسبة إلى الرجال أن يغضوا أبصارهم عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه : من أجنبية غير محرم لهم ، وأن يحفظوا فروجهم من التعدي على عرض الغير ، وهذا ما أفاده الله تعالى بقوله : (قلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) لأن العين مبدأ الزنا ، والنظر يزرع في القلب الشهوة التي هي مجلبة لسائر الدنايا ، ومهلكة لصاحبها ، بما تجر إليه من أعظم المصائب ، وأكبر المعاييب . ولذا كان حفظ العين من الأمور المهمة الدالة على جلالة قدر صاحبها ونزاهة نفسه ، وبعد همته ، وصلاح شيمته ، وقد حذر صلى الله عليه وسلم الأخذ في أسبابه ، ونهى عن دواعيه سدا لبابه ، فقال : « إياكم

والجلوس على الطرقات : قالوا : يا رسول الله لا بد لنا من مجالسنا نقعد فيها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فان أيتم الا المجالس فأعطوا الطريق حقها ، قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر (هذا ومن اتفق وقوع بصره على ما يحرم نظره اليه من غير قصد فعليه أن يصرف بصره عنه سريعا ، بتحويل وجهه الى جهة أخرى ، أو إطباق عينيه ، أو إطرافه الى الأرض أو يسترهما بأي ساتر مما يحول دون نظره ، فان ذلك أدعى لعصمته وأحفظ لميوله .

وأما هذه الآداب بالنسبة للنساء فهي أن يغضضن أبصارهن ويمنعن النظر إلى غير أزواجهن : ولا يظهرن شيئا من زيتنهن للأجانب إلا ما ظهر منها ، ولا يمكن إخفاؤه : كالرداء والثياب الظاهرة . وأن يلقين على صدورهن ونحوهن مقانع ليسترنهن عن أعين الناظرين ، فلا يرون منها شيئا ، ولا يدين زيتنهن إلا لأزواجهن ، أو آبائهن ، أو آباء أزواجهن ، أو أبناء أزواجهن ، أو إخوانهن ، أو بنى إخوانهن ، أو بنى أخواتهن ، أو نسائهن المختصات لخدمة أو صحة بشرط أن يكن مسلمات ، لأن غيرهن لا يتحرجن من وصفهن للرجال وذلك يجر للفسدة ، أو ما ملكت أيمانهن من الاماء . أما الذكور فلا يجوز إبداء الزينة لهم ، لأنهم فحول ليسوا أزواجا ، والميول متحققة فيهم والأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء ولا حاجة لهم إلى النساء ، أو الأطفال الذين لا يميزون - فهؤلاء لا بأس من ظهور الزينة أمامهم .

أما وجه جواز إظهار زيتنهن لآبائهن ، وآباء أزواجهن ، وأبناء أزواجهن وإخوانهن وبنى إخوانهن ، وبنى أخواتهن : فلائهم محارم لهن يجوز للمرأة أن تظهر عليهم بزيتها ولكن من غير تبرج . بل بالحشمة والوقار ، لقلة توقع الفتنة من جهاتهم ، وتحتاج المرأة إلى صحبتهم في السفر للنزول والركوب وغير ذلك .

وأما وجه الجواز بالنسبة لنسائهن المختصات بهن المسلمات ، وما ملكت

أيمانهم من الاماء والاجراء والاتباع الذين لا حاجة لهم إلى النساء والأطفال الذين لا يميزون، فلعدم الضرر من جهتهم إذا أبدى زينتهم لهم .

وقد شدد الشارع الحكيم في عدم إبداء الزينة للنساء لما يعلم ما يترتب على ذلك من المفسدة والمضرة حتى نهى المرأة أن تضرب برجلها الأرض ليعلم ما خفي من زينتها فقال: (وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلَيْهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يَخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ)

ومثل ذلك ما لو كان شيء من زينتها مستورا فتحركت بحركة لتظهر ما خفي أو تتعطر وتتطيب عند خروجها من بيتها فيشم الرجال طيبها فإنه يدخل تحت هذا النهي أيضا، وكذا ما يلبسه أكثر مترفات النساء في زماننا فوق ثيابهن ويتغطين به إذا خرجن من بيوتهن . فقيه من أنواع الزينة ما يهر العيون . ويأخذ بألباب ضعف العقول ، وقد عمت بذلك البلوى . ومثله مما عمت به البلوى أيضا عدم احتجاب أكثر النساء من أصدقاء أزواجهن وعدم مبالاة أزواجهن بذلك وكثيراً ما يأمر ونهن به ، فإن ذلك ، ألم يأذن به الله ورسوله وهو دليل على قلة الغيرة وضعف المروءة .

الثانية : عرض عليه طائفة من أحسن الآداب وأجمل الأخلاق الذاتية حاكيا عن لقمان عليه السلام يوصي ابنه: (يَا بَنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تَصْعَرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) فبين أهم مكارم الأخلاق ، وأعظم صفات الكمال على الإطلاق ولا غرو فقد وصى بها أب حكيم قد ذكره الله بأحسن الذكر ، وآتاه الحكمة والاصابة في الرأي والفكر ، لابن هو أشفق الناس عليه ، وأحبهم إليه ، فهو جدير بأن يمنحه أفضل ما يعرف ، وذلك من إقام الصلاة والالتيان بها مستوفية الشروط والأركان ، في أوقاتها المعينة لها ، من غير إبداء ملل ولا ضجر ، ولا تقاعد ولا تكاسل ، مع تمثيل عظمة الله تعالى في قلبه ، ومراقبته جل

شأنه في كل قول وفعل منها حتى يلزم الأدب قلبه ، وتتبعه في ذلك سائر جوارحه ، فانه إن أتى بها كذلك نهته عن فعل الفحشاء والمنكر وذلك غاية الأدب ، ونهاية مكارم الأخلاق . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من لقمان عليه السلام لابنه - من باب تذليل النفس وتهذيبها ، وإقبالها على الطاعات ونبذها للنكرات بلطف . وهذا شأن المعلم الحكيم : فان من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر تستنكف نفسه وتكره أن يراه الناس حيث نهاهم ، فلا يصدر منه ما يوجب الذم واللوم ، ولا ما يكون سببا في عدم سماع كلامه وبلوغ مرامه ، فيفعل المليح ويحتجب القبيح إلى ما يترتب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من إرشاد الخلق إلى مافيه صلاح حالهم ، واستقامة أحوالهم ، وانتظام شئونهم ، وتقويم ما عوج من أخلاقهم .

ولما علم لقمان عليه السلام بما أتاح الله له من الحكمة أن الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر لا بد أن يقابل من المأمورين والمنهيين من الناس بأذى كثير ، لأنه إنما يأمرهم بمفارقة ما عليه أهواؤهم ، وألفته نفوسهم وتعلقت به رغائبهم ، ومفارقة ذلك أصعب شيء على النفس ، لما علم لقمان ذلك أمر ابنه بالصبر على أذاهم وتحمل الآلام والمشقات التي تحصل له في أثناء ذلك ، وبين له أن الصبر عليه من عزم الأمور فقال له : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » .

ولما كان الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر يجب أن يكون متصفاً بأحسن صفات الكمال من الأدب والتواضع والحلم وعدم الكبر على الخلق ، وعدم استحقارهم والاستخفاف بهم ، حتى يكون ذلك سببا في قبول أمره ومجانبة نهيه أمر لقمان عليه السلام ابنه بما يجمع هذه الخصال فقال : « ولا تُصعِّرْ خَدَّكَ للناس » أي لا تعرض عنهم بوجهك إذا كلمتهم أو كلموك احتقارا لهم ، واستكبارا عليهم ، بل ألن جانبك لهم ، وتواضع لصغيرهم وكبيرهم . واجلب محبتهم إليك بحسن صنيعك معهم ، ولطف معاملتك لهم ، فانهم بذلك ينتظرون

لك أمرا فيتبعونه أو نهيا فيجتنبونه وبعد أن بين له عليه السلام كيف يصانع الناس ويعاملهم ويعاشرهم أخذ يبين ما يجب أن يكون هو عليه في نفسه من الأخلاق الفاضلة ، والصفات الكاملة فقال : « ولا تمش في الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد في مشيك ، واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » أي إذا مشيت في الأرض فلا يكن مشيك خيلاء فان الله يبغيض من هذه حالته ، وإذا مشيت فليكن مشيك لا بالبطيء المتثبط ، ولا بالسريع المفرط ، فان كلا الأمرين مذموم لأن الأول مع ما فيه من التكبر وفقر الهمة ، وضعف العزيمة ، فيه ضياع لفرص كثيرة . والثاني مع ما فيه من أمارات الطيش والحفة وعدم الثبات ، فيه تحميل الأعضاء فوق طاقتها وإضعافها بعمل جهود لا تتحملها قواها العضلية ، فيهدم بذلك أساس قوته ، ويجر الفساد على بنيته ، وإذا تكلمت فاخفض صوتك ، ولا ترفعه زيادة عن الحاجة ، فان الجهر بأكثر من الحاجة مما يضر بالسامع ويؤذيه ، ولأن صوته بذلك يكون منكرا يشبه صوت الحمير الذي هو أضع الأصوات وأقبحها وأنكرها كما قال جل شأنه : « ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

الثالثة : قبح له السخرية بالناس ولمزهم والتنازع بالألقاب وسوء الظن :
 (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْبِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمَاءُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ) ففي هذه الآية الكريمة أرشد الله جلّت حكمته إلى الصفات الحسنة والأخلاق الكريمة : وهي ألا يسخر أحد

من أحد ويستخف به ويستحقره ؛ وألا يعيب أحد على أحد بشيء يكرهه ، وألا يسيء
 ظنه بأحد من إخوانه ؛ وألا يبحث ويفتش عن عورات الناس ومعايهم ،
 ويستكشف عما ستروه . وألا يذكر أحد أخاه بما يكرهه في غيبته فان ذلك كله
 مما نهى الله عنه ؛ ورغب في التباعد منه . فهي عن السخرية بالناس والاستخاف
 بهم بقوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا
 مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ) أي لا يصح أن يستهزئ
 أحد من أحد ولا يستخف به ويحقره سواء أكان من الرجال أم النساء ،
 لأنه ربما كان المسخور به عند الله خيرا من الساخر ، فلا ينبغي أن يجترأ
 أحد على السخرية بغيره ، والاستخفاف به بمجرد أنه رآه رث الهيئة ، أو فقيرا
 أو ذا عاهة في بدنه أو غير لائق في محادثته ، أو غير ذلك ، فلعله أخلص ضميرا
 وأتقى قلبا من هو على ضد صفته ، فيظلم نفسه بتحقيق من وقره الله تعالى .
 والسخرية إنما تحرم إذا كانت في حق من يتأذى بها أما من جعل نفسه مسخرة
 وربما فرح بالسخرية به كما يفعله السفلة من الناس ، فان السخرية في حقه من
 جملة المزح وليس بمحرم في حقه وإنما المحرم انصغار يتأذى به المستهزأ به
 لما فيه من التحقير والتهاون : وذلك تارة يكون بالضحك من كلامه ، إذا تخطط
 به ولم ينتظم ، أو من أفعاله إذا كانت غير منتظمة ، كالضحك من صنعته أو
 صورته وخلقته ، إذا كان قصيرا أو ناقصا لعيب من العيوب . فالضحك
 من جميع ذلك داخل في السخرية المنهى عنها ، وقد تكون السخرية بالمحاكاة
 في الفعل والقول وقد تكون بالإشارة والإيحاء .

ونهى عن أن يعيب أحد غيره بقوله (وَلَا تَلْزِمُوا أَنْفُسَكُمْ) أي لا يعيب
 بعضكم بعضا بقول أو فعل أو إشارة ، لأن الناس كنفس واحدة فمتى عاب
 الانسان أخاه فكأنما عاب نفسه ، وهذا أدب كبير أدب الله به عباده ليكون سببا في
 ألقتهم واتحادهم ، وارتباط قلوبهم بعظيم المودة ووثيق المحبة

ونهى عن أن يدعو أحد أخاه بلقب يكرهه ؛ لأن ذلك يزرع في القلوب

الضعيفة ، ويمكن فيها الحفيظة ، وهو مما جاء الشرع الشريف بزواله ، ولذا سمي
جل شأنه التناز بالالقباب الذي هو داعية الحقد والبغض فسقا في قوله :
(بِئْسَ الْاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْاِيْمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)
ونهى عن كثير من سوء الظن بأحد من الناس بقوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) أى يا أيها الذين آمنوا تباعدوا عن
كثير من الظن وهو مجرد التهمة التى لا سبب لها ، ولا دليل عليها كأن تهم
غيرك بشيء من الفواحش ولم يظهر عليه ما يقتضى ذلك ، لأن بعض
ذلك يكون إثما محضاً . فليجتنب الكثير منه احتياطاً . ويشترط فى حرمة هذا أن
يكون المظنون به ممن شوهدهم التستر ، والصلاح ، والأمانة . أما من يتعاطى
الريب والمجاهرة بالخبايا والمنكرات : كالدخول والخروج فى حانات الخمر ،
وصحبة الغواني الفاجرات ، فلا يحرم سوء الظن به فى نحو ما يظهر منه فقط .
الرابعة : أنكر عليه البحث عن عيوب الناس وعوراتهم بقوله (وَلَا تَجَسَّسُوا)
أى لا تبحثوا عن عورات الناس ولا تستكشفوا عماستروه ، فإن فى ذلك فضيحة
لهم وتعرضا لمالا يعنى ولا يفيد ، وهب أن ذلك الباحث اطلع على جميع
عورات أخيه ومعاييه ، فأى فائدة تعود عليه من ذلك سوى أنه كالذباب
لا يتبع إلا القاذورات والمواضع الفاسدة من الجسد وغيره ؟
ونهى عن أن يذكر أحداً بما يكره فى غيبته بقوله : (وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم
بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ) أى لا يذكر
بعضكم بعضاً بما يكره فى غيبته سواء أكان ذلك باللسان أم بالفعل . ومنه
الإشارة والكتابة وغيرهما مما يفهم نقصانه ، فإن علة النهى عن الغيبة الإبتلاء
بتفهم الغير نقصان المعتاب وهو موجود حيث أفهم الغير ما يكرهه الأعظم
بأى وجه كان من طرق الافهام ، وسواء أكان ذكر ذلك الشيء الذى يكرهه إذ رأى
بنقص فى بدنه أو نسبه ، أو خلقه أو فى فعله ، أو فى قوله ، أو فى رأى له فضلاً
دنياه حتى فى ثوبه ، وداره ، وماله ، وولده ، وزوجته ، وخالكا .

من كل ما يتعلق به . فذلك كله مما كرهه الله تعالى وحرمه ونهى عنه ، حتى جعل المغتاب كأنه يأكل لحم أخيه ميتا ، ذلك الأمر المستبشع طبعاً وعقلاً وشرعاً . ومحل حرمة الغيبة إذا لم يكن المغتاب مجاهراً بالمعاصي متهتكاً لا يبالى بما يفعل ، فإن الغيبة في مثله جائزة ، وذلك لأن الذي يعلن بالفجور والفسوق ولا يستحي من عصيان الخالق ، ولا يستتر عن المخلوق فيما يأتي من الكبائر ويظهر من المناكر - قد كشف ستاره ، وأبدى عواره ، فخرج من حد الظن إلى حد اليقين ، فمثل هذا ليس مقصوداً من النهي في الحديث « مَنْ أَلْقَى جَلْبَابَ الْحَيَاءِ فَلَا غَيْبَةَ لَهُ » .

الخامسة : بين له أن أحق المنكرات بالترك الجهر بالقول السيئ . فقال جلت حكمته : (لَا يَحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا) فهي عن البذاءة باللسان والجهر بالسوء من القول : سواء أكان ذلك القول السيئ شتماً أم سباً : أم لعناً أم مراء ، أم خصومة ، أم ذماً في حق الغير أم غير ذلك مما يدل على حقارة قدر صاحبه ، ودناءة نفسه وقلة حياته ، وسوء تربيته . وعدم قدرته على أن يكبح زمام نفسه عما تسوله له من القبائح والمنكرات . وتهيجه له القوة الغضبية التي منشؤها الزهو والعجب والكبر والمزاح والهزل والمماراة والمضادة والغدر ، وغيرها من الأخلاق الرديئة المذمومة شرعاً وعقلاً .

ولما كان الجهر بالسيئ من القول بهذه المكانة من القبح عبر الله جل شأنه . النهي عنه بما يفيد شدة قبحه وزيادة نكره وبشاعة أمره فقال : « لَا يَحِبُّ بَعْضُكُمْ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ » ولم يقل لا تجهروا بالسوء من القول أي واذ الإنسان - وبالله جل وعز . وغير مرضى له - فهو أولى الأشياء المنكرة ألفتهم واتحاد أحقها بالترك والابتعاد . ثم استثنى جل شأنه من عدم محبته ونهى عن أن القول : وبغضه وكراهته له جهر من ظلم بأن يدعو على

ظالمه ، أو يتظلم منه ، أو يذكره بما فيه من السوء فان ذلك غير مبغض عند الله تعالى ، وذلك لانه إنما يستغيث ليغاث ويستجير لينجد ، ويذكره بسوء لعله يرد عليه ظلامته ، ولأن المظلوم مصدور ، وهو لا بد أن يُنقث ، وهذا ما لا بد منه من طريق الفطرة ، فرخص له الشارع ذلك ؛ وفي ذلك دلالة على قبح الظلم والظالم ، وعدم نظر الله له . وعدم اعتبار حرمة ، واحتقاره له جل شأنه حتى لم ينه عن مذمته بظلمه ، وعن الجهر بالسوء من القول في حقه .

السادسة - حظر عليه تتبع ما ليس له به علم : (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) فلا يقول رأيت ، والحال أنه لم ير ، ولا سمعت وهو لم يسمع ، ولا علمت دون أن يعلم وهكذا ، لأن الله سبحانه وتعالى سائله عن ذلك كله من أين جاءه العلم بما رآه وسمعه وعلمه ؛ فانه جل شأنه خلق الأعضاء للإنسان وجعل لكل عضو منها وظيفة قائما بها ، وعملا خاصا به ، يسأل عنه دون غيره : فيسأل السمع عما سمعه ، والبصر عما رآه ، والقلب عما علمه ، فان كان الجواب طبق مانا ط الله هذه الأعضاء به ، وخلقها لأجله وكلفها إياه من الأعمال أثاب صاحبه ، إذا عملها فيما خلقت له . وإن كان الجواب غير مطابق - عاقب صاحبها ؛ جزاء تقصيره ، وعدم استعماله هذه الأعضاء فيما خلقت لأجله ، ومعنى سؤال هذه الأعضاء ومجاوبتها أن الله سبحانه ينطقها عند سؤالها فتخبر عما فعلت وفعله صاحبها ، وهذا الذي أشار الله تعالى له بقوله : (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) السابعة - نهاه عن التجبر والتبخر والتمايل في المشية ، فان ذلك يبغضه الله ورسوله ، لأنه نتيجة إعجاب المرء بنفسه وهو أخبت سرائر القلوب ، وأعظم كبائر الذنوب ، ودليل على جهل المرء بنفسه ، وعماه عن عيوبها إذ رأى قبيحها حسنا ، وخطأه صوابا ، ~~والتبخر والتمايل في المشية~~ ، ورأى لها فضلا ﴿ ٩ - الخلق الكامل ﴾

لم تستأهله ، ولو أنه تبصر في عيوب نفسه قليلا ، وتأمل ما هو عليه من المثالب والمعائب - لاستنكف مما عليه نفسه : من الزهو والعجب الذي حملها على هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله ، كما قال مطرف بن عبد الله للمهلب بن أبي صفرة عند ما نظر إليه : وعليه حلة يسحبها ويمشي الخلاء : يا أبا عبد الله ، ماهذه المشية التي يبغضها الله ورسوله !! فقال له المهلب أما تعرفني ؟ قال : (أعرفك ! أولك نطفة مذرة (١) وآخرك جيفة قدرة وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة) فعلام الانسان يتكبر وقد عرف مبدأه ومنتهاه ؟

وقد روى عن عمر رضي الله عنه أنه صعد المنبر وحمد الله وأثنى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « أيها الناس ، قد رأيتني أرعى على خالات لي من بني مخزوم يقبضن لي القبضة من التمر والزبيب » فقال له عبد الرحمن بن عوف : « والله يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قصرت بنفسك » فقال له : « ويحك يا بن عوف خلوت بنفسي فحدثتني فقالت أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك ؟ فأردت أن أعرفها قدرها »

فمثل هؤلاء هم الذين جل خطرهم ، وعظم قدرهم في الدنيا ومع ذلك لم يجعلوا لأنفسهم حظا في الاستعظام والاعجاب ، فلذا يقول الله تعالى تَوَيْخًا لِلْعَجَبِ بِنَفْسِهِ الْمَتَبَخَّرِ فِي مَشِيَّتِهِ : (إِنَّكَ لَنْ تَخْرُقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طَوْلًا) أي لن تثقب الأرض حتى تبلغ آخرها بمشيئك متكبرا ، ولن تبلغ الجبال طولا بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك ، وفي ذلك من التهم والتحقير للختال ما لا يخفى ، بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده ، كما أخبر جل شأنه عن قارون أنه خرج على قومه في زينته ، فخسف الله به وبداره الأرض ، ثم بين جل شأنه أن هذا الذي ذكر من الاعجاب والتبختر في المشي ، وتبع الانسان ما ليس له به علم وغيره مما تقدم ذكره ونهى الله عنه - هو قبيح مكروه عند الله تعالى يجب اجتنابه والتباعد عنه بقوله : (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا)

الذريعة الخامسة

تنشئته على بر الوالدين والعطف على القريب

إن أبا الانسان وأمه لهما عليه حقوق لا بد من أدائها ، وواجبات لا بد من قضائها : فمن تلك الحقوق وتلك الواجبات مقابلتهما بكل ما يمكنه من البر والاحسان ، وأن يمثل أوامرهما عامة ، وبخاصة ما تعود عليه بالمنفعة : كأوامرهما المتعلقة بحسن السلوك ومكارم الأخلاق ، وحسن المعاشرة مع الخلق ، والنظافة ، والعفة ، والأمانة ، وغير ذلك من الكمالات وحميد الأخلاق ، وجميل الصفات . وأن يجتنب نواهيتهما وكل ما يؤذيها ، أو يكدر خاطرهما أو يجلب غضبهما من قول أو فعل ، فإن أجهد نفسه في فعل كل ما يرضيهما كان له الحظ الأوفر من الفضيلة ، والنصيب الأكبر من المروءة ، وإن لم يفعل ذلك واستجلب غضبهما فقد قابل الحسنة بالسيئة ، والاحسان بالكفران ، والخير بالشر ، والطاعة بالمعصية ، فإن أباه هو الذي رباه صغيرا ، وأجهد نفسه في تحصيل ما ينفعه عليه في ملبسه ومأكله ومشربه وجميع مطالبه ، والقيام بأوده ، إلى أن عرف حقوق نفسه ، وأمكنه أن يكتسب : ولولاه لمات جوعا ، لانه لا يقدر على شيء من ذلك في حال صغره ، وأما أمه فقد عانت فيه المشقات العظيمة والآلام الكثيرة في مدة حمله وولادته ورضاعه وتنقيته من الأدران ، وسهرت لأجله الليالي الطوال ، وتكدرت لكدره ، وفرحت لفرحه ، إلى غير ذلك من ضروب العنت التي لا تحصى ، والمشقات التي لا تستقصى .

ومنها أن ينفق عليهما إذا كبرا ، لأيهما كفلاه صغيرا إلى أن استطاع أن يكتسب ، فهذا الكسب ثمرة غرسهما ، وليس من الأدب والمروءة أن يغرس الانسان غرساً ثم يحرم جنى غرسه .

ومنها أن يجالسهما بالأدب والوقار فلا يضحك ولا يلعب ، كما يضحك ويلعب السفهاء ، وليكن ضحكك ولعبه على وضع لا يخل بالأدب ، ولا يرفع

صوته فوق صوتهما ، ولا بحضرتهما ، ولا يمشي أمامهما إلا لحاجة ، ولا يسبقهما بالكلام في المجلس ، وإذا أقبلا عليه أو أحدهما وهو في مجلس قام ليوسع لهما حتى يجلسا إن كان في المكان ضيق . وجملّة القول يفعل جميع الوسائل التي تكون سببا في مرضاتهما وزوال ما يكدرهما ، وإلى هذه الآيات السامية أشار الله جلّت حكمته في كتابه العزيز إذ يقول : (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَانِي صَغِيرًا) فأرشد إلى أهم الأمور ، وأولاها بالعناية ، وأجدرها بالرعاية ، وأقربها لرضا الله تعالى ، وأبعدها من سخطه ومقته : ألا وهو بر الوالدين الذي جمع من الخير أكمله ، ومن الاحسان أجمله ، ومن المروءة أرفعها ، ومن الخيرات أنفعها . وكفى به فضلا وشرفا أن قرنه الله بتوحيده وعبادته ، وبالغ بالتوصية به مبالغة تقشعر لها جلود أهل العقوق ، وتحمل ذوى العقول على تأدية الواجب لهما من الحقوق ، فأمر جل شأنه بالاحسان إليهما وقرنه بتوحيده وعبادته في قوله : (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) أى أمر أمرا جازما ، وحكم حكما قاطعا بتوحيده وعبادته ، وبر الوالدين والاحسان بهما . وفي هذا الاقتران من الدلالة على تأكد حقهما ، والعناية بشأنيهما مالا يخفى . ثم شدد في الأمر بمراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ومع أحوال لا يكاد يصبر الانسان معها ، فاذا حصل منهما أى شيء يكرهه فلا يصح له أن يتكلم معهما بأى كلام يكون من ورائه تضررهما وتكدر خاطرهما ، بل الواجب عليه في هذه الحالة أن يقول لهما قولا لينا جميلا سهلا أحسن ما يمكن التعبير به : من لطف القول وكرامته ، مع حسن التأدب والحياء والاحتشام ، وبخاصة إذا كانا كبيرين ، فانهما في هذه الحالة أحق بالمجاملة وحسن التلطف ،

لأنهما يظنان أنهما كلٌّ عليه ، فكل كلمة تصدر منه ولو صغيرة يجدان منها ألماً ولذا خص الله سبحانه وتعالى حالة الكبر بالذكر في قوله (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) أي إن كبرا وهما في كنفك وكفالتك فلا يصح أن تقول لهما أي قول يكدر خاطرهما ويجلب غضبهما ، حتى التأفف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ ، بل الواجب أن تعاملهما بالحسنى وتقول لهما القول اللين الطيب الحسن ، مع الأدب والتوقير والتعظيم والاحترام والاحتشام ، وأن تخفض لهما جناح الذل ، وتتواضع ، وتتذلل لهما بجميع أنواع التذلل والمسكنة ؛ لأنهما صارا أفقر الناس إليك بعد أن كنت أفقر الناس إليهما ، واحتياجُ المرء إلى من كان محتاجاً إليه غايةُ الضراعة والذل والمسكنة . فكانا لذلك أولى بشدة الرحمة والشفقة وزيادة التعطف عليهما . ثم ختم جل شأنه التوصية بهما ، والحثَّ على برهما ، والاحسان بهما بطلب الدعاء لهما من الله أن يرحمهما برحمته الباقية الدائمة ، فقال : (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) كأنه تعالى يقول لا تكف برحمتك التي لا تدوم ، ولكن اطلب من الله الرحمة الدائمة ، وقل رب ارحمهما رحمة مثل رحمتها وتريتهما إياي وأنا صغير .

ثم إن بر الوالدين لا ينتهي بموتهما ، بل يجب بعد الموت كما يجب في الحياة ويكون بالصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقيهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما : فمن ذلك أن رجلاً جاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يارسول الله ، هل بقى على من بر أبوى شيء أبرهما به بعد وفاتهما ؟ قال : نعم : الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقيهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما . ولئن تأكد بر الوالدين فهو في حق الأم أوكد لأنها تعبت في حمله وولادته وحضاته وغيرها أكثر من أبيه ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بر

الوالدة على الولد ضعفان» ويقول : «دعوة الوالدة أسرع إجابة . قيل يا رسول الله ، ولم ذاك ؟ قال : هي أرحم من الأب ، ودعوة الرحم لا تسقط » وقال تبارك اسمه في الحث على بر الوالدين وما أعده مثوبة لذلك ، من قبول العمل الصالح ، والتجاوز عن السيئات وإدخال الجنة (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّدُوقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ) فأرشد إلى بيان ما يجب على الانسان من بر الوالدين والاحسان اليهما والحنو عليهما خصوصاً أمه ، لأنها تعبت فيه ، وكابدت من المشقات والمتاعب في حمله ووضع ورضاعه ما لم يشاركها الأب في شيء منه ، ولذلك كان حقها أو كد من حقه ، وبرها أوجب من بره وإلى ذلك أشار بقوله تعالى : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) فانه جل شأنه بعد أن وصى بالوالدين وأمر بالاحسان إليهما والحنو عليهما ، ذكر ما نالته الأم من التعب والمشقات ، وقاسته من الأوصاب والآلام في حال حمله من الثقل والكرب ، ثم أردف ذلك ببيان ما تقاسيه الأم من الآلام من حين الوضع إلى الفطام من تعبهه بالنظافة وإزالة ما عليه من الأدران ، وكدرها لكدره ، وفرحها لفرحه ، وسهرها عليه الليالي الطوال ، وغير ذلك مما يفيد أن حق الأم آكد من حق الأب واضعاً ذلك في قالب بيان مدة الحمل والرضاع فقال : (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) أي إن كانت هذه المدة الطويلة ظرفاً لما تقاسيه الأم من الآلام ، وتلاقيه من المشقات والمتاعب في الولد - فحقها عليه في بره لها

آكد من حق آيه في ذلك عليه ، وقال جل ثناؤه في الحث على بر الوالدين والاحسان إليهما والحنو والشفقة عليهما ، قاربنا ذلك بتوحيده وعبادته مما يدل على تأكدهما : (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا) فبين صنوف البر وأنواع الخير وحسن المعاملة مع الله والناس مما لو عملت وتخلقت به لكنت من أسعد السعداء ، وأنبل النبلاء : فمن ذلك توحيد الله تعالى وحسن عبادته وبر الوالدين بالاحسان إليهما والحنو عليهما ، وصلة الرحم بمديد المساعدة لهم إن كانوا فقراء ، والتودد اليهم بالزيارة والهدايا ، والطيب من القول ان كانوا أغنياء ، والاحسان الى اليتامى والمساكين بالنظر في مصالحهم والقيام بأودهم وكل ما يحتاجون اليه . ومن ذلك حسن الجوار سواء أكان الجار ملاصقا أم غير ملاصق ، وبخاصة اذا انضم الى الجوار القرابة . وحسنه بالتصدق على الجار إن كان محتاجا ، والتودد اليه بالزيارة والمبادرة برد السلام والمساعدة له في كل ما يحتاج اليه ، فلا يمنع عنه ماعون البيت وأثاثه اذا احتاج الى شيء منه . وكذلك حسن الصحبة وهو المراد بقوله تعالى : (وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ) وهو من كانت صحبته بسبب مرافقته بالجانب في طلب علم ، أو تعلم صناعة ، أو مباشرة تجارة ، أو مرافقة في سفر ، أو قعوده بجانبه في مسجد أو مجلس ، أو غير ذلك . وحسن الصحبة معه أن يكون له في النوائب ، ويؤثره بالرغائب . وينشر حسنه ، ويطوى سيئته ، ويكتم سره ، ويسترعيه ، واذا سأله أعطاه ، واذا سكت وكان محتاجا ابتداه ، وان نزلت به نازلة واساه. ومواساة ابن السبيل وهو المسافر تكون بسد عوزه ، وإيعاته بما يوصله إلى محل أوبته ، والشفقة والرحمة بالأرقاء والعبيد والاحسان اليهم ؛ لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير في أيدي الناس ، ويكون ذلك بتربيته وتعليمه ، وعدم تكليفه

من العمل ما لا يطيق ، وأن يكسوه سيده ويطعمه مما يلبس ويأكل ، حتى إذا آنس فيه النباهة والمعرفة والقدرة على أن يملك زمام نفسه ، ويعرف أن يتصرف في معيشتة باستقلاله - أعتقه ، فان ذلك هو المقصود من الاسترقاق ، وليس المقصود منه الاستعباد المطلق ؛ لأن العبد أخو سيده ، ومتمتع بسائر الحقوق البشرية والمميزات الانسانية ؛ بل المقصد الاسمى منه أن العبد إذا وجد عند سيده كان ذلك داعية لتعلمه ، واكتسابه من أخلاق سيده وحسن آدابه ، وكال معرفته - ما يؤهله لأن يعرف أحوال نفسه ؛ ويمكنه أن يقوم بجميع مصالحه ، حتى إذا وصل الى هذه الحالة أعتقه ، وقد جعل الشارع لذلك أسبابا كثيرة : منها الكفارات وغيرها . وما أحسن ما وصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن الارقاء والخدم فانه صلى الله عليه وسلم جعل يوصى أمته في مرض موته ويقول : « الصلاة الصلاة . وماملكت أيمانكم » وجعل يرددها حتى انتقل للرفيق الأعلى ، وقال صلى الله عليه وسلم : « للمملوك طعامه وكسوته ولا يكلف من العمل ما لا يطيق » وقال صلى الله عليه وسلم : « اذا صنع لأحدكم خادمه طعاما فليقعه معه ، فان كان مشفوها (١) فليضع في يده منه أكلة » .

صلة الرحم : رحم الانسان أقاربه وصلتهم أن يطعمهم من جوع ، ويؤمنهم من خوف ، ويقضى عنهم ديناً ، ويفرج عنهم غماً ، ويقوم بما يحتاجون اليه ، ويتودد اليهم بالزيارة والهدايا والطيب من القول ، والبشاشة عند اللقاء ، والمبادرة بالسلام ، ورد ضالتهم ، والمحافظة على فعل كل ما يجلب محبتهم اليه وهي من أفضل الخصال وأجمل الخلال ؛ فيها يكثر التواصل وانتواد ، وتؤمل الغوائل ، ويزول التباغض والتحاسد وتستمال القلوب ، وتصفو الضمائر ، وتحسن السرائر . ولهذا حث الشرع عليها بالغ في التمسك بها ، حتى جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم سبباً في إدرار الرزق وسعته ، وفاتحة الخير وزيادته . فقال عليه الصلاة والسلام : « ان أجمل الطاعة ثوابا

صلة الرحم ، حتى إن أهل البيت ليكونون فخرا فتنمو أموالهم ، ويكثر عددهم ، إذا وصلوا أرحامهم » وقال عليه الصلاة والسلام : « من سره أن يمدله في عمره ، ويوسع له في رزقه - فليتق الله وليصل رحمه » وسأل معاوية عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عن المروءة فقال : « هي تقوى الله وصلة الرحم » وقال رجل لابنه في بعض وصاياه : « يا بني ، لا تقطع القريب ؛ وإن أساء ؛ فإن المرء لا يأكل لحمه وإن جاع » ولعل حكمة حث الشارع عليها ، والتشديد في أمرها ، والترغيب فيها ، والتحذير من قطعها ومُجانبة ذلك جهد الاستطاعة - أن أقارب الرجل هم أكثر الناس بعد أبويه له تناصرا ، وأكثرهم رغبة في الخير له ، وأشدهم شفقة عليه وأعظمهم محبة له ، بهم يعلو بين الأنام قدره ، ويعظم فخره ، ويرتفع ذكره ، وهم أكثر الناس به اختلاطا ، فاذا قطعهم تنقص عيشه ، وكثر شره ، وقل خيره ، ولأنهم أبعاض أبويه ، ومنهما نشئوا أو اختلطوا معهما في نسب ، فكل هذه حقوق تحتم على الشخص أن يصلهم بقدر جهده واستطاعته . وقد حث جل شأنه على صلة الرحم ورغب فيها وحذر من قطعها ، وأعد الجنة لمن وصلها ، والنار لمن قطعها فقال : (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) فبين ما أعده من الخير العميم والثواب الجزيل لمن اتصفوا بهذه الصفات الحميدة ، وتخلقوا بهذه الأخلاق الجميلة ؛ من الوفاء بالعهد ، وعدم نقض الميثاق ، وصلة الرحم التي أمر الله بها أن توصل مع مراقبة جانب الله تعالى ، والخشية من عقابه على قطعها ؛ والخوف من سوء الحساب في السؤال عنها ، والصبر عند حلول النوائب ، وإقام الصلاة على وجهها المطلوب شرعا : من الخضوع والخشوع والانكسار ، والنفقة والتصدق على الفقراء والمساكين في السر والجهر ؛ فإن هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات قد أعد الله لهم من الجزاء الآوفي ، ما يينه بقوله : (أُولَئِكَ لَهُمُ عُقُوبَةُ الدَّارِ)

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا » وقال تبارك اسمه في الحث على صلة الرحم ، وبيان أن ذوى القربايات في إيصال بعضهم الخير إلى بعض أولى من غيرهم ممن ليس بينهم وبينهم قرابة: (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ) فيبين أن الأقرباء أولى من غيرهم بالصلة والمودة. فما أبعد نظر الشريعة الغراء وأعلىها بالمصلحة للعباد. وقال تبارك اسمه في الحث على صلة الرحم وبرها ، والنهي عن حرمانها وقطعها: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) فيبين أمرين :

الأول - ما أرشد إليه خلقه من الأمر بتقواه وهي عبادته وحده لا شريك له

الثاني - الحث على صلة الرحم وبرها وعدم قطعها وهو الذي أفاده بقوله : (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) أي واتقوا الله الذي يسأل بعضكم بعضا به وتقواه بطاعتكم إياه ، واتقوا قطع مودة الأرحام ، فإن قطعها من أكبر الكبائر ، وصلتها باب لكل خير فتزيد في العمر ، وتبارك في الرزق ، ولذا وصل جل شأنه صلة الرحم بتقواه .

وما أحسن ما ذكر الله من دواعي الخنو والعطف والشفقة والرحمة بالأقارب واستمالة القلوب اليهم ، حتى يصلوهم ولا يقطعوهم ، إذ ذكر جل شأنه أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة، فإن في ذلك من موجبات الاحتراز عن الاخلال بمراعاة حقوق الأخوة ما لا يخفى . وقوله : (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) أي مطلعاً وعليه فيعلم من أمثل أمره بتقواه وصلة الرحم ، ومن لم يمثل فيجازي كلا بما يستحق والله أعلم

الذريعة السادسة

غرس الاجلال والاعظام للنبي صلى الله عليه وسلم في قلوب النشء،
النبي صلى الله عليه وسلم أعظم من يجب احترامه وتبجيله وتوقيره ؛ لانه
صلى الله عليه وسلم السببُ في هداية الخلق إلى فلاحهم في دنياهم ، ورفعهم
من حضيض الشقاوة إلى أوج السعادة ، وإخراجهم من ظلمة الجهل والجحود
إلى نور العلم والايمان ، مع مقاساة المشقات والمتاعب في ذلك ، وليس من
العدل والمروءة أن يقابل صلى الله عليه وسلم بغير كمال التبجيل وتام
الاحترام والتعظيم والادب معه في حياته ومماته . ولما كان علو مقامه صلى
الله عليه وسلم وجليلُ مقداره بالمكانة التي قلما يمكن أحدا أن يقوم بما يجب
لها من الآداب دون إرشاد وتعليم - سن الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين
من الآداب ما به يعرفون كيف يسلكون مسلك تعظيمه في ترك فعل
ما يكرهه بين يديه ، أو الاستعلاء عليه في كلام أو مشي ، أو دخول بيته بغير
إذنه ، أو في لزوم طاعته ومتابعته ، والنزول عند حكمه ، والرضا بقضائه ،
أو غير ذلك . ولتبجيله وتوقيره مظهران :

الاول - أفاده الله تعالى بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا
أصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ
لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ
عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) فبين صنوف الآداب التي أدب الله بها عباده المؤمنين فيما
يعاملون به نبيه صلى الله عليه وسلم من الاجلال والتعظيم والتبجيل والتكريم سواء
أكانت هذه الآداب فعلية أم قولية ، وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله (يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ) وفيها نهى صريح عن الاسراع في شيء من الاشياء قبله ، وأمر ضمنى بمتابعة سنته ، والوقوف عند شريعته وأمر بالتقوى ومراقبة جانب الله تعالى في كل شيء ؛ لانه سبحانه سميع لأقوالنا . عليم بنياتنا ؛ لانخفى عليه من ذلك خافية فقال : (واتقوا الله إن الله سميع عليم) ومن كان كذلك فمن حقه أن يتقى ويراقب

ثم قال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) ففيها حظر ظاهر لرفع الاصوات عند محادثته صلى الله عليه وسلم ومكالمته ، إلى حد يكون فوق ما يبلغه صوته صلى الله عليه وسلم ؛ لان ذلك يدل على قلة الاحتشام وترك الاحترام له صلى الله عليه وسلم ؛ لان خفض الصوت وعدم رفعه من لوازم التعظيم والتوقير عادة ، ونهى عن الجهر بالقول كما يجهر الواحد لاختيه إذا كلبه ؛ لان ذلك إنما يكون بين الأكفاء الذين ليس لبعضهم على بعض مزية . مع مافيه من الجفاء في مخاطبته صلى الله عليه وسلم . وعدم الادب معه . ثم حذر سبحانه المغبة بقوله : (أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده والجهر له بالقول كما يجهر أحدكم لاختيه إذا كلبه خشية أن تبطل أعمالكم بذلك دون أن تفتنوا ؛ لان سبق رسول الله في قوله أوفعله ، ورفع الصوت في حضرته ، ومحادثته بالجهر كمحادثة الأكفاء . كل ذلك تجاوز الحدود الادب في مقام يتعين فيه الاجلال والتعظيم . ومن أجل ذلك أقسم أبو بكر رضي الله عنه ألا يكلم النبي صلى الله عليه وسلم إلا السراة أو أخا السراة . وقد بر رضي الله عنه يمينه حتى كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يستعيذه . ثم قفى على ذلك ببيان مزايا من عمل بهذه الآداب ، فقال : (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ

قلوبهم" للتقوى لهم مغفرة وأجرٌ عظيمٌ) أي إن الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله اجلالاً وتعظيماً ، أولئك الذين أخلص الله قلوبهم للتقوى وجعلها لها أهلاً ومحلاً وكان جزاؤهم على ذلك مغفرة وأجرًا عظيمًا وقال جل شأنه في الادب مع رسوله صلى الله عليه وسلم في المجتمعات العامة : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

فبين الآداب نحو الرسول عليه الصلاة والسلام في حال ما إذا كانوا مجتمعين معه على أمر مهم يجب اجتماعهم في شأنه : كالجمعة والجماعة والعيد والجهاد والتشاور في أمر ، وغير ذلك من الأمور الداعية إلى الاجتماع. وذلك بأنهم لا يتفرقون عنه صلى الله عليه وسلم ولا ينصرفون عما اجتمعوا له لعروض عذر لهم حتى يستأذنوه في الذهاب فيأذن لهم به ، فإن هم خالفوا ذلك وتسللوا من عنده خفية واحداً بعد واحد ، كان ذلك علامة على نفاقهم ، وعدم ثبات إيمانهم لأن الخروج من مجلسه صلى الله عليه وسلم بغير أذنه من أمارات عدم الاكتراث به ، وعدم رغبتهم فيما جاء به واجتمعوا لاجله ، وذلك من أعظم الجنايات وأكبرها ، ولذا جعل الله جل شأنه استئذانه صلى الله عليه وسلم عند ارادة الانصراف من مجلسه من علامات كمال الإيمان في قوله : (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) أي ومن لم يستأذن عند ارادة الانصراف فليس بمؤمن حقاً ومن الآية الكريمة يؤخذ أدب المرموس مع رئيسه ، وأدب المتعلم مع معلمه وأدب المصلين مع امامهم ، وأدب الرعية مع راعيهم ، فإن مراعاة الادب معهم ، واعتبار حرمتهم من الواجبات ، فأحرى بهم ألا يبرموا أمرا دونهم

ولا يخالفون خطة لهم رسموها ولا يأمر ونهم بأمر الا بادروا بتنفيذه كما لا ينصرفون من مجلسهم الا بعد استئذانهم

وجملة القول يفعلون كل ما فيه تبجيلهم وتعظيمهم واحترامهم ، ويتركون كل ما فيه تحقيرهم واهانتهم .

وبعد أن بين جل شأنه كيف يتأدبون معه صلى الله عليه وسلم عند ارادة الانصراف من مجلسه أمره عليه الصلاة والسلام أن يأخذهم باللين ، ويعاملهم بالرفق ، وبما يكون داعية الالفة والتواد ، فاذا استأذنه أحد منهم أن يخرج من المجلس لعروض عذر له أذن له ان شاء ومنعه إن شاء على حسب ما تقتضيه المصلحة التي يراها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا معنى قوله تعالى له صلى الله عليه وسلم : (فَأَذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) أى فاذا طلبوا منك الاذن فى أن يخرجوا من مجلس الاجتماع فأنت مخير بين أن تأذن لهم أولا . وفى هذا التفويض له صلى الله عليه وسلم من رفع شأنه ، وعلو منزلته عند الله تعالى - ما لا يخفى . ولما كان الاستئذان وان كان لعذر مسوغ لا يخلو من شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة . وهو اغتنام مجلسه - أمره أن يستغفر لهم واعداء بالمغفرة بقوله : (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) أى كثير المغفرة لفرط عبادته والرحمة باليسير عليهم ، بالغ فيهما الغاية التي ليس وراءها غاية . وفى الآية الكريمة من المبالغة فى الحفاوة به صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى ؛ إذ جعل سبحانه الاستئذان للذهاب عنه أمرا محتاجا للاستغفار ، فضلا عن الذهاب بدون إذن ، ورتب الاذن منه على الاستئذان لبعض شأنهم ، لا على الاستئذان مطلقا ، ولا على الاستئذان لأى أمر مهما كان أو غير مهم . ومع ذلك فقد سلق الاذن على المشيئة وليس ذلك بالغريب فلرسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه مكانة دونها كل مكانة والله يختص برحمته من يشاء والله غفور رحيم

المظهر الآخر - متابعتة صلى الله عليه وسلم في كل ما جاء به عن ربه ،
والنزول عند حكمه والرضا بقضائه . وقد أفادها الله تعالى بقوله: (وَمَا كَانَ
لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا الْمُؤْمِنَاتِ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ
أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا) فبين ما يجب على
عباده من الأدب وحسن المعاملة مع رسوله صلى الله عليه وسلم . فإذا حكم
على أحدهم فليس له أن يختار من أمره شيئاً بل يجب عليه أن يجعل رأيه تبعاً
لرأيه عليه الصلاة والسلام ، واختياره تبعاً لاختياره ، حتى يكون بذلك
مؤمناً حقيقة ، كما قال تبارك وتعالى: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحْكُمُواكَ
فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)
وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما
جئت به » وذلك لأن من لم ينزل على حكمه صلى الله عليه وسلم ، ولم يرض
بقضائه فهو ضال : وذلك إما لكونه يرى أن هذا الحكم منه صلى الله عليه وسلم
وقع في غير محله ، فهو ظلم وجور فهو يمتنع عن قبوله ، وهذا نهاية
الحسران والضلال . وإما لأنه يرى أن حكمه عليه السلام وقع في محله ولكن
لا يقبله عنادا وكبرا ، أو لأنه لا يوافق هواه ، وعلى كل فهو جحود وكفران ،
ولذا شدد الله سبحانه على من لم يرض بحكمه صلى الله عليه وسلم ، واختار
غير ما اختاره بقوله : (ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً) أى
ومن يعص الله ورسوله في أمر من الأمور مثل عدم الرضا بقضائه وحكمه
صلى الله عليه وسلم - فقد ضل عن طريق الحق ضلالاً ظاهراً واضحاً لا يخفى :
فإن كان العصيان عصيان رد وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر ، وإن كان
عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب ، فهو ضلال خطأ وفسق .
وعلى كل حال فهو من الضلال . وقلة الأدب معه صلى الله عليه وسلم بحال
لا يصح لمؤمن ولا مؤمنة أن يتصف بها ويكون عليها .
وقال جل وعز في حسن متابعة الرسول والتأسي به في أقواله وأفعاله

وأحواله: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ
وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) فبين لزوم الأدب معه صلى الله عليه
وسلم بوجوب متابعتِهِ والتأسي به في أقواله وأفعاله إلا ما علم أنه من
خصوصياته صلى الله عليه وسلم

ولذا أمر الله تبارك وتعالى الناس بالتأسي به صلى الله عليه وسلم يوم
الاحزاب في صبره : ومصابرته ، ومجاهدته : وانتظاره الفرج من ربه ، فقال
للذين تضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم : (لقد كان لكم في رسول الله
أسوة حسنة) أى اقتداء به صلى الله عليه وسلم اقتداء حسنا ، وهو أن تنصروا
دين الله ، وتؤازروا رسوله ، ولا تتخلفوا عن نصرته ، وتصبروا على
ما يصيبكم ، كما فعل هو صلى الله عليه وسلم إذ كسرت ربايعيته وجرح وشج
وجهه وأوذى بضروب الأذى فصبر ، وواساكم مع ذلك بنفسه ، فافعلوا
أنتم كذلك مثل فعله ، واستنوا بسنته .

ولما كانت متابعتة صلى الله عليه وسلم ، والاقتداء به في مثل هذه الأمور
العظام ، والمواطن الصعبة التى لا يتحمل عبئها إلا من يتقن ثواب الله ورحمته
ورسخ إيمانه وكل يقينه ، فلازم طاعته بكثرة ذكره ، قال الله تعالى (لِمَن
كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) أى هذه الأسوة الحسنة
للذين يرجون ثواب الله ولقائه ورحمته في اليوم الآخر والذين يذكرون
الله كثيرا . والآية وإن كان سببها خاصا كما علمت - عامة ؛ لأن العبرة بعموم
اللفظ لا بخصوص السبب ، فالتأسي به صلى الله عليه وسلم ومتابعتة في كل
ما جاء به حسنة في كل حال .

وقال تعالى في وجوب متابعتة في كل ما أمر به ونهى عنه : (وَمَا آتَاكُمُ
الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ) فبين وجوب متابعتة صلى الله عليه وسلم في كل ما جاء به ، بفعل
كل ما أمر به ، وترك كل ما نهى عنه ، لقوله تعالى : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ

فَخَذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) أى شئ أمركم به من الطاعات وفعل الخيرات فافعلوه وأى شئ نهاكم عنه من الخبائث والمنكرات فاجتنبوه ، لأنه لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر ، على أنه إنما يأمر بأمر ربه وينهى بنهى ربه ، فعدم متابعتة صلى الله عليه وسلم فى كل ما جاء به أو بعضه - مخالفة لأمر الله ونهيه ، ولا يجرؤ على مخالفة الله ورسوله إلا فاقد الحياء . ولما أمر جل شأنه بالاتجار بأمره صلى الله عليه وسلم والالتفاء بنهيه أمر بتقواه ، وخوف من شدة عقوبته فقال : « وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أى اتقوه بامثال أوامره وترك زواجره ، فانه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه ، وارتكب ما عنه زجره ونهاه .

وهذا قل من كثير وفيض من غيظ ، وحسبك من القلادة ما حف بالعنق .

الذريعة السابعة

طبع نفوس النشء على التأديب فى حق الله عز وجل وإلقاء خشيته فيها وهو نوعان :

أما الأول : فعلى مثال ما جاء فى قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم عليه السلام : (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » فتراه نسب الخلق والهداية والاطعام والسقيا الىه تعالى ، ونسب المرض الى نفسه فى قوله : (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) وكان مقتضى السياق أن يقول وإذا أمرضنى ، فينسب المرض الى الله تعالى كما نسب إليه غيره من الأفعال مع اعتقاده بأن الكل منه ، وفى العدول عن ذلك من الأدب ما لا يخفى .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى حكاية عن مؤمنى الجن عند مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم ومنعهم من استراق السمع : (وَأَنَا لَأَنْذَرُ أَشْرًا أُرِيدُ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) فتراهم عند إسناد الشر (١٠ - الخلق الكامل)

بنوا الفعل للجهول ولم يعينوا المرید له ، مع اعتقادهم بأن المرید له هو الله تعالى ، وعند إسناد الخير صرحوا بمریده ، فقالوا : (أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) وهذا أدب عظیم . ومثل هذا النوع من الآداب كثير في القرآن .

وأما الثاني : فامثال المرء أو امره جل شأنه ، واجتنابه نواهيه ومراقبته

في كل عمل من أعماله ، بل وفي سائر حركاته وسكناته ، فإن كان هذا العمل طاعةً كانت المراقبة باستحضار ذاته العلية وتمثل عظمته تعالى بقلبه ، وانبعاث الخشية والخشوع من جميع جوارحه ، واطمئنان نفسه بالمثل بين يديه ، وملاحظة أنه يراه في جميع حركاته وسكناته ، وهو معنى الاحسان الذي ذكره صلى الله عليه وسلم في قوله : « الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » وإن كان هذا العمل معصية تذكر أن عليه رقيقاً ، مهيناً ، قريباً ، يعلم ما توسوس به نفسه ، ويخفيه صدره ، ويُبصر ديب النمل في الليلة الظلماء ، فعند ذلك يخشع قلبه ، وتستكين جوارحه ، ويتملك الخوف فؤاده ، فيجتنب القبيح بعد العزم عليه ، ويحجم عن المنكر ، بعد الوصول إليه ، وبذلك تتم له السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة .

ويجمع المراقبة بقسميها كلمة « التقوى » وهي اتخاذ الوقاية من غضب الله تعالى بالعمل بأوامره واجتناب نواهيه

ومن ذلك يتبين أنها اسم جامع لجميع أنواع البر ، وكافل لصاحبه كل خير ، ومبعد عنه كل شر ، ولذا أكثر الله جل شأنه في القرآن الكريم من الحث عليها ، مبينا ما يترتب عليها من صلاح الدنيا ورفيع الدرجات في الآخرة فمن ذلك قول الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) فالآية الكريمة ناطقة بثلاثة أمور :

الأول - الحث على التقوى وهي امثال ما أمر الله واجتناب ما نهى الله عنه

الثاني - الحث على العمل الصالح ، ومحاسبة الانسان نفسه قبل أن يحاسب ، والنظر فيما ادخره من الأعمال الصالحة ليوم معاده وعرضه على ربه ، ومناقشته الحساب : فيطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ماتكلم به طول نهاره ، وهكذا عن نظره ، بل عن خواطره وأفكاره ، وقيامه وقعوده ، وأكله وشربه ونومه ، حتى عن سكوته أنه لم سكت ، وعن سكونه لم سكن ، فاذا وجدها مع ذلك اقترفت ذنبا أو ارتكبت تقصيرا في حق الله تعالى وجب عليه أن يعاقبها ، وعقوبتها إما بمنعها عن مشتياتها ، وإما بتوبيخها الشديد ، أو باللوم عليها اللوم الصارم ، بأن يقول لها يانفس ، أى شئ جرأك على معصية الله : إن كانت جراءتك على معصية الله لا اعتقادك أنه لا يراك فما أعظم كفرك ، وأشد جهلك !! وإن كانت مع عليك باطلاعه عليك فما أقل حياءك !! يانفس ، لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف يكون غضبك عليه !! ومقتك له !! لا جرم أنك تعاقبته أشد العقاب ، وتخافين أنك لو تجاوزت عنه جرّاً ذلك إلى ما لا تحمد عاقبته !! فكيف مع ذلك تتعرضين لمقت الله تعالى وغضبه وشديد عقابه !! فإن كنت مغترّة بكرم الله تعالى وفضله واستغنائك عن طاعتك وعبادتك فإياك لا تعولين على كرم الله في مهمات دنيائك ، فاذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل في دفعه ، ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى !!

وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا بما لا ينقضى إلا بالدينار والدرهم ، فإياك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها !! فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يسخر لك عبدا من عبيده ، فيساعدك على نيل حاجتك !! أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا !! وهكذا مثل هذه التوبيخات ، فإن حاسب نفسه وعاقبها بمثل هذه العقوبات عند وجود تقصير منها تمت له طاعتها ، وسهل عليه تصريفها فيما

ينفعه وينفع قومه . أما إذا أهملها سهل عليه مقارفة المنكرات ، وأنست بها نفسه ، وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب حرمان نفسه الفضائل السامية . وإلى هذه المحاسبة يشير الله تعالى بقوله : (وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أى حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لها من الأعمال الصالحة يوم عرضكم على ربكم ، واعلموا أن الله تعالى عالم بجميع أحوالكم وأعمالكم لا تخفى عليه منكم خافية فيجازيكم عليها إن خيرا نخير وإن شرا فشر .

الثالث - الحث على مداومة استحضار عظمة الله وجلاله كما يؤخذ من قوله تعالى : (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) فان الغفلة عن الله تعالى وجليل قدرته تورث الغفلة عن العمل الصالح الذى يرفع الأمم ويسعدها ، لأن الجزء من جنس العمل ، قال تعالى (أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) أى الخارجون عن صراط الله السوى

الذريعة الثامنة

ترتيبه على حسن معاملة أفراد المجتمع

عما سلكه الاسلام فى تكوين خلق الفرد أنه أوجب عليه أن يعامل أفراد المجتمع برفق ولين ، ويخفض جناحه للكبير منهم والصغير ، ولا يخاطب أحداً بغلظة ، ولا يتكبر ولا يتعظم على أحد منهم ، بل يستجلب محبتهم بمكارم أخلاقه ، وحسن معاملته ، ولطف صنيعه ، ولا يكثر المراء والخصومة معهم ، وأن يتدر من يعرف ومن لا يعرف بالتحية ، وإذا حياه غيره بتحية ردها بعينها أو بأحسن منها ، وأن يلقي غيره بالبشاشة والبشر وطيب الكلام ، ولا يؤذيهم بقول أو فعل ، وأن يعفو عن مذنبهم ، ويصفح عن تائبهم ، ويتوَدَدَ إليهم بكل وسائل أنواع التودد ، وألا يعد أحداً منهم بوعد إلا وفى به ، إلى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة ، والصفات الكاملة . وقد جاء

القرآن الكريم مينا هذه الآداب على أحسن وجه وأكمله ، مرشدا إلى مايجب التخلق به ، ويجب استعماله في معاملة أفراد المجتمع ، من كل مايجلب رضاهم ومحبتهم فتتحد كلمتهم وتتألف جامعتهم ، ويسعون لأنفسهم فيما يجلب لهم الخير ويدفع عنهم الشر والضير : فمن ذلك ماحث الله سبحانه عليه من مقابلة الاساءة بالاحسان ، والذنب بالغفران ، والغضب بالحلم ، والغیظ بالكظم مع بيان الثمرة المترتبة على ذلك فقال : (وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) فبين مايجب على الأفراد من حسن معاملة إخوانهم صغيرهم وكبيرهم ، فان أغضبهم أحد صبروا وإن جهل عليهم حلوا ، وإن أساء اليهم عفوا عنه ، وإن أذنب في حقهم ذنبا غفروه ، وأغفوا عما حصل منه من المفورات ، وتجاوزوا عما صدر منه من الغلطات : فان فعلوا ذلك صار العدو لهم صديقا ، والبعيد عنهم قريبا ، والمبغض لهم حبيبا ، وهذا ماأفاده الله بقوله : (وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) أى إن أساء اليك رجل فالحسنة أن تغفو عنه والتي هي أحسن أن تحسن اليه : كأن يذمك فتمدحه ، أو يشتمك فتعطيه جائزة ؛ فانك إن فعلت ذلك وأحسننت اليه من حيث أساء اليك - قاده إحسانك إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك ، حتى يصير كأنه ولي حميم أى قريب اليك يهتم لأمرك من فرط الشفقة عليك . وبعد أن وصى عباده بحسن المعاملة ، ومقابلة الاساءة بالاحسان ، وبين الثمرة المترتبة على ذلك ، أخذ يمدح من عمل بهذه الوصية وحافظ على هذه المزية ، فقال : (وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) أى وما يقبل هذه الوصية ولا يعمل بها إلا من

اجتمعت له خلال الصبر وثبات القلب وقوة العزيمة ، وكان له منها نصيب موفور . وقال العليم الحكيم يعلم نبيه صلى الله عليه وسلم محاسن الأدب ومكارم الأخلاق ، وحسن المعاملة ، مع صنوف الخلق سواء المطيع منهم والعاصي : (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ) فأمره أن يُلينَ جانبه ويتواضع للمؤمنين ، لأن ذلك أدعى إلى اجتماع كلمتهم عليه ومحبتهم له ، وقيامهم بكل ما يرضيه ، وبذلهم النفس والنفيس في سبيل نشر دينه ، وسعيهم في إعلاء كلمته ، ونصرته على أعدائه ، وهذا ضرب من التدبيرات الإلهية والسياسات الشرعية التي يجب على كل من قام بالدعوة ليرشد الناس ويهديهم إلى ما فيه صلاحُ حالهم دنيا وأخرى ، ويقوم ما عوجَّ من أخلاقهم - أن يكون متخلقا بها فيجمل المعاملة ويحسن الصنعة مع من خالفه ؛ لما في ذلك من محبتهم له وعدم نفورهم منه ، وربما كان ذلك سببا في رجوعهم عن معصيته ومخالفته إلى طاعته وامثال أمره ؛ وذلك بأن يُلطفَ بهم ويخنو عليهم ، فلا يعاقبهم ولا يردعهم ولا ينهرهم ولا يقسو عليهم في المعاملة ، وإن كان ما عملوه من المخالفة والعصيان يستحقون عليه أكثر من ذلك ، بل غاية ما يقابلهم به أن يتبرأ من عملهم ويقول لهم : (إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ) والآية الكريمة وإن كان المأمور فيها بخفض الجناح واستعمال اللين واللطف وحسن المعاملة والمجاملة هو خصوص رسول الله صلى الله عليه وسلم - هداية لأمته واتباعه بطريق التبعية ؛ لأن كل أمر له أمر لأمته ما لم يرد نص مخصص ، ولذا وجب على كل مسلم أن يعامل جميع الناس بالرفق واللين والتواضع ، ويستجلب محبتهم اليه بمكارم أخلاقه ، وحسن معاملته ؛ ولطف صنيعه سواء المحسن منهم والمسيء ، فإن ذلك أدعى لمعوتهم له وقت الحاجة وإغااثهم له وقت الشدة ، ونصرته وقت الحرج والضيق .

وقال جل ذكره فيما يجب أن يستعمله الانسان مع خصمه من حسن

المعاملة والملاطفة واللين حتى يكون ذلك سببا في قبول قوله ، وإجابة طلبه ، مخاطبا بذلك موسى وأخاه هرون عليهما السلام ، عندما أمرهما أن يذهبا إلى فرعون ليدعواه إلى عبادة الله تعالى : (اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ، اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) فيقول الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام : اذهب أنت وأخوك هارون إلى فرعون وادعواه إلى عبادتي وتوحيدي والاخلص لي ، ومعكما آياتي ومعجزاتي وحججي وبراهيني ، متمسكين بها في اجراء أحكام الرسالة ، واطمأن أمر الدعوة ، وعليكما مع ذلك عند مواجهتهما له ومقابلتهما إياه ألا تنيا ولا تقصرا في ذكرى ، واستحضار أنتي وليكما وناصركما مع الدعوة إلى توحيدى ، ليكون ذلك عوننا لكما عليه ، وقوة وسلطانا ، كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام عن ربه : (إِنَّ عَبْدِي كُلَّ عَبْدِي الَّذِي يَذْكُرُنِي وَهُوَ مُنَاجِزٌ قَرْنِهِ) أى يذكر أنتي وليه والآخذ بيده . وبعد أن أمر جل شأنه موسى عليه السلام أن يذهب إلى فرعون ويصحب أخاه هرون معه - أخذ يأمرهما بالذهاب إلى فرعون ، ويرشدتهما إلى ما يقولان له لعله يكون سببا في إذعانه لهما ، وقبوله ما جاء به ، فقال : اذهبا إلى فرعون إنه طغى : أى تمرد وعتا وتجر على الله وعصاه وتجاوز الحد في الكفر والتمرد بادعائه الربوبية ، فقولا له قولا لنا لا خشونة فيه ، فإن التخشين في القول من أعظم أسباب النفور وعدم الامثال ، بخلاف تليين القول فانه أسرع إلى الإجابة ، وأدعى إلى كسر سورة عناد العتاة ، وتليين قسوة الطغاة ، وقد فعل عليهما الصلاة والسلام ما أمرا به فقد قال له : (إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِّبْنَهُمْ) وقال له موسى عليه السلام : (هَلْ لَكَ إِلَئِي أَنْ تَزَكَّى ، وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى) فان هذا غاية في اللين والرفق ، لأنه دعاء في صورة العرض والمشورة ، وقد ذكر جل شأنه العلة الباعثة على دعوته باللين وحسن الملاطفة

فقال : (لَعَلَّه يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) أى لعله يتأمل فينزل النصفة من نفسه ، والاذعان للحق ، فيدعوه ذلك إلى الايمان ، أو يخشى أن يكون الأمر كما تصفان فيجره إنكاره إلى الهلكة ، وذلك يدعوه إلى الايمان أيضا ، فهذا ما أمر الله نبيه موسى وأخاه هرون : من حسن المعاملة مع فرعون واللين له في القول والتلطف به ، وهما صفوة الله من خلقه إذ ذاك ، وهو أحط منهما قدرا عند الله تعالى ، فكيف بمعاملة غيره من المؤمنين بعضهم بعضا ، فانهم أولى باستعمال الملاطفة واللين بينهم . وقال تعالى يعلمنا كيف نعامل خلقه ، بتأدية ما لهم من الحقوق ، مع بيان ما أعد الله لمن أحسن هذه المعاملة من النعيم المقيم ، وما أعد لمن لم يحسنها من الهوان والعذاب الآليم : « الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ . وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ . وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرِءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ . جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ . وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) فبين ما أعد لمن أحسن من عباده المؤمنين المعاملة معه جل شأنه ، ومع عباده من الثواب الجزيل والنعيم الدائم المقيم ، وقد بين جل شأنه أن حسن المعاملة يكون بأشياء :

الأول — الوفاء بالعهد وهو بالنسبة لله عز وجل امثال أوامره واجتناب نواهيه ، وبالنسبة للخلق ألا يعد أحدهم وعدا إلا وفى به وأنجزه ، ولا يكون كالمناق إذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب ،

واذا اؤتمن خان .

الثاني - صلة ما أمر الله به أن يوصل ونهى أن يقطع ، وهي بالنسبة لله عز وجل دوام مراقبته وتمثل عظمته في قلبه ، حتى يكون ذلك زاجراً له عن معصيته ومخالفة أمره ، والايمان بالكتب والرسول ، فانه جل شأنه أمر يوصل ذلك وعدم قطعه . وبالنسبة للخلق ثلاثة أنواع : وصل قرابة المؤمنين الثابتة بالايمان والداخلية في عموم قوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) ويكون بالاحسان إليهم على قدر الطاقة والوسع ، ونصرتهم والذنب عنهم والشفقة عليهم ، وجلب الخير إليهم ، ودفع الضرر عنهم ، وإفشاء السلام ، وعيادة المرضى ، ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر ، إلى غير ذلك . ووصل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويكون بالشفقة بهم ، وتعهدهم فيما يحتاجون إليه ، واحترامهم وتوقيرهم والتودد إليهم ، كما قال تعالى : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) فان في صلتهم صلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي غاية ما يسعى المرء لنيه . ووصل قرابته من الرحم : ويكون بأن يطعمهم من جوع ، ويؤمنهم من خوف ، أو يقضى عنهم ديناً ، أو يفرج عنهم غماً ، أو يقضى لهم ما يحتاجون إليه إن كانوا فقراء ، ويعاملهم بالتودد ، ويتعهدهم بالزيارة ، ويبدأهم بالسلام إن كانوا أغنياء .

الثالث - الخشية من الله تعالى ، ومراقبته جل شأنه في جميع الأعمال والأحوال ، والخوف من سوء الحساب في الدار الآخرة ، فان دوام المراقبة والخشية والخوف من سوء الحساب يوم الحساب مما يوطن قلب العبد على طاعة الله تعالى ، وامثال أوامره ، واجتناب نواهيه . وما أحسن تلك المعاملة

الرابع - الصبر عن المحارم ، والتعفف عن المآثم ، وترك جميع الموبقات ، ونبت سائر المنكرات ، واحتمال المشاق في نصرة الله ودينه ، ولا غرض من ذلك سوى طلب مرضاة الله تعالى ، وجزيل ثوابه .

الخامس - إقامة الصلاة بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى ، فان ذلك من حسن المعاملة بمكانة دونها كل مكانة .

السادس - الاتفاق من فضل الله تعالى على من يجب لهم الاتفاق : من زوجات وقرابات وأجانب : من فقراء ومساكين ، فى السر والجهر .

السابع - درء السيئة بالحسنة أى دفعها بها ، فاذا آذاهم أحد قابله بالجميل ، صبرا واحتمالا وصفحاً وعفوا ، وإن أساء إليهم عفوا عنه ، وإن حصل منه هفوة ، أغضوا عما حصل منه من الهفوات وتجاوزوا عما فرط منه من الغلطات ، فهذه الأشياء التى ذكرها الله غاية فى حسن المعاملة معه ومع عباده . ثم بين ما يترتب عليها من الثواب الجزيل والسعادة الأبدية بقوله : (أُولَئِكَ لَهُمْ عِشْي الدَّارِ) ثم فسر ذلك بقوله : (جَنَّاتُ عَدْنٍ) أى جنات إقامة يخلدون فيها هم ومن هو صالح لدخول الجنة من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ليكون فى الجمع بينهم وبين من يحبون من أهلهم وقراباتهم قررة عين لهم ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب من أبواب الجنة ، يسلمون عليهم ويهتفونهم بما حصل لهم من التقريب والانعام ، والاقامة فى دار السلام ، فى جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام جزاء حسن معاملتهم مع الله ومع خلقه .

وبعد أن بين سبحانه حال السعداء وما أعده لهم من النعيم المقيم أتبع ذلك ببيان أحوال الأشقياء ، وما أعده لهم من العذاب الشديد والعقاب الأليم ، وهم الذين لم يحسنوا المعاملة مع الله تعالى ومع عباده فقال : (وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) . وقال تعالى يعلم رسوله صلى الله عليه وسلم لطف المعاملة وحسن المصانة مع اليتامى الأذلاء والفقراء الضعفاء ، ولنا فيه صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة : (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا

السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) فينبى وجوب حسن المعاملة ولطف المجاملة مع هذين الصنفين ، وهو اليتيم الذى مات أبوه وهو صغير ، والسائل الذى ألبأته الحاجة والفاقة إلى ذل السؤال وتكفف الناس : فحسن المعاملة مع اليتيم ألا يقهره ولا يغضبه ولا يأخذ منه حقاً هو له ، وأن يكون له كالآب الرحيم للابن البار ، فيسعى فى نماء ماله إن كان له مال ، وفى تعليمه وتربيته ويحسن كفأله فلا يذله ولا ينهره ولا يهينه ، ولا يفعل به أى أمر يكدر خاطره أو يحصل له منه ضرر . وإنما وصى جل شأنه باليتيم هنا وفى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، وحث على ذلك ورغب فى حسن كفأله ولطف معاملته . لأن اليتيم الذى مات أبوه ، وكان المتكفل بحسن تربيته وتعليمه ونجاحه وفأله والسعى وراء كل ما يكون فيه سعادته فى الدنيا والآخرة ، والقائم بتديرأله المعاشية والنظر فى كل ما يجلب له الخير ويدفع عنه الشر والضير ، إذا لم يجد من يقوم له بما كان يقوم له به أبوه - نشأ على الأخلاق الفاسدة والطباع الرذيلة ؛ لأن النفس بطبيعتها ميألة إلى الشرور مطبوعة على الفجور ، فإذا لم تجد وازعا يكبح جماحها ، ويحول دون تنفيذ كل رغباتها ، لاسيما فى الصغر تحكمت فيها الشهوات ، وتمكنت فيها الرذائل والمنكرات ، فينشأ صاحبها على ذلك فاسد الأخلاق مرذول الطباع منقاداً لأهوائه البهيمية عبداً لشهواته المدنية ، وبذلك يكون كلاً على المجتمع وجرثومة فساد فيه . وحسن المعاملة مع السائل يكون إما بأجابة مأسأله ، والنصح والاخلاص له فى الجواب ، مع عدم التكبر والتجبر والفحش فى القول وإظهار الفضل عليه إن كان سائلاً عن علم ، وإما بأعطائه سؤاله ، أو رده برأمة ولين ، وتعطف وتلطف ، إن كان محتاجاً يسأل مابه يسد رمقه ويزيل عوزة . ولا يصح أن يقابل السائل الذى هذه أأله بالفظأظة والغأظة والكبر من المسئول ؛ فإن فى ذلك من قلة المروءة وخسة الطبع ما لا يخفى .

على أنه لا يحسن بعأقل أن يتقلب فى نعمة ، ولا يرى من الشكر على هذه

النعمة التي جعلته مسئولا وغيره سائلا ، وعزيزا وغيره ذليلا يتكفف الناس ويسألهم ، هذا يمنحه وهذا يمنعه - حقا لا يحسن به ألا يرى من الشكر أن يمنح أخاه المؤمن وهو يسأله مما منحه الله من العلم أو المال ما يسد به حاجته ؛ فذلك من زماته في مروءته وخسة في طبعه .

وقال جل ذكره يحث على حسن المعاملة مع الناس بالعفو عن مذبذبهم والصفح عن تائبهم : (وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فبين وجوب صلة الرحم والأقرباء مهما اقترفوا من الذنب ، ولا يكون ما فعلوه سببا في أن يأتلى أولوا الفضل والسعة أى يحلفوا أن يمنعهم ما كانوا يحسنون به عليهم ، وليكن ديدنهم معهم العفو عن ذنبهم الذي أذنبوه ، وجنائتهم التي اقترفوها ، والصفح عن تائبهم بالاغضاء عنه ، والاغماض عن جنايته ؛ فان ذلك سبب لعفو الله تعالى ومغفرته ، كما قال تعالى ، مرغبا في العفو والصفح ، حاثا عليهما : (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

وسيلة تقويم الخلق

تمهيد

الأخلاق غرائز كامنة تظهر بالاختيار وتقهر بالاضطرار ، وللنفس أخلاق تحدث عنها بالطبع ، ولها أفعال تصدر عنها بالارادة فهما ضربان أخلاق الذات ، وأفعال الارادة . والانسان مطبوع على أخلاق قلبا حاد جميعها أودم سائرهما ، وإنما الغالب أن بعضها محمود وبعضها مذموم ، فتعذر لهذا التعليل أن تستكمل فضائل الأخلاق طبعاً وغريزة ، ولزم لأجله أن يتخللها رذائل الأخلاق طبعاً وغريزة ، فصارت الأخلاق غير منفكة في جبلة

الطبع وغريزة الفطرة عن فضائل محمودة ورزائل مذمومة . وإذا استقر ذلك فالسعيد من غلبت فضائله على رذائله ، فقدّر بوفور الفضائل على قهر الرذائل ، وسلم من شين النقص ، وسعد بفضيلة الفضل فالإنسان أولى بالعطف والتشجيع على الفضائل المكتسبة ، لأنها مستفادة بفعله ، دون الفضائل المطبوعة وإن حمدت فيه لوجودها بغير فعله . ومن القبيح أن يتحرز المرء من أغذية البدن اتقاء الضرر ولا يعنى بتهديب أخلاقه ومداوماتها بالعلم الذى هو غذاؤها صونا لسلامتها ، وإذا كنا نعنى بجميع أعضاء البدن وخاصة بالآشرف منها فبالحرى أن نعنى بأجزاء النفس وخاصة بالآشرف منها وهو العقل .

وكما أن الأمراض التى تعرض للبدن إن لم يعلم الطبيب أسبابها لم يتمكن من علاجها كذلك علل النفس ينبغى أن نعنى باستئصال أسبابها ، فمتى أحس الإنسان أنه أخطأ وأراد ألا يعود ثانياً فلينظر أى أصل فى نفسه حدث ذلك عنه فيحتال فى إزالته .

وبعد فلو لم يكن إلى تغير الأخلاق سبيل ما كان للأقاويل التى أودعتها الحكماء كتبها فى استصلاح الأخلاق معنى ؛ إذ لا يُرجى لها نفع ولا جدوى . وكذلك لم يكن للمواعظ التى يقصد بها ذوو الأخلاق الذميمة من الإشرار معنى إذا لم نطمع فى انتقاهاهم عمائم عليه من الشر . ولذلك كانت وسائل تقويم الخلق هى :

١ - يجب أولاً أن نحصى الأخلاق خلقاً خلقاً ونحصى الأفعال الناشئة عن خلق خلق ، ومن بعد ذلك ننظر أى خلق نجد أنفسنا عليه ، وهل ذلك الخلق الذى اتفق لنا منذ أول أمرنا جميل أو قبيح ؟ والسبيل إلى الوقوف على ذلك أن تأمل أى فعل إذا فعلناه لحقنا من ذلك الفعل لذة ، وأى فعل إذا فعلناه تأذى به ، فاذا وقفنا عليه نظرنا إلى ذلك الفعل : أهو فعل يصدر عن الخلق الجميل أم هو صادر عن الخلق القبيح ؟ : فإن كان ذلك عن خلق

جميل قلنا ان لنا خلقا جميلا في تلك الوجهة ، وإن كان ذلك عن خلق قبيح قلنا إن لنا خلقا قبيحا من هذه الوجهة ، فهذا الوجه نقف على الخلق الذي نصادف أنفسنا عليه ، أى خلق هو . وكما أن الطبيب متى وقف على حال البدن نظر : فإن كانت الحال التي صادفه عليها حال الصحة احتال في حفظها على البدن ، وإن كان ما يصادف عليه البدن حال سقم أعمل الحيلة في إزالته عنه . كذلك متى صادفنا أنفسنا على خلق جميل احتلنا في حفظه ، وإن صادفناها على خلق قبيح استعملنا الحيلة في إزالته عنها ، فإن الخلق القبيح سقم نفساني ، فينبغي أن نحتدي في إزالة أسقام النفس حذو الطبيب في إزالة أسقام البدن ، ثم ننظر بعد ذلك الخلق القبيح الذي صادفنا أنفسنا عليه ، أهو من جهة لزيادة أو النقصان ؟ وكما أن الطبيب أيضا متى صادف البدن أزيد حرارة أو أنقص رده إلى التوسط من الحرارة بحسب الوسط المحدود في صناعة الطب . كذلك متى صادفنا أنفسنا على الزيادة أو النقصان في الأخلاق رددناها إلى الوسط المحدود في هذا الكتاب .

ولما كان الوقوف من أول وهلة على الوسط عسرا جداً التمسنا الحيلة في وقف الانسان عليه أو على القرب منه جدا : وذلك أن ننظر الخلق الحاصل لنا : فإن كان من حيث الزيادة أو النقصان عودنا أنفسنا مباشرة الضد ونديم ذلك زمانا حتى يتحقق الوسط .

٢ - وأن يرتاض الانسان بمكارم الأخلاق ومحاسنها ويتنزه عن مساوئها ومقابحها ، يأخذ في جميع أحواله بقوانين الفضائل ، عادلا في أفعاله عن طرق الرذائل ، وأن يجعل قصده اكتساب كل شئمة سليمة من المعاييب ، ويصرف همه في اقتناء كل خلة كريمة خالصة من الشوائب ، وأن يبذل جهده في اجتناب كل خصلة مكروهة ، ويستنفد وسعه في اطراح كل خلة مذمومة ، حتى يحوز النكال بتهديب خلائقه ، ويكتسى حلل الجمال بدمائه شمائله ، فانه إذا حاسب نفسه ، وأجاد فكره . علم أن الضرر في مساوى

الأخلاق أكثر من النفع ، وأن الذي يعده نفعاً ، وليس نفعاً على الحقيقة - هو يسير جداً غير باق ولا مستمر ، وأن هذا اليسير الذي يعده نفعاً لا يفي بالضرر الكثير والعار الدائم المتصل .

ويعلم أيضاً أن الشر والخبث لا يعقبان إلا الشر ويوحشان منه الناس : ألا ترى أن من تشرّر قصده الناس بالشر واستعدوا لأذيته ، واحترزوا منه وكرهوا نفعه ، وحظروا عليه وجوه الخير ؟

وصفة القول أن السبيل إلى اعتقاد الإنسان الأخلاق المحمودة واستعمالها واجتناب المذمومة وإهمالها ثلاثة أمور :

الأول - بتميز القوة الناطقة بأحوال ثلاثة : ب مداومة الاطلاع على كتب الأخلاق والسياسات والعمل بها ، وبتدقيق النظر في العلوم العقلية والبحث عنها ، وبالتدرج الى استعمال العادات الجميلة وترك ضدها .
الثاني - بقهر القوة الشهوانية بأحوال ثلاثة : بأن يجتنب مجالسة السفهاء والخلعاء والنساء والأرذال ، وبأن يكثر مجالسة الزهاد وذوى الاجتهاد والورع ، وبأن يتحرى الجميل من رغباته ، فيحققه
الثالث - بتعديل القوة الغضبية بأحوال ثلاثة :

بأن يذكر المؤذى أن لو كان هو المؤذى هل كان يختار ذلك منه أو ينفر منه ؟

وبأن يتذكر مشهده من طيش غيره فلا يرضاه لنفسه عند الغضب ، وبأن يكسر سورة الغضب بالرفق ، ويستعمله على تعديل القوة الشهوانية فقط .

لا جرم أن ملاك الأمر في تهذيب الأخلاق هو تقوية العقل وتمكينه من السيطرة على القوانين الغضبية والبهمية ، وخير السبل إلى تقوية العقل معالجة العلوم العقلية ؛ فان الإنسان إذا نظر فيها ، ودرس كتب الأخلاق

والسير ، وداوم عليها - تيقظت نفسه ، وابتعثت من حولها ، وأحست فضائلها وأنفتحت من رذائلها ؛ لأنها إنما تضعف وتخفت إذا عدمت الفضائل والمناقب ، واستولت عليها الرذائل . وإذا ارتاض الانسان بالعلوم العقلية ، شرفت نفسه وعظمت همته ، وقويت فكرته ، وتمكن من نفسه ، وتملك من أخلاقه ، وقدر على إصلاحها ، وانقاد له طبعه ، وسهل عليه تهذيبه . ومن لم يتمكن من اكتساب العلوم العقلية فلي بذل جهده في تدقيق الفكر ، ومجاهدة النفس وتمييز ما بين عاداته القبيحة والجميلة ؛ لينظر أيهما أجدى عليه ، وأنفع له ، وأيها أحمق عاقبة ، وأبقى على الأيام . وبما يهذب النفس ويصلحها أن يجعل الانسان غرضه من كل فضيلة غايتها ونهايتها ، ولا يقنع منها بما دون الغاية ، ولا يرضى إلا بأرفع درجة ؛ فانه إذا جعل ذلك غرضه كان حرياً أن يتصف بالفضائل ، ويبلغ منها درجة مرضية إن فاتته الدرجات الرفيعة . فأما إن قنع بما دون الغاية فلا يأمن أن يقصر عن بلوغها ويفوته المطلوب .

مراتب الناس في قبول التأديب

هي كثيرة وتشاهد وتعاين فيهم ، وخاصة في الاطفال ؛ فان أخلاقهم تظهر فيهم منذ مبدأ نشوهم ، ولا يسترونها بروية ولا فكر كما يفعل الرجل التام الذي انتهى في نشوه وكاله إلى حيث يعرف من نفسه ما يستقبح منه ، فيخفيه بضروب من الحيل والافعال المضادة لما في طبعه . وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الادب ونفورهم عنه ، وما يظهر في بعضهم من القحة ، وفي بعضهم من الحياء ، وكذلك ما يرى فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وضده ، الى سائر الأحوال المتفاوتة - ما تعرف به مراتب الانسان في قبول الاخلاق الفاضلة ، وتعلم منه أنهم ليسوا على مرتبة واحدة ، وأن فيهم المواتى والممتنع ، والسهل والسلس ، والفظ العسر والخير والشرير ، والمتوسط بين هذه الأطراف في مراتب لا تحصى كثرة .

واذا أهملت الطباع ولم تُرَضْ بالتأديب والتقويم نشأ كل إنسان على سَوْنِ طباعه وبقى عمره كله على الحال التي كان عليها في الطفولة ، وتبع ما وافقه بالطبع من غضب أو عرامة أو شره أو غيرها .

أثر الاسوة في تقويم الخلق

تمهيد

النفس مجبولة على حب المائلة والمحاكاة

اعلم أن حب النفس للمائلة ، ومحاكاة الغير - هو السبب الكلى في مسارقة الطبع وتغريبه إلى الفساد عند مشاهدة المعاصي والمفاسد ، ولذلك يزدري الناظر إلى الأغنياء نعم الله عليه ، فتوثر فيه مجالستهم فيستصغر ما عنده ، وتوثر فيه مجالسته الفقراء فيستعظم ما أتيح له من النعم : قال جعفر بن سليمان : كلما قُرت في العمل نظرت إلى محمد بن واسع وإقباله على الطاعة ، فيرجع إلى نشاطي في العبادة ، ويفارقني الكسل . ويكفي في تغيير الطبع مجرد سماع الخير والشر فضلا عن مشاهدته ، وبهذا يعرف قوله صلى الله عليه وسلم : « عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة » وهو كناية عن انبعاث الرغبة من القلب ، وحركة الحرص على الاقتداء بهم ، والاستنكاف عما هو ملابس له من القصور والتقصير . والمفهوم من فحوى هذا الكلام عند الفطن كالمفهوم من عكسه : وهو أن عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة ، لأن كثرة ذكرهم تهون على الطبع أمر المعاصي ، ويذعن لليل إليها ، فيكون ذكرهم موجبا للعنة . وإذا كان هذا حال ذكر الصالحين والفاسقين فما ظنك بمشاهدتهم ، بل قد صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « مَثَلُ الْجَلِيسِ الشَّوِّ كَمَثَلِ الْكَبِيرِ إِنْ لَمْ يَخْرُقْكَ بِشَرِّهِ عَلِقَ بِكَ مِنْ رِيحِهِ » لهذا ينبغي لمن عرف من عالم زلة ألا يحكيها ؛ لأن حكايتها تهون على المستمعين أمر تلك الزلة ، ويسقط من

قلوبهم استعظام الاقدام عليها ، فيكون ذلك سببا لتهوين تلك المعصية . وقد علم من هذه الكلمات سيية كون الاخلاق معدية ، والطباع سارقة ، وعرف ما جبلت عليه النفس من المماثلة . ومما هو من باب المشاكلة ما جبلت عليه النفوس من ميلها لشكلها وأنسها بجنسها : قال بعض البلغاء : من شأن الاجناس أن تتواصل ، ومن عادة الاشكال أن تتآلف ، والشئ يتغلغل إلى معدنه ، ويحن إلى عنصره ، فاذا صادف منبته ولاقى عنصره - وشج بعروقه ، وشبك بفروعه ، وتمكن على الإقامة ، وثبت ثبات الطينة : قال صلى الله عليه وسلم : « لو أن مؤمنا دخل الى مجلس فيه مائة منافق ومؤمن واحد - لجاء حتى يجلس اليه ، ولو أن منافقا دخل الى مجلس فيه مائة مؤمن ومنافق واحد - لجاء حتى يجلس اليه » وهذا يدل على أن شبه الشئ منجذب اليه بالطبع ، وان كان هو لا يشعر : قدم ناس الى مكة المشرقة ، فقالوا : قدمنا الى بلادكم ، فعرفنا خياركم من شراركم في يومين . قيل : كيف ؟ قالوا : لحق خيارنا بخياركم وشرارنا بشراركم فألف كل شكله . ومن هذا قال بعض البلغاء :

تخير أخا في الله تصحبه ساعة * فكل امرئ يصبو إلى من يجانس

وهذا الخلق لا يختص بالانسان ، بل يوجد في سائر الحيوانات : قال بعض الحكماء : كل انسان مع شكله ، كما أن كل طير مع جنسه . وفي الاثر أنه لما مات بعض الخلفاء واختلف المسلمون جمعت الروم ملوكها لغزو بلادهم وفتحها ، وكان فيهم رجل صاحب عقل ورأى ، فنهاهم فلم ينتهوا ، فلما أصبحوا غدوا عليه ، فأحضر كلبين عظيمين قد أعدهما ، ثم حرش بينهما ، فتهارشا حتى سالت دماؤهما ، فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده ، وأرسل على الكلبين ذئبا قد أعدده ، فلما أبصراه تركا ما كانا عليه ، ووثبا جميعا على الذئب فقتلاه ، فأقبل ذلك الرجل على جمع الروم وقال : مثلكم مع المسلمين مثل هذا الذئب مع الكلاب : لا يزال الهرج من المسلمين مالم يظهر لهم عدو من غيرهم ، فاذا ظهر العدو من غيرهم تركوا العداوة بينهم ، وتألفوا على العدو . فقبلوا قوله .

ومن هذا الباب قول أرسطاطاليس : « الأشكال لاحقة بأشكالها كما أن الأضداد مبادئة لأضدادها » ومنه أخذ المتنبي معنى قوله :

وشبه الشيء منجذب إليه * وأشبها بدنيانا الطغام

وكما أن المشاكلة موجبة للألفة ، فعدمها مقتضى للنفرة : كان من عادة ملوك الفرس أنه إذا غضب أحدهم على عالم حبسه مع جاهل . وغضب الرشيد على ثمامة بن الأبرش وكان عالما متبحرا ، فسله الى خادم يقال له ياسر ، وكان ياسر يحسن اليه ، ويتأدب في حقه ويعظمه ، حتى سمعه ثمامة يوما يقرأ : « وَيَلُيَوْمَئِذٍ لِلْكَذَّابِينَ » بفتح الذال فقال ثمامة : ويحك إن المكذابين هم الأنبياء . فقال له ياسر : كان يقال عنك إنك زنديق ولم أصدق ، أتشم الأنبياء يا ثمامة ! ثم أعرض عنه وهجره . فلما رضى الرشيد عنه ورده إلى مجلسه سأله يوما في أثناء المحاورة : ما أشد الأشياء ؟ قال : عالم يحرق عليه كلام من جاهل . ثم أخبره بقصته مع ياسر خادمه . فضحك الرشيد من ذلك .

ومن هذا قيل : إذا أردت أن تعذب عالما فاقرن به جاهلا ؛ لأن الاقتران مع الجاهل عذاب الروح ، والضرب بالسياط عذاب البدن ، والعذاب على الروح أوجع . وقيل لبعض الحكماء : ما بال الرجل الثقيل أثقل على الطبع من الحمل الثقيل ؟ فقال : لأن الحمل الثقيل يشارك الروح الجسد في حمله ، والرجل الثقيل تنفرد الروح بحمله . ولما تفقد سليمان عليه السلام الطير ولم يجد الهدد قال : (لَا عَذَابَ بَنِي عَذَابٍ شَدِيدًا ، أَوْ لَا ذُبْحَنَهُ ، أَوْ لِيَا تِنِّي سُلْطَانٍ مُبِينٍ) فلما أتاه بالحجة دفع عنه العذاب الشديد ، وقال : لا بد من تأديبه حتى لا تجترى الطيور على مثل فعله ، فحبسه مع الحدأة في قفص واحد ، فلما نظر الهدد إلى كثافة طبعها ، ورقة طبعه ، وحسن منظره ، وقبح منظرها — هاله ذلك ، فطلب من سليمان أن يخرج من ذلك القفص ويعذبه أشد العذاب ، فعذب بنف ريشه حتى صار قطعة لحم ، وكان ذلك عليه أسهل من اجتماعه مع الحدأة ، وليس ذلك إلا لعدم الجنسية . ومن هذا يعلم السبب

في قلة إخوان أهل الفضل والكمال لقلة المناسبة فلا تكاد ترى الناقص
الامبغض للكامل ، ولا ترى الكامل الامشوء عند الناقص : دخل أبو العيناء
على المتوكل وعنده جلساؤه فقال له : يا محمد ، كلهم كانوا في عينيك منذ
اليوم ، ولم يبق أحد لم يذمك غيري . فقال :

إذا رضيت غني كرام عشيرتي * فلا زال غضبانا غني لثامها
وقال رجل لأفلاطون : إن فلانا الحاكم يثني عليك ثناء جميلا ويمدحك .
فقال له : كيف صرتُ مناسباً لذلك الجاهل حتى يثني عليّ ويمدحني ؟ لأن
المدح لا يكون إلا بعد التناسب : قال الله تعالى : « وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ
فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ » قال بعض الأذكياء :

ومن يك ذا فم مرّ مريض * يجد مرابه الماء الزلالا
وقال أمير المؤمنين : من جهل شيئا عاداه ، وقال الله تعالى : « بَلْ كَذَّبُوا بِمَا
لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ » وقال عليه الصلاة والسلام : « النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا »
ومن أمثال العرب : أعجز عن الشيء من الثعلب على العنقود : وذلك أن
العرب تزعم أن الثعلب نظر إلى العنقود فرامه فلما لم ينله قال : هذا حامض .
وحكى الشاعر ذلك ، فقال :

أيها العائب سلى * أنت عندي كشعاله
رام عنقودا فلما * أبصر العنقود طاله
قال هذا حامض لما * رأى ألا يناله

وقال بعض الأساطين لابنه : يا بني ، عليك بكل نوع من العلم في زمنه ؛
فإن المرء عدو ما جهل ، وأنا أكره أن تكون عدوا لشيء من العلم .
والعلة في أن الإنسان عدو ما يجهله هي أنه يخاف من تقريره بالنقص
خصوصا إذا ضمه ناد ، أو جمع من الناس ؛ فانه تتصاغر نفسه عنده إذا
خاضوا فيما لا يعرفه ، وينقص في أعين الحاضرين ، وكل شيء آذاك ونال
منك فهو عدوك . وقيل لأفلاطون : لم يبغض الجاهلُ العالم ولا يبغض

العالمُ الجاهل ؟ فقال : لأن الجاهل يستشعر النقص في نفسه ويظن أن العالم يحتقره ويزدرجه فيبغضه ، والعالم لا نقص عنده ، ولا يظن أن الجاهل يحتقره ، فليس عنده سبب لبغض الجاهل .

رضا الناس غاية لا تدرك

قال بعض الأساطين لبعض أصحابه : والله ما أقول لك إلا نصحي : إنه ليس إلى السلامة من الناس سبيل ؛ فانظر الأصلح فاعمله ، ولذلك قيل : من راقب الناس مات غماً * وفاز باللذة الجسور

وقال بعض العلماء : إن الاتيان بما تستحسنه جميع الطبائع ليس في قدرة البشر وللبعض العقلاء :

لو كنت كالقدح في التقويم معتدلاً * لقات الناس هذا غير معتدل وحكى أن بعض العرفاء أراد أن يعلم ابنه السلوك ، وأن يقطعه عن النظر إلى الخلق ، فخرج راكباً على دابة هو وولده ، فقال بعض الناس : انظروا إلى هذين كيف ركبا على هذه الدابة وهي لا تطيق !! فنزل ولده عنها وتقى الوالد ، فقالوا : انظروا إلى هذا الرجل كيف هو راكب وولده يمشي وكان الولد أولى منه بالركوب !! فنزل الوالد وركب الولد ، فقالوا : انظروا إلى هذا الولد ما أقل أدبه ، أبوه يمشي على أقدامه وهو راكب !! فقال لولده : انزل فنزل عن الدابة ومشيا على أرجلهما ، وتركوا الدابة تمشي دون راكب عليها ، فقالوا : ما أقل عقل هذين ، يمشيان على أقدامهما ، والدابة لا راكب عليها !! فقال الرجل لولده . انظر إلى هذا الأمر واعتبر به ؛ فإنه لا يسلم أحد من القال والقال فيه مهما عمل وقد رأيت عياناً .

وحكى عن موسى عليه السلام أنه قال : « إلهي ، أسألك ألا يقال في ما ليس في ، فأوحى الله إليه : ذلك شيء ما فعلته لنفسى فكيف أفعله بك ، وما ينسب لسيدنا على أمير المؤمنين :

قد قيل إن الإله ذو ولد * وقيل إن الرسول قد كهنا

مانجا الله والرسول معا * من لسان الورى فكيف أنا

ومن كلام له كرم الله وجهه : إن أقل قالوا خريص على الملك ، وإن أسكت قالوا جزع من الموت ، إشارة إلى عدم انضباط لسان الناس في حقه . وقد نسبوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام يوم بدر أنه أخذ لنفسه من المغنم قطيفة حمراء حتى أظهره الله على القطيفة وبرأ نبيه من الخيانة وأنزل الله في كتابه : (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) وفصل الخطاب في هذا الباب أن تعلم أن الله تعالى خلق الخلائق أجمعين وأنعم عليهم بأنواع النعم ، وبعد هذا فما قدروا الله حق قدره ، ولا عظموه حق عظمتهم ، بل قالوا فيه مالا يليق به ، ووصفوه بما يستحيل عليه ، وأضافوا إليه ما يتقدس عنه ، وهو مع ذلك يرزقهم ، ويقضى ما ربههم ، فمعاصيهم إليه صاعدة ، وبركاته عليهم نازلة : (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ) وينفق مما عنده . وبالجملة فإن رضا الناس غاية لا تدرك فاشتغال المرء باصلاح نفسه أولى .

الأسوة خير مرشد

القدوة هي المعلم القدير بلا لسان ، والمرشد الناصح من غير بيان ، وهي مدرسة الانسان العملية التي يرسخ تعليمها في النفوس ويعلق بالافهام . والناس مائلون طبعاً إلى أن يتعلموا بعيونهم أكثر مما يتعلمون بأذانهم ، والمرئي يؤثر أكثر من المقروء والمسموع ، وتعليم العمل أنفع من تعليم القول ، والارشاد يري الطريق ولكن القدوة البكاء تسير فيه ، ومهما أوتي المعلم من البراعة في تهذيب النفوس فليس يبالغ ما يبلغه زميل له دونه في المهارة وفوقه في السيرة . ولذا كان خير النصيح : افعل كما أفعل لا كما أقول . ولما كانت غريزة التشبه أقوى ما تكون في الأحداث وجب أن ينشئوا في بيئة صالحة ليشبوا نافعين ، فإنهم يمثلون بمن حولهم : كالحشرات الصغيرة تتلون بلون النبات الذي تقتات به . ومن أجل ذلك كانت التربة البيتية أفضل

في نفوسهم من التربية المدرسية ؛ فالبيت أصل المجتمع ، ومن ينبوعه تنشق الآداب والاخلاق ، ومحبة الأسرة مصدر المحبة الوطنية . ومن هذه الدائرة الصغيرة تتولد دوائر كبيرة تعم العالم أجمع ، وصفات الوالدين تظهر في أولادهما ، وأفعالها المختلفة التي يمارسونها تحيا في أولادهما . بعد أن يكونوا قد نسوا تعليمهما الشفوي ، ونظرة واحدة من الأب قد تبقى مؤثرة في الولد مدى الحياة .

كتب (فول بكستن) إلى أمه بعد أن نال منصبا عاليا يقول : (إنني أشعر على الدوام بنتائج المبادئ التي غرستها في عقلي) وكل عمل يعمل به الإنسان مهما كان طفيفا هو مقدمة لنتائج لا يعلم نهايتها إلا الله . يموت المرء وتظل ذكراه حية تجول بين الأحياء وتؤثر فيهم ، فحياة الإنسان في هذه الدنيا ثمرة أنضجتها القرون السالفة وأوصلتها إلى حالتها الحاضرة ، وللجيل الحاضر هذا الأثر نفسه في الأجيال التالية ، وهكذا سيرتبط الماضي الدابر بالمستقبل البعيد ، ولن تموت أفعال الناس وإن ماتت أجسادهم وصارت هباء مشورا .

ولقد أظهر ذلك أحد المربين بعبارات بليغة هي : (إن كل ذرة تتحرك بالحركة التي حركها بها الحكماء الفلاسفة حتى إن الهواء نفسه يشبه كتابا كبيرا على صفحاته كل ما تفوه به بنو البشر : كل ما قالوه ولم يفعلوه ، أو وعدوا به ولم يحققوه) .

وكما وضع الله القدير على جبهة القاتل علامة ظاهرة لجرمه ، كذلك سنّ شرائع تلزم كل مذنب أن يقر بذنبه ؛ لأن كل ذرة من جسده مهما تغير وضعها لا تزال تتحرك بالحركة الأولى التي ارتكب بها ذلك الذنب : (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) . لذلك كان كل فعل نفعله ، وكل كلمة نقولها ، لا ، بل كل عمل نراه ، وكل قول نسمعه - يؤثر في حياتنا أثيرا مستمرا ، ويمتد تأثيره إلى الجنس البشري كله . ولا نقدر

أن تتبع هذا التأثير بتفرعاته المختلفة بين أولادنا وأصحابنا ورفاقنا ، ولا أن نمنعه ، إذ لا بد من أن يتصل بهم ، ويدوم امتداده مدى الأيام .

ومن هنا نرى أهمية القدوة الحسنة التي هي مذهب أخرس ، ويقدر عليها أفقر الناس وأحقهم . والرجل الحقيقي ينشأ في كل أين وآن : في أكواخ المزارع ، وقصور المدائن . ومن فلاح أرضا تقاس بالشبر أمكنه أن يكون قدوة لغيره في عمله ، كمن يملك الألوف ، وعلى الفرص وانتهازها يكون معول الذين يجعلون من أنفسهم أسوة وقدوة .

وخير تراث يتركه الآباء الأبناء - السيرة الحسنة ، والقدوة الصالحة ؛ فانهما يحدوانهم إلى سبيل الخير ، ويصدانهم عن الضير . ولا شرف أعظم من أن يسعد الخائف والساف كل بعمل الآخر الحميد . وذووا الهمة والمروءة لا يقدرّون أن يحركوا الناس للعمل مالم يكونوا هم من أهله ، ولا يكفينا أن نقول للناس : اعملوا كذا وكذا ، بل علينا أن نعمل أمامهم ، وما أحسن ما قالته إحدى السيدات وهو : (إذا أردنا فعل شيء فعلينا أن نـشـرع فيه بأيدينا) :

إن قلت - ويحك - فافعل أيها الرجل * فكم رجال لنا قالوا وما فعلوا
فلوم قام « نؤمار بط » وتبوا كل منبر ، وخطب في إصلاح شأن المجرمين
ولو قام « يوحنا بوندس » وملاً جرائد البلاد من الحث على إنشاء المدارس
للساكين ، ولم يعمل أعمالاً - ما أفاد شيئاً ، ولكنهما لم ينبسا بينت شفة ، بل
امتطيا متن العمل فنجحا ، واقتدى الناس بهما كما اقتدى الدكتور (غثرى)
الواعظ البليغ الذي يدعى رسول مدارس المساكين يوحنا بوندس في تعليم
أبناء المعوزين على أثر رؤيته صورة تمثل حانوت إسكاف هو « يوحنا »
والاسكاف جالس ومنظاره على أنفه ، وبين ركبتيه حذاء عتيق وعليه سيمي
الهيبة والوقار وعلو الهمة ، وعيناه شاخصتان إلى جم من الصبيان والبنات ،
جالسين أمامه بثياب خلقة ، وكتبهم في أيديهم ، جمعهم مثل راع صالح

وعليهم ، وانتشل من وهداة الشقاء ما ينيف على خمسمائة ولد وهو يحصل خبزه بعرق جبينه . فانظر كيف جعلت العناية الالهية من هذه النظرة سعادة أولئك الأولاد الذين كانوا يطوفون الأزقة في حال يرثى لها . وإني لآخال عظام الرجال وأشرافهم الذين أطنب الشعراء في مدحهم ، وأقيمت لهم الانصاب قد وقفوا في ساعة الحساب الرهيبة ، وانقسموا شطرين لكي يجتاز بينهم هذا الرجل الحامل الذكر إكبارا لأمره ، وتقديرا لفعله . ولا شيء يؤثر في الأخلاق تأثير القدوة ؛ لأن الناس يقتدون بمن حولهم في العادات والأخلاق والآراء ، وإن لم يقصدوا ذلك . وإن التحذير مع كونه قديفيد كثيرا لتفوقه القدوة الحسنة ؛ لأنها مذهب عامل . والمرشد الناصح السي السيرة كمن يبنى ويد ويهدم بالآخرى :

وإنك إذما تأت ما أنت أمر * به تلق من إياه تأمر آتيا

ولذا كان على العاقل أن يختار رفاقه ، ويسأل عن جاره قبل داره ، وعن رفيقه قبل طريقه ، ولا سيما في شرح الشباب ، فان فيه قوة خفية تجعل الشبان يتخلقون بأخلاق رفقائهم :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدى

فعلى الشبان أن يعاشروا فضلاء القوم ليقتدوا بهم ، وإلا فالانفراد خير من مرافقة أدنياء القوم ؛ لأن الانسان يعرف بأصحابه : فمن عاشر حكما كسب الحكمة ، ومن لازم دينئا باء بالدنايا ، والطبع سراق :

عدوى البليد إلى الجليد سريعة * والجر يوضع في الرماد فيخمد

ولقد أحسن السير (بطرس لى) المصور من حيث إنه ألزم نفسه ألا يطيل النظر إلى صورة قبيحة خوفا من أن يكتسب قلبه منها شيئا يفسد ذوقه ؛ فان القبائح كالوباء ينشب أظفاره في الأجسام فييدها وفي العقول فيضلها ، وملازمة الأفاضل تورث الفضل كالهواء إذا جاور الزهر طابت ريحه : قال فرنسيس هرنر عما استفاده من معاشرة العقلاء : (لا يسعنى أن

أنكر أتى استفدت منهم استفادة عقلية أكثر مما استفدت من كل المكتب التي تصفحتها في حياتي (ولا عجب ؛ فالوردة تعطر ما جاورها ، والذبالة تنير ما حولها ، والنيل يسقي ما في حوضه من النبات ، وكذلك تأثير العقول في العقول ، والأخلاق في الأخلاق . ولقد يبلغ الولع بالمقتدى بعظيم أن يقرب منه حتى يلبس هذب ثوبه ، كما فعل (نورت كوت) مع (رينلدر) المصور . والوقائع الحرية خير مدرسة تبث الشجاعة في قلوب الجبناء ، ولا أدل على ذلك من أن الرجال العاديين قد فعلوا العجائب ؛ لأن قوادهم كانوا أبطالاً بسلاً . ولقد أراد (زيسكا) أن يكون قدوة صالحة في مماته كما كان في حياته ، فأوصى بجلده أن يصنع طبلاً لكي يحرك شجاعة البوهيميين . وحرص الأتراك على الارتفاع بالقدوة جعلهم يطلبون عظام إسكندر بك أمير أيروس بعد موته ليحملوها فتصل شجاعته بهم ، ولقد غنى العالم بتدوين تراجم مشهوريه ليقتدى بهم الخلف ؛ إذ يرى آباءه أحياء في سير حياتهم وجلائل أعمالهم يأمررون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . ومن مات وترك وراءه مثلاً حسناً فقد ترك لنسله ولغيرهم أفضل تركة لا تنقطع ثمارها . ومن يقرأ سير الرجال الأفاضل يشعر بحياة جديدة تدخل في عقله وقلبه . ولقد تنبه السير الحسنة القوى الخاملة ، وتحدث في الإنسان ميلاً إلى بعض الأمور بعد أن كان لا يشعر به ، وفعل القدوة الحسنة يتصل بالتسلسل إلى ما شاء ربك ؛ لذلك وجب اختيار الكتب الفضلى ، كاختيار أفضل العشاء ، ويحدث أحياناً أن يأخذ الإنسان كتاباً لمجرد التسلية فيرى فيه سيرة تنبه قوة كانت خاملة وتحرك يداً كانت متعطلة .

وإذا دققنا النظر رأينا في الدنيا سلسلة غير منقطعة من الناس الذين تمثلوا بمن قبلهم ، وكانوا مثلاً لمن بعدهم . ومن الأمثلة التي يمكننا أن نعرضها على الشبان ليقتمدوا بها — مثال العامل المسرور بعمله ؛ لأن السرور زينت النفس : يسهل حركتها ، ويزيد مرونتها ، وبه تزول المصاعب ، ويزداد الرجاء

وتتغنى الفرص . والروح العالية تكون مسرورة دائماً ونشيطة ، وتعمل أعمالها بسرور ، وتحرك الغير إلى الاقتداء بها ، وترفع شأن أحقر الصناعات . وأتم الأعمال ما يعملها الإنسان من قلبه بسرور : كان من عادة (هيوم) أن يقول : إنه يفضل الطبع الميال إلى السرور على عقار دخله عشرة آلاف جنيه مع طبع ميال إلى الحزن .

وإن شئت أن تعرف تأثير السرور في انجاح الأعمال فهذا السير (يوحنا سنكلير) امتزج اجتهاده بالجدل ، فذللاه كل صعب ، وأدنيا منه كل بعيد ، فقد أصلح وهو في الثامنة عشرة من عمره أملاكا اتصلت إليه بالارث من أبيه ، وانتشر إصلاحه في كل اسكتلندا ، وكانت الزراعة حينئذ في حال يرثى لها ، والفلاحون في غاية المسكنة ، ونساؤهم منهم كالدواب تحمل الأحمال ، والبلاذ بدون طرق والأنهار بغير قناطر ، فجمع ألفا ومائتي رجل ، وفتح طريقا طولها ستة أميال تسير فيها العجلات بسهولة ، مع أنه كان يتعسر سلوكها على المعزى ، كل ذلك في نهار واحد ، فأعجب قومه به ، وانقادوا لرأيه ، وصار يفتح الطرق ، ويقم المطاحن ، ويبني القناطر على الأنهر ، ويحسن حال الزراعة ، ويشجع المجتهدين بالجوائز ، حتى صارت البلاد جنة يضرب بها المثل في الخصب وحسن الطرق ، واتسع نطاق أعماله المفيدة ، فأنشأ مجمع الصوف البريطاني ، وجلب الأغنام على نفقته من البلدان البعيدة ، وأدخل الجنس الشقيوتي إلى اسكتلندا غير مبال باستهزاء مربى المواشى الذين زعموا أنه لا يمكن حيوان الجنوب أن يعيش في الشمال ، ولقد تبدد زعمهم حين رأوا كثرة الغنم الشقيوتية التي أحدثت ارتفاعا عظيما في أسعار الأراضي الصالحة للزراعة .

ولما انتخب نائبا في المؤتمر عن مقاطعته ، وسنحت له الفرص لأفادة بلاده - طلب إلى المستر (بت) الوزير مساعدته في إنشاء مجلس وطني للزراعة ، وهم باخراج هذه الفكرة إلى حيز الوجود ، فحرك ميل الجمهور

وأكثر أعضاء المؤتمر ، واستمر على إكبابه حتى أنشئ هذا المجلس ، وانتخب رئيساً له بعد أن كان يقال له في مقام التئيس : (إن مجلس الزراعة الذي تحلم به سيكون في القمر) وجنت البلاد ثماره التي تجل عن الحصر . ولقد يأخذك العجب حين تعلم أن هذا الرجل العالي الهمة قاد كتيبة على نفقته ، عددها ألف متطوع لمحاربة فرنسا وهو مدير لمصرف اسكتلندا ، ورئيس لمجمع الصوف البريطاني ، ومدير لمجمع صيد السمك ، وعضو في مجلس إصدار الأوراق المالية ، ونائب في المؤتمر ، وهي أعمال لا يقوم بها عدة رجال ، ذل مصاعبها وحده ، ولم تقفه عن تأليف كتب تكفي وحدها لتخليد اسمه ، وكتابه في الزراعة أفضل كتاب ، وكتابه في حال اسكتلندا الاقتصادية والمالية في واحد وعشرين مجلداً من أعظم ما جادت به قريحة إنسان ، ولقد تنج من طبع هذا الكتاب نتائج كثيرة حميدة : منها إلغاء بعض الامتيازات المضرة بالجمهور ، ورفع أجرة القسوس والمعلمين ، وترقية شأن الزراعة . وما زال هذا الفاضل آخذاً في أعماله باجتهاد وسرور إلى أن أدركته الوفاة ، فصار أفضل مثال لأسرته ، ولأهل بلاده ، بل غرة في جين بريطانيا ، وقد أحرز الخير لنفسه ، وهو يطلب خير غيره ، لا يجمع الثروة بل بما ناله من السرور والراحة الداخلية ، والسلام الشامل ، وتمم ما يجب عليه لوطنه ولم ينس ما يجب عليه لأهل بيته . وبنوه وبناته ارتقوا في درجات المجد ، وأعظم ما كان يفتخر به (وقد ناهز الثمانين) أنه رب سبعة بنين ومامنهم من استدان مالا لا يقدر على إيفائه ، أو أحزن أباه بعمل وكان تجنبه ممكناً .

معذرة فقد أكثر من إيراد الأمثلة الأجنبية منا - لاعتق فقر في تاريخ رجالنا - وإنما أردت بعث الهمم بإيراد مثل قليلة كانت منشأ الحضارة الغربية التي نمتدح بها ، ونقتفي آثارها ، وإن أردتم أمثلة خيراً من هذه

فصحائف تاريخنا مفعمة بها وحسبنا قوله تعالى : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ »

العمل مظهر الخلق

لا قيمة للخلال التي تتصف بها نفس الانسان إلا إذا ظهر أثرها : فمهما كانت نفس الانسان راغبة في النظافة مثلا ، عارفة بطرقها ، مقتنعة بلزومها - لا يصح أن يقال : إنه متخلق بخلق النظافة إلا إذا ظهر أثره في جسمه وثوبه وفناء داره ومتاع بيته .

ومهما شعر الانسان من نفسه بالشجاعة والاقدام لا يصح أن يقال : إنه شجاع مادام يحجم أو يتسلل لو اذا عن مواطن الخطر والدفاع عن الحوزة .

ومهما أحس من نفسه العطف والحنان على الفقير ولا يجود بفلس واحد في سد حاجة ذلك الفقير وتخفيف الضر عنه - لا يصح أن يقال : إنه شفيق ولا أن يصف نفسه بصفة الرحمة والحنان . ومهما حدث عن نفسه أنه يحب وطنه ، وأنه يعتقد وجوب خدمته ، والاستماتة في سبيله ، وهو إذا كلف أقل عمل لمصلحته جادل عن نفسه ومارى ، أو انخزل عن تأييد تلك المصلحة وتواري - كان كاذبا في دعوى الوطنية ولم يكن محبا لوطنه ولا متخلقا بحب الوطن . وهكذا سائر الأخلاق والفضائل الانسانية . فالأخلاق خلال مشهورة تقع آثارها تحت مشاعر الحس سواء في ذلك قبل أن تصبح عادة للانسان أو بعد أن تصبح عادة له تصدر عن نفسه بسهولة :

أليس هو قبل أن يعتاد الصدق يصدق مرة ثم مرة ثم مرة حتى يصبح الصدق عادة له فتصدر عنه أعماله وأقواله الصادقة بسهولة ومن غير روية ، فانظر كيف أن الأخلاق خلال تتكرر آثارها المحسة في نهاياتها كما هي كذلك في بداياتها .

حقاً إن الأعمال في الإنسان ترتكز على نيته وإرادته المستقرة في نفسه ،
وبهذه النية أو الإرادة تصبح الأعمال خلقية ويكون لها حظها من الحسن والقبح
ودرجتها من الاعتبار وإلا كانت وأعمال الحيوان سواء ؛ فإن أعمال الحيوان
تشبه أن تكون حركات آلية لصدورها عنه من دون قصد ولا سابقة فكر :
تأمل قول بعض الحكماء : « من زرع فكراً حصد عملاً ومن زرع عملاً حصد
عادة ومن زرع عادة حصد خلقاً ومن زرع خلقاً حصد حظاً من هذه الدنيا
سعادة أو شقاء » ومن أجل ذلك وجب على المربي أما كان أو أباً أو معلماً
ألا يتخذ القاعدة في تربية الطفل وصف الفضائل والآداب وتربيتها في نفسه
وحمله على الاقتناع بضرورتها ، مكتفياً بذلك ، بل قرنهما بالعمل الخارجي
والممارسة الفعلية : فإذا أراد غرس خلق التعاون فلا يكتفى بأن يسرد على مسمع
الطفل القضايا والمسائل سرداً ، بل يقوم بمعونة غيره عملاً بمراى منه الفينة
بعد الفينة ، ويمهد بين يديه طريق عمله وممارسته ، فيصير الطفل معواناً لغيره
من بني جنسه ، ويصح إذ ذاك أن يقال : « إنه محب للتعاون متخلق به » .
والخلق تارة يكون شخصياً أي متعلقاً بشخص الإنسان ، وعائداً أثره إليه
أولاً وبالذات ، ثم يجاوزه إلى مجتمعه كالسعى في كسب المال ، وطوراً يكون
اجتماعياً يتصل أثره ونفعه بالمجتمع أولاً ثم به تبعاً : كالتعاون والتحاب
وبذل المساعدة للآخرين المشاركين له في هذا المجتمع ، لكننا إذا أنعمنا النظر
وجدنا أنه قلما يخلو خلق شخصي من أثارة اجتماعية فيه أو خلق اجتماعي
من أثر شخصي : فالعمل مثلاً واجب شخصي تعود ثمرته ونفعه على العامل
الساعي كما قلنا ، لكن فيه أثارة أو علاقة اجتماعية أيضاً من حيث أنه لو لم يعمل
الإنسان ويكدح ما وجد مجموع أعمال الأمة ومساعدتها التي تتوقف عليها نهضتها
وارتقاء مجتمعتها ، وأن الدرهم الذي يكتسبه العامل الساعي جزء من مجموع
ثروة الأمة ، ولو لا درهم الفرد ما تكونت ثروة المجموع : كما أنه لو لا نقطة
الماء ما وجد هذا البحر الخضم .

والتعاون والتحاب خلق اجتماعي كما ذكرنا ، ولكن فيه منفعة شخصية

وينهل ثمرها على المتخلق بخلق التعاون وإن لم يقصد هو ذلك من وراء عمله فان من أحب الناس وبغى الخير لهم ومد يده إلى مساعدتهم في أيام شدتهم كانوا بالطبع حريصين على مقابله بالمثل ، ومد يد المعونة إليه في أوقات شدته ، وأيام محنته ، فيكون بذلك قد جنى من غرسه هذا الخلق الاجتماعي نفعا شخصيا وثمارشيا ، وهكذا سائر الأعمال التي يزاولها الانسان في حياته وإن كانت شخصية من جهة - كانت اجتماعية من جهة أخرى مادام الانسان مدنيا بالطبع . وقد شاء خالقه الحكيم أن تكون مصلحته ومرافق حياته مرتبطة بمصلحة بني جنسه ومرافق حياتهم :

والناس للناس من بدو وحاضرة * بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

الأفعال الظاهرة دليل على الأخلاق الباطنة

قال أمير المؤمنين : إذا كان في رجل خلة رائحة فانتظروا منه أخواتها : مثال ذلك : إنسان مستور الحال عنا رأيناها وقد صدرت عنه حركة تروك إما لحسنها أو لقبحها : كأن ينكر غير مرة منكرا عجز غيره عن إنكاره ، أو يسرق كذلك ، فينبغي أن تنتظر وتترقب منه أخوات ماوقع : وذلك لأن الخليفة المحركة له إلى فعل ذلك لا بد أن تحركه إلى فعل مايناسبها ، لأنها مادعته إلى فعل تلك الحركة لخصوصية فيها ، بل لما فيه من المعنى المقتضى وقوعها ، وهذا يتعدى إلى غيرها بمايجانسها ، ولذلك لا ترى أحدا قد اطلعت من حاله يوما على أنه يدمن الخمر الا وسوف تطلع فيما بعد منه على أنه يقترب غيرها من الخبائث ، وكذلك في الأمور الحسنة :

شتم بعض سفهاء البصرة الأحف شتما قبيحا فلم عنه ، فقيل له في ذلك ، فقال : (دعوه فاني قد قتلته بالحلم عنه ، وسيقتل نفسه بجرأته) فلما كان بعد أيام جاء ذلك السفیه وشتم زيادا وهو أمير البصرة ، وظن أنه كالأحف ، فأمر به فقطع لسانه ويده . وإذا عرفت أن الطبع باعث على الأفعال فَلَنَسَلْ عَلَيْكَ شَطْرًا مِمَّا اخْتَرَنَاهُ مِنَ الْاَخْبَارِ وَالْاَقْوَالِ فِي أَنَّ الْاَفْعَالِ الظَّاهِرَةَ

علامات على الأخلاق الباطنة وكاشفة عنها : فمن ذلك قول أمير المؤمنين كرم الله وجهه : إذا أردت أن تعرف طبع الرجل فاستشره ؛ فانك تقف من مشورته على عدله وجوره وخيره وشره .

وقال : ما أضمر أحدكم شيئاً إلا ظهر على فلتات لسانه وصفحات وجهه . ولما كان الانسان إنما يضر في نفسه أمراً مهما عنده من عداوة أو بغضة أو محبة إلى غير ذلك ، وكان الوجود اللساني عبارة عن الوجود النفساني ومظهره - لم يتمكن المرء من حفظ ما أضمره بالكلية ؛ لأن مراعاة ذلك الحفظ إنما يكون للعقل بحسب ما يراه من المصلحة ، والعقل يشتغل بالتصرف في مهم آخر فيغفل عن ضبط ما أضمره ، فينقلب الخيال به من سر العقل ، فيبعثه في فلتات القول من غير ترو . وكذلك لما كانت التصورات العقلية والأمور النفسانية مبادئ للآثار الظاهرة كصفرة الوجل وحمرة الخجل - لم تنفك الأمور المضمرة عن ظهور ما يعرف به من الآثار في صفحات الوجه والعين . وشاهد ذلك التجربة ، والله در القائل :

لاتسأل المرء عن خلائقه * في وجهه شاهد من الخبر
وقول الآخر :

وفي عينيك ترجمة أراها * تدل على الضغائن والحقود
وأخلاق عهدت اللين فيها * غدت وكأنها زبر الحديد
وقد عاهدتني بخلاف هذا * وقال الله أوفوا بالعهود
والشعر في هذا المعنى كثير ، وإنما اقتصرنا منه على مقدار الحاجة . وما يستطرد هنا الاستدلال بالآثار الظاهرة في الجسم على الأخلاق الباطنة فيه وهو المسمى بالفراسة وهي الاستدلال بالخلق على الخلق : فمن ذلك ما روى في الآثار أن الهوج في الطول ، والكيس في القصار ، والكبر في العور ، والسُّبُهت (١) في العميان ، والذكاء في الخرس ،

وقيل مكتوب في التوراة : تسع خصال في تسع رجال : الشؤم في الأعور ،

واللجاجة في الأحوال ، والغفلة في الطويل ، والصرامة في القصير ،
والكياسة في الكوسج (١) والتكبر في الأعرج ، والشطارة (٢) في
الأحذب ، والخبث في الأشقر . وكانوا يقولون : عظم الجبين يدل على البله
وعرضه يدل على قلة العقل ، وصغره يدل على لطف الحركة ، فإذا وقع
الحاجب على العين دل على الحسد ، والعين المتوسطة في حجمها دليل الفطنة
وحسن الخلق والمروءة ، والتي يطول تحديقها يدل على الحق ، والتي يكسر
طرفها تدل على خفة وطيش ، والشعر في الأذن يدل على جودة السمع ، والأذن
الكبيرة المنتصبة تدل على حق وهذيان .

عبادة الله أقوى أركان الخلق

العبادة في نظر الاسلام ممارسة الطاعات البدنية ، والقيام بالشرائع
العملية ، وإن كانت العبادة تطلق أيضاً في اللغة على توحيد الله وتعظيمه
أبلغ تعظيم ، وتذليل النفس له ، والخضوع القلبي بين يديه : جاء في الحديث
الشريف : « لَا عِبَادَةَ كَالْتَفَكْرِ » ، فقد جعل الشارع « التفكر » من
العبادات ، وإنما هو تأمل في عظمة الله وحكمته الباهرة في إبداع نظام
الكائنات . فموضوع العبادة إذا طاعة الله والتزام ما شرعه من الدين ، وهذا
كما يشمل الطاعات البدنية كالصوم والصلاة يشمل الطاعات الأخرى التي
منها الأعمال الخلقية ، فإنها كلها ما أمر به الشارع ، وحض عليه أشد حض
وذكر به أبلغ تذكير ، بل إن الطاعات البدنية على فضلها وعلو منزلتها في
نظر الشارع - إنما يراد بها تكميل الأخلاق وتربية النفس التربية الدينية
الفاضلة .

انظر قوله تعالى : (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)
وقوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لَمْ تَنْهَ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ

(١) من ليس في لحيته شعر

(٢) الدهاء

لَمْ يَزِدْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا » « كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ وَالْعَطَشُ »

فالعبادة البدنية إنما تقع موقعها من رضا الله تعالى إذا أدت إلى تزكية النفس وتطهير الأخلاق وحسن القيام بالواجبات من حيث يكون ذلك سبباً في عظمة الأمة وثبات أمرها ونفوذ سلطانها ، وفي هذا يقول بعض علمائنا المتقدمين : « أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكف عن أعراض الناس »

وقد نبه الشارع صلى الله عليه وآله وسلم في غير ما حديث إلى تفضيل الأخلاق على العبادات بنسبة ما لها من الأثر المبين والنفع الظاهر في مصالح البشر وسعادة حالهم : من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « تَفَكَّرْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً » « عَدَلْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً » « إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ خَيْرٌ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ » والمراد بإصلاح ذات البين السعى في إزالة الخصام وسوء التفاهم من بين المتنازعين من أبناء الأمة : فيقول أمرهم إلى الألفة والقوة . « نَظَرُ الرَّجُلِ إِلَى وَالِدَيْهِ حُبًّا لَهُمَا عِبَادَةٌ » « مَنْ مَشَى فِي حَاجَةٍ أَخِيهِ سَاعَةً فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ قَضَاهَا أَوْ لَمْ يَقْضِهَا كَانَ خَيْرًا لَهُ مِنْ أَعْتِكَافٍ شَهْرَيْنِ » « إِنْ صَبَرَ أَحَدُكُمْ سَاعَةً فِي بَعْضِ مَوَاطِنِ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا » يعني أن اهتمامه وثباته في موقف يدرأ به الخطر عن أمته خير له من العبادة في تلك المدة . وكما أن الشارع فضل مكارم الأخلاق على مجرد عبادة الجوارح كذلك فضل دراسة أسرار التشريع الإسلامي على مجرد العبادة أيضا : قال صلى الله عليه وآله وسلم « عَالِمٌ يُنْتَفَعُ بِعِلْمِهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ عَابِدٍ »

هذه الأحاديث الشريفة ناطقة بأن مكارم الأخلاق : وتكميل النفس بالعلم الصحيح وممارسة الواجبات الشخصية والاجتماعية عبادة ، بل قد تكون

أحيانا خيرا من العبادة على حسب ما لها من حسن الأثر في نفع الأمة وتوفير الخير لها .

الخلق عماد الايمان

أودع الله سبحانه وتعالى نفوس جماعات البشر روحا خلقية ، وجعلها مناط سعادتهم وشقائهم ، وأقسط الموازين للدلالة على انخطاطهم وارتقائهم حتى قال بعض علماء الاجتماع : « إنما تتفاضل الأمم في حال البداوة بالقوة البدنية ، فإذا ارتقت تفاضلت بالعلم ، ثم إذا بلغت من الارتقاء غايته تفاضلت بالأخلاق »

ومن أجل ذلك كانت الأخلاق الركن المتين في الشرائع السماوية ، والسبب الأكبر في ظهور أمرها وبقاء سلطانها : فقد روى سيدنا أنس رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم : « إن حسن الخلق نصف الدين » وجاء في الحديث الصحيح عن أنس أيضا عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الخلق وعاء الدين » وهذا يدل على أن نسبة الخلق الحسن إلى الدين كنسبة الوعاء إلى الماء المستقر فيه ، فكما أن الماء لا يقوم بنفسه من دون وعاء يضم أجزائه ويصونها عن التفرق والضياع ، كذلك أحكام الدين وتعاليمه لا تقوم بنفسها ، ولا يدوم سلطانها ، ما لم يكن للمتدينين أخلاق ثابتة تحوط أحكام الدين وتحفظها من الضياع والاضمحلال : تأمل قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله حَفَّ الْإِسْلَامَ بِمَكَارِمِ الْإِخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ » وقد جعل صلى الله عليه وسلم الغاية من بعثه الشريفه إلى الخلق نشر مكارم الأخلاق فيهم إذ قال : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْإِخْلَاقِ » ولما أراد تعالى أن يثني على نبيه في القرآن وصفه بحسن الخلق فقال : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » على أن الاسلام قرر في غير موضع أن الأعمال الخلقية من ضروب الايمان : تأمل قوله صلى الله عليه وسلم : « الْإِيْمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ

شُعْبَةً أَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ» ومعنى «إماطة الأذى عن الطريق» تنحية الحجر والشوك وكل عاقل يؤذى الناس في طريقهم . فانظر كيف جعل إماطة الأذى عن الطريق من خصال الإيمان وليست هي سوى جزء من الواجبات الاجتماعية . وإذا كانت «إماطة الأذى» من شعب الإيمان كانت شعبه وخصاله التي لها علاقة بالواجبات الشخصية والاجتماعية مما يفوق الحصر ويتجاوز كل حد . وقد فسر بعض أهل الحقيقة الدنو في الحديث بالقرب وإماطة الأذى بتطهير النفس . وتأمل الأحاديث الشريفة الآتية تجد الأخلاق الشخصية والاجتماعية دعامة عظيمة من دعائم الإسلام : قال صلى الله عليه وسلم : (أَشْرَفُ الْإِيمَانِ أَنْ يَأْمَنَكَ النَّاسُ وَأَشْرَفُ الْإِسْلَامِ أَنْ يَسْتَمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِكَ) «المؤمن من آمنه الناس على أموالهم وأنفسهم والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب» «أفضل الإيمان أن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك ، وأن تقول خيراً أو تصمت» ، «من سرته حسنة وسأته سيئة فقد ليكم المؤمن» والحديث صريح في أن المؤمن من كان له ضمير يوبخه على صنيعه ، ويبيكته على ما اجتراح من السيئات ، «ليس بمؤمن من لم يأمن جاره غوائله» «أحسنكم إيماناً أحسنكم أخلاقاً» «علو الهمة من الإيمان» والمراد بعلو الهمة كبر النفس والطموح إلى معالي الأمور ، والبعد عن سفسافها ، «الدين المعاملة»

هذه الأحاديث ناطقة بأن الأخلاق الشخصية والاجتماعية من خصال الإيمان وأجزائه المتممة له ، وأن المؤمنين يتفاضلون بما يتم لهم من هذه الاخلاق والحصال . فليزدد المؤمن الموفق من ذلك

ولا أدل على قوة ارتباط الأخلاق بالإيمان في نظر الإسلام مما ورد عن سفانة بنت حاتم الطائي : أسرتها خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتوه بها فقالت : «هالك الوالد ، وغاب الرافد ، فان رأيت أن تخلى عني ، ولا

تشتت في أحياء العرب؛ فإن أبى كان سيد قومه : يفك العاني ، ويقتل الجاني ، ويحفظ الجار ، ويحمي الذمار ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ويحمل الكل ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحد في حاجة فردة خائباً ، أنا بنت حاتم الطائي . فقال لها صلى الله عليه وسلم : « يا جارية، هذه صفات المؤمنين حقاً . خلوا عنها ، فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق » ثم أسلمت هي وأخوها (عدى بن حاتم) رضى الله عنهما «

القاعدة الخلقية

تبتدىء كل قاعدة خلقية بضرب من الأوامر تقضى بثواب أو عقاب، وباتباعها مع توالي الزمن وتكرار الفعل تصبح عادة موروثة لا تكلف فيها، ويشعر الناس أنها شيء حسن يميلون إليه طوعاً، فنحن الآن نسترجسونا بالملابس دون أن نؤمر بذلك، ونخجل أن نسير عراة ولو في الظلام ؛ لأننا نعتقد أن ذلك أمر قبيح ، بخلاف أهل الأزمان الغابرة . وكما أردنا أن نسن قاعدة خلقية صغناها في أمر ينفذ بقوة القانون ريثما يألفها الناس وتصير عادة مستحبة عندهم ، وسنة خلقية بينهم : كمنع البصق في المراكب العامة مثلاً .

فالسنة الخلقية إذاً هي الواجب الذي يفعله الإنسان من تلقاء نفسه معتقداً صحته .

والسنن العامة أنواع :

- ١ — السنن الكونية الطبيعية : كقوانين الجاذبية، والضوء، وتعاقب الفصول . وهذا النوع لا سبيل إلى تغييره أو تبديله لاستقراره وثبوته .
- ٢ — السنن الاجتماعية : وهي ما قضت بها مواضع الاجتماع وعوامله وهي متغيرة بتغير الأزمان والأجيال على أن بعضها ثابت كقانون العرض والطلب في التجارة ، وكقواعد اللغات .

٣ — الشرائع الوضعية : وهي ليست عامة ولا ثابتة ، ويمكن من يرضى بتحمل العقاب أن يعصاها سراً أو جهرًا .

والسنة الخلقية لا تقبل التغير ؛ لأنها سنة الحق والصواب ، والحق عام ثابت في كل زمان ومكان وجيل وإن اختلف الناس في فهمه والوصول إلى كنهه ، وللشخص أن يتحلى بها ليسمو إلى الخلق الكامل ، فان تجرد منها كانت شخصيته ناقصة . والفرق بين السنة الخلقية والشرائع الوطنية أن الأولى ليست أمرية بل يفعلها الانسان طوعا واختيارا ، أما الأخرى فانها أمرية أمر بها النظام الاجتماعي وأوعد من يخالفها بالعقاب ، بخلاف السنة الخلقية التي يتبعها الانسان بمحض إرادته ويعدها الغاية الحسنى ، فاذا تركها نقصت شخصيته وعاقبه ضميره بالتأنيب ، وكفاه ذلك عقابا .

فالواجب في نظر القانون أمر مفروض على الانسان أداؤه دون مناقشة ، وأما الواجب الخلقى فشيء مسوق اليه باختياره تلبية لنداء ضميره : ذلك بأن السنة الخلقية تكمل الشخصية ، والحق مثل كامل يسعى اليه الانسان مادام محتفظا بشخصيته ، فان أساء فهم الحق وهو حسن النية لا ينقصه ذلك شيئا من شخصيته ؛ لأنه لا يلبث أن يتدارك خطأه ، ويصلح ما أفسده . ولو تساوى الناس في العقل والحكمة والفطنة لتلاقوا في نقطة واحدة هي نقطة الحق الواحد المطلق العام الثابت : (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) ولكن فيهم من عرف الحق واتبعه لا لأنه الحق بل لأنه يوافق رغباته ، ومنهم من طلب الحق وأخطأ السبيل ، ومنهم من هداه الله إلى الحق فعرفه ، واتبعه لذاته ، وقليل ما هم .

وبما لا شك فيه أن الشرائع المدنية والقواعد الخلقية متفقة في منع الكذب وخلف الوعد والسرقة ، فاذا تجنبها الانسان خوفا من العقاب فقد أطاع القانون ، ولكنه لا يعد إنسانا كاملا إلا إذا تركها بغضا فيها وحبا في الكمال .

الحقوق والواجبات القومية

إذا استطاع فرد أن يعيش في عزلة عن الناس كانت حقوقه وواجباته على قدر ماتوحى إليه غرائزه ؛ إذ لا شأن له في الحياة الخلقية ؛ لأن الحياة الخلقية تتوقف على الجماعة التي يحتمل أن تحتك الرغبات فيها وتتصادم ، ونواة الجماعة الأسرة وهي تحرص الحرص كله على البقاء والسعادة ، ولا سبيل إليها إلا بالتضافر والتضحية الفردية ، وإذا تناسلت الأسرة نشأ عنها فخذ ثم بطن ثم عمارة ثم قبيلة ثم شعب ، وصار على كل فرد منه حقان : حق لأسرته . وحق لشعبه . ويحتمل أن يصطدم الحقان فيضحى ذو النفس الخلقية بحق أسرته رجاء إسعاد أمته ، كما يضحى حق نفسه في إسعاد أسرته . هذا إذا كانت روابط الشعب متينة ، أما إذا كانت قلوبهم شتى كانت التضحية الكثيرة غبنا عليه وعلى أسرته ؛ فإن مقدار ما بين القوم من المحبة والتكافل يعين ما على الفرد من الواجب ، والأمم تسير في سبيل الرقي بقدر ما بين أفرادها من حسن الرابطة وتتمام التعاون ، والأمة التي يختل فيها هذا التوازن ويكثر فيها الحيف والمحاباة والاعتصاب تتقهقر وتعرض للفناء ، وعلى هذه القاعدة كانت القبائل يغزو بعضها بعضاً ، وتعد القوية ماتهيه من الضعيفة حقاً لها ، وتستبيح دول أوربة الآن استعمار بلاد الشرق وشمال إفريقيا ، وترى الحق الذي تقيمه بين أفرادها وبين جاراتها من الدول - باطلا إزاء الأمم الشرقية ؛ فالحق بينها وبينهم هو القوة

فترى أن الحق والواجب متناسبان مع قوة التضافر بين الأفراد والجماعات ، والحق في الجماعة أو الأمة الواحدة ما يوحى به الضمير ولو كان مستنداً إلى قانون يؤيده ، ولكنه بين أمة وأخرى أو طبقة وطبقة تعينه القوة ؛ وليس هذا حقاً خلقياً ؛ لأن الحق الخلقى هو الحق المطلق المستمد من الضمير السليم البعيد عن التحيز لشخصية أو حزبية أو جنسية ؛ لأن الناس على اختلاف درجاتهم وقوتهم وبلادهم تحميمهم رابطة الانسانية ، فالبسيطة ووطن عام للجميع ،

والعالم كله سائر في سبيل الرقي العلمى والسياسى والخلقى والاقتصادى ، فليس يبعد أن نراهم جميعا ينشدون الحق المطلق ، ويحوظونه بسياج من التكافل وتبادل المنافع ، ولهذا تعقد المعاهدات ، وتسن القوانين الدولية ، فكلما قطعت الأمم خطوة نحو الرقى الانسانى قربت من الحق المطلق ، وانضوت تحت لواء الانسانية العامة .

الموازن الخلقية

مقدمة

مثل أعمال بنى الانسان مثل كتاب ينظر فيه القاضى فيصدر حكمه وفقاً للقانون ، ويطلع عليه المؤرخ فيستخرج منه عبرة وموعظة ، ويدرسه العالم الاجتماعى فيستنبط قاعدة ، ويتأمله المشتغل بعلم الأخلاق فيقضى فيه على حسب موازينه ومقاييسه . ولما كان لكل عمل من الأعمال دواع او بواعث وجب أن نوجز القول فى دواعى الأعمال قبل البدء فى موازينها فنقول :

دواعى الأعمال

لقد نظر الخلقون فى البواعث التى تسوق الانسان إلى اقتراف أعماله فآلفوها محصورة فى ثلاث : الميل الفطرى ، والمنفعة ، والواجب : ذلك بأن الأطفال يأتون أعمالهم مسوقين بجلبتهم وغرائزهم ليس لهم من الارادة والاختيار مابه يعتزمون ويتخيرون ، وهم فى غرائزهم مختلفون : فمنهم من أوتى طبائع هى أصول الفضائل وبذور محاسن الخصال وكريم العادات ، ومنهم من كان نصيبه سيء الجبلات وردى الغرائز ، سواء أكان ما أوتوه من طريق الوراثة قريبها وبعيدها ، أم هى قدرة الخالق الفرد قضت عليهم بها . وهؤلاء إن أتبع لهم قسط من التعليم الصحيح والتهديب الخلقى نجوا من شر طبائعهم ، ودخلوا فى زمرة أهل الفطر السليمة ، فأصبحوا خياراً صالحين . أما المنفعة فهى تلبس الهناء الشخصية وإفراغ الوسع فى نيل المآرب وقضاء

اللبانات مع التعويل على أعمال القريحة والفكر والاستمداد من معين الارادة والعزيمة .

وأما الواجب فهو فعل ما ينبغي سواء أكان فيه رضا للميل والمنفعة أم اغضاب لها ، وهو أشرف الثلاثة وانبلها ، فهو الأمر الزاجر الحجة على القلوب الذى يوجب تقديم الميل مع المنفعة قرباناً له ، لا بل يوجب تقديم الحياة التى لا يغنى عوض منها ، وهو يشمل الواجب الدينى والمدنى والفردى والاجتماعى .

يستخلص مما تقدم أن من يتَقَصَّى أعمال بنى الانسان يجد منها ماداً عيته الميل الفطرى فقط كأفعال الأطفال ومن فى حكمهم مما استحوذ على قلوبهم الهوى وجنوده ، ومنها ماداً عيته الميل والمنفعة كمن يلتمس المال والبنين ، ومنها ماداً عيته محض الواجب على تعدد ضروبه كمن يذود عن بيضة دينه ، أو يدفع عن حوزة قومه ووطنه ، وقد تجتمع الدواعى الثلاثة كالعلماء ينقبون عن حقائق السنن الكونية وما أودعها الله من الفوائد والمنافع لبنى الانسان عامتهم وخاصتهم ، إذ فيها ينقع العالم غلة ميله ، ومنها يستنبط ما يقوم بالقناطير المقتطرة من الذهب والفضة ، وفى إمطة اللثام عنها وإخراجها للعالمين - قيام بالواجب جدير بالذكر ، قين بدائم الثناء .

وقدردها ابن حزم إلى أصل واحد إذ يقول فى كتابه « مداواة النفوس » مانصه : « تطلبت غرضاً يستوى الناس كلهم فى استحسانه وطلبه فلم أجده إلا واحداً وهو طرد الهتم ، فلما تدبرته علمت أن الناس كلهم لم يستووا فى استحسانه فقط ولا فى طلبه فقط ، ولكن رأيته على اختلاف أهوائهم ومطالبهم ومراداتهم لا يتحركون حركة أصلاً إلا فيما يرجون به طرد الهتم ، ولا ينطقون بكلمة أصلاً إلا فيما يعانون به إزاحته عن أنفسهم : فمن مخطئ وجه سبيله ، ومن مقارب للخطأ ، ومن مصيب ، وهو الأقل . فطرد الهتم مذهب قدا تفقت الأمم كلها منذ خلق الله تعالى العالم إلى أن ينتهى عالم الابتداء ويعقبه

عالم البقاء ، على ألا يقصدوا شيئاً سواه ، وكل غرض غيره ففي الناس من لا يستحسنه : اذ فيهم من لا دين له فلا يعمل للآخرة ، وفيهم من أهل الشر من لا يريد الخير ولا الأمن ولا الحق ،

ومن الناس من يؤثر الخمول بهواه وإرادته على بعد الصيت ، ومنهم من لا يبغى المال بل يؤثر عدمه على وجوده ككثير من الأنبياء عليهم السلام ومن تبعهم من الزهاد والفلاسفة ، ومنهم من يبغض اللذات بطبعه ويستقص طالبها كمن ذكرنا من المؤثرين فقد المال على اقتنائه ،

وفي الناس من يؤثر الجهل على العلم كأكثر من نرى من العامة . هذه هي أغراض الناس التي لا غرض لهم سواها ، وليس في العالم مذ كان إلى أن ينتهى أحد يستحسن الهم ولا يريد اطراحه عن نفسه ،

فلما استقر في نفسى هذا العلم الرفيع وانكشف لى هذا السر العجيب وأنار الله لفكرى هذا الكنز العظيم - بحثت عن سبيل موصلة على الحقيقة إلى طرد الهم الذى هو المطلوب النفيس الذى اتفق جميع أنواع الانسان الجاهل منهم والعالم والصالح والطالح على السعى له ، فلم أجدها إلا التوجه إلى الله عز وجل بالعمل للآخرة ، وإلا فأنما طلب المال طلابه ليطردوا به

هم الفقر عن أنفسهم ، وإنما طلب الصوت من طلبه ليطرد به عن نفسه هم الاستيلاء عليها ، وإنما طلب اللذات من طلبها ليطرد بها عن نفسه هم قوتها ، وإنما طلب العلم من طلبه ليطرد به عن نفسه هم الجهل ، وإنما هش

إلى سماع الأخبار ومحادثة الناس من يطلب ذلك ليطرد بها عن نفسه هم التوحد ومغيب أحوال العالم عنه ، وإنما أكل من أكل وشرب من شرب ولبس من لبس ولعب من لعب وكنز من كنز وركب من ركب ليطردوا عن أنفسهم أضداد هذه الفعال وسائر الهموم .

وكل ما ذكرنا لمن تدبره هموم حادثة لا بد لها من عوارض تعرض في خلالها من فقد وضباع ومنافسة منافس ومناوأة عدو وحاسد ، أما العمل

للآخرة فقد وجدته سالما من كل عيب خالصا من كل كدر موصلا إلى طرد الهمة على الحقيقة ، ووجدت العامل للآخرة إن امتحن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم بل يسر ؛ إذ رجاؤه في عاقبة ما ينال به عون على ما يطلب . وزائد في الغرض الذي يقصد ، ووجدته إن عاقه عما هو بسبيله عائق لم يهتم ؛ إذ ليس مؤاخذاً بذلك فهو غير مؤثر فيما يطلب . ورأيته إن قصد بالأذى سر ، وإن نكبه نكبة فرح ، وإن تعب فيما سلك فيه سر ، فهو في سرور متصل أبدا ، وغيره بخلاف ذلك . فاعلم أنه مطلوب واحد وهو طرد الهمة . وليس له إلا طريق واحد وهو العمل لله تعالى ، وما عدا هذا فضلال وسخف ثم أردف ذلك بقوله :

لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها . وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل في دعاء إلى حق ، وفي حماية الحريم ، وفي دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى ، وفي نصر مظلوم . وباذل نفسه في غرض الدنيا كبائع الياقوت بالحصى ، ولا مروءة لمن لا دين له ، والعاقل لا يرى لنفسه ثمنا إلا الجنة .

الموازن الخلقية

إن لكل شيء ميزانا يوزن به ، ويقدر على حسبه . فلا سبيل للأحاطة بمجمله وتفصيله ومحاسنه ومثالبه ، ودفع الشك واللبس في جوهره وعرضه إلا إذا عرف ميزانه ومقياسه ، فما مقياس الأعمال خيرا وشرها ، وما مرجعها الذي تُرد إليه ؟ لقد اختلف الفلاسفة الخلقون قديما وحديثا فرقا شتى في إجابة هذا السؤال ، فأدلى كل برأيه ، ودعم حجته وبرهانه ، وها نحن أولاء نبسط مذاهبهم فنقول :

الميزان الأول

العرف

قال قوم : إنه العرف ، وحجتهم أن الإنسان لا يزال ينظر إلى عادات قومه ومواضعاتهم نظرة إكبار وإجلال يستمد منها آراءه وينسج منها أحكامه ،

وليس شيء أحب إليه مما وافق مألوفهم ومواضعاتهم ، فالخير ما وافقها والشر ما خالفها ، ومن جرى عليها فهو المحمود الجدير بالثناء ، ومن خالفها فهو الذميم المستحق للقت والبغضاء .

وقد بلغ من مكانة العرف أن فقهاء الحنفية اتخذوه قاعدة شرعية بنوا عليها كثيرا من الأحكام ، بيد أن التاريخ شاهد عدل على أن اتخاذ العرف معيارا للحسن والقيح وميزانا للخير والشر خطأ عظيم : ألم تعلم أن العرب كانوا لا يرون غضاظة في وأد بناتهم والتزويج بمحارمهم جريا على عرفهم ؟ فلما جاء القرآن ونبههم على سوء فعلهم وقيح صنيعهم كفوا عن عاداتهم وأدركوا مبلغ خطئهم . وكان الرومان يقرون مالآباء على الأبناء من الحق في قتلهم ، وظل العالم كله لا يجد عيبا في الاتجار بالرقيق ، وتنزله منزلة السلع ، حتى جاء الاسلام . وكانت هذه العادة قد رسخت في نفوس البشر ، فحضر على هجرها واجتنابها بشتى الطرق ومختلف الوسائل . ومن الأمور التي أقرها العرف عند العرب في جاهليتهم وغيرهم من الأمم البدوية أنه كان يحق لكل من أقارب القتل أن يأخذ بالثأر من الجاني ، فان هرب وخفى مكانه جاز لولى القتل عرفا أن يقتل أيا كان من أقارب الجاني قتلة كقتلة القتل .

ومما لا شك فيه أن العرف مختلف لاختلاف الأمم ، ولمساوقة الفواعل التي نشأت عنهارجوه الاختلاف في الخلق والخلق : ألم يأتك نبأ بعض القبائل التي لا تزال على حالها الفطرية كأهل « برنو (١) » ، زين لهم العرف أن أحدا لا يستحق أن يخطب فتاة حتى يلقي عند قدميها هامة إنسان ، فان عجز عن ذلك عد في حكم العرف ندلا مهينا جبانا عند أبناء عشيرته غير كفء لخطبه . هذا القتل يعتده أولئك المتوحشون نبالة وإقداما يوجب القصاص عند أهل الشرائع السماوية والوضعية . وما يقره عرف « الزولو (٢) » أن الجندي لا يستطيع الزواج إلا إذا شهد معركة وانتصر

(١) هم قبائل الى الغرب من بحيرة شاد بأفريقية

(٢) سكان بلاد جنوبى إفريقيا وهم قسمان : قسم فى « ناتال » وآخر

فيها ، وأغرب من ذلك أنهم يزوجون قسرا وإلزاما الفرقة برمتها من الجنود بينات الفرقة الأخرى ، ومن حاول مخالفة الأمر من الجنسين قتل على الفور . وما تواضع عليه الأستراليون الأصليون أن من كانت له ابنة وبلغت الرابعة عشرة من عمرها عرضها على أحد الرجال للزواج ، ومتى تم الاتفاق على تزويجها أسلمها أبوها إلى الزوج دون أن تراه أو تعرفه ، فإذا أبت أخذها بالتويخ ثم الزجر ثم الضرب حتى تخضع ، وعند ذلك يجرها من شعرها إلى بيتها الجديد .

ومن عرفهم أنهم يطعمون الغلام من لحم أخيه القتل لتجتمع له القوتان في جثمانه ، ومن عرف « التمنيين » وهم من أهل « سيراليوة (١) » أنهم إذا أرادوا انتخاب ملك عليهم ضربوه ضربا مبرحا ليمتحنوا صبره وجلده ، وكثيرا ما يموت من شدة الضرب .

ولقد درج أهل « سنغميا » على ألا يعتدوا الغلام في مصاف الرجال حتى يظهر براعة ومهارة في غزوة أو لصوصية . وما يقره « الميلاتيز (٢) » أنه إذا مات أحد رؤسائهم قتلوا واحدة أو أكثر من نساؤه أو واحد آمن أقاربه أو أصدقائه زعما منهم أن ذلك مضى في خدمته إلى عالم الآخرة ، وقد تطلب نساء الميت القتل طوعا واختيارا خشية أن يعشن ذليلات بعد وفاته . وما ارتضاه « الفيلوب (٣) » أنهم إذا اتهموا رجلا بسرقة أتوه بقضيب

في مستعمرة الكاب ويعرفون جميعا باسم « الكفار » وهي تسمية عربية أطلقها عليهم المسلمون من سكان إفريقية ، وهؤلاء الكفار أشد أمم « البنسو » بطشا وأكثرهم إقداما على الحروب .

(١) كلمة برتغالية معناها (جبل السباع) وهي مستعمرة إنجليزية في السودان الغربي رديئة الجو . (٢) قوم يقيمون وراء « غانة الجديدة » في جزائر سمارك المشتملة على جزائر بريطانيا « الجديدة » « وإرلندة الجديدة »

(٣) هم سكان مستعمرات إنكلترا والبرتغال على ضفتي نهر (غمبيا) في غربي

إفريقية

من الحديد محمى إلى درجة عظيمة ، فأدنوه من لسانه ، فاذا احترق ثبتت عليه جنايته ، واذا اتهموا ساحرا من سحرتهم أو عرافا من عرافهم حاكموه إلى كأس السم ، فيتحساها ، فاذا مات اتخذوا موته دليلا على ثبوت الجناية عليه ، وقد حل به جزاؤه .

ومما كان يستحسنه « البتو (١) » المتوسطون أنهم إذا أرادوا أن يقربوا قربانا شدوا إنسانا إلى شجرة ، فاذا اقتصره وحش بالليل دل ذلك على قبول قربانهم ، وإلا أوثقوا يديه ورجليه بحبل ، وربطوا حجرا إلى عنقه ، ثم ألقيوه في البحيرة ؛ ليغرق أو ليلتقمه التمساح .

ومما لا يزال عمله « البتو (٢) » الغريون أنهم يحتفلون كل سنة بالصلب ، فيأتون برجل يعدونه للصلب ، ثم يقدم « البادونقا (٣) » متضيا سيفاً طويلا ؛ فيأمر بصلب المحكوم عليه في جذع شجرة ، ثم تدق المسامير في كفيه وقدميه ، ويسام سوء العذاب .

ومما جرى عليه عرف « البتّا » أنهم إذا نشبت حرب بينهم وبين عدو لهم حفروا حفرة ، فوضعوا فيها غلاماً ، ثم هالوا عليه التراب إلى عنقه ثم أطعموه مزيجا من « الزنجبيل » « والفلفل » « والملح » حتى إذا أشرف على الموت عطشاً سقوه قليلا من الماء ، ولا يمكنونه من الارتواء حتى يقسم لهم أنهم منتصرون على عدوهم ، فاذا أقسم صبوا في حلقه رصاصا ذائبا ، فيموت على الفور وهو على قسمه .

هذه هي أمثال ضربناها ؛ لنبين أن العرف لا يصلح أن يكون ميزانا خلقيا .

(١) هم الذين يستوطنون الجهة الشمالية من بلاد « الكنفو الحرة »

(٢) هم قوم كانت لهم دولة قوية إلى الجنوب من نهر « الكنفو » قبل مجيء

البرتغاليين سنة ١٤٩١ ثم اعتنقوا النصرانية زمنا قصيرا

(٣) هو كاهن متنكر يلبس وجهها مستعارا ويتشع برداء مصنوع من ورق الموز

أو غيره من الشجر .

الميزان الثاني

الفطرة

يرى القائلون بهذا المذهب أن في النفس البشرية قوة غريزية ملهمة حقائق الأمور هي الفيصل الذي ترد إليه الأعمال : فيها تفرق بين الخير والشر ، وتميز بين الحق والباطل كما تميز الباصرة السليمة بين الأحمر والأصفر مثلاً . ويستدلون على صحة رأيهم هذا بأن جل بني الإنسان على اختلاف العصور قد أجمعوا كلمتهم على أمور لا يزالون مجمعين عليها : فقالوا مثلاً إن الصدق محمداً ، والشجاعة مكرمة ، والاحسان جميل ، والكذب مذموم ، والجبن ممقوت ، والشح قبيح .

ولامرية في أنهم فرقوا بين هذه الرذائل وتلك الفضائل بعين البداهة ومحض الإلهام كما أدركت أبصارهم جمال الأمور المحسة وقبحها . وبنوا على مذهبهم هذا أن الخير أو الشر ما ترشد إليه الفطرة لا ما جلب لذة وهناءة ، أو جر إلى ألم ومساءة ، وأن الصدق صدق في ذاته وإن أفضى إلى مغبة وخيمة ، والكذب كذب في ذاته وإن أعقب اغتباطاً وعاقبة هنيئة . من أجل ذلك يرون أن الأقوال والأحوال ، لا ، بل الأفعال الخلقية جميعها — وسائل لا مقاصد ، وأن الفضيلة فضيلة على اختلاف الحال والمكان والزمان لا ترتبط بغاية من الغايات وما رب من المآرب ، وأنها بداهية غنية عن الدليل والحجة ، وأنها لا تنقلب إلى ضدها وإن تبدلت الأحوال وتعاقبت غير الليالي والأيام . يرى أهل هذا المذهب أن هذه «الفطرة» تدرك دون خبرة وتعلم وأن هناك قواعد للسلوك الخلقى واضحة بينة لا لبس بين خطئها وصوابها خيرها وشرها ، وأنها رأس الفضيلة الخلقية ، يد أنهم لا يزالون مختلفين في حقيقة هذا الذي تدركه الفطرة بما أوتيته من وحيها وتلقينها : أهو سداد الفعل ، أم سداد المبدأ الخلقى ؟ ففريق يرى أن الموهبة الجبلية التي فطر الله الناس عليها تمكنهم من التفرقة بين الحق والباطل والخير والشر في الأفعال الجزئية كما يسر لهم أن يعرفوا لأول نظرة لون المنظور إليه أحمر أو أخضر مالم تكن على أبصارهم

غشاة ، وفريق يرى أن الذى يدركه الانسان بداهة هو صدق مبادئه كلية ،
عم التسليم بها بين بني الانسان فى مشارق الارض ومغاربها ، وأن الحكم على
الأفعال الجزئية بأنها خطأ أو صواب إنما جاء من تطبيق هذه المبادئ : فإذا
علمنا علما صحيحا أن عليا مثلا استحوذ على مال محمد غصبا أو احتيالا -
قضينا باستهجان عمله واستحقاقه للقتل عملا بمبدأ معلوم بالفطرة : وهو أن
الاغتصاب والاحتيال من أعمال الباطل ؛ وعلى ذلك فايقاع الحكم الخلقى يتم
بحركة عقلية قوامها إدخال عمل بعينه فى قاعدة أوحى بها الفطرة التى وهبها
الله لجميع طبقات الأناسى ، كما وهب لهم المشاعر

قدم هذا المذهب

إن الذى يستقرئ تاريخ الفلسفة وما حوته من شتى المذاهب يرى أن
القول بتلقين الفطرة ليس أمرا محدثا ، بل قال به « زينون » الفيلسوف
اليونانى : فقد كان مما يدعو إليه رياضة النفس وامتحانها بحرمانها مشتياتها
وتطهيرها من أرجاس الشهوة وأدناسها ، إذ تمكين النفس منها يفضى إلى بطر
يطغى ، وأشر يردى ، ويحول بينها وبين العمل بما علمته تلقينا وإلهاما ، فإذا
أعطيت المراد من شهوات وقتها تعدتها إلى شهوات قد استحدثتها . وقد تقبله
أتباعه ، فأخذوا يثبون فى نفوس الناس ما استنبطوه من أقوال أستاذهم
وسيرته : من الحرص على استبقاء النفس الطاهرة مجردة من شوائب الشهوات
ليتم لها القيام بما أودعته بالفطرة ، وأن اللذة ليست غرضا من أغراض الانسان
وليست من الخير فى شيء ، بل أنبل الأغراض وأحجاها هو تلبس الفضيلة
والحرص عليها ، وإن أفضى ذلك إلى ركوب متن الأهوال واقتحام المخاطر
واحتمال الأذى فى النفس والمال والولد .

أخذوا ينشرون فى أرجاء بلادهم أنه يجدر بالانسان الذى منحه الله
العقل والحكمة ألا يجعل همه تحصيل الغنى وجلب اللذات ، وأنه حرى به
ألا يجعل له هما سوى أن يكون متحليا بمكارم الأخلاق رافعا لواء عزة

النفس في أى بيئة كان ، لا يحفل بما يعامله به الناس من تبجيل أو تحقير موقنا أنه جار على سنن الفضيلة . ولقد ضربوا للحياة مثلا ، فقالوا : مثل الناس في هذه الحياة الدنيا كمثل قوم يمثلون رواية على المسرح : فمنهم من عمله تمثيل الحاكم ، ومنهم من عمله تمثيل النديم أو الشحاذا أو المحتال ، فلا اعتداد بالكسب والأردية التي تميز بينهم ، فلا نظرى الحاكم لبريق تاجه وبهاء ملبسه ، ونذم الشحاذا لثأثة ثيابه وبشاعة منظره ، وإنما نحمد منهم من يحسن نصيبه من التمثيل ، ويتقنه الاتقان المروم .

كذلك الناس في هذه الحياة الدنيا : لانحمدهم لحسن منظريهم وبهاء ظاهريهم ، بل لطهارة مخبرهم ونقاوة سرائريهم ، وحسن أقوالهم وأحوالهم ، والاضطلاع والوفاء بما أوتمنوا عليه .

نقد القول بالفطرة

حقا إن هذه الفطرة التي قصدها أهل هذا المذهب تفرق بين الخير والشر وتميز الحق من الباطل والخبيث من الطيب ، لأنها الجبل القابلة للحق ، إلا أنها قد تعرض لها مما يحوطها ما يعطلها قليلا أو كثيرا ، ويصرفها عن السداد في حكمها ، ويغشى قابليتها ، وحينئذ يرى الانسان الخير شرا والحسن قبيحا ، فلا يصح إذن أن تكون هذه الفطرة مقياسا خلقيا يركن إليه ، ولا رائدا يُعوّل عليه ، ويجمع ذلك كله قول الرسول الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

« كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » وهو جلي في أن الفطرة في مبدئها صافية في ذاتها لا يَطْبَعُهَا إلا ما يطف بها .

الميزان الثالث

القول باللذة

تمهيد

(أ) حقيقة اللذة

اللذة شعور جسدى أو عقلى بما أحدثه الفعل من إرضاء الشهوة سواء أ كانت جسدية ، أم عقلية : فالشبع لذة لأنه سد الجوع ، والصدق لذة لأنه أرضى الضمير ، والفوز لذة لأنه أرضى الطمع بالشهوة أو رد بغيا أو صان عرضا أو حفظ وطنًا ، والرجح لذة لأنه أرضى شهوة الطمع فى المال .

(ب) اللذة والألم

وحال الانسان لا تخلو من أمرين : لذة أو ألم : فاذا جاع أحس ألم الجوع ، وإذا شبع أحس لذة الشبع ، وحل السرور محل الألم . فالفعل ينقله من حال الألم الى حال اللذة ، أو يقربه منها ، والغريزة التى هى مصدر الأخلاق هى التى تحركه إلى الفعل الذى ينجو به من الألم .

(ج) ضروب اللذة

للذة ضروب ثلاثة : -

الأول - اللذة التى نستمدّها من فعل مضى ،

الثانى - اللذة التى ننتظر أن تنشأ عن فعل معين فى المستقبل ،

الثالث - اللذة التى نشعر بها فى الزمن الحاضر لأمر سيقع فى المستقبل .

فاللذة الأولى حدث مع حدوث الغاية ، والثانية لم تحدث بعد وإنما ننتظر حدوثها ، والثالثة نشعر بها فى الحال .

وهنا تتساءل : هل يختلف الشعور نفسه حين حدوث اللذة عن الشعور بها حين تصورها واقعة ؟

الجواب أنهما يختلفان من حيث الشدة ، وفي كثير من الأحوال تكون اللذة بتوقع حدوثها أشدّ منها حين حدوثها ، وفي غالب الأحيان تنتهي اللذة حين تُبلَّغ الغاية .

وبما تقدم يتبين أن الغاية ليست اللذة بعينها لحدوث اللذة قبل حدوث الغاية ، وفي هذا خفاء على الذين ألفوا اللذة متفقة مع الغاية ، ولو فطنوا إلى أن كثيرا من الأفعال تفعلها قبل أن نخبر غايتها لنعلم مبلغ ما فيها من المسرة أولا - لاقتنعوا بأن الغاية شيء واللذة شيء آخر ؛ ذلك بأن الغاية دفعت إليها الغريزة لحاجة الجسد أو النفس إليها ، فالطفل لم يرضع ثدي أمه لأول مرة قصد لذة الشبع ، وإنما الغريزة دفعته إلى رضاعة الثدي ؛ لأن وظيفتها دفعه للفعل في سبيل حياته وبقائه . والطفل يبكي لا لأنه جائع متألم من الجوع ، فقد يكون شبعان ثم يبكي ؛ لأن الغريزة تدفعه للبكاء لكي يحرك حنو أمه لارضاعه .

ولما وجد الانسان من طريق الاختبار أن الاندفاع في العمل بعامل الغريزة يمنحه لذة - أصبح يندفع هذا الاندفاع توخيا للذة ولكن الغريزة لم يكن قصدها اللذة ، وإنما النفع الحيوي من نموه وبقاء حياته واستمرار نوعه ، بيد أن الطبيعة قرنت هذه الغاية بلذة ؛ لتغريه بالاندفاع في الفعل . فالغاية القصوى من الفعل ليست اللذة ، وإنما جاءت اللذة معها ومع الفعل دليلا على أن ما يندفع إلى فعله إنما هو حسن له وصالح لبقائه . وكفيل بحياته ونجاحه : فاللذة حركة مرتبطة بعلم النفس ، والغرض حركة مرتبطة بعلم وظائف الأعضاء .

وبما تقدم يتبين وجاهة القول بأن الغاية تختلف عن اللذة . بيد أن هناك من يقول : بأن الغاية القصوى هي اللذة بعينها . وحجتهم في ذلك أن الانسان إذا لم يتوقع لذة من فعل ما لا يندفع إليه ، وإذا كانت الطبيعة قد جعلت اللذة تغري الانسان فتدفعه إلى الفعل ؛ لأن غرضها حفظ الحياة وبقاء النوع - فالانسان لا يحفل بتنفيذ غرض الطبيعة بل يتركها تفعل فعلها ، وهو جاهد نفسه في تحصيل لذته لا يبغي سواها فهي غايته القصوى .

لهذا القول نصيب من السداد ، لأن الانسان يسعى لادخار المال لا لانه في حاجة إليه ، بل يستلذ التنعم به ، وقد يكون تنعمه مفضيا إلى عكس الغرض الذى تقصد إليه الطبيعة . فقد يمرض ويموت عاجلا ، وتصبح الثروة التى أمكنته من الترف والرفاهية سببا فى سوء العاقبة له ، وقد يعلم حق العلم أن كثيرين غيره ممن انغمسوا فى الشهوات ساءت حالهم ، وقصمت المنية ظهورهم ، ولا يعتبر بهم ، بل هو يريد الحياة - كما يقولون - عريضة قصيرة ؛ لأنه يبتغى اللذة لنفسها ، لا للبقاء والحرص على الحياة .

وكذلك فاعل الخير وخدام الانسانية لا يبتغى من وراء فعله خير لنفسه ، بل يقصد استمتاع الضمير واعتباطه بالخير نفسه .

وكذلك المتفنن يقضى زهرة حياته فى الفن الجميل كالشعر أو الموسيقى ، وهو يعلم أنه معوز محروم التمتع بما فى الحياة من ضروب المسرات ، وأن الفن لا يغنيه ، ولكنه يعكف على فنه للذة فيه : فاللذة هى الغاية القصوى من الفعل الذى يرمى إليه ، ولا غاية له سواها

ويعلل أصحاب القول بأن الغاية واللذة شئ واحد الامثلة المتقدمة ونظائرها بأن غرض الحرص على الحياة كامن فى الفعل ، قائلين إن الانسان مهما توخى اللذة لا يغفل عن الحرص على حياته وبقائها بوصفها غاية قصوى ؛ بدليل أن المنغمس فى شهواته تمتعا باللذات متى ساءت عاقبة انغمسه وشعر أنه أخطأ - أدرك أن اللذة ليست الغرض الأول ، بل الحياة واستمرارها هما الغرض الاسمى ، وما اللذة إلا أمر صاحب الفعل ، فان كان قد اختار فعلا غير سديد فلأن التعقل خانته ، والاختيار من وظيفة التعقل .

وصفوة القول أننا إذا نظرنا إلى الأفعال فى ذاتها ، وإلى المحركات إلى فعلها - كانت اللذة غاية الغايات التى يرمى إليها الانسان فى أفعاله على الاطلاق ، وإذا نظرنا إلى الأفعال من حيث ما فيها من حسن أو قبح ، وصواب أو خطأ - كانت الغاية شيئا واللذة شيئا آخر ؛ أما الغاية فالحرص على الحياة

وأما اللذة فهي المغرية بالفعل المحسنة له الدالة عليه، وقد تكون دلائلها مضللة، ولهذا فالمعول عليه هو التعقل، لأنه هو الحكم الذي يرجع إليه في الحكم. ومن ذلك يتجلى الفرق بين المذهبين وهو أن القائلين: بأن اللذة هي الغاية القصوى لا يلاحظون الوجه الخلقية في تقريرهم أن اللذة والغاية شيء واحد، وأن القائلين: باختلاف اللذة عن الغاية يلاحظونها مستدلين بأن الإنسان ليس حيواناً مُسَيَّرًا بالغريزة وحدها، بل له تعقل ذو سلطان على غريزته، فلا يعمل عملاً إلا إذا ضرب التعقل فيه بسهم

ولا أدل على ذلك من أنه يفكر أحياناً، ويتروى في المفاضلة بين اللذة والحرص على حياته، وهو في ذلك إنسان خلق لحيوان غرضي

(هـ) - تعاقب اللذة والألم

لكل نوع من العمل وجهان: سار ومؤلم، فيقال: هذا أحسن من ذاك؛ لأن لذته تزيد على ألمه، وكذلك العكس.

ولامرية في أن الحكم بأن أحد الوجهين أكثر لذة يستدعي تبصرة في مقتضيات العمل وعواقبه الخلقية؛ فالمرء الذي ينغمس في الملاحى الجسدية يجد فيها لذة، ثم يجد فيها ألماً في عواقب انغماسه من مرض وخسران مال وسوء سمعة، فإذا تبصر في عمله ووازن بين ماضيه من لذة وألم - فربما ألغى الألم يفوق اللذة، فيدرك أنه سيء السلوك، فيعدل عنه، وكذلك الغاشم يجد لذة في غشه، إذ ينعم بمال لم يتعب فيه، ولكنه يجد ألماً لفقد الثقة فوق ما يشعر به من توبيخ الضمير لاختلاسه حق غيره. فإذا فاضل بين سروره وألمه شعر أن عمله كان سيئاً: ومن ذلك قالوا: إن السلوك السيء لا يخلو من لذة، بل هو ما أفضى إلى أقل لذة، وإن أعظم الأعمال لذة ومسرة لا يخلو من ألم: ألا ترى أن تحصيل العلوم قد يكون أعظم لذة عند الباحث وهو لا يشعر بما يلقاه من الآلام حال شعوره بلذة البحث، فقد يُضعف صحته، أو يشغله عن اكتساب رزقه فيعيش مقتراً عليه.

(و) - تفاوت اللذات

اقترب علماء الأخلاق في تفاوت اللذات فرقتين :
فرقة تقول : إنها تختلف كما وكيفاً ، وفرقة ترى أنها تختلف كما لاغير .
أما الفرقة الأولى فتقول : إن اللذات تختلف كيفاً باختلاف موضوعاتها :
فلذة العالم تخالف لذة الغنى ، ولذة المتفنن غير لذة الاقصادى ، وهلم
جراً

وأما الفرقة الأخرى فتقول : إن اختلاف اللذات باختلاف موضوعاتها
يرد كفياتها إلى كميات ، إذ من المسلم به أن نقرر أن لذة الشاعر بشعره قد
تكون أعظم من لذة كاسب المال بكسبه ، وإذا أردنا أن نضع قاعدة
لنوعية اللذات كما أو كيفاً فلا تتحقق هذه القاعدة إلا في قيمة اللذات وما
يستحقه السلوك منها ، وفي هذا رجوع إلى الكمية ، لأننا لانحكم على مقدار
لذة ما إلا بعد معاودتها ، فيقال حينئذ : هذه اللذات أعظم قيمة من تلك .
ولا فرق في اختلاف كفياتها ، إذ لامعول على الكيفية في الشعور بالسرور
فاللذات تختلف باختلاف الشعور بها ، والشعور قد يكون كثيراً ، وقد
يكون قليلاً .

وهنا يجب أن نقول : إذا كانت قيمة اللذة تتوقف على الشعور بها ،
والشعور خاص بالذاتية الشخصية ، والذاتية الشخصية تتغير أجوالها حيناً
بعد آخر ، فما تشعر به الآن لذة عظيمة لا تشعر به وقتاً آخر كذلك - إذا
كانت قيمة اللذة كما وصفنا - فكيف يمكن وزن اللذات ليعلم أيها أعظم
وأيها أصغر ؟

قال بعض العلماء : ميزان اللذات أنك تزن شعورك باللذة الحاضرة بشعورك
بلذة أخرى سابقة عليها .

وليس لهذا الميزان كبير قيمة ، لأن ذاتية الشخص (كما قدمنا) تتغير حالها
حيناً بعد آخر ، فلا تصلح أن تكون ميزاناً يركن إليه .

وقال العلامة « بنّام » : ميزانها واحد من سبعة : شدتها ، وطول مدتها ، وقربها ، والثبت من وقوعها ، وقلة ما يصحبها من الآلام ، والغاية الخلقية التي تفضي إليها ، واتساع نطاقها .

(ز) - ضروب اللذة في رأى علماء النفس

لعلماء النفس في اللذة مذهبان :

١ - اللذة الغريزية التي يسعى إليها الانسان بفطرته .

٢ - اللذة الكسبية التي تنشأ عن الأعمال الخلقية ، وهي نوعان :

- ١ - لذة يسعى الانسان لطلبها إرضاء لنفسه فقط ، وهي لذة الآثرة المخالفة لتعاليم الاجتماع سواء أصحبتها لذة لغيره أم لم تصحبها .
- ب - لذة عامة وهي مانطلبها إرضاء لأكثر عدد ممكن من الناس لأن في هذا سرورنا ، وما ابتغاء السرور للناس إلا وسيلة لسرورنا المشتق من سرورهم ، وهذا النوع من اللذة يقدر بأمرين : حدته ومدته ؛ فبعضه يزيد عن الآخر بمقدار تحريكه للشعور ، أو بدوام أثره .

ملاحظة :-

نظر بعضهم إلى ما يعانيه الانسان من الآلام في الحصول على المسرات الخلقية ، وقدرها حساباً معتبراً الآلام سلباً والسرور إيجاباً ، ويطرح السالب من الموجب يكون الباقي هو مقدار السرور .

(ج) - رأى علماء الاخلاق من المسلمين في اللذة وأصنافها ومراتبها

قال الغزالي في كتابه إحياء العلوم (ج ٤ ص ٢٥٢) ما ملخصه : ركب الانسان من قوى وغرائز ، لكل منها لذة هي تحصيلها ما يلائم طبيعتها الذي فطرت عليه ؛ لأن هذه الغرائز لم تتركب في الانسان عبثاً ، بل لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع : فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام فلا جرم أن لذاتها في الغلبة والانتقام ، ولذة السمع والبصر والشم في الابصار

والاستماع والشم ، وهناك غريزة تسمى « النور الالهي » ، وقد تسمى « البصيرة الباطنة » والعقل أيضاً لا بالمعنى الذى به تدرك طرق المجادلة والمناظرة ، بل بمعنى أنها هى التى تُعَلِّمُ بها حقائق الأمور كلها ، ومن أجل ذلك كان مقتضى طبعها المعرفة وهى لذتها ، وليس يخفى أن فى العلم والمعرفة لذة حتى أن الذى ينسب إلى العلم والمعرفة ولو فى شيء خسيس يفرح به ، والذى ينسب إلى الجهل ولو فى شيء حقير يغم به . ومنشأ ذلك فرط لذة العلم وما يستشعره صاحبه من كمال ذاته به ، ولذة العلم تتفاوت بقدر شرف العلم ، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم : ألم تر إلى أن العلم يواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تديره فى رياسته الذواشهى للنفس من العلم يواطن فلاح أوحائك . من أجل ذلك كان الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الأسرار الالهية المحيطة بكل الموجودات - هو أعلى أنواع المعارف وألذها ، وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها .

وصفة القول أن اللذة القصوى عند فريق كبير من أهل الحقيقة هى لذة العلم والمعرفة بالكون وتديره ، فهى المعيار الصادق الذى توزن به الأعمال وتقدر ، وما عداها فلذات لا تصلح أن تكون معياراً ، لأنها إما مختلفة بالنوع كخالف لذة الأكل للذة السماع ولذة المعرفة للذة الرياسة ، أو مختلفة بالضعف والقوة كمن كان جائعاً ثم أحضر له الأكل وكان يلعب « بالشطرنج » ، فاستمر على لعبه وأعرض عن الأكل ، لأن لذة الغلبة فى الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل على جوعه .

وفريق منهم وهم « أهل الفناء » يرون أن اللذة القصوى هى لذة مطالعة جمال الربوبية : فقرة عينهم وصله ولقاؤه ، ومن بلغ منهم هذا المرتبة انمحقت همومه وشهواته ، وصار القلب مستغرقاً بربه ، فلو ألقى فى النار لم يشعر بها لاستغراقه ، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التى ليس فوقها غاية .

رأى ابن حزم فى صنوف اللذة

وقال ابن حزم فى صنوف اللذة ما يلى : «لذة العاقل بتمييزه ، ولذة العالم بعلمه ، ولذة الحكيم بحكمته ، ولذة المجتهد لله عز وجل باجتهاده - أعظم من لذة الآكل بأكله ، والشارب بشربه ، والكاسب بكسبه ، واللاعب بلعبه ، والأمر بأمره . وبرهان ذلك أن الحكيم والعاقل والعالم والعامل واجدون لسائر اللذات التى سميناها أولا كما يجدها المنهمك فى اللذات الأخرى ويحسونها كما يحسها المقبل عليها »

اللذة البدنية بوصفها ميزانا

يرى أهل هذا المذهب أن الانسان لا يستطيع أن يحزم بشئ سوى ما يصيب بدنه من اللذة والألم ، فاللذة هى الخير ، والألم هو الشر ، وهما معيار الأعمال ومناط الأحكام ، وإذ أنه لا يدرك شيئا مما يكنه له الغيب - وهو يعلم الحاضر علما محسا لا مرية فيه - فالحكمة كل الحكمة أن يهتبل فرصة اللذات قبل فواتها ، وينتهب المسرات قبل انقطاعها ولا مرشد إليها سوى ماركب فيه من الطبائع والغرائز ، فهى الرائد الذى لا يكذب أهله ، والمرشد الصادق إلى ما فيه اللذة والهناء فى هذه الحياة الدنيا .

فرق أهل هذا المذهب

إن الذى يستقرى آراء أهل هذا المذهب يرى أنهم ينحدرون فى فرقتين : « الفرقة الأولى أولوا الأثره » ، ورأيهم أن الانسان فطر على حب نفسه وجلب الخير لها ودفع الشر عنها جهد المستطاع ولو أدى إلى ضرر الغير ، وأنه حرى بالقواعد الخلقية أن تمشى مع الفطرة وتساوقها فلا تقف فى سبيلها حجر عثرة ، فتحول دون بلوغ آمالها وتطلعها إلى أمانها . من أجل ذلك كان الخير كل الخير هو أن تبلغ النفس مسراتها ولذاتها وتترك مآربها

وتقضى لباناتها ، والشر كل الشر ألا تنال ذلك . والقول بهذا المذهب قديم فقد جاء في كتاب « كيلة ودمنة » إذ يقول « دمنة » لبعض الجند دفاعا عن نفسه : ويلك ! وهل عليّ في التماس العذر لنفسي عيب !! وهل أحد أقرب إلى الانسان من نفسه وإذا لم يلتمس العذر لنفسه فمن يلتمسه !! وإذ يقول مخاطبا القاضي : وأتم إذ ظنتم أني مجرم فيما فعلت فاني أعلم بنفسي منكم ، وعلى نفسي يقين لاشك فيه ، وعليكم بي غاية الشك ، وإنما قبح أمرى عندكم أني سعت بغيري ، فما عذري عندكم إذا سعت بنفسي كاذبا عليها ، فأسلمتها إلى القتل والعطب على معرفة مني ببراءة نفسي وسلامتي مما قرفت به ونفسي أعظم الأنفس على حرمة وأوجبها حقا !! فلو فعلت هذا بأقصاصكم وأدناكم ما وسعني في ديني ، ولا حسن بي في مروءتي ، ولا حق لي أن أفعله ، فكيف أفعله بنفسي !!

وكذلك ظهرت دلائله في فلسفة « أرسطيب (١) » القورينائي و « جورجياس (٢) » و « كالكليس » من فلاسفة اليونان : فكان « أرسطيب » وأتباعه من بعده يقولون : إن أسمى اللذات هي إرضاء الشهوة ، وإمتاع النفس ، وانتهاج المسرات ، واغتنام نومة الدهر ، وقد ظهر أثره أيضا في الشعر العربي فمن ذلك قول « أبي العتاهية :

(١) أرسطيب : فيلسوف يوناني ولد في (قورنية) (مدينة من برقة في شمالي إفريقيا) نحو سنة ٤٠٠ ق م ورحل إلى أثينا فالتقى العلم عن سقراط ، وهو أول من قرر أن المذهب الاسمي من الحياة هو تحصيل اللذة وطرده الالم ، وأن الفضائل إنما سميت فضائل لما فيها من اللذة .

(٢) جورجياس :

فيلسوف يوناني عاش من ٤٨٥ - ٣٨ ق م ، وهو أحد أقطاب الطائفة السفسطائية وكان يرى أنه ليس بشيء موجود ، وإن وجد فلا يمكن معرفته ، وإن وجد وأمكنك معرفته فلا يمكن تعريفه الغير .

كم من مؤخر لذة قد أمكنت لغد وليس غد له بموات
حتى إذا فاتت وفات طلابها ذهبت عليها نفسه حسرات
تأتي المكاره حين تأتي جملة وأرى السرور يجيء في الفلوات
ثم ظهر أيضا في آراء بعض فلاسفة القرون السابع عشر والثامن عشر
والتاسع عشر مثل «هوبز (١)» و«هلباخ (٢)» و«هلفيتوس (٣)» و«سان لمبير (٤)»
و«فورييه» : فمن كلام «هوبز» : لو استقرينا ما يسميه بنو الانسان
خيرا لو وجدناه ينحصر فيما تتوق إليه نفوسهم ، وأنهم لا ييغون في جميع
أحوالهم إلا أن يؤثروا أنفسهم بأكثر قسط من ملذتهم وهناءتهم ، وان
أظهروا أنهم لخير بني الانسان فاعلون ولا سعادهم جاهدون .
نقد القول بالآثرة :

إن القول بأن الآثرة وحدها هي الباعث على ما يقترفه الانسان من
الأعمال مردود بأن الأحقاب الخالية وما تلاها من الدهور والأزمنة
أصديق شاهد على أن الانسان على اختلاف مذاهبه ونحله يأتي من ضروب
الاحسان مثلا مالا لون فيه للآثرة قطعاً ، بل طالما روى لنا التاريخ كيف

(١) هوبز :

فيلسوف انجليزي عاش من ١٥٨٨ - ١٦٧٩ وماخص مذاهبه أنه مادي
في العلم النظري ، مشكك في المنطق ، قدرى وأثرى في الاخلاق ، مستبد
في السياسة

(٢) هلباخ :

فيلسوف فرنسي عاش من ١٧٢٣ - ١٧٨٩ كان ملجدا وكان يزعم أن
النصرانية منبع كل مرض

(٣) هلفيتوس ١٧١٥ - ١٧٧١ وهو من اكبر أنصار المذهب المادي

(٤) سان لمبير ١٧١٧ - ١٨٠٣ فيلسوف فرنسي لخص المذاهب الخلقية

للفيلسوف هلفيتوس وسماها التعليم الديني

كان يستبق أهل الجود والسخاء إلى بذل أموالهم والايثار على أنفسهم ،
وهم مع ذلك عند أنفسهم في عداد المقصرين . ومن مساوىء هذا المذهب
أن تنشئة الناس على أن يقصر كل سعيه على ذات نفسه لا يدخر وسعا في
إنالتها مآربها غير حافل باخوانه وشركائه في البلد والدين واللغة - قضاء
على كيان الجماعة البشرية وهدم لنظامها :

أرأيت كيف تكون الحال الاجتماعية لو تقطعت بينهم أواصر التراحم ،
وقبض كل يده عن عشيرته وبنى ملته ؟

لاشك في أنهم لا يألون جهدا في التهاوت والتكالب على جمع المال
واحتجانه طيبه وخبيثه ، ويصبحون وقد سلبوا نعم المعاضدة والمواصلة
والمؤانسة والاخاء والمودة ، ثم ابتلوا بالعداوة والخذلان والندامة
والخسران ، وعم بينهم الرياء والمساترة ، وصار بعضهم لبعض أعداء محذورين
يداجون بالمودة ويتحرزون عن المكاشفة ، وكان مثلهم كالحنظلة الخضراء
أوراقها القاتل مذاقها ، وكان يزيد بن الحكم الثقفي عناهم بقوله :

تكاشرنى ضحكا كأنك ناصح وعينك تبدى أن صدركلى دوى
لسانك معسول ونفسك علقم وشرك مبسوط وخذك ملتوى
فليت كفافا كان خيرك كله وشرك غنى ما ارتوى الماء مرتوى
ومما يضعف القول بهذا المذهب أننا ما زلنا نقرأ في صحف الأبطال
وقادة الأمم كيف سمت بهم همهم العظيمة إلى اطراح لذاتهم وماهم فيه من
رفاهة العيش وهناءة البال ، لاسعيا وراء اللذة والمسرة ، بل لينقذوا غيرهم من
نبي جلدتهم - غير مكثرين بما يصيبهم في ذات أنفسهم من أذى وإهانة ،
كأنهم يفرحون بما يدهمهم في سبيلهم من نوازل الأحداث وخطوب الزمن ،
لاتهدم العظام ، ولا تفزعهم الشدائد .

ومن قبحوا اللذة البدنية وأنكروا اتخاذها ميزان الأعمال الخلقية « ابن
مسكويه » إذ يقول ما محصله :

زعم قوم أن اللذات الحسية تبلغ بالإنسان كماله وغايته ، وأنها الخير المطلوب والسعادة القصوى ، وإن القوى النفسية إنما وهبها ليرتب بها الأفعال ويميزها ، ثم يوجهها نحو هذه اللذات لتكون الغاية الأخيرة هي درك المآرب الجسمية ، فما خلقت قوتاً للحفظ والذكر إلا لتحفظ الأولى آثار الملهذات والمسرات ، وتذكر الأخرى هذه الآثار ، فيشتاق الجسم إليها ، ويحب معاودتها : ومعنى هذا أن منفعة الحفظ والذكر إنما هي اللذات وتحصيلها .

بهذا الفهم السقيم أنزلوا النفس المميّزة الشريفة منزلة العبد المهين تخدم النفس الشهوية في مأكلها ومشاربها ومنازعها الباطلة ، وضل عن أذهانهم أن الناس على هذا الوجه يشاركون في هذه اللذات الخنافس والديدان وصغار الحشرات والهمج من الحيوان ، وأن اللذة في الحقيقة إنما هي راحة من ألم وأنها لا تحصل للبلتد إلا بعد آلام تلحقه : ألم تركيف أن الناس يحسون الأذى الذي يلحقهم بالجوع والعري وضروب النقص ، ويجدون الحاجة ماسة إلى مداواتها بما يدفعها عنهم حتى إذا زالت آثارها ، وعادوا إلى حال السلامة منها التذوا بذلك ، ووجدوا للراحة لذة ، ومع هذا فهم لا يشعرون أنهم إذا اشتاقوا للآكل فقد اشتاقوا أولاً إلى ألم الجوع ، لأنهم إن لم يألموا بالجوع لم يلتذوا بالآكل ، أضف إلى ذلك أن اللذات في ذاتها إنما هي لضرورة الجسد ، فالبدن مركب من طبائع متضادة ، وما المأكل والمشرب وما مائلهما إلا علاج للجسم من الأمراض التي تحدث به عند الانحلال الناشئ عن خلوه من المادة والغذاء وعون على حفظ تركيبه على حال واحدة أبداً ، ولم يقل عاقل : إن علاج المرض سعادة تامة ، والراحة من الآلام خير محض وغاية مطلوبة ،

وقال «ابن مسكويه» في مقام آخر : ليست الراحة البدنية من أسباب السعادة ، لأنه لا يميل إليها إلا من كان إلى مرتبة البهائم أقرب كالأطفال وأهل الجهالة ، ولا يصح في الأذهان أن تنسب البهائم إلى السعادة ولا من كان

قريبا من مرتبتها ، ولقد أبدع في الابانة عن ذلك من قبل «أرسطو» إذ يقول : -
 « اللذة البدنية ليست الغرض الاول الذى يصبو إليه الانسان ، وتنتهى
 إليه رغبته ، بل تجيء تابعة لمقصد آخر هو أن له بعمله وجده عقلا يعتصم
 بالحكمة ونفسا تمتح من ينابيع الهدى والمحبة » ، وإذ يقول : « ينبغي ألا تكون
 همم الانسان إنسية وإن كان إنسانا ، وألا تكون همته همه الحيوان الميت
 وإن كان هو ميتا ، بل جدير به أن يقصد بجميع قواه أن يحيا حياة تدنيه من
 الملائكة الأعلى ، لان الانسان إن كان صغيرا بالجسم فهو عظيم بالحكمة ، شريف
 بالعقل ، والعقل أنبل جميع الخلائق »

حقا لا تنافى بين الفضيلة والاستمتاع ببعض اللذات ، لان الانسان مادام
 فى هذا العالم فهو فى حاجة ماسة إلى أن تكون أحواله الخارجية مجملّة ، بيد
 أنه محذور عليه أن يصرف قوته كلها فى الطلب والاستكثار من عرض الدنيا
 فقد يصل الى الفضيلة من ليس بكثير المال ولا ظاهر اليسار ، وقد تجيء
 الأفعال النبيلة من قل ماله وضعف يساره اه بتصرف

وصفوة القول : أن القائلين بالآثرة واللذة البدنية يدعون إلى اطراح كل
 المعتقدات الانسانية واعتدادها حجر عثرة فى نيل الأمور الحقيقية التى هى
 من مقتضيات الغرائز والطباع التى هى أصدق مرشد فى زعمهم للانسان إلى
 ما يوصله إلى تحصيل مآربه وقضاء لباناته . ان هذا هو الضلال البعيد ، كيف
 خفى عليهم أن اللذة البدنية ليست الخير الاسمى ، بل ليست فى ذاتها خيرا ؟
 لان الانسان خلق وله إدراك وإرادة تحصل للنفس رغبات هى أحب إليها
 من الشهوات إلى الغريزة .

الفرقة الثانية

النفعيون

يرى أهل هذا المذهب أن أوجب ما يجب على الانسان تحصيله ونيله هو
 المنفعة ، ولا مريّة فى أن من يقصد بسعيه جلب المنفعة فهو قاصد اللذة أيضا ،

يبد أنها ليست اللذة البهيمية العاجلة الزائلة ، بل التي تبقى معه مادام حيا ؛ لأن التجارب دلت على أن كثيرا من اللذات العاجلة لها عواقب ويلة تورث آلاما باقية ، وأنه طالما جاء السرور بعد الألم والفرح بعد الترح . ومن أجل هذا لا يليق بالانسان الذي اختصه الله بهبة العقل والرشاد أن يعتد كل ما يعرض له غنيمة يجب اقتناصها والحرص عليها ، بل يجب أن يتدبر عواقبه : فان كان ضارا اجتنبه ، وإن كان نافعا سارع اليه

لم يرد أهل هذا المذهب بالمنفعة منفعة النفس فقط ، بل قالوا : المنفعة المنشودة هي تحصيل مابه أوفر قسط من اللذة والهناءة لأكبر عدد من بني البشر . وقصدوا بهذا أن نستقرى ما عساه ينشأ عن العمل من اللذات والآلام لنا ولبنى جنسنا ، لا بل ولأنعامنا ، سواء في ذلك ما كان منها عاجلا أو آجلا مباشرا أو غير مباشر ، ثم نوازن بين اللذات والآلام : فان رجحت الأولى خير وهناءة ، وإن رجحت الأخرى فشر ومساءة . وعلى هذه القاعدة لا وزن للأفعال الخلقية في نظرهم إلا بما تأتي به من المسرة لغالب بني الانسان ، محتجين بأنه لا يمكن تصور حقيقة خلقية لعمل ما إلا بما يتوقع من النفع منه ، وكونه أرد وأجدى عليهم في شئونهم الحيوية ، فان كان العمل مما تنهأ به الآحاد ولا يعم نفعه الجماعة فهو في رأيهم غير جدير بالمدح والثناء . يرون أن السعادة هي أن تتوافر للناس بأعمالهم اللذات وتبعد عنهم الآلام ، وأن الفضيلة ما جذت إلا لأنها لراحة بني الانسان واغبتاهم - أجلب منها لا : عاجهم وتكديرهم ، وأن الرذيلة على العكس منها . ويقولون : ما كان للصدق أن يكون فضيلة لولا أنه ذريعة إلى ارتقاء العمران ، ووسيلة ناجعة إلى إسعاد بني الانسان : أرأيت كيف يكون نظام الأمة محتلا ، وبناء رخائها متداعيا ، إذا لم ترزق عشاء صادقين في يقينهم ، يبشرونها وينذرونها وينصخونها ويزجرونها ، وأطباء أمناء لا يدلسون ولا يخدعون ، يدلونها على مابه تحفظ الأبدان وتصلان الأرواح ، وعلماء بالخلق قد فهموا السنن الكونية ، ووقفوا على مافيه من الفوائد والمصالح ، ثم استخرجوا للناس

منها ما يداوى أسقامهم ويشفي علالهم ، ومعلمين صادقين في أقوالهم وأحوالهم وأعمالهم ، حتى يكونوا قدوة صالحة لتلاميذهم ، وأسوة حسنة لمتبعيهم .
 هذا بعض من كل مما جعل الصدق فضيلة يجب الحرص عليها والاعتصام بها ، وإن كان في ذلك غضاظة على من وهت عزائمهم ، وضعفت قلوبهم .
 ويقولون : ما كان للظلم أن يكون رذيلة لولا أن العدوان على الناس في أموالهم مثلا ذاهب بآمالهم ، مقعد لهم عن السعى وراء المعاش ، قابض لأيديهم عن المكاسب ، مفض إلى انتقاض أحوالهم ، وخراب أمصارهم ، واختلال حال دولتهم وسلطانهم : هل رأيت أمة ابتليت بمن يغتصب أموالها وينتهب ثروتها ، ويسلبها حقوقها ، ويستخرها على غير إرادتها ، ثم نفقت فيها سوق العمران ، وأخرجت رجالا صناديد يذودون عن دينهم وأنفسهم وشرفهم ووطنهم ؟ فالنفس الذليلة لا تجد ألم الهوان ، والنفس الشريفة يجرحها يسير الكلام :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح يميت إيلام
 نعم قد يجود الزمان بأفراد قليلين هم فلتات الطبيعة ، ونادرة الدهر ، أولئك هم العبقريون المجددون

تقد هذا المذهب

١ - إن الذي يتبع آراء أهل هذا المذهب وأقوالهم ينكشف له لأول وهلة أنهم يدعون إلى إهمال مصلحة الذات ومقتضيات الغرائز ، وفي ذلك مخالفة للسنن الفطرية التي لا بد من مساومتها في البدء بما يصلح النفس ، وما يعود عليها بالراحة والغبطة ثم التشية بغيرها بمن حضت الشرائع على العناية بأمرهم وتجميل حالهم مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم « ابدأ بنفسك ثم بمن تقول » ، وتأيدا لقول الفلاسفة : إن السعادة الفردية ضرورية لسعادة الجماعة ، وإن كانت تقصد لذاتها ، أضف إلى ذلك أن اتخاذ المنفعة في ذاتها معيارا للأفعال الخلقية مفض لامحالة إلى اللبس بين الحق والباطل :

فطالما جر الباطل إلى لذة وجور ، وجاء في سبيل الحق مالا يوصف من
الهموم والشور ، ومع ذلك فالحق أحق أن يتبع ، وماخير بخير بعده النار ،
ولاشر بشر بعده الجنة .

ب - ومما أخذ على هذا المذهب أن العمل به يستوجب حتما أنه لابد من
استقراء ماعساه أن ينشأ عن كل عمل من لذة وألم لجميع بني الانسان على
اختلاف طبقاتهم ومعتقداتهم مابرز منهم إلى عالم الدنيا ومالم يبرز ، وبدهى
أن هذا عريق في الخطأ ، إذ كيف نستطيع أن نحكم أن العمل الذي ينفع
صنفا من أهل هذا الجيل ينفع الأجيال القادمة ! ! ألم تر كيف ألمع عمر
رضى الله عنه إلى هذا المعنى إذ يقول : « علموا أبناءكم فانهم خلقوا الزمان
غير زمانكم » ، ويقول على كرم الله وجهه : « لاتكروا أبناءكم على آدابكم
فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم » إشارة إلى أن مايجيء من الزمان بعد
زمن الآباء له حكم خاص ومقتضيات جديدة . وأن عمر نهى عن حفر قناة
السويس قائلا : « إنها خرق في الاسلام » مع أن حفرها وقتئذ لم يكن
فيه من خطر على الاسلام ، بل ربما كان عوناً على سرعة انتشاره .

ح - ومما غالى فيه أهل هذا المذهب أنهم أدرجوا الحيوان في عداد
الخليقة التي يشملها قانون الموازنة بين الملذات والآلام ، وهم في ذلك قد
ضلوا ضلالا بعيدا ، إذ لو صح مذهبهم ماساغ لانسان أن يذبح البقرة
ليأكل بآكل لحما ، ويصطاد الطيور لينعم بطعامها . وربما قال قائل : ليس
الحيوان في مرتبة واحدة ، فبعضه مفضل على بعض ، وهذا مردود بأن
التفضيل قائم على الهوى والتشيع ، وذريعة إلى ارتكاب الخطأ والتكبد
عن جادة الصواب ، ودع عنك أن الناس خلقوا متفاوتين في نحائزهم
وأمزجتهم : فقد يباشران لذة واحدة ، فيجدها أحدهما كبيرة قيمة بأن
يعدها خيرا وسعادة ، ويجدها الآخر تافهة لا وزن لها ولا قيمة ، فلا يأبه لها ،
ولا يحفل بشأنها ، وفي ذلك دليل على بطلان اتخاذها معيارا تقاس به الأعمال .

رد النقد

١ - ولقد أجيب عن ذلك بأن الانسان خلق مجبولا على تلبية ماتدعوه إليه فطرته : من الاحتفاظ بنفسه ، ودرء الشر عنها ، وجلب الخير إليها ، حتى إن هذا ليحملة على العدوان على أخيه ، وبذل كل ماله من الحول والطول في سلبه ماله وجاهه ، وتعبده واسترقاقه ، متذرا طورا بمحض بطش القوة والجبروت ، وطورا بحجة الاشفاق عليه ، ووقايته من يدقاسية تعدو عليه : فهو لذلك يأخذه في كنفه ويحميه في ظله . فلما كانت غرائز الانسان على هذا النحو قصد التفعيون أن يعيشوا بمذنبهم في نفوس الناس أن الأعمال لا وزن لها إلا بما تعود به من المنفعة والخير على جمهور البشر ليكسروا نهم الغرائز . ويخضدوا شوكة سلطان الأثرة ، ويحولوا عقول الآحاد إلى أن يجعلوا للجماعة حظا من جهودهم ونصييا من ثمرات عقولهم ، حتى يرفعوهم إلى مستوى اجتماعي يعدهم إلى ما هم أهل له من الضرب بسهم في الشؤون الاقتصادية والاعتصام بالمبادئ الخلقية . ويقولون تأييدا لقصدهم هذا : إنه إذا تعارض الحق واللذة فلا اعتداد بها ، لأن في اتباع الحق والذود عن حياضه اللذة العظمى والهناء الدائمة .

٢ - ولقد انبرى فريق من أنصار هذا المذهب إلى رد الشبهات التي أثارها الناقدون لمذهبهم فقالوا : حقا إن الموازنة بين ما ينشأ عن الأعمال من اللذات والآلام يستدعى زمنا طويلا يستنفد الوسع ، ويستغرق الجهد ، بيد أنها معيار لا يخطئ ، وميزان لا يعتوره الخلل والعطب ، وحسبك دليلا على هذا أن أهل العصور الخالية لما جربوا الأمور وامتنحوها بعين التدبر والتفكر ، ونسبة عواقبها بعضها إلى بعض - حكموا عليها حكما صادقا لم يغيره اختلاف الزمان والمكان ، فرقت من أفواههم قضايا صحيحة وقواعد سديدة : قالوا : إن السخاء فضيلة ، والشح رذيلة ، والصدق نبل ، والكذب وضاعة . ثم إذا جد لهم حادث نظروا فيه : فإن كان مما يندرج في الأصول التي لديهم أدرجوه

فيها ، وإلا سلكوا في شأنه الطريقة الأولى : طريقة الموازنة بين اللذات والآلام : فإن رجحت الأولى سموه خيرا ، وإلا اعتدوه شرا .

أطوار النفعية

يتبين من النظر في تاريخ الفلسفة الخلقية أن الذي غرس أصول هذا المذهب هو « أبيقور » (٣٤١ — ٢٧١ ق م) ولبث مذهبه متبعا ، ورأيه متقلدا متدرجا من جيل إلى جيل ، حتى وصل إلى « هوبز » (١) و « بنتام » (٢) و « سبنسر » (٣) من مفكرى الإنجليز الحديثين : كان « أبيقور » يرى أن الأعمال إنما توزن بما ينشأ عنها من المنفعة والفائدة ، وأن المنفعة لا قيمة لها إلا إذا اجتلبت لذة واغترابا ، بيد أنه قال : إن اللذة وإن كانت الخير الأسمى ومنتهى الغايات — صنفان ، أحدهما مفضل على الآخر : الصنف الأول : اللذة المتقلة الزائلة : وهى لذة المشاعر التى لا تفارقها الآلام والهموم . والثانى : اللذة الثابتة الباقية : وهى لذة العقل التى لا يشوبها الألم ولا يعقها الهم وهى أفضل وأجدر ؛ لأنها تدنى صاحبها من الحياة الكاملة ، وتجعله رابط الجأش ، ثابت الجنان بمفازة من وساوس الاضطراب وتشعب الهموم . ومن أجل ذلك وجب على الحكيم أن ينظر نظرة سداد فى رغباته وحاجاته فينظمها ويقللها حتى يستطيع فطام نفسه عن الركون إلى أهوائها ، فلا يلحقها بعد اضطراب أو وسواس .

والرغبات عند « أبيقور » ثلاث : رغبة فطرية ضرورية كالأكل والشرب ،

(١) هوبز : فيلسوف إنجليزى اشتهر بالبحوث السياسية والخلقية وأساس

الأخلاق عند المصلحة الشخصية (١٥٨٨ — ١٦٧٩ م)

(٢) بنتام : (١٧٤٨ — ١٨٣٢ م) اشتهر ببحوثه فى الأخلاق والقانون ، ويعد

مؤسس مذهب النفعية

(٣) سبنسر : (١٨٢٠ — ١٩٠٣ م) فلسفته مؤسسة على مذهب النشوء ،

ألف كتباً كثيرة فى علوم النفس والأخلاق والاجتماع ، ويعد من أقطاب العلم الحديث

والاقلال من هذه أحجى وأحرى ؛ لأن من أعطى الخبز والماء فقد قاسم الملوك لذة مطاعهم ومشاربهم ، وهذا شبيه بما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « حسبُ ابن آدم لقياتُ يقمن صلبه » ، ورغبة غير ضرورية ألبتها العادة لباس الضرورى كالرغبة فى الملبس والمسكن بما يسميه ابن خلدون بالحاجى ، وهذه لابد من مراقبتها وتتبع سيرها ، ورغبة غير هاتين ، وهى الرغبة فى التأنق فيما سبق من المطعم والمشرب والمسكن ، والرغبة فى الجاه والغنى ، وهذه رغبة باطلة يجب فطام النفس عنها والابتعاد عن بواعثها وأسبابها « نقد مذهب أبيقور »

لقد عاش « أبيقور » مع من كان يقول باتخاذ الغريزة المرشد الحكيم والرائد الصادق الذى يصف طريق اللذة ، ومع هذا فلم يحفل بهذا القول بل قال : لابد من إشراك العقل مع الغريزة ينصحها ويردعها ، ثم يهديها ويرشدها إلى مواطن المنفعة ، واجتلاب الفائدة الجديرة بالقصد والسعى . بيد أنه أخطأ فى أن جعل من ذرائع اللذة اجتناب الاضطراب ، وتحاشى المزعجات ، وغير ذلك من الطرق السليسة التى هى إلى الوهم أدنى منها إلى الحقيقة ، والتى هى من دلائل الجبن وخور العزيمة ، بل ذريعتها فى رأى الناقدين مباشرة المعتاد من الأعمال والأقوال والأحوال ؛ فالخية مقرونة بالهية ، وقد فاز باللذة الجسور . وما أخذ عليه أنه قال : إن سبب إثارة اللذة العقلية على اللذة الحسية أنها غير مشوبة بالألم والمشقة ، وأنهادانية الملتمس ، وضل عن أنها عزيزة المنال لا تدرك إلا بعد عناء كبير ، وأنه اتخذ المنفعة ميزانا توزن به الأمور ، وتقدر به الشئون ، وخفى عليه أنها ذات أنواع شتى : فإيراه هذا نافعاً له يفيد ويسره يراه ذاك ضاراً به يؤذيه ويؤلمه ، أضف إلى ذلك أن المنفعة لا تحقق فى رأيه إلا إذا نشأت عنها لذة ، والناس من حيث اللذة مختلفون : فمنهم من يؤثر لذة المشاعر ، وإن كانت سريعة الزوال قليلة العناء . ومنهم من يؤثر اللذة العقلية ، وإن صحبها العناء والنصب أو نشأ عنها الهم والكدر ، ومن أجل ذلك لا يصح اتخاذ المنفعة القائمة على اللذة

المختلف في شأنها قانونا خلقيا يهتدى به الناس في شئونهم ، ويجرون عليه في معاملاتهم .

« رأى بنتام في النفعية »

لقد تدرج مذهب « النفعية » ، فاجتاز مراحل كثيرة ، وتقلب في صور عدة ، لاحقا أدنى إلى السداد من سابقها : فمن ذلك أن « بنتام » المتوفى سنة ١٨٣٢ م أداه البحث والتنقيب إلى أن المنفعة واللذة هما ركن الاضطلاع بالواجب والقيام به ، ثم بين مراده منهما ، فقال : لا تعد اللذة ركنًا ينبئ عليه الواجب إلا إذا نال أكبر قسط منها جل الناس ومعظمهم ، ولا يعد العمل نافعًا إلا إذا كان ما ينشأ عنه من اللذة والفرح يربو على ما يتلوه من المساءة والترح ، ولا يعد العمل من باب الفضيلة إلا إذا كان اللذة مضاعفا وللألم مخففا ، ثم شفع هذه القواعد ببيان هو إلى علم الحساب أدنى منه إلى الفلسفة الخلقية ، أوضح به خصائص اللذة فقال : إنها واحدة من قوية أو ضعيفة ، عاجلة أو باقية ، قريبة أو بعيدة ، محققة أو ممكنة ، رنقة أو صافية ، متتابعة أو متقطعة ، عامة يهنأ بها الناس كافة أو خاصة بفئة قليلة .

ولما كان « بنتام » من القائلين بأن جميع اللذات من نوع واحد لا اختلاف بينها إلا في الكمية ، أو الأحوال المحيطة بها الأجنبية منها - قصر نظره على استيعاب خصائصها المقدمة الذكر التي هي في الواقع صفاتها الظاهرة ، ولم يحفل بصفاتها الباطنة ، كما فعل من جاء بعده من العلماء ، وتلك زلة من زلاته ، يد أن له حسنة لا يسوغ إغفالها : وهي تأييده القاعدة : « إن الإنسان مدني بالطبع » لا يستغنى بنفسه عن غيره إذ يقول : « إن بين منفعة الفرد ومنفعة الجماعة رابطة متينة ، وتلازما وشيخا ؛ لأن المرء لا يستطيع تحصيل ما هو ضروري لحياته ، دون الاستعانة بغير جنسه : إن أصابهم سرور فهو فرح مغتبط ، وإن حزنهم أمر فهو حزين ممتعض ، فمثله ومثلهم كمثل النحلة تكد وتدأب في تدبير شأن الخلية » .

وصفة القول أن مذهبه هو أنه يجب على أنصار النفعية أن يعطوا الناس : بأن من كان يبغى المال مثلاً ، والتلذذ بجمعه واستغلاله - فليغنه لأتمته ، وليفرغ جهده في حفظ الثراء عليها ، وبذلك يكبر نصيبه ، وتتضاعف ثروته الخاصة ، ويحشرف فوق ذلك في زمرة الذين بنوا بأيديهم هيكل السعادة الوطنية ، والهناء القومية . وأن من كان يسعى لكسب الوجاهة فليطلبها لأتمته ، ولا يدخر وسعاً في الاحتفاظ بعزتها وكرامتها ، وأنه بذلك ينال عزة ووجاهة فوق ما قصد وأراد ؛ فمن كان من قوم أعزاء مهيين مكرمين فهو عزيز مكرم ، وإن من صبت نفسه إلى الهيمنة على القلوب وامتلاك ناصيتها - فليس له من سبيل إلا اطراح الأثرة ، وبذل ما يستطيع في التجب إلى عشيرته وبنى وطنه ، والتودد إليهم ، فلا يجدون مناصاً من الاعتراف له بالطاعة والولاء . وكلما حذب عليهم ، وآثرهم على نفسه ، وأيقنوا بأنه لنفسه منكر ، والذاته مؤخر - بسطوا له يد المعونة ، ورفعوا له ألوية الكبار والاجلال .

يرى أنه يجدر بأنصار النفعية أن يبينوا للناس أن التكاليف الخلقية هي أن يكون حب الفرد لوطنه وملئه مثل حبه لنفسه وأهله ، وأن الحرص عليهما سابق على الحرص على راحته وحياته ، وأن الهناء ليست أن يكون المال عند الآحاد وفيراً تفيض به خزائهم ؛ فتقبض نفوسهم بخلا وجموداً ، أو أن تشبع البطون ، وتقضى اللذات وتمتلئ العيون نوماً - بل هي من فضائل الأعمال العامة ، وجلائل الصفات الشاملة .

« تقدم مذهبه »

لامرية في أنه لا تشابه بين اللذات والأعداد ؛ فاللذات متعذر قياسها وتقديرها لتنوعها وتباين صفاتها ، ذلك : بأنه إذا جال في النفس قضاء واحدة من ثنتين : لذة شهود سبق الخيل ؛ ولذة مواساة صديق حميم ، وأريد إيثار إحداهما على الأخرى فقد يتعذر ذلك ؛ لأنهما ليستا من باب واحد ، فليس لهما مقياس واحد ، وبدهى أن الموازنة لا تكون إلا بين الأشياء التي هي إلى الاستقرار والثبات

أدنى منها إلى الزوال والتغير ، ولقد قال ابن حزم في كتابه «مداواة النفوس» عند الكلام على مختلف اللذة : « وإنما يحكم في الشيئين من عرفهما لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر » ومن العيوب التي لا تخفى على أولى الألباب أن المنفعة التي اعتدها « بنتام » ركنا من أركان اللذة التي تحدد بصاحبها إلى تأدية الواجب — ليست في الغالب هي الباعث الفذ ، بل هناك بواعث أخرى . على أننا إذا سلمنا جدلا أنها تقضى إلى تأدية الواجب — فمحال أنها تصلح أن تكون ميزانا خلقيا تعرف به طبائع الأعمال الخلقية .

وقد حاول « بنتام » أن يُجَمِّلَ صورة المنفعة فقال : « إن الشوق إلى دركها هو الذي يحملنا على أن تتحلّى بصفات الجد والقناعة والغدل » ، وشذ عن ذهنه أن الذكي الفطن الذي جرب الأمور ، وحلب الدهر أشطره — قد يتشع برداء هذه الصفات تذرعا إلى نيل بغيته وقضاء مآربه ، وذلك ليس من الفضيلة في شيء . ولقد أبدع في الإشارة إلى هذا « قوتنيل » إذ يقول ، لما أبصر بلص يساق إلى السجن : « هذا رجل تعوزه المهارة والحذاقة ، ولقد ضل في حسابه » فالذكاء والحصافة ليسا دليلا على الخلق الكريم ، والنفس الطاهرة . دع عنك أن المنفعة ليست من الأشياء التي يؤمر بها الإنسان ، ويستحث على تحصيلها ، لأن نفسه بفطرتها نزاعة إليها ، توافقه إلى اقتناصها ، بل إنما يؤمر بالشئون الخلقية : كتأدية الواجب ، وإعلاء كلمة الحق ، والذود عن حياض الشرف والكرامة ، ومناهضة الباطل ، ومكافحة الظلم والبهتان ، مما فيه اختبار للنفس ، وامتحان لعزيمتها ، وقوة جلودها ، ومبلغ ثباتها ، على أن المنفعة تتغير وتختلف على حسب اختلاف المقتضيات والأشخاص ، وأن ما ينفع قوما يضر بآخرين : « مصائب قوم عند قوم فوائد »

استيوارت ميل (١٨٠٦ - ١٨٧٣ م)

ولقد جاء بعد بنتام « استيوارت ميل » بخالفه في شيئين :

الأول - أن اللذة مختلفة في نوعها أيضا ، لأن لها أنواعا يفضل بعضها

بعضها : كفضل اللذة العقلية على اللذة الحسية ، وإن كانت اللذة الحسية أكبر كمية وأكثر عموما وانتشارا : ألم تر أن المرء الذي صغرت همته واتجهت ميوله إلى إرضاء المشاعر ، وإنالتها ماتشتيه طالما فاز برضاها ، وتم له اغتباطها ، نخلت إلى الرذيلة والنقيصة ؟ وأن الذي كبرت همته وصبت نفسه العظيمة إلى معالي الأمور ، وعظائم الفعال - لا يكاد يجد نفسه مغتبطة هنيئة ، بل هي دوما نزاعة إلى الاستزادة من الشؤون المعنوية والمتاعب العقلية ؟ وخير لابن آدم أن يكون إنسانا مكدر العيش ، متعب العقل والجسم - من أن يكون حيوانا توافرت له اللذة وكملت لديه الهناءة ، وأن يكون سقراطيا متبرما من أن يكون حيوانا متمتعا

الثاني - أن مذهب المنفعة يجب أن يقصد به سعادة البشر جميعه ، فليس بكاف سعادة الأسرة أو المدينة ، بل ولا الوطن : ذلك بأن « بنتام » كما قدمنا يرى أن المرء إنما يفعل الخير لغيره من حيث منفعته هو وسعادته ، فجاء « ميل » وقال : ليس هذا الرأي قينا بأهل الأخلاق أن يجذوه ، بل واجب على من يعمل عملا أن ينزل الناس منزلة نفسه .

« نقد مذهب ميل »

لقد اعترض الباحثون على مذهب ميل قائلين : يخيل لمن يستقرى كلامه أنه قد فصم نفسه من طائفة القائلين بالاختبار والتجربة ، وهو أحد أساطينهم وكبير دعائهم بما أورد في كلامه من إثارة اللذة العقلية والشؤون المعنوية على اللذات الحسية ، وخفى عليه أن أفضلية اللذة العقلية ليس باعتبارها لذة ، بل بما نشأت عنه من الأمور السامية والشؤون العالية التي تتفاضل بقيمتها الذاتية ، دون نظر إلى ما يعقبها من المسرة والاغتياب ، ومعنى هذا أن في الأشياء نفسها خيرا هو أسبق وجودا من اللذة ، وهو قطب رحي تفضيل بعضها على بعض .

وعلى ذلك فالقول بإثارة اللذة العقلية على ماسواها خروج من مذهب القول باللذة جملة واحدة ودخول في مذهب العقليين .

ولما أحس « ميل » هذه الحيرة لم يجد مخلصا إلا أنه اقترح عرض الأمر على محكمين يفصلون في تفضيل أنواع اللذات بعضها على بعض ، ويكونون ممن جربوا اللذات العقلية والحسية ، بيد أنه لم يحسن الخروج من مأزقه ، بل تورط وركب متن الشطط ، لأنهم إن كانوا ممن ذاقوا واحدة من اللذتين فحكمهم ناقص لا يؤبه له ولا يعول عليه ، وإن كانوا ممن ذاقوا الاثنتين فحكمهم فاسد مردود ، لأن تجربتهم حصلت في أوقات متباينة ، وأحوال غير متجانسة ، وحينئذ فالموازنة بين اللذة الحسية ، واللذة العقلية - غير قائمة على أساس السداد والرشاد .

فمن أراد أن يوازن بين لذته وهو نشوان مخمور ولذته وهو يكافح في إنقاذ وطنه وتحرير بني جنسه - فقد تعلق بأهداب الخيال ، واعتصم بحبال الأحلام : ذاك في عالم النوم والحلم ، وهذا في عالم الحقيقة والحكم . ولقد انبرت للرد على « ميل » طائفة أخرى أبعد غورا في النقد وأكثر تعمقا في البحث ، فقالوا : إن دعوة الناس إلى أن يقصدوا بتحصيل منافعهم الخاصة بهم منافع البشر جميعه هي دعوة تثلج بها الصدور ، وترتاح إليها النفوس بيد أن مذهبه في جملة قائم على منفعة الذات المقصود بها جلب الخير لغيرها وبدهى أن تحصيل المنفعة لغير الذات ليس فيه إلزام ولا شبه إلزام ، والتكاليف الخلقية إن لم تُؤَدَّ بالالزام منهارة الدعائم سريعة الزوال ، وحينئذ فلا مفر من البحث عن مذهب آخر غير مذهب أهل الاختبار والتجربة ، يحث الناس على أن يكونوا لغيرهم خداما ، ولجماعة بني البشر أعوانا . وحسبك دليلا على أن جلب المنفعة لغير الذات ليس بالزامي أنه لو تعارضت منفعة الذات وغيرها - لأوجب « ميل » ومن هم على رأيه إثارة منفعة الذات وتقديمها على منفعة غيرها ، لأن القاعدة الأولى لمذهبهم هي أن أعظم خير

يسعى إليه الانسان في هذه الدنيا - هو درء الضرر عن نفسه وجلب الهناء لها ، فكيف يستطيع أن ينقض هذه القاعدة ، فيجلب لنفسه الأكدار والهموم ، ويطوح بها في مهامه المخاطر والأهوال في سبيل إنقاذ غيره من تهلكة ، أو انتشاله من ورطة !!

لقد حاول « ميل » أن يقيم الدليل على أن مذهبه خلو من التناقض ، بيد أنه أساء الاستدلال ، ولجأ إلى المراوغة والاحتيال ، إذ يقول : لا جرم أن مصلحة الذات تتنافى غالباً مع المصلحة العامة ، وضرب لذلك مثلاً بالجنود يستميتون في القتال ، فيقدمون أنفسهم طعمة للدافع والسيوف ، ويتركون وراءهم الأراامل واليتامى فريسة للفقر والشقاء ، وعبيداً لأصحاب الأموال والثراء ، فما حياتهم أبقوا ، ولا أولادهم ربوا ، إن ذلك هو الخسران المبين . غير أنه اقترح طريقاً يفضي إلى إضعاف التنافر بين مصلحة الذات والمصلحة العامة : هي أن تربي آحاد الأمم تربية تبلغهم درجة من الرقي والتهديب لا يكادون يحدون معها فرقاً بين المصلحتين . فاذا نظمت طوائف الجماعة الانسانية على هذا النحو أمكن العمل بمذهب النفعية على رأى « ميل » وكان نعمة على بنى الانسان في معاشهم ومعادهم .

لم يقع هذا المقترح موقفاً حسناً عند فريق الناقدين فقالوا له : لقد طلبت المحال ، وتشبثت بأهداب الخيال ، وقمين بك أن تقول : إن مذهب النفعية على هذا الوجه ليس من الأخلاق في شيء .

إجمال القول في محاسن النفعية ومساوئها

محاسنها :

يرى النفعيون في تزيين مذهبهم مايلي :

١ - أن الانسان خلق مجبولا على تلبية ما تدعو إليه فطرته من الاحتفاظ بنفسه ، ودرء الشر عنها ، وجلب الخير إليها ، حتى إن هذا ليحملة على العدوان على أخيه ، وبذل كل ماله من الحول والطول في سلبه ماله وجاهه وتعبدته

واسترقاقه ، ومتذرعاً طورياً بمحض بطش القوة والجبروت ، وطوراً بحجة
الاشفاق عليه ووقايتهم من يد قاسية تعدو عليه ، من أجل ذلك قصد النفعيون
أن يثبوا في نفوس الناس أن الأعمال لا وزن لها إلا بما تعود به من المنفعة
والخير على الجمهور ؛ ليكسروا نهم الغرائز ، ويخضدوا شوكة سلطان الأثرة ،
ويحولوا عقول الآحاد إلى أن يجعلوا للجعاعة حظاً من جهودهم ، ونصيأً
من ثمرات عقولهم ، حتى يرفعوهم إلى مستوى اجتماعي يعدهم إلى ما هم أهل
له من الضرب بهم في الشؤون الاقتصادية والاعتصام بالمبادئ الخلقية .

٢ - قصدوا بمذهبهم أن يعظوا الناس : بأن من كان يبغى المال مثلاً فليبغ
لأمته ، وليفرغ جهده في حفظ الثراء عليها ، وبذلك يكبر نصيبه وتضاعف
ثروته الخاصة ، ويحشر فوق ذلك في زمرة الذين بنوا بأيديهم هيكل السعادة
الوطنية والهناء القومية . وأن من كان يسعى لكسب الوجاهة فليطلبها
لأمته ، ولا يدخر وسعاً في الاحتفاظ بعزتها وكرامتها ، وأنه بذلك ينال
عزة ووجاهة فوق ما قصد وأراد . وأن من صبت نفسه إلى الهيمنة على
القلوب وامتلاك ناصيتها فليس له من سبيل إلا اطراح الأثرة وبذل ما يستطيع
في التحبب إلى عشيرته وبنى وطنه والتودد إليهم ، فلا يجدون مناصاً من
الاعتراف له بالطاعة والولاء .

٣ - من أسمى أغراض النفعية أن يعلم الناس أن حبهم لوطنهم وملتهم مثل
حبهم لأنفسهم وأهلهم ، وأن الحرص عليهما سابق على الحرص على راحتهم
وحياتهم ، وأن الهناء ليست أن يكون المال عند الآحاد وفيراً ، تفيض به
خزائنها ، فتقبض نفوسهم بخلا وجموداً ، أو أن تشبع البطون وتقضى اللذات
وتمتلئ العيون نوماً ، بل هي في فضائل الأعمال العامة وجلال الصفات الشاملة .

٤ - أن الموازنة بين ما ينشأ عن الأعمال من اللذات والآلام معيار
لا يخطئ ، وإن استدعى زمناً طويلاً ، وحسبك دليلاً على صحة هذا أن
أهل العصور الخالية لما جربوا الأمور وامتحنوها بعين التدبر والتفكر ،

ونسبة عواقبها بعضها إلى بعض — حكموا عليها حكماً صادقاً لم يغيره اختلاف الزمان والمكان ، فرقت من أفواههم قضايا صحيحة وقواعد جديدة ، فقالوا : إن السخاء فضيلة ، والشح رذيلة ، والصدق نبل ، والكذب وضاعة .

مساوئها :

١ — أن الذى يتبع آراء أهل هذا المذهب ينكشف له أنهم يدعون إلى إهمال مصلحة الذات ومقتضيات الغرائز . وفى ذلك مخالفة للسنن الفطرية التى لا بد من مساومتها فى البدء بما يصلح النفس ، ثم الشئ بغيرها من حضت الشرائع على العناية بأمرهم مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول »

٢ — أن اتخاذ المنفعة فى ذاتها معياراً للأفعال الخلقية مفض لا محالة إلى اللبس بين الحق والباطل : فطالما جر الباطل إلى لذة وجور ، وجاء فى سبيل الحق مالا يوصف من الهموم والشور ، ومع ذلك فالحق أحق أن يتبع ، وما خير بخير بعده النار ، ولا شر بشر بعده الجنة .

٣ — أن العمل بهذا المذهب يستوجب استقرار ما عساه أن ينشأ عن كل عمل من لذة وألم لجميع بنى الإنسان على اختلاف طبقاتهم ومعتقداتهم ، وبدهى أن هذا عريق فى الخطأ إذ كيف نستطيع أن نحكم أن العمل الذى ينفع صنفاً من أهل هذا الجيل ينفع الأجيال القادمة ؟

٤ — أنهم أدرجوا الحيوان فى عداد الخليفة التى يشملها قانون اللذات والآلام ، ولو صح هذا ماساغ لإنسان أن يذبح بقرة لينأى بأكملها .

٥ — أن المنفعة ليست من الأشياء التى يؤمر بها الإنسان ويستحث على تحصيلها ؛ لأن نفسه بفطرتها نزاعة إليها ، بل إنما يؤمر بالشئون الخلقية ، وتأدية الواجب ، وإعلاء كلمة الحق ومكافحة الظلم بما فيه اختبار للنفس ، وامتحان لعزيمتها وقوة جلدتها .

٦ - أن المنفعة تتغير وتختلف على حسب اختلاف المقتضيات والأشخاص ، وأن ما ينفع قوماً يضر بآخرين .

الميزان الرابع

الايثار

لقد تبين مما تقدم أن جمهور الخلقين إلى آخر عهد « استيوارت ميل » لم يرتضوا مذهباً من التي بسطناها قاعدة يقوم عليها الميزان الخلق الذي يسترشد به الناس في شئونهم ، ويهتدون به في سلوكهم ومعاملاتهم ، فانبهرى فريق بدعو إلى اتخاذ أسس غير ما تقدم للميزان الخلق ، ومن هؤلاء الفيلسوف « أوجست كنت » (١٧٩٨ - ١٨٥٧ م) إذ يقول : لا مريّة في أن الإنسان لا يهنا بالحياة دون الجماعة ، فقد خلق محتاجاً إليها ، فعليه ألا يالوجهاً في بذل ماله من القوة والمعونة للذود عن كيانها ومناهضة من يعادها ، وألا يدخر وسعاً في اقتناص وسائل إسعادها ، وتوفير راحتها . وكل طائفة لا يتضافر أحادها على الفناء فيها فهي خلوة من المناعة الخلقية والقوة المعنوية ، لا تستطيع أن ترد عدواناً أو تقيم برهاناً ، وقال : أشد أركان الأخلاق متانة هو الايثار : وهو أن يعيش كل لغيره لا لنفسه . هكذا أراد « أوجست كنت » ومن على رأيه ، وهم مغالون فيما ذهبوا إليه ، لأن الايثار المجرّد ضرب شديد من ضروب الزهد ليس من الحكمة حمل الناس جميعاً عليه ، بل هو مرتبة الخواص الذين لا يرضيهم سوى المثل الكامل ، والذين يقولون : « إذا فقدنا صبرنا ، وإذا وجدنا آثرنا » وإنما الزهد الذي يمكن احتماله ، والجرى عليه - هو ما أشار إليه الامام علي كرم الله وجهه إذ يقول : من عمل بقوله تعالى : « لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ » فقد ملك الزهد بطرفه ، لأن لكل نفس على صاحبها حقاً تتقاضاه منه ، وواجباً تطالبه به ، وحينئذ فليس من المألوف أن يخرج الواحد عنهما لجماعته مختاراً

طائعا ، كأنه عنصر من جسم كيماوى ، ومسبار فى جسم آلى . على أن القول بخروج كل واحد عن حقوقه ابتغاء هناء الجماعة لا يخلو من تناقض وتضارب ، إذ لو وجب على كل واحد أن يخرج عنها لغيره لوجب على كل واحد أيضا ألا يرضى بفناء غيره فيه تحقيقا لفضيلة الايثار !! وبهذا أصبح الايثار عبثا لا قيمة له ، ومفوتا لما يقصد من المسرة والهناء للجماعة .

ولقد نبه « ابن مسكويه » من قبل الفيلسوف « أوجست كنت » إلى الحاجة إلى الاجتماع ، واعتداده أساسا خلقيا ؛ إذ يقول فى كتابه « تهذيب الأخلاق » : « لما كانت الخيرات الانسانية كثيرة ، وكانت القوى التى تصدر عنها كثيرة كذلك ، ولم يكن فى طاقة الانسان الواحد القيام بجميعها - وجب أن يقوم بجميعها جماعة كثيرة منهم ، ومن أجل ذلك وجب أن تكون أشخاص الناس كثيرة ، وأن يتضافروا فى زمان واحد على تحصيل سعادتهم المشتركة ، ليكمل لكل واحد منهم ما يبغي بمعونة الباقيين له ، وبذلك تكون الخيرات بينهم مشتركة ، والسعادة مفروضة بينهم ، فيتوزعونها ، حتى يقوم كل واحد منهم بجزء منها ، ويتم لجميعهم بمعاونة جميعهم الكمال الاسنى والسعادة القصوى .

من أجل ذلك وجب على الناس أن يحب بعضهم بعضا ؛ لأن كل واحد يرى كماله عند الآخر ، ولولا ذلك ماتت للفرد سعادته ، فكل واحد منهم بمنزلة عضو من أعضاء البدن ، وقوام الانسان بتمام أعضائه » انتهى بتصرف .

وقال الفارابى فى هذا الصدد ما محصله : « كل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج فى قوامه . وفى أن يبلغ أفضل كالاته إلى أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها وحده ، بل يحتاج إلى قوم يقوم كل واحد منهم بشيء مما يحتاج إليه ؛ من أجل ذلك لا يستطيع الانسان أن ينال الكمال الذى لأجله منح الغرائز إلا باجتماع جماعة كثيرة يتضافرون ، فيقوم كل واحد لغيره ببعض ما يحتاج إليه فى قوامه ، فيجتمع مما يقوم به جملة الجماعة لكل واحد جميع ما يحتاج إليه فى قوامه وبلوغه الكمال . ولهذا كثرت أشخاص الانسان ،

فانتشروا في المعمور من الأرض ، فنشأ عن ذلك الاجتماعات الانسانية ، وهي صنفان : كاملة وغير كاملة : أما الكاملة فثلاث : عظمى ووسطى وصغرى : فالعظمى اجتماعات الجماعة كلها في أنحاء المعمور قاطبة ، والوسطى اجتماع أمة في جزء من المعمور ، والصغرى اجتماع أهل مدينة في جزء من الوطن .

وأما غير الكاملة فاجتماعات أهل القرية والمحلة والمنزل . والقرية بمنزلة الجزء للمدينة ، والمدينة بمنزلة الجزء للوطن ، والأمة جزء من أهل المعمور ، فالخير الأفضل ، والكمال الأقصى إنما ينال أولا بالمدينة ، لا بالاجتماع الذي هو أنقص منه .

ولما كان شأن الخير في الحقيقة أن ينال بالارادة والاختيار ، وكذلك الشرور إنما تكون بالارادة والاختيار - كان من الميسور اتخاذ المدينة ذريعة للتعاون على بلوغ بعض غايات الخير وغايات الشر : ومعنى هذا أن كل مدينة يمكن أن تجمع وسائل السعادة : فالمدينة التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التي تنال بها السعادة في الحقيقة هي المدينة الفاضلة ، والاجتماع الذي يراد به التعاون على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل ، والأمة التي تتضافر مدنها كلها على ماتدرك به السعادة هي الأمة الفاضلة ، والعالم الفاضل هو ما تضافرت أئمة على بلوغ السعادة « انتهى بتصرف .

الميزان الخامس

العاطفة

لقد تبين أن الموازين المتقدمة لا تصلح أن تكون ميزانا خلقيا للأعمال ، ومن أجل ذلك انبرى طوائف من العلماء إلى البحث عن موازين أخرى : فقالت طائفة « بالعاطفة » مؤيدون قولهم - بأن الانسان فطر على حب الخير لغيره ، فكل ما تمشى مع هذه الفطرة فهو خير ، وكل ما يابى عنها فهو شر :

يريدون بذلك أن الحذب على الناس هو جماع الفضيلة ، ولذلك كان هو الواجب الأسمى الذي يجب أن توجه هم بني الانسان إلى القيام بتكاليفه ، بيد أن هناك كثيرا من الاعمال لا يمكن أن يكون مصدرها العطف والحذب : أرأيت لو أن رجلا اقترف إثما ثم قدم نفسه للقضاء أفيقال : إنه فعل ذلك مدفوعا بالعطف والحذب ؟ الحق أنه مسوق بباعث العدل والانصاف . وعلى ذلك فالعاطفة لاتصلح أن تكون أساسا لواجب ما ، إذ ليس لها من الالتزام ما يجعلها قانونا خلقيا ، يأمر وينهى ، وينذرو ويبشر . وما أجمل ما قاله ابن حزم في كتابه « تطهير الأعراق » : وجدت المشاركون بأرواحهم أكثر من المشاركين بأموالهم ، وعلة ذلك طبيعية في البشر .

الميزان السادس

استمالة القلوب

وقالت طائفة أخرى : استمالة القلوب ميزان خلقى توزن به الأعمال خيرها وشرها . وحيجتهم في ذلك أن الناس جبلوا على ميول طبيعية تدعوهم إلى الالتئاس ببني جنسهم وتآلف قلوبهم ، فنرى الواحد منهم يشاطر إخوانه في سرائرهم وضررائهم :

وعلى ذلك كل فعل يستميل القلوب ، ويستهوى الأفئدة فهو خير ، وكل مانقرها وأبعدها فهو شر ، دع عنك أن الناس مجبولون على أن يفعلوا ما يكسبهم رضا غيرهم عن فعلهم ، وإقرارهم عليه ، وأن يتحاشوا فعل ما من شأنه تنفيرهم وإسخطائهم . وهذا معناه أن بين النفوس تجاذبا ومشاركة في الاحساس والشعور : فاذا ما أسدى امرؤ إلى غيره عارقة أو قدم إليه يدا رأيت المسدى إليه ينعطف نحو المسدى ، ويعرب عن الاعجاب بعمله وصنيعه ، فتولد عنده عاطفة مثل عاطفة المسدى : تحذوه إلى مقابلة الصنيع بمثله . وبهذا التوالد النفسى أمكننا أن نحكم أن عمل الخير جدير بالثوبة والجزاء الحسن .

لقد تمكن هذا الرأي من نفس « آدم سميث » فجعل قاعدة السلوك هي :
 « ليكن عملك بحيث ينال أكبر قسط من رضا جل من يشهدونه » . فمناط
 كون العمل خيراً أو شراً استحسنان غالب الشاهدين واستقبا حهم إياه ، بيد أن
 « آدم سميث » لما رأى أنه يتعذر على الواحد أن يشهد الناس جميع أعماله ،
 فيعلم مرتبتها الخلقية - قال : إن من يفعل الفعل هو فاعل وشاهد في وقت
 واحد ، فواجب على من يقدم على عمل متأن يجرد من نفسه ذاتها لعواطف
 كعواطف غيره ، يتخذها رقيباً على نفسه التي تباشر الفعل ، فإن رضيت
 الذات المجردة عن العمل قام ذلك مقام الإقرار عليه من أناس غيره شاهدين ،
 ولهذا أدخل بعض التغير في القاعدة المقدمة الذكر فقال : « ليكن عملك
 بحيث ينيلك رضا شهود له مجردين عن الغرض والهوى » .

تقد هذا المذهب

لقد أراد أنصار هذا المذهب أن يجعلوا الواجب الخلقى الأسمى أن يبذل
 المرء جهده في اجتذاب غيره إليه وإقراره على عمله وسلوكه ، وهذا معناه
 أن يكون مناط الحسن أو القبح الخلقى لعمل ما هو إكبار الناس هذا العمل
 أو تحقيره ، أي ميلهم إليه وانصرافهم عنه ، ولا مزية في أن هذا المناط
 قلوب متغير : فمن الناس من ألفوا العدوان والسلب والنهب ، وتنزلت هذه
 الفعال عندهم منزلة المألوف المحب الدال على الشجاعة والبأس ، فاذا شاهدوا
 واحدا يفتات على غيره أو أمة تستعبد غيرها ، وتسلبها حقوقها ، وميراث
 أسلافها - مالوا إليها ، وأطروا فعالها ؛ لأن فعل العنف والجور بمراى
 منهم أيقظ فيهم ميل العدوان والسلب الذي ألفوه ، فاستحسنوا العمل تلبية
 لما ضروا عليه . ومعنى هذا أن استحسنان طائفة لعمل وتشجيعها له هو مظهر
 البيئة التي درجوا فيها ، والاحساس الذي ألفوه . وما مثلهم في هذا إلا كمثل
 الماء يكتسب لون إنائه ولا لون له في ذاته .

بما تقدم يتبين أن القول باتخاذ حال من أحوال الاحساس أو الوجدان

معيارا توزن به الأعمال الخلقية ، ومرجعا ترد إليه الشئون المعنوية - ضعيف لا يركن إليه ؛ فما كان للأخلاق أن تبنى على أسس بفطرتها متغيرة ، أو ترد إلى قوانين غير ملزمة : هل يصح في الأذهان أن تقوم التكاليف الخلقية على مثل قاعدة : فطر الناس على النزوع إلى عمل كذا فواجب عليهم أن يفعلوه ؟ على أن كل قانون خلقى يؤسس على اللذة ووسائلها ، أو المنفعة ومقاصدها ، أو الميول النفسية وتوجهها - غير جدير بأن يكون ميزانا يستضىء به بنو آدم الذين اختصهم الله بالنبوة ، وميزهم بالعقل والحكمة . فواجب تلمس مرجع آخر أدنى إلى كمالهم ، وأليق بآلهم وآمالهم فمأهول ياترى ؟

الميزان السابع

الاقتداء بالله

يقول أفلاطون : هو الاقتداء بالله المنفرد بصفات الجمال والكمال . فالواجب الخلقى يقضى بالاقتداء به : والاتسام بصفاته ، ولا يستطيع إنسان أن يبلغ درجة هذا الاقتداء إلا إذا ألفت بين قوى النفس الثلاث : وهى القوة التى بها يكون الفكر والتمييز والنظر فى حقائق الأمور ، والقوة التى بها يكون الغضب والنجدة والأقدام على الأهوال والشوق إلى التسلط والترفع ، والقوة التى بها يكون الميل : وهو طلب الغذاء والشوق إلى ملاذ المآكل والمشارب وضروب اللذات الحسية .

هذه القوى الثلاث متنافرة لا ينتظم أمرها وتسعد حال صاحبها العقلية . إلا إذا سالم بعضها بعضا ، وصارت الأولى صاحبة السلطان والغلبة والقيادة ، وائتمرت الآخرين بأمرها ، فإن تمت ذلك تمت العدل للنفس واجتمع لها كمالها المعنوى ، حتى إذا هيمنت القوة العاقلة على أختها وأصبحت دولة العقل وقد خيم عليها الوفاق باستئصال جذور الشقاق والخصام - وجب توجيه الهمة إلى إيجاد الألفة بين الفرد وجماعته ، وبينه وبين أمته ، ثم بينه وبين شعوب العالم وقبائله ، حتى إذا تمت له الألفة النفسية والقومية والعالمية قيل إنه أصبح جزءا من العالم المنظم المنسق ، وأنه يحيا حياة التجانس والجمال ، وأنه جدير

بأن يكون مثلاً خلقياً يحتذى ، وأسوة حسنة تتبع ، وأصبح كما وصفه ابن مسكويه فى تهذيب الأخلاق - من الذين بلغوا مرتبة الفضيلة المحضة : وهى التى لا يكون فيها تشوف إلى آت ، ولا تلفت إلى ماض ، ولا طلب لحظ من الحظوظ الجسمية والنفسية ، أولئك هم الذين يتصرفون بتصرف الخير العقلى ، وأعلى رتب الفضائل . فيوجهون كل همهم إلى نيل الشئون المعنوية بلا طلب عوض أى يجعلون جهودهم لنفس ذاتها فقط .

وجملة القوال أن أفعالهم تصبح خيراً محضاً صادرة عن نفوس مستمدة من المدد الفياض الصمدانى ، لا تعوقها دواعى البدن ومنازعه البهيمية وعوارض التخيل المتولد عنهما ، بل كل همهم وإرادتهم فى ذات الفعل ، لا يطلبون بذلك حظاً ولا مجازاة ، وهكذا شأن الخير المحض لا يفعله صاحبه من أجل شىء آخر غير الفعل نفسه ؛ لأنه هو الغاية المتوخاة لذاتها المقصودة لعينها . قد بلغ فى النفاسة منزلة لا تتصور معها أن يكون مقصوداً لغيره . إنهم يلوغهم هذه الغاية القصوى من الرقى العقلى والنفسى قد تم لهم الاقتداء بالبارى جل شأنه ، فأفعاله تعالت حكمته إنما القصد الأول بها ذاته العلية ، لاشىء خارج من ذاته ، أى ليس قصدها الأول الكائنات التى نحن بعضها ؛ لأنه لو كان كذلك لكانت أفعاله حينئذ إنما كانت وتكون وتم بمشاركة الأمور الخارجة ، وليس لهذا معنى إلا أن تكون الأشياء الخارجة أسباباً وعللاً لأفعاله ، وهذا شنيع قبيح تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، يد أن عناية الله تعالى بالأشياء الخارجة إنما هى على القصد الثانى ، فليس يفعل ما يفعل من أجل الأشياء أنفسها ، بل من أجل ذاته أزلاً ؛ لأن ذاته العلية أهل للتفضيل - لا من أجل المفضل عليه ، ولا من أجل شىء آخر .

لا جرم أن الإنسان الذى استطاع الحصول إلى سبيل الاقتداء بالله فى أفعاله الحكيمة تكون أفعاله التى يفعلها على القصد الأول من أجل ذاته نفسها التى هى الفعل الآلهى ومن أجل الفعل نفسه ، فإذا ما عمل عملاً ينفع به غيره فليس نفع الغير مقصده الأول ؛ بل مقصده الثانى ؛ لأن القصد

الأول ذات الفعل ووجه الفضيلة ، لا اجتلاب منفعة أو دفع مضرة ، أو طلب رياسة ، أو محبة كرامة .

نقد هذا الميزان

١ - أنى للإنسان أن يؤلف بين هذه القوى الثلاث المتنافرة تأليفا يجعله المثل الأعلى الذى كان ينشده أفلاطون ؟

٢ - لقد غالى أفلاطون فى علاقة النفس بالجسم ، فقد اعتده عائقا لها عن كمالها ، بحجة أن جميع ما ينتابها من الأمراض كالجهل وغيره من الرذائل ناشئ عن اتحادها بها لما سجننت فيه عقابا لها على ذنوب اقترقتها فى حياة سابقة لهذه الحياة (١)

٣ - يستخلص من رأيه فى الدولة النفسية أنه لم يدع مجالا لحرية الإرادة ، وكل مذهب يقضى على حرية الإرادة فليس من الأخلاق فى شيء .

٤ - وجماع ما يؤخذ على أفلاطون فى مذهبه هذا أنه غالى فى إضعاف القوتين الغضبية والشهوية إضعافا قد يفضى إلى القضاء عليهما مع أن سنة الحياة تقضى بالابقاء عليهما ، مع وقفهما عند حد الاعتدال الذى لم يوفق أفلاطون إلى تبيانها .

الميزان التاسع السعادة

ماهية السعادة :

أيام أن كنت طالبا اتفقت أنا وزمرة من زملاء على أن نذهب فى يوم عطلة إلى مكان رحب الأرجاء طلق الهواء لترويح النفس عما ألم بها من تعب الدرس ، وفى أثناء ركضنا إلى غرضنا قطعنا شارعا فسيحا مليحا ، تحفه من

(١) يشعر هذا بأن أفلاطون من القائلين بتناسخ الأرواح ولا مراء فى فساد هذه العقيدة

جانبيه القصور الشامخة والمنازل الباذخة تحقق بها الحقائق الغناء ، والرياض
الفيحاء ، والرياح تعبث بأشجارها ، ويستوقفك تغريد أطياريها ، ترى عليها علامات
العظمة واضحة ، ودلائل السعادة لاثمة . فوجه أحدنا نظرنا إلى وجهة هذه
الدور وما عسى أن يكون عليه أهلها من هناة وسرور ، فقال آخر :
لا تخذعك المظاهر ؛ فقد يكون وراءها ماثق له المرائر ، وطالما انطوى
حسن الرواء على كثير من المشقة والعناء : يتظاهر المضحك بأعظم
سرور وقت الدآدن ، وجوانحه تكاد تتفتت بما ألم به من مصائب ومحن ،
وكثيرا ما كذب الخبر الخبر ، والمخدوع بالسراب لا يقف له على أثر ، ولعل في
ظاهرها الرحمة و باطنها من قبله العذاب . وما زال الحديث يدور حول سكان
هذه الدور وما تحتمله حالتهم من شدة ورخاء أو راحة وعناء ؛ إلى أن جر
ذلك إلى البحث في معنى السعادة ، فطلبت من الإخوان أن يحدد كل منهم
السعادة - على رأيه - بأوجز عبارة ، وأفصح بيان . فأخذ كل يلقي دلوه في الدلاء ،
ويبدى ما يعن له من الآراء : فمنهم من رأى أن السعادة في الثروة الواسعة ،
ومنهم من رآها في الصحة الشاملة ، ومنهم من ذهب إلى أنها في المناصب
السامية والدرجات العالية ، ومنهم من اعتقدها في الصيت البعيد والذكر
الحמיד ، ومنهم من قال : « يجب توافر كل هذا لكل سعيد » . كل ذلك
وأنا منصت إلى كل رأى ، مصغ إلى كل مقال . ولما جاء دوري قلت من
فوري - وكان قد سبق ذلك تفكير ليال ، وأيام طوال : « السعادة هي
راحة البال) أقصد بالبال : القاب النقي ، والضمير الحى ، والوجدان الحساس ،
والنفس اللوامة التي أقسم الله بها في سورة القيامة . وإني أصارح القارىء الكريم ،
وأصدق القول في أننى ما أخذت هذا المعنى من كتاب ، ولا شافنى به فيلسوف
ولا أستاذ ، وما كنت أدري حينئذ (ولعل كثيرا من الناس لا يدرون) أن
النبي صلى الله عليه وسلم قد حدد معنى السعادة تحديدا محكما ، واستودع
تعريفها لفظا رقيقا . نعم إنه صلى الله عليه وسلم لم يذكر ذلك في بحث على
ولا في أثناء درس ديني ، بل كان يقوله عرضا لمن يستفهم عن دعاء أشمل

وطلب من الله أتم وأكمل ، فيكون دعاء ، ويكون سعادة ، فقد تكرر في أدعيته صلى الله عليه وسلم - طلب العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة وقد بين (عليه أفضل الصلاة والسلام) العفو فقال : « هُوَ أَنْ تَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ ، وَتُعْطِيَ ، مَنْ حَرَمَكَ ، وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ ، وَتُحْسِنَ لِمَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ » فالعفو عن ظلمك هو نهاية الحلم والشجاعة ، وإعطاء من حرمك هو نهاية الجود ، ووصل من قطعك هو غاية الاحسان ، والاحسان إلى من أساء إليك هو منتهى كرم الأخلاق . وأما العافية فهي السلامة من الأمراض جسما ونفسا ، والسلامة من كل ما يؤذى (ظاهرا أو باطنا ، مادة أو أدبا ، حسا أو معنى) في الدين والدنيا والآخرة .

أعتقد الآن بعد هذا البيان أنك توافقني على « أن السعادة » هي العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة ، وأن الانسان إذا منحه الله تعالى هذين الأمرين يحيا حياة طيبة مطمئن الخاطر حسن الحال مستريح البال في دينه ودنياه وآخرته . حقا لقد أوتي سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) جوامع الكلم ، فقد جمع ما أقي فيه الفلاسفة أعمارهم ، وما قضوا منه أوطارهم ، في كلمتين : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

ويؤيد ما ذهبت إليه من معنى السعادة قوله تعالى في سورة محمد : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ، وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) وقوله تعالى بعد ذلك في السورة نفسها : (وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ) . ويتجلى من هذا أن من عاش في عفو وعافية عاش سعيدا ، ويزداد نصيبه من السعادة كلما امتدت به الحياة . وإلى ذلك يشير قوله عليه الصلاة والسلام : « السعادة طول العمر في طاعة الله »

تأمل في هذه الزمرة التي كانت تتناقش في معنى السعادة في أوقات الاستراحة
فترى أنها صورة مصغرة من العالم في نظره إلى السعادة : كل يفسرها بما توحى
إليه طبيعته وجبلته ، وبما يمل به عليه عقله وعقيدته ، وبما تطمح إليه نفسه ،
وتتطلع إليه همته . حقا إن الناس مختلفون في هذه السعادة الانسانية ، وقد
أشككت عليهم إشكالا شديدا جعلهم يتفارقون في شأنها ، ولا يهتدون إلى مكانها :
فالفقير يرى أن السعادة العظمى في الثروة واليسار ، والمريض يرى أنها في
الصحة والسلامة ، والذليل يرى أنها في الجاه والسلطان ، والخليع يرى أنها
في التمكن من الشهوات كلها على اختلافها ، والعاشق يرى أنها في الظفر
بالمعشوق ، والخير يرى أنها في إفاضة المعروف على المستحقين ، والبدوى
الذى نشأ في الصحراء حيث صفاء السماء ورقة الهواء وتمتعه من أنواع
الحريات بما يشاء يعتقد السعادة في عزة النفس ورفعها وشرفها وسمو مكاتها ،
يستमित في ذلك ولو رافقه شظف العيش ورقة الحال ، ويأبى الذلة كل
الآباء ولو صاحبها رغد العيش وكثرة المال : فهذا شاعر البادية يقول :

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أطيب منزل
ولقد عبرت عن ذلك أبلغ تعبير تلك البدوية (١) التي عافت نفسها أرقى
حياة في الحضر ، وحنّت إلى حياة خباء من الشعر ، لأنها شعرت في الأولى
بشيء من الذلة والاهانة ، وقد ترعرعت في الثانية على كبير من العزة وسمو
المكانة ، قالت :

ليت تخفق الأرياح فيه أحب إلى من قصر منيف
وكلب ينبع الطرّاق عني أحب إلى من قطّ ألوف
ولبس عباءة وتقرّ عيني أحب إلى من لبس الشفوف
وبكر يتبع الأظعان صعب أحب إلى من بغل دقوف

(١) هي ميسونة التي تزوجها معاوية ونقلها من البادية إلى الشام فكانت تكثر
الحنين إلى البادية .

وخرق من بنى عى نجيب أحب إلى من عالج عفيف
وأصوات الرياح بكل فج أحب إلى من نقر الدفوف
وأكل كسيرة في كسر يد-تى أحب إلى من أكل الرغيف
خشونة عيشة في البيت أشهى إلى نفسى من العيش الطريف
فما أبغى سوى وطنى بديلا وحسبى ذاك من وطن شريف
جاء الاسلام ورقق القلوب ، فرأى القوم في التقوى غاية المطلوب :
(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) قال الخطيب :

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقي هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا وعند الله للاتقى مزيد
وحسان بن ثابت يرى أن السعادة في السلامة من شرور الناس
وغوائلهم ، قال :

وإن امرأ يمسى ويصبح سالما من الناس - إلا ماجنى - لسعيد
والناشئ في الحضارة يرى أن السعادة في العائز الضخمة ، والمراكب
الفخمة ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيول المسومة والأنعام
والحرث . وقيل ليحيى بن خالد : ما السعادة ؟ فقال : « سلامة الخلقة ، وجودة
الحفظ ، وذكاء العقل ، والتأني في المطالبات » بينما المتنبي يرى أن ذا العقل
شقى في هذه الحياة ، وأنها لا تصفو إلا لجاهل ، أو غافل ، أو مغالط نفسه :
ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع
وقد بلغ من اختلاف الناس في نظرهم إلى السعادة أن كل مشغل
بناحية من نواحي الحياة ينظر إليها من تلك الناحية : فالكاتب أو الشاعر
مثلا يرى سعادته في تأثير كلامه في النفوس وتغلغله إلى سويداء القلوب
تأثيرا وتغلغلا ينبطق عليهما قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ مِنَ الشُّعْرِ
لِحِكْمَةٍ ، وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » .

والمشتغل بالدين يرى أن السعادة كل السعادة في ترك المحظور، وفعل المأمور، مع التخلي عن الرذائل، والتحلي بالفضائل، وبعبارة أخرى يرى السعادة في التقيد بالدين وعدم الانحراف عن جادته أو الحيد عن محبته. وابن خلدون أول علماء الاجتماع يرى أن الملق والخضوع مما يجلب السعادة. وأبو بكر الرازي شيخ أطباء الأجسام يقول: « إن استطاع الطبيب أن يعالج بالأغذية دون الأدوية — فقد وافق السعادة ».

رأى الامام الغزالي: والغزالي شيخ أطباء النفوس يرى أن اللذة والسعادة لابن آدم معرفة الله سبحانه وتعالى، قال: « اعلم أن سعادة كل شيء لذته وراحته، ولذة كل شيء تكون بمقتضى طبعه، وطبع كل شيء ما خلق له: فلهذا العين في الصور الحسنة، ولذة الأذن في الأصوات الطيبة، وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة، ولذة القلب الخاصة بمعرفة الله سبحانه وتعالى؛ لأنه مخلوق لها. وكل مالم يعرفه ابن آدم إذا عرفه فرح به: مثل الشطرنج إذا عرفها فرح بها ولو نهى عنها لم يتركها، ولا يبقى له عنها صبر، وكذلك إذا وقع في معرفة الله سبحانه وتعالى فرح بها ولم يصبر عن المشاهدة؛ لأن لذة القلب المعرفة، وكلما كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر. ولذلك فإن الانسان إذا عرف الوزير فرح، ولو عرف الملك لكان أعظم فرحا، وليس موجود أشرف من الله سبحانه وتعالى؛ لأن شرف كل موجود به ومنه، وكل عجائب العالم آثار صنعته، فلا معرفة أعز من معرفته، وليس منظر أحسن من منظر حضرته، وكل لذات الدنيا وشهواتها متعلقة بالنفس، وهي تبطل بالموت، ولذة معرفة الربوبية متعلقة بالقلب، فلا تبطل بالموت؛ لأن القلب لا يهلك بالموت، بل تكون لذته أكثر وضوءه أكبر؛ لأنه خرج من الظلمة إلى الضوء » وقال في موضع آخر:

« تمام السعادة على ثلاثة أشياء: قوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العلم. فيحتاج الانسان إلى أن يكون أمرها متوسطة؛ لئلا تزيد قوة الشهوة فتخرجه على الرخص فيهلك، أو تزيد قوة الغضب فتخرجه إلى الحق فيهلك،

فاذا توسطت القوتان بإشارة قوة العدل دُلَّ على طريق الهداية . وكذلك الغضب : إذا زاد سهل عليه الضرب والقتل ، وإذا نقص ذهبت الغيرة والحمية في الدين والدنيا ، وإذا توسط كان الصبر والشجاعة والحكمة . وكذلك الشهوة : إذا زادت كان الفسق والفجور ، وإن نقصت كان العجز والفتور ، وإن توسطت كانت العفة والقناعة ، وأمثال ذلك » وقال في موضع آخر : يخاطب ابن آدم :

« وقد جمعت في باطنك صفات : منها صفات البهائم ، ومنها صفات السباع ، ومنها صفات الملائكة :

فالروح حقيقة جوهر كـ ، وغيرها غريب منك وعارية عندك ، فالواجب عليك أن تعرف هذا ، وتعرف أن لكل واحد من هؤلاء غذاء وسعادة : فان سعادة البهائم في الأكل والشرب والنوم وما إليها ، فان كنت منها فاجتهد في أعمالها ، وسعادة السباع في الضرب والفتك ، وسعادة الشياطين في المكر والشر والحيل ، فان كنت منهم فاشتغل باشتغالهم ، وسعادة الملائكة في مشاهدة جمال الحضرة الربوبية ، وليس للغضب والشهوة إليهم طريق ، فان كنت من جوهر الملائكة فاجتهد في معرفة أصلك ، حتى تعرف الطريق إلى الحضرة الالهية ، وتبلغ إلى مشاهدة الجلال والجمال وتخلص نفسك من قيد الشهوة والغضب ، وتعلم أن هذه الصفات لاى شيء ركبت فيك ، فما خلقها الله لتكون أسيرها ، ولكن خلقها حتى تكون أسراك ، وتسخرها للسفر الذى قدامك ، وتجعل إحداها مركبة والآخرى سلاحك ، حتى تصيد بها سعادتك » وقال أيضاً :

« فاذا رأيت واحدا منهم (أى من أفراد المملكة القلبية) قد عصى عليك مثل الشهوة والغضب — فعليك بالمجاهدة ، ولا تقصد قتلها ، لأن المملكة لا تستقر إلا بهما . فاذا فعلت ذلك كنت سعيدا ، وأدبت حق النعمة ، ووجبت لك الخلعة في وقتها ، وإلا كنت شقيا ، ووجب عليك النكال والعقوبة »

بما تقدم يتبين أن الغزالي يرى أيضا أن السعادة في مجاهدة النفس وكبح جماح قواها . وهذا هو الجهاد الأكبر ، كما ورد في الأثر عن سيد البشر صلى الله عليه وسلم . ولا ريب أن من انتصر في الجهاد الأكبر نال السعادة العظمى في الدارين ، ومن كبابه الجواد في أثناء هذا الجهاد فقد دخل فيمن قال الله تعالى فيهم : « وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا كَلِمَتُهُ »

رأى أرسطوطاليس : وأرسطوطاليس يرى أن سعادة كل شيء في تمامه وكماله الذي يخصه . فالسعادة عنده ليست واحدة لجميع الناس ، فهي تختلف عندهم باختلاف أحوالهم ، وقد تكون « مصائب قوم عند قوم فوائد » على هذا الرأي . ولذلك يعرف السعادة بأنها « خير ما لو احدث واحد من الناس ، يعني أنها خير مضاف إلى صاحبه ، ومنسوب إليه ، ومختص به . فهو يعتقد أن السعادة ليست لها شخصية معينة قائمة بذاتها ومقصودة من الجميع ، بل هي تختلف بالاضافة إلى قاصديها ، وأما الذي يقصده الكل بالشوق ، وله طبيعة تقصد ، وشخصية قائمة بذاتها — فذلك هو الخير العام ، او الخير المطلق . فالخير العام عنده غاية الجميع ، وأما السعادة فهي غاية كل إنسان فيما يختص به وتمام الخيرات له وحده . وقد فسر أرسطوطاليس تمام الخيرات بأنه « هو الذي إذا بلغنا إليه لم نحتاج معه إلى شيء آخر » . وقال : « إن كان عطية من الله تعالى وموهبة للناس فهو السعادة ، لأنها عطية منه عز اسمه وموهبة في أشرف منازل الخيرات وفي أعلى مراتبها ، وهي خاصة بالإنسان التام ، ولذلك لا يشاركه فيها من ليس بتام : كالصبيان ومن يجري مجراهم »

رأى الفلاسفة العصريين : الفلاسفة العصريون في نظرهم إلى السعادة فريقان : متشائمون أو قانطون ، ومتفائلون أو آملون :

فمن الفريق الأول : « هنريك أبسن » النرويجي (١٨٢٨ — ١٩٠٦ م) فانه يعتقد أن السعادة تضيع في طلبها الجهود ، إذ أن الطريق إليها مسدود

وكل محاولة في سبيل ذلك يكون نصيبها الخيبة المحققة ؛ لأنها بدل أن تقرب السالك تفضي إلى الوقوع في المهالك : يقول : « إتنا لانعرف سيلا تودى إلى السعادة ، بل إن كل السبل تبعدنا عنها » فهو بهذا قد غلبه اليأس ، واستولى عليه القنوط من نيل السعادة ، ولا أمل له فيها . يشاركه في يأسه وقنوطه « توماس هاردى » الانجليزى فانه أخذ يبحث عن السعادة ويجد : وينقب ويكد ، ولما لم يوفق إلى طلبه ، ولم يصل إلى رغبته — رجع غاضبا حانقا ، يهذى هذيان المحموم ، ويفوه بما شاء له حقه ، ساخطا على المقدر وقدره . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ومن الفريق الثانى : « تولستوى » الفيلسوف الروسى الشهير (١٨٢٨ - ١٩١٠ م) فانه يرى أن السبب في إخفاق الانسان فى نيل السعادة أنه يسعى فى الحصول على نيل السعادة الشخصية ، ووجود سعادة فردية مستقلة جد مستحيل ؛ لأن الحصول عليها يستدعى إيقاع الضرر بالآخرين ، وهؤلاء الآخرون لا يمكن أن يقفوا مكتوفى الأيدي أمام ذلك الضرر اللاحق بهم ، بل لا بد من دفاعهم عن أنفسهم ، فيقع الجميع بسبب هذه الأثرة فى الشقاء ولكن السعادة الحقيقية هى سعادة الجماعة ، فهى الحرية بأن ينقب عن ويمكن العثور عليها ، و « يد الله على الجماعة » ، ولكن بالتعاون والمحبة فهى لا توجد فى غير حياة النور : حياة التضحية فى سبيل إسعاد الآخرين وفى إزالة العداوات الكامنة فى القلوب المتحجرة بالأثرة والانقياد إلى الأهواء والشهوات التى تجر الانسان إلى الظلام حيث يمثل أهل هذا العالم روايتهم المحزنة على مسرح الحيوانية .

و « برتراند رسل » الفيلسوف الانجليزى يشاطر « تولستوى » هذا رأى ، و « وسندكر » كلامه إن شاء الله فى أسباب الشقاء . « وبرناردشو » فى روايته « الانسان الراقى » يرد على أبسن فى تشاؤمه

قائلا : « إذا كان الانسان لا يستطيع أن يجد طريقا تفضي به إلى السعادة ، أو أن يجتنب طريقا توصله إلى الشقاء - فليس أمامه إلا الاعتصام بحبل الشجاعة ، وعدم الاقتصار على التسليم بحتم البؤس والشقاء . لِيَحْسِبَ ، نفسه محاولةً من محاولات الطبيعة ، وليعتبر أنه ضحية ترتقى عليها الأجيال القادمة معتبرة بأخطائه متعلمة بالحكمة من حمقه وشقائه ، وحينئذ لا بد له من أن يجد طريقا أخرى »

ويعزو « برناردشو » عدم نيل السعادة إلى كثرة أخطاء الانسان بريائه وسعيه وراء أغراضه الخاصة وامتناعه عن الاصغاء إلى الدعوة التي توجهها إليه قوة الحياة ، وعناده في تجاهل الورطة التي يجرها على نفسه بعمله ، ثم يقول « شو » : « إن هذه التهمة الموجهة إلى الانسان لا تقوم على أنه لم يستعمل عقله ، بل على أنه يستعمله في فن التدمير : ففي سبيل الحياة لا يخترع شيئا وأما في سبيل الموت فيخترع كل شيء : ذلك بأنه يستخدم نبوغه للتفنن في إثارة الحروب ، ولكنه يمتنع عن استخدامه فيما ينفع . فهو لم ، تق إلا في ميدان التخريب ، ولم يتقدم في وسائل التغذية ، بل يأكل ويشرب . ككله أسلافه ويشربون من ألف سنة ، ولكنه إذا خرج ليحارب ، يداءه فلن يستطيع أحد أن يتبع سرعة إبداعه وارتقائه في بناء أدوات التدمير . »

سبب اختلاف الناس في تحديد السعادة

١ - فضل الانسان على غيره :

اقتضت إرادة الله تعالى أن يجعل له خليفة في الأرض : هذا الخليفة هو الانسان قال تعالى : « (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) ولذا فضله على غيره : (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) وخلق ما سواه معونة له : (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) وليس فضله بقوة الجسم ، فالفيل

والبعير أقوى جسماً منه ، ولا بطول العمر ؛ فالنسر والحية أطول منه عمراً ،
ولا بشدة البطش ؛ فالأسد والنمر أشد منه بطشاً ، ولا بحسن اللباس ؛ فالطاوس
والذراع أحسن منه لباساً ، ولا بكثرة الذهب والفضة ؛ فالصحاري والجبال
أكثر منه ذهباً وفضة - بل فضله بما خصه الله به من العقل ، ولولاه لكان
أقل مخلوقات الله :

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الانسان
ولما تفاضلت النفوس ودبرت أيدى الحكمة عوالى المراتب
ب - تفاوت العقول :

هذه المنحة الالهية العظيمة التى اختص بها الانسان ليست بمقدار واحد
عند جميع أفرادها ، بل شاء الله تعالى أن تختلف باختلاف الأفراد وتباين ،
وتفاوت مراتبها عندهم وتفاضل : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً
وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُ الْوَنُ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ » ونبه على ذلك أيضاً
بقوله تعالى : « وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ ، وَزَرْعٌ
وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ، يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّضُ لُبَّهَا عَلَى
بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت : « يا رسول الله ، بأى شيء
يتفاضل الناس فى الدنيا ؟ قال : (بالعقل) . قلت : « وفى الآخرة ؟ » قال
(بالعقل) قلت : « أليس إنما يجزون بأعمالهم ؟ » فقال : « يا عائشة ،
وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله من العقل ؟ فبقدر ما أعطوا من العقل
كانت أعمالهم ، وبقدر ما عملوا يجزون » .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله تعالى قسم العقل على ثلاثة
أقسام ، فمن كن فيه كل عقله ، ومن لم يكن فيه جزء منها ، فلا عقل له »
قيل : « يا رسول الله ، ما أجزاء العقل ؟ » قال : حسن المعرفة بالله ، وحسن
الطاعة لله ، وحسن الصبر على أمر الله » ولنبى صلى الله عليه وسلم فى

هذا الباب أحاديث كثيرة وقيل لكل شيء غاية وحد ، والعقل لا غاية له ولاحد ، ولكن الناس يتفاوتون فيه كتفاوت الأزهار في الرائحة والطيب : وحكمة ذلك أن الانسان لا قدرة له وحده على إعداد جميع ما يلزمه في حياته ليعيش عيشة حميدة من مأوى وملبس ومطعم وغيرها ، فلم يكن بد للناس من تشارك وتعاون ، فجعل لكل قوم صنعة مغايرة للصنعة الأخرى عند غيرهم ، وكذلك جعل لكل قطر حاصلاته ، فيتولى كل صنفا من الصناعات يزاوله ويمجده ، ليتأتى تبادل المنافع : قال تعالى : (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) واقتضت الحكمة الإلهية أن تختلف أجسامهم وقواهم وهممهم ، ويكون كل ميسرا لما خلق له : (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ) فتكون معاشهم مقسمة بينهم : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » ويقول الشاعر :

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم
وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما في تباين الناس واختلاف طبقاتهم من المصلحة : فقال . « النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا تَبَايَنُوا ، فَإِذَا تَسَاوَوْا هَلَكُوا »

(ح) سبب تفاوت العقول :

يرجع تفاوت العقول في الغالب إلى ستة أشياء :

الأول - اختلاف الأمزجة ، وتفاوت الطينة ، وتغاير الخلقة ، كما أشير إليه فيما روى أن الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام أمر أن يؤخذ من كل أرض قبضة ، فجاء بنو آدم على قدر طبيعتها وجوها : الأحمر والأبيض والأسود والسهل والحزن ، والطيب والخبيث ، والحر والرطب . وإلى نحو هذا أشار الله تعالى بقوله . « وَأَبْلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ

رَبِّهِ ، وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِيدًا » وقال تعالى . (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ)

الثاني - اختلاف أحوال الوالدين في الصلاح والفساد : وذلك أن الانسان قد يرث من أبويه آثار ما هما عليه من جميل السيرة والخلق وقيحهما ، كما يرث مشابهتهما في خلقهما ، ولهذا قال الله تعالى : (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا) قيل كان بينهما وبين الأب الذي حفظا فيه سبعة آباء . وعلى نحوه روى أنه قال في التوراة : « إني إذا رضيت بركت ، وإن بركتي لتبلغ البطن السابع ، وإذا سخطت لعنت ، وإن لعنتي لتبلغ البطن السابع » تنبيهها على أن الخير والشر الذي يكسبه الانسان ويتخلق به يبق أثره موروثا إلى البطن السابع . (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

وقد سبق القول في الوراثة بما فيه مقنع .

الثالث - اختلاف الأطفال باختلاف ما يتفقدون به من رضاع وطعام وشراب ، فإن الطفل يتأثر إلى حد كبير جدا بأخلاق ظئره وصحتها ، ولذلك يقول العرب لمن تصفه بالفضل « لله درّه » وقد أثبت الطب إثباتا لا يحتمل الشك أن للغذاء تأثيرا كبيرا في حالة المرء خلقيا وصحيا .

الرابع - اختلاف أحوالهم في تأديبهم وتلقينهم ، وتطبيعهم ، وتعويدهم العادات الحسنة والقيحة . فحق الولد على الوالدين أن يؤخذ بالآداب الشرعية ، وإخطار الحق بiallyه ، وتعويده فعل الخير ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « مَرُّهُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعٍ ، وَاضْرِبُوهُمْ لِعَشْرِ » ويجب أن يصابن عن مجالسة الاردياء ؛ فانه في حال صباه كالشمع قابل للتشكل ، وأن يحسن في عينه المدح والكرامة ، ويقبح عنده الذم والمهانة ، ويبغض إليه

الحرص على المآكل والمشرب ، ويعود الاقتصاد في تناولها ومخالفة الشهوة ومجانبة ذوى السخف ، ويؤخذ بقلة النوم في النهار ، فهو يورث الكسل ، ويعود التأنى في أقواله وأفعاله ، ويعود صلة الرحم ، وحسن تأدية فروض الشيء : قال بعض الحكماء : « من سعادة الانسان أن يتفق له في صباحه من يعوده تعاطى الشريعة ، حتى إذا بلغ الحلم وعرف وجوبها فوجدها مطابقة لما تعودته - قويت بصيرته ، ونفذت في تعاطيها عزيمته » :
وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه
« وربما كان عقوق الولد من سوء تأديب الوالد » .

الخامس - اختلاف من يتخصص به ويخالطه ويعاشره ، فيأخذ طريقته .
ويسلك محبته ، ويكتسب خلقه وعادته ؛ فإن المرء على دين خليله ، ولذا قيل :
اصحب الأخيار وارغب فيهم * رب من صاحبه مثل الجرب
وقيل : واختر قرينك واصطف فيه تفاخرا * إن القرين إلى المقارن ينسب
واحذر مصاحبة اللئيم فإنه * يعدى كما يعدى الصحيح الأجرب

وقيل : عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدى
إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم * ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى
ويشير إلى ذلك كله قوله صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب »
وسياتى إن شاء الله من ذلك شيء كثير في الصداقة .

السادس - اختلاف الاجتهاد في تزكية النفس بالعلم النافع ، والعمل الصالح
حين استقلال المرء بنفسه : قال تعالى : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ
وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) فمنع سبحانه وتعالى المساواة بين العالم والجاهل لما
قد خص به العالم من فضيلة العلم ، وقال تعالى : (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)
فتنى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمرا ، أو يفهم منه زجرا . ولا شك أن
ثمرة العلم العمل ، والعلم بلا عمل كشجرة بلا ثمر . وسنهب القول في ذلك في
بابي العلم والعمل إن شاء الله تعالى .

هذه هي أسباب تفاوت العقول واختلافها ، والسعيد من اجتمعت له هذه الأسباب : بأن يكون طيب الطينة : معتدل المزجة ، جاريًا في أصلاب آباء صالحين ذوى أمانة واستقامة ، مرتضعا بدير طيب ، ومأخوذاً في صفوه من قبل مربيه بالآداب الصالحة وبالصيانة عن مصاحبة الأشرار ، ومتخصصا بعد بلوغه بمذهب حق ، ومجهداً نفسه في تعرف الحق ، مسارعاً إلى الخير : فمن وفق في هذه الأشياء تنجع فيه الخيرات من جميع الجهات ويكون جديراً أن يعد من وصفهم الله تعالى بقوله : (وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ) والشقي هو من يكون بعكس هذا في الأمور التي ذكرناها .

واعلم أن من طابت أحواله انتفع بكل ماسمعه وشاهده إن خيراً وإن شراً ، ومن خبثت أحواله استضر بكل ماسمعه وشاهده ، وعلى ذلك دل الله تعالى بقوله : (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا زَكَاةً) فالخبث من الأرض وإن طاب بذره ، وعذب ماؤه - لا ينبت إلا خبيثاً ، والطيب من الأرض وإن خبث بذره ، وملح ماؤه - لا ينبت إلا طيباً . ولذلك قال سبحانه وتعالى في كتابه : (يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ) ، وقال في صفة كتابه : (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى)

حظ الانسان من السعادة

على قدر حظه من العقل

قد علمنا من حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي روته السيدة عائشة رضي الله عنها والذي مر ذكره آنفاً - أن الناس يتفاضلون في دنياهم وفي آخراهم بالعقل ، لأنه هو الذي يميز الخير من الشر ، والنافع من الضار ، والطيب من الخبيث . وهو الذي يقدر الأمور قدرها ، وينزلها منازلها ، ويصورها على حقيقتها ، ويكشف ماهيتها وسببها ونتيجتها . وكلما كمل وتم كان تحديده للسعادة أشمل وأعم ، فالمرء يحظى من السعادة على قدر مانع من العقل .

ولما كانت العقول متفاوتة كانت آراء الناس ورغباتهم متغايرة على قدر ذلك التفاوت : فحب الفخر مثلاً يدفع بعض الناس إلى طلبه من كل ناحية والبحث عنه من كل سبيل ، وهؤلاء لا يبخلون بتضحية كل مالهيم من عزيز ونفيس لقاء ذاك ، في حين أن البعض الآخر لا تطيب نفسه به ، ولا تتحرك رغبته إليه ، فلا ينشط لنشدانه ، ولا يبالي بفقدانه ولا وجدانه . وكذلك المال : يتمكن حبه من قلوب فئة من الخلق حتى يسترقيم ويستعبد لهم . ولا يكون له هذا السلطان العظيم على فئة العقلاء والزهاد . ومثلها السلطة : تطيش بها الأفكار ، وتتوجه إليها الأبصار ، وتفسد القلوب ، وتتوق النفوس إلى الاستئثار بها ، ولا يحفل بها فريق آخر ، ولا يتداني إلى التربع فوق عرشها . وكذلك بين الناس من يجود بنفسه ونفيسه لنيل رتبة أو وسام أو لقب يشعر بسمو المكانة ، كما أن بينهم من لا يعبأ بذلك ، ولا يعيره أدنى عناية ، بل يضحك منه ، ويسخر ممن يتهاكون عليه ، ويرى أن هذه الرتب والألقاب والشارات لا تمتاز بشيء من لعب الأطفال وألقابهم وشاراتهم . وبين الخليفة من يطمح إلى الجاه الرفيع ، ويتطلع إلى الصيت البعيد ، وبينهم من يود أن يجد في أحد مجاهل الأرض ملجأً يتوارى فيه عن الأنظار ؛ ليخفي ما هو فيه من نسك وتواضع وانكسار ؛ بحيث ينقطع للتبتل إلى الله ، وينسى العالم والعالم ينساه .

كل هذه المتغايرات - وهي قل من كثير ، وقطرة من بحر من أمثالها الكثيرة - نشأت عن تباين مراتب العقول واختلاف قواها وعدم كونها في مستوى واحد من المعرفة والتمييز بسبب حظها من المادة العلية غزارة أو نزارة ؛ فإنها بهذا تعلو العقول الأخرى أو تقف عندها ، أو نهوى دونها فلا تنشأ كل المراتب عندها ؛ بسبب تفاوت أبعادها وعدم صدق مشاهدتها ، ولذلك لا تشابه الأحكام عند الأنعام . واختلاف الأنظار في التصوير ، وتباين العقول في التقدير - لا يدلان على حدوث تبديل في الشيء أو تغيير ؛

بل على عدم صدق المشاهدة ؛ لأن حقائق الأشياء ثابتة لا تتغير ، فالاختلاف في تصويرها أو تقديرها ناشئ من ذات المقدر أى من الانسان ذاته . ولما كانت قيمة الشيء وصورته هما اللذان يبعثان على الرغبة فيه أو غنه - كان الانسان مقدر القيمة هو سبب شقاء نفسه أو سعادتها .

إن لقدر الاشياء تأثيرا عميق الغور بعيد المدى في هذه الحياة ، والحاكم لهذا القدر أو عليه هو العقل ، فالعقل محكمة التقدير ، وعجيب جد عجيب أمر الانسان الذى يغفل شأن هذه المحكمة ، ويهمل أمرها ولا يتعهدا بالترمم والتنظيف مع علمه أن في حكمها وتقديرها سعادته الأبدية ، أو شقاوته السرمدية . يُعْنَى المرء منا كل العناية بأمر عقله ، ويهمل كل الاهمال شأن عقله ، فيتفقد الأول كل يوم بالصبغ والتنظيف ، ولا يوجه عنايته لحظة إلى الثانى ، ولا يتعهد بالصقل والتهذيب والتثقيف ولو أنزل عقله منزلة حذائه ، أو أعاره جزءا من اهتمامه به واعتناؤه - ما أنَّ العالم بما أوقعه فيه ضعف العقول من ويلات ونكبات ، ولا اهتدى إلى سبيل الخير وتمتع بجميع أنواع السعادات . نعم عجيب أن يعنى الانسان بغذاء الجسد ، فينتخب ما صلح ويتجنب ما فسد ، ولا يعنى بفحص غذاء عقله ، فيقدم له الآراء السقيمة بدل القويمة ، والنظريات الفاسدة بدل الراشدة . وعجيب ألا يجتنب ذوى الأفكار الطائشة والآراء السخيفة ، مع أنهم أعظم ضررا من الأغذية الرديئة أو المشروبات الفاسدة . !! فيوم تتوجه عناية الانسان إلى هذه الناحية يكون ذلك اليوم بدء انقلاب عظيم في الأفكار ، ومجارى الأحوال ، ودورا جديدا من أدوار الاصلاح الأدبى والاجتماعى وخطوة واسعة في سبيل السعادة الحقيقية .

إن من يشاق إلى نيل شيء ويرغب في حصوله عليه ويتوهم أن نيله نهاية السعادة - ينظر إليه بعين الشوق والرغبة ، لابعين الحقيقة « وحبك الشيء يعنى ويصم » « وعين الرضا عن كل عيب كلية » فإذا ماناله بقى الشيء .

على حاله ، ولكن قلت الرغبة فيه أوزالت ، فتنظر إليه العين مجردة من كل مؤثر ، فينكشف له أمره ، ويكذب خبره خبره ، وإذا بالقيمة التي أوجدتها الرغبة والشوق وعظمها الظن والوهم - لا وجود لها ، فترجع النفس من السعادة التي كانت تؤملها فيه بخفي حنين . فقيمة الأشياء ليست في ذاتها ، بل في مقدار الرغبة فيها والشوق إليها : فالمال مثلا يظن الانسان أن في نيله كل السعادة ، وبعد الادخار يندحر هذا الظن كل الاندحار ، فتكون له قيمتان : قيمة في نظر المعوز ، وأخرى في نظر المكتنز ، وبما أن حقيقة الأشياء ثابتة فالصواب غير الواقع : فالمال إذا كان قوى التأثير في القلوب إلى حد إبدال الطبائع وتحويل المبادئ وفعل المنكرات وانتهاك الحرمات وقطع المحارم - فإن هذه القوة ليست في المال ولاله ، وإنما في رغبة النفس الضعيفة وشوقها ، وتوهمها أن الخيال حقيقة ، وأن السراب ماء . ولا ريب في أن ضعف أحد المتنازعين قوة للآخر ، فيكفي أن تنخلص النفس من الرغبة القوية في المال ، لتزول منه تلك الجاذبية العظيمة ، فلا يرى بعين الصواب إلا مادة لا أكثر ولا أقل .

فليست قيمة الحياة ولا تحقيق السعادة بأمثال هذه الأشياء التي لا قيمة لها في ذاتها ، وليس لها تأثير صادق في سعادة النفس الحقيقية . وإنما تكون قيمتها وسعادتها باجتئاب الخيال ، والتعلق بأهداب الحقيقة المجردة ، والركون إلى الصواب من حيث هو صواب بقطع النظر عن الرغبة فيه أو عنه .

يشعل الرجل عودا من الثقاب ليبحث في الظلام عن شيء يبتغيه ، ثم لا يعجبه ضوء عود الثقاب ولا يرضيه ، فيترك التنقيب عما يريد ، ويشرع في البحث عن مصباح من جديد ، ويستمر كذلك حتى يبيد عود الثقاب أو يكاد يبيد ، فيعود إلى البحث عن شيء الأول ، وقد فقد الثقاب الذي عليه المعول ، ويكون بسوء تصرفه قد ألقى مامعه من نور ضئيل ، دون أن ينال بغيته ، أو يدرك طلبته .

هذا هو مثال الانسان : أسباب سعادته متوافرة في ذاته ، وفي تناول يده وبين ما يملك ؛ لكنه لا يقنع بها ، أولا يتنبه إليها ، ويبحث عنها في غير مكانها ، ويجد في طلبها من غير نظامها ، فإذا ضل الطريق وهو لا بد ضال ، وأضناه البحث وهو لا بد مضى - يرجع إلى نفسه ، ولكن بعد فوات الفرصة : إذ يرى أن شعاع حياته قد نفذت مادته ، فانطفأ أوقارب الانطفاء فتفتى حياته دون أن ينال ما طمع فيه ، وقصد إليه .

من هذا يتضح أن كل أنواع الشقاء والتعاسة واليأس من خطأ العقل وفساد حكمه . وإذا كان للعوامل الأجنبية عن ذات الانسان تأثير في نفسه فإنه هو الذي يمنحها القوة المؤثرة بالقيمة الوهمية التي يعزوها إليها . وكل ما يجول في الأفكار أو تقع عليه الأبصار فهو من أسباب السعادة أو الشقاوة بحسب مقياس العقل ، وقد يخطئ هذا ويطيش منه السهم ، وقد يوفق إلى السداد فيصيب في الحكم . فلو فهم الانسان ماهية ذاته وما يعوزها ، وما هي السعادة وما يستوجبها لوقف تنقيبه على ما يتفق مع حاجة نفسه ، ويؤدي إلى سعادته ، وفي هذه الحالة تستطيع البصيرة أن ترى الأشياء على صورتها الصحيحة ، ويمكن العقل أن يلتزم الصواب في تقديره ، فتتحد النفس والعقل . ولا يتسرب إليهما اختلاف في حكمها على الأشياء ، بل ما يقنع أحدهما يرضى الآخر . ولا يرى سببا للسعادة إلا ما كان موصلا إليها حقيقة .

إن غالب الأشياء التي نتطلع إليها النفس تحاكي الأصنام في قيمتها الحقيقية والوهمية : فالوثني هو الذي يصنع صنمه يده من المادة ، ثم يعزو إليه من القوى المختلفة والأمور الخارقة ما ليس له منها أقل نصيب ، ثم يعتقد أن ما صنعت يده مصدر لقدرة غير محدودة ، ويتعدى ذلك إلى خوفه منه ورهبته إياه ، ثم إلى التقرب إليه بمختلف العبادات . فهذه القيمة الوهمية للصنم عند الوثني قد نسجها وهمه وحاكا خياله ، ولو رجع إلى الحقيقة

لتجلى له أنه مجرد من كل ما عزاؤه إليه ، وأنه لا حول له ولا قوة ، ولا قيمة له غير قيمة المادة المصنوع منها .

فكذلك لو جردت الأشياء من قيمتها الوهمية التي يسندها إليها الانسان ، وانكشفت قيمتها الحقيقية - لظهر جلياً أنها أقل من الاولى بكثير ، ولقلت الرغبة فيها ، أو تحولت إلى الرغبة عنها .

الارادة والسعادة

إن مهمة العقل مقصورة على التمييز والفهم ، فإذا أداها تمام الأداء منع ما يحول دون السعادة فقط . أما العمل لنيل السعادة فهمة قوة أخرى من خواص الذات : هذه القوة الأخرى هي الارادة ، والارادة قوة ذاتية نفسية تلازم الحياة ، فإذا قويت الحياة ظهرت الارادة وتغلبت على الأحوال الخارجية والمؤثرات الأجنبية ؛ وإذا ضعفت الحياة اختفت الارادة ، وكانت الغلبة حينئذ للأحوال والمؤثرات الخارجية . إذاً للإرادة شأن هام جداً في سعادة الانسان ؛ لأن السعادة تتوقف على منع الأحوال السيئة من التأثير في النفس . فحفظ المرء من السعادة على قطـ حظه من قوة الارادة . وعلى قدر ما يتعهد به إرادته من العناية والتقوية يكون دنوه من الهناء والسعادة وقد ذهب جم غفير من نطس الأطباء إلى غاية بعيدة في تقديره قوة الارادة وفائدتها وتأثيرها في النفس والجسم ، فحققوا تأثيرها في الإبراء من المرض وفي حفظ النفس من مرض السوداء والتشنج العصبي ، وقد حققوا تأثيرها في إبدال الطبائع . ولم يكن الأقدمون يجهلون هذه القوة ، كما كانوا لا يجهلون فضل استخدام الايهام في الإبراء أيضاً : قال أبو بكر الرازي : « ينبغي للطبيب أن يوهم المريض أبدا الصحة ويرجيه فيها » ولكن الفضل في شيوع استخدام الارادة والايهام يرجع إلى عصرنا هذا : فإذا اعتقد مريض قدرة طبيب شفي على يديه ، وإذا أدخل في روعه عدم نجاح

دواء ما أثر الوهم في نفسه تأثيرا يقلل من فائدة الدواء ، كما أنه إذا رسخ في ذهنه فائدة دواء آخر ولو كان ماء أثر في نفسه تأثيرا حسنا يساعد على الشفاء والوهم هو الداعى إلى الخوف وإلى الاطمئنان : فإذا ما أثر في العقل على وجه متأسرى ذلك الأثر إلى المراكز العصبية على ذلك الوجه ، وبدأت علامته ذلك في الجسم ، ومرآة ذلك الوجه : فيمتنع عند الخوف ، ويتورد عند السرور ، ويحمر عند الحجل ، وتتغير معاملة بتغير الأحوال النفسية . وكذلك القلب : تضعف دقاته أو تتضاعف على مقتضى ذلك ، وتهيج الدورة الدموية ، فيحدث النزيف ، أو تضعف حركتها أو تقف فتقف معها حركة القلب . وبالوهم يشعر الانسان بالألم مع عدم وجوده ، أولا يشعر به مع وجوده . وللارادة هذا التأثير نفسه ، فتحول دون تأثير العوامل الخارجية في النفس ، أو تبدلها إلى ما يحول الخوف اطمئنانا ، والحزن سرورا ، والشقاوة هناءة وسعادة .

قد يكون أثر العذاب في الأجسام متماثلا إذا اتحدت الآلة أو تماثلت الآلات قوة ونوعا ، ولكن الألم من هذا العذاب لا يكون بدرجة واحدة أبدا : فمن الناس من يتألم كثيرا لأقل مؤثر ، ومنهم من لا يكاد يتألم ولو عظم المؤثر : فالعاشق مثلا يقاتل بين يدي من يعشقها دفاعا عنها ، ويشحن جسمه بالجراح ، فلا يحسها ، ولا يتألم منها ، ولا يتوانى عن موالاة عمله إظهارا لشجاعته أمام عشيقته . وقد يصاب رجل آخر بمثل جراح ذلك العاشق أو دونها بلوغا ، فيتألم منها ، ولا يقوى على موالاة الحرب . فالأثر حادث في الجسمين ، ولكن قوة الارادة عند الأول أضعفت من تأثيره في المراكز العصبية ، ولم يحدث الألم وقت الإصابة . وضعف إرادة الثانى جعل التأثير يصل المراكز العصبية فتهيجت ، وأحدثت الألم ، فأحسه وتألم منه .

وقد يحكم على رجلين بالاعدام : أحدهما لتمسكه برأى أو مبدأ أو عقيدة ، والآخر لارتكابه جريمة ، فيقدم الأول على الموت بدون أقل انزعاج لقوة

إرادته وإصرارها على التغلب على كل ما يواجهها أو يناهضها من المؤثرات ،
والثاني قديموت من الخوف قبل أن تميته آلة الاعداد لضعف إرادته وفنائها .
فإذا كان هذا التأثير القوي ثابتاً للإرادة فلم لا يتوسل بها الانسان إلى
تلطيف آلامه ، أو مضاعفة مسراته ؟

يتوهم بعض الناس أنه يمكن تحويل المعادن إلى معدن الذهب بوساطة
شيء يبحثون عنه ، ولم يكن ليوهى عزائمهم ، أو يوهن قواهم ، أو يقطع
آمالهم ، أو يثنيهم عن غايتهم - ما يصادفهم في سبيل ذلك من تعب وخسارة
وعقبات وإخفاق وإضاعة وقت بدون جدوى .

ولا ريب في أن السعادة أتمن من الذهب ، والناس أرغب فيها منه ،
فيجب أن يكون اهتمامهم بتحويل كل المؤثرات إلى نيل السعادة أعظم منه
بتحويل المعادن إلى الذهب . وليس ذلك مستحيلاً ما دام ما يتم به التفاعل
موجوداً ومدركاً لا مجهولاً مثل ما يتم به تفاعل المعادن لتكون ذهباً . وهذا
الشيء الذي يتم به تفاعل المؤثرات وتحويلها إلى تحقيق السعادة هو الإرادة .
إن توجيه الإرادة إلى هذه الغاية يجعل الانسان قادراً على حكم نفسه ،
وعلى منع تأثير المؤثرات الخارجة فيها أو تخفيفه ، أو تحويل ذلك التأثير إلى
ما ينبغي أن يشعر به المرء من اللذة والسعادة . ولما كانت أهمية الحوادث
مقصورة على ما تحدثه من التأثيرات في المراكز العصبية فتحويلها إلى وفق
مشيئة النفس وحاجتها يحصر الانسان عملها فيما تريده الذات ، ويكون له
تمام السلطة على الحياة ، فينال غايته منها ، وهي السعادة . ولو كان الوصول
إلى هذه الغاية على تلك الصورة ميسوراً لكل الناس لكانت السعادة هينة
المنال ، ولكنه متعذر بدون قوتي العقل والإرادة ، فلا بد من استمرار ما يقويهما
من العلم والتربية .

والتربية تعنى بتهديب الأطفال وتربية عقولهم وإعدادها للاكتمال ،
وهي التي تطبع فيها قيم الأشياء ، وتحدد قدرها من الوجاهة والحقارة .

فاذا وجد العلم ، وتكونت الأخلاق الفاضلة بالأدب ، وعرف العقل
بالتريية ماهية السعادة - كانت الارادة القوية هى القوة العاملة لتحقيق الهناءة
ونيل السعادة .

عناصر السعادة

كان متوقعا ، بل كان بدهيا أن يختلف الناس عامة ، والفلاسفة خاصة فى
عناصر السعادة ؛ إذ أنهم ذهبوا فى شتى المذاهب ، وسلكوا مختلف السبل
فى تعرف ماهيتها والوقوف على حقيقتها كما أوضحنا ذلك فيما سبق . فليس
عجيبا أن يكون هذا حالهم فى تبين عناصرها ، وليس عجيبا أيضا أن التبت
عليهم اقسامها ومراتبها وأسبابها ، فذكروا إحداها فى مقام الأخرى . ومادام
الأصل قد أشكل عليهم فالخلط فى الفروع أمر لا محيص عنه ؛ لأن معرفة
الفرع متوقفة على إدراك أصله . والفلاسفة فى ذلك فرقتان :

الأولى — الفيثاغورية أو الأفلاطونية :

يرى فيثاغورس . وبقراط ، وأفلاطون ، وأشباههم — أن عناصر
السعادة تنحصر كلها فى هذه الفضائل الأربعة : وهى الحكمة ، والشجاعة ،
والعفة ، والعدالة . وأجمعوا على أن هذه الفضائل كافية فى السعادة ، ولا
يحتاج معها إلى غيرها .

الثانية — الأرسطوطاليسية :

يرى أرسطوطاليس ومشايخه أن عناصر السعادة خمسة :

الأول — صحة البدن . ولطف الحواس : ويكون ذلك من اعتدال
المزاج يعنى أن يكون جيد السمع والبصر والشم والذوق واللمس .

الثانى — الثروة والأعوان وأشباههما حتى يتسع لأن يضع المال فى
موضعه ، ويعمل به سائر الخيرات ، ويواسى منه أهل الخيرات خاصة
والمستحقين عامة ، ويعمل به كل ما يزيد فى فضائله ، ويستحق الثناء والمدح عليه

الثالث — أن تحسن أحوالته في الناس، وينشر ذكركه بين أهل الفضل فيكون مدوحاً بينهم، ويكثر من الثناء عليه؛ لما يتصرف فيه من الاحسان والمعروف
الرابع — أن يكون منجحاً في الأمور: وذلك إذا استتم كل ما روى فيه وعزم عليه، حتى يصير إلى ما يأمله منه.

الخامس — أن يكون جيد الرأي، صحيح الفكر، سليم الاعتقادات في دينه وغير دينه، بريئاً من الخطأ والزلل، جيد المشورة في الآراء.
فمن اجتمعت له هذه العناصر فهو السعيد الكامل على مذهب هذه الفرقة؛ ومن حصل له بعضها كان حظ من السعادة بحسب ذلك

﴿ سبب اختلاف الفرقتين ﴾

١- وجهة نظر الفرقة الأولى :

ترى هذه الفرقة أن الفضائل والسعادة كلها في النفس وحدها؛ ولذلك لما قسموا السعادة جعلوها كلها في قوى النفس التي ذكرناها وهي: (الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدالة). واتفقوا على أن المتصف بهذه الصفات لا حاجة به في سعادته إلى غيرها من فضائل البدن ولا ما هو خارج عن البدن؛ فإن الإنسان إذا حصل تلك الفضائل لم يضره في سعادته أن يكون سقيماً ناقص الأعضاء مبتلياً بجميع أمراض البدن، اللهم إلا أن يلحق النفس منها مضرة في خاص أفعالها مثل فساد العقل، ورداءة الذهن، وما أشبههما. وأما الفقر، والخمول، وسقوط الحال وسائر الأشياء الخارجة عنها — فليست عندهم بقادحة في السعادة البتة.

وتظهر هذه الفرقة أن السعادة لا تحصل للإنسان إلا بعد مفارقة النفس للبدن والطبعيات كلها؛ لأنها تعتقد كما قلنا أن السعادة في النفس وحدها، وسموا الإنسان ذلك الجوهر وحده دون البدن، ولذلك حكموا أنها ما دامت في البدن ومتصلة بالطبيعة وكدرها ونجاسات البدن وضروراته وحاجاته الإنسان به وافتقاراته إلى الأشياء الكثيرة فليست سعيدة على الإطلاق

وأیضا لما رأوها لا تستكمل الأشياء العقلية لاستتارها عنها بظلمة البدن ، أعز قصورها ونقصانها — ظنوا أنها إذا فارقت هذه الكدورة فارقت الجهالات وصفت وخلصت ، وقبلت الاضاءة والنور الالهي ، أعز العقل التام وعلى رأى هؤلاء فالانسان لا یسعد السعادة التامة إلا فی الآخرة بعدموته
ب — وجهة نظر الفرقة الثانية :

وترى الفرقة الثانية أن البدن جزء من الانسان وليس آلة . فلذلك اضطروا إلى أن يجعلوا السعادة التي فی النفس غیر كاملة إذ لم تقترن بهاسعادة البدن وماهو خارج البدن أيضا ، أعز الأشياء التي تكون بالبخت والجد . والمحققون من الفلاسفة يحقرون أمر البخت وكل ما يكون به ومعه ، ولا يؤهلون تلك الأشياء لاسم السعادة ؛ لأن السعادة شيء ثابت ، غیر زائل ولا متغير ، وهي أشرف الأمور وأكرمها وأرفعها فلا يجعلون لأحسن الأشياء فيها نصيبا متى كان يتغير ولا یثبت ولا یتحصل بروية ولا فكر ، ولا يتأتى بعقل وفضيلة .

وهذه الفرقة قد ناقشت الفرقة الأولى رأيها : أن الانسان لا یسعد السعادة التامة إلا فی الآخرة بعد موته قائلة : إنه من القبيح الشنيع أن یظن أن الانسان مادام حیا يعمل الأعمال الصالحة ، ویتقصد الآراء الصحيحة ، ویسعی فی تحصيل الفضائل كلها لنفسه أولا ثم لأبناء جنسه ثانيا ، ویخلف رب العزة (تقدس ذكره) فی خلقه بهذه الأفعال المرضية — فهو شقی ناقص ، حتی إدامات وعدم هذه الأشياء صار سعیداتام السعادة ! !
وهذه الفرقة الثانية التي یرأسها أرسطوطا ليس تحد الانسان بالناطق المائت ، وبالناطق الماشی برجلین (لایجوهر النفس دون البدن ، كما ذهب إلیه الفرقة الأولى) ولذلك رأت أن السعادة الانسانية تحصل للانسان فی الدنيا إذا سعی لها ، وتعب بها ، حتی یصیر إلى أقصاها

رأى تولستوى فى تقسيم السعادة

يرى هذا الفيلسوف العظيم أن السعادة نوعان : وهمية ، وحقيقية . ويريد بالوهمية سعادة الفرد ، وبالحقيقية سعادة الجماعة ، ويعتقد أن السعادة الحقيقية هى الحرية بالطلب ، الجدية بالسعى الممكنة النيل . وأما السعادة الفردية المستقلة فهى غاية لا تدرك وحدها ؛ لأن الحصول عليها موقوف على سعادة الجماعة ، فيمكن نيلها باعتبارها وسيلة لاسعاد الجماعة لا غاية ؛ إذ نيلها مستقلة لا يتأتى إلا بضرر الجماعة ، والجماعة تأبى ذلك كل الإباء . فالسعى فى إدراك سعادة فردية لا يحصى لأثرته عن مناهضة الجماعة ومنافستها منافسة غير مشروعة ، فيدعو ذلك إلى التنازع والتدافع ويشتد الحجاج واللجاج ، ويقوى الخصام والشقاق ، حتى تقوم بينهما الحرب على قدم وساق ، فيهوى المرء فى حضيض الشقاوة من حيث كان يهوى أن يصعد إلى ذروة السعادة فالراغب فى الحياة الحقيقية الدائمة لا بد أن يخضع نفسه وآماله لناموس العقل السليم والوجدان الحساس والدين القويم ؛ فهذه كلها - يؤيدها التاريخ ، ومشاهدة حياة الناس ، والاختبار - تدعو إلى التعاون على الخير ، وتحث على الاتحاد والمودة ، وتظهر جليا لكل إنسان تعذر الوصول إلى سعادة فردية مستقلة ، وتبين له أن إرغام الكائنات الحية الأخرى على حبه فقط ، وعلى كراهة أنفسها أمر من دونه شيب الغراب .

ومع كل ذلك فالإنسان لا يدخر جهدا ، ولا يتوانى عن السعى وراء هذه السعادة الموهومة ؛ مع أنه يدرك أنه يعالج المستحيل : حقا لقد مرت الأجيال ، وكرت القرون ، وقد عرف الناس أبعاد النجوم ، وقرروا أوزانها ، ووقفوا على حقيقة مادة الشمس والسيارات ، ولم يعرفوا كيف يوفقون بين مطالب السعادة الشخصية وحياة العالم التى تجزم بعدم إمكان هذه السعادة . إن هذه المسألة فى نظر الجمهور غير قابلة للحل كما كانت من مضى خمسة آلاف سنة

يقول الوجدان الحساس للانسان بعد يأسه من نيل سعادته ، ومساءلة نفسه في فائدة عمله لها أو عدم فائدته :

في إمكانك نيل هذه السعادة إن عاش جميع الناس لك ، وأحبوك أكثر من أنفسهم . والحصول على هذه الامنية في حيز الإمكان إلا أنه يتوقف على شرط واحد : وهو أن كل الكائنات يعيش بعضها لخير الآخر ويحبه أكثر من نفسه فيصبح الجميع متحابين سعداء : فيمكنك الحصول على السعادة متى أحبك الآخرون أكثر من أنفسهم ، وأحببتهم أكثر من نفسك .

هذه مناجاة الضمير الحي ، وذلك جوابه ، وقد أوضحه الدين الاسلامي أحسن الايضاح ، وعبر عنه القرآن الكريم ، والحديث الشريف أبلغ التعبير : قال تعالى : (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ، وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَآذِكُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا)

وقال : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) وقال عليه الصلاة والسلام : « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا » وقال : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »

وقد شبه النبي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم المؤمنين في تعاونهم وتراحيمهم وتواصلهم بأعضاء الجسم الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحى والسهر . والآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية المحمدية في هذا الباب أكثر من أن تحصر وسيأتى الكثير منها في موضعه إن شاء الله تعالى . وإنما ألمعنا إلى بعضها هنا لنشير إلى أن النقطة التى يدور حولها الفيلسوف العظيم « تولستوى » قد جلاها الاسلام ، وأوضح غامضها في بضع كلمات . حقا إن الدين الاسلامي قد حل أعقد مشاكل العالم الحالية

وأعوص مسائل الحياة الحاضرة في كلمتين : قضى على التطاحن والتنابد والتقاطع والتدابير ، والتنازع والتدافع وما إلى ذلك مما هو واقع بين جميع دول الأرض بقوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) وحل مشكلة الشيوعية والفوضوية ، والتعطيل ، بقوله جل شأنه : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)

يقول « تولستوى » : على هذا الشرط والمحبة والتعاون يمكن الانسان أن ينال الحياة والسعادة ، وعلى عين هذا الشرط يمكن استئصال كل سموم الحياة التي منها تَقَاتُلُ الكائنات ، وألم الأوجاع ، وخوف الموت .
(رأى الفلاسفة الاسلاميين في عناصر السعادة)

« ابن مسكويه ، الراغب الاصفهاني ، الغزالي »

١ - « رأى ابن مسكويه » :

يعتقد العلامة ابن مسكويه أن الانسان مركب من الروح والجسم ، فله بذلك فضيلتان : فضيلة روحانية يلازم بها الأرواح الطيبة أي الملائكة ، وفضيلة جسمانية يوافق بها الأنعام .

فهو بالخير الجسماني مقبم في هذا العالم السفلي مدة قصيرة ؛ ليعمره وينظمه ويرتبه ، حتى إذا ظفر بكمال هذه المرتبة انتقل إلى العالم العلوي ، وأقام فيه سرمداً في صحبة الأرواح الطيبة والمراد بالسفلي كل محسوس ، وإن كان في المكان الأعلى ، كما أن المقصود من العلوي كل معقول ، وإن كان في المكان الأسفل . والأرواح الطيبة المستغنية عن الأبدان لا يحتاج في صحتها إلى شيء من السعادات البدنية ، بل تحتاج في ذلك إلى سعادة النفس فقط ، يعني المعقولات الأبدية التي هي الحكمة . فإذا مادام الانسان إنساناً أي مركباً من الروح والبدن فلا تتم له السعادة إلا بتحصيل الحالين جميعاً ، ولا يحصلان على التمام إلا بالأشياء النافعة في الوصول إلى الحكمة الأبدية :

فالسعيد إما في مستوى الجسديات متعلقاً بأحوالها السفلى ، سعيداً بها ، وهو مع ذلك يطالع الأمور الشريفة ، باحثاً عنها ، مشتاقاً إليها ، مغتبطاً بها . وإما أن يكون في مستوى الروحانيات متعلقاً بأحوالها العليا ، سعيداً بها ، وهو مع ذلك يطالع الأمور البدنية ، معتبراً بها ، ناظراً في علامات القدرة الإلهية ودلائل الحكمة البالغة ، مقتدياً بها ، ناظراً لها ، مفيضاً للخيرات عليها ، سابقاً لها نحو الأفضل فالأفضل بحسب قبولها وعلى قدر استطاعتها .

والأول ناقص مقصر عن الآخر ، معرض للآلام دونه . وأى امرئ لم يوجد في أحد هذين المستويين فهو في مستوى الأنعام ، بل هو أضل ؛ لأنها غير معرضة لهذه الخيرات ، ولم توهب مقدرة تتحرك بها نحو هذه المنازل العالية . وإنما تتحرك بقواها نحو كالاتها الخاصة بها ، والانسان معرض لها ، ووهب القدرة على الرقي في مدارجها ، وهو مع ذلك غير محصل لها ولا ساع نحوها ، بل مؤثر لضدها ، يستعمل قواه الشريفة في الأمور الدنيئة . وأما الأنعام فمحصلة لكالاتها التي تخصها : فإذا منعت الخيرات الانسية ، وحرمت جوار الأرواح الطيبة ، ودخول الجنة التي وعد المتقون - فلها العذر ، والانسان غير معذور : فمثل الأنعام مثل الأعمى إذا جار عن الطريق فتردى في بئر ، فهو مرحوم غير ملوم ، ومثل الانسان مثل بصير يجر على بصيرة ، حتى يتردى في البئر فهو بمقوت ملوم .

ب - رأى الراغب الأصفهاني :

قال بعض الحكماء : جعل الله لكل شيء كلاً ينساق إليه طبعاً ، وقد هداه إلى التخصيص به تسخييراً ، كما نبه عليه بقوله تعالى : (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) وللانسان سعادات أبيضحت له ، وهي النعم المذكورة في قوله تعالى : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) وجميع النعم والسعادات على القول المجمل ضربان : ضرب دائم لا يبيد ولا يحول ، وهو النعم الأخروية . وضرب يبيد ويحول وهو النعم الدنيوية . والنعم الدنيوية متى لم توصلنا إلى تلك السعادات

فهي كسراب بقيعة ، وغرور ، وفتنة ، وعذاب : قال تعالى : (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ : مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَنُّ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ، فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَقْنِ بِالْأَمْسِ)

وما أصدق قول الشاعر :

إنما الدنيا كرويا أفرحت * من رآها ساعة ثم انقضت
وما أحد الا وهو فازع الى سعادة يطلبها بجهد ، ولكن كثيراً ما يخطئ .
فيظن ما ليس بسعادة في ذاته أنه سعادة فيغتر بها ، فيكون كالموصوف بقوله تعالى :
(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ، يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ
لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا) وبقوله تعالى : (أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ
عَاصِفٍ ، لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ) وقال الشاعر :

كل يحاول حيلة يرجو بها * دفع المضرة واجتلاب المنفعة
والمرء يغلط في تصرف حاله * فلربما اختار العناء على الدعة

السعادة الدنيوية :

النعم الدنيوية إنما تكون نعمة وسعادة متى تنوالت على ما يجب وما يجب
ويجربى بها على الوجه الذي لأجله خلقت : وذلك أن الله جعل الدنيا عارية
لِيَتَنَاولَ منها قدر ما يتوصل به إلى النعم الدائمة والسعادة الحقيقية ، وشرع
لنا في كل منها حكماً بين فيه كيف يجب تناولها والتصرف فيها ، لكن صار
الناس في تناولها فريقين :

فريق يتناولونها على الوجه الذي جعله الله لهم ، فاتفعوا به ، فصار ذلك
لهم نعمة وسعادة ، وهم الموصوفون بقوله تعالى : (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ
(م ١٧ - الخلق الكامل)

فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَكَانَ اللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) وقوله عز وجل : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) وقوله تعالى : (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوِّنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً) فمؤلا. حيوا بها حياة طيبة كما قال، تعالى : (فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً)

وفريق يتناولونها على غير الوجه الذي جعله الله لهم ، فركنوا إليها ، فصار ذلك لهم نقمة وشقاوة ، فتعذبوا بها عاجلا وآجلا ، وهم الموصوفون بقوله تعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

السعادة الآخروية :

والسعادات الآخروية ليس لنا تصور عنها مادما في دار الدنيا ولذلك قال تعالى : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالى : « أُعِدَّتْ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا أَعْيُنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » والسبب في قصورنا عن تصورها شيئان :

أحدهما - أن الانسان لا يمكن أن يعرف حقيقة الشيء ويتصوره حتى يدركه بنفسه . وإذا لم يدركه ووصف له يجرى مجرى أكمه توصف له المرأة . هكذا حالنا في اللذة الآخروية : فإننا لا نتصورها على الحقيقة إلا إذا طالعناها ، فإذا طالعناها شغلنا الفرح والتلذذ بها عن كل مادونها ، كما قال تعالى : (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ)

وثانيهما - أن لكل قوة من قوى النفس وجزء من أجزاء البدن لذة تختص

بها لا يشاركها فيها غيرها : فلذة العين في النظر إلى ما تستحسنه ، ولذة السمع في الاستماع إلى ما يستطيعه ، ولذة اللمس في لمس ما يستلذه ، ولذة الوهم في تصور ما يؤمله ، ولذة الخيال في تخيل ما يستحسن تصوره . ولذة الفكر في أمر مجهول عنده يتعرفه . وكل واحدة من هذه القوى والأجزاء إذا عرض لها آفة تعوقها عن شهوتها وعن إدراك لذتها تكون كالمريض الذي لا يشتهي الماء وكان به ظمأ ، وإذا تناوله لم يجد له لذة كما قال الشاعر :

ومن يك ذا فم مريض * يجد مرابه الماء الزلالا

وإذا كان كذلك فاللذات الآخروية هي لذات لا تدرك إلا بالعقل المحض ، وعقول أكثر من في هذه الدار موهلة معوقة عن إدراك حقائق اللذات الآخروية ، فلا تشعر بها ، كالمريض الذي لا يحس بالجوع ، وإن كان جوعه يؤذيه ، ولا يشتهي الطعام ، وإن كان فقد الطعام يضنيه ، بل إنما يحس بالجوع إذا زال السبب المؤلم . وأيضا فعقول أكثرنا ناقصة وجارية مجرى عقول الصبيان الذين لم يبلغوا مبلغ رجال قد عرفوا حقائق الأشياء : فكما أن الصبيان ماداموا صغارا لا يحسون باللذات والآلام التي تعرض للرجال ، فيتعللون بالأباطيل والأضاليل . كذلك من كان في عقله صيبا لم يطلع على الحقائق . وبالاعتبار بهم قال تعالى : (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَاعِبٌ) وقال تعالى : (فَلَا تَفْرَحُوا بِكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَفْرَحُكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ)

ولما أراد الله تعالى أن يقرب معرفة تلك اللذات من أفهام الكافة شبهها ومثلها بأنواع ما تدركها حواسهم فقال تعالى : (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ : فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ،) ؛ ليبين للكافة طيبها بما عرفوه من طيب المطاعم ، وقال تعالى : (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ) ولم يقل :

الجنة ؛ لينبه الخاصة على أن ذلك تصوير وتمثيل : فالإنسان مهما اجتهد في أن يطلع على تلك السعادة فلا سبيل له إليها إلا على أحد وجهين :

أحدهما — أن يفارق هذا الهيكل ، ويخلف وراءه هذا المنزل ، فيطلع على ذلك ، كما قال الله تعالى : (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ، قُلِ انْتَضِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)

والثاني — أن يزيل قبل مفارقة الهيكل الأمراض النفسانية المشار إليها بقوله تعالى : (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَدَاهُمْ اللَّهُ مَرَضًا) ، وأرجاسها المشار إليها بقوله تعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)

فيطلع من وراء ستر رقيق على بعض ما أعدله ، كما حكى عن حارثة حيث قال للنبي صلى الله عليه وسلم : « عزفت نفسي عن الدنيا ، فكأنى أنظر إلى عرش ربي بارزا ، وأطلع على أهل الجنة يتزوارون ، وعلى أهل النار يتعاوون » فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « عزفت فالزم » وقال أمير المؤمنين على كرم الله وجهه : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا »

رأى محبة الاسلام الغزالي :

نعم الله سبحانه — وإن كانت لا تحصى — مفصلة جملتها منحصرة في خمسة أنواع :

النوع الأول — السعادة الآخروية التي هي بقاء لا فناء له ، وسرور لا غم فيه ، وعلم لا جهل معه ، وغنى لا فقر معه يخالطه ، ولن يتوصل إليه إلا بالله ، ولا يكمل إلا بالنوع الثاني .

النوع الثاني — وهو الفضائل النفسية التي حصرنا جملتها من قبل في أربعة أمور : العقل و كماله العلم ، و العفة و كمالها الورع ، و الشجاعة و كمالها المجاهدة ،

والعدالة وكما لها الانصاف . وهى على التحقيق أصول الدين . وإنما تتكامل هذه الفضائل بالنوع الثالث .

النوع الثالث — وهو الفضائل البدنية المنحصرة فى أربعة أمور : فى الصحة ، والقوة ، والجمال ، وطول العمر . ويتممها النوع الرابع : النوع الرابع — وهو الفضائل المطيفة بالانسان المنحصرة فى أربعة أمور : وهى المال ، والأهل ، والعز ، وكرم العشيرة . ولا يتم الانتفاع بشيء من ذلك إلا بالنوع الخامس .

النوع الخامس — وهو الفضائل التوفيقية وهى أربعة : هداية الله ، ورشده ، وتسديده ، وتأييده .

فهذه السعادات بعد السعادات الآخروية ستة عشر ضربا ، ولا مدخل للاجتهاد فى اكتساب شيء منها إلا الفضائل النفسية على الوجه الذى سبق . فقد عرفت أن هذه الخيرات خمسة : وهى الآخروية ، والنفسية ، والبدنية ، والخارجية ، والتوفيقية . والبعض منها يحتاج إلى البعض : إما حاجة ضرورية كالفضائل التى لا مطمع فى الوصول إلى نعيم الآخرة إلا بها ، وصحة البدن الذى لا وصول إلى تحصيل الفضائل النفسية إلا به . وإما حاجة نافعة : كحاجة هذه الفضائل الخارجة ، فان المال والأهل والعشيرة إن عدمت تطرق الخلل إلى أسباب هذه الفضائل .

وجه الحاجة إلى الفضائل الخارجة

فان قلت : فما وجه الحاجة إلى الفضائل الخارجة من المال ، والأهل ، والعز وكرم العشيرة ؟

فاعلم أن هذه الأمور جارية مجرى الجناح المبلغ ، والآلة المفضية إلى المقصود :

أما المال - فالفقير في طلب الكمال كساع إلى الهيجاء بغير سلاح، وكباز متصيد بلا جناح . ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « نِعَمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ » وقال : « نِعَمَ الْعَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الْمَالُ » كيف ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات في طلب القوت واللباس والمسكن وضرورات المعيشة ، فلا يتفرغ لاقتناء العلم الذي هو أشرف الفضائل ، ثم يحرم فضيلة الحج والصدقة والزكاة وإفاضة الخيرات .

وأما الأهل والولد الصالح - فالحاجة إليهما ظاهرة : أما المرأة الصالحة فخرث الرجل وحصين دينه : قال عليه الصلاة والسلام : « نِعَمَ الْعَوْنُ عَلَى الدِّينِ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ » وقال في الولد : « إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » ومهما كثر أهل الرجل وأقاربه وساعدوه كانوا له بمنزلة الآذان والأعين والأيدى ، فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية ما يطول فيه شغله لو انفرد . وكلما تخففت الأشغال الضرورية في الدنيا تفرغ القلب للعبادة والعلم، فهما معينان على الدين .

وأما العز - فيه يدفع الإنسان عن نفسه الضيم ، ولا يستغنى عنه ، فانه لا ينفك عن عدو يؤذيه وظالم يقصده ، فيشوش عليه وقته ، ويشغل قلبه . ولذلك قيل : « الدين والسلطان توأمان » وقيل : « الدين أس ، والسلطان حارس ، وما للأس له فهدوم ، وما للحارس له فضائع » . ولذلك قال تعالى : (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ) : وبالجمله دفع الأذى لا بد منه للفراغ للعبادة . ولا يتم ذلك إلا بنوع من العز . وكما أن الموصل إلى الخير خير - فدفع الصارف عن الخير خير أيضا .

وأما كرم العشيرة وشرف الآباء - فقد يستهان به ، ويقال : المرء بنفسه

والناس أبناء ما يحسنون ، وقيمة كل امرئ ما يحسنه . ولعمري إذا قوبل شرف الأصل دون شرف النفس - بشرف النفس دون شرف الأصل - استحق شرف الأصل . أما إذا انضم إليه لم تنكر فضيلته (فابن السري إذا سرى أسراهما) وقد شرط النسب في الامامة ، وقيل : الأئمة من قریش . كيف لا والأخلاق تتبع الأمزجة ، وتسرى من الأصول الى الفروع ؟ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « تَخَيَّرُوا لِنُطْفِكُمْ » ، وقال (إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءَ الدِّمَنِ وَهِيَ الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ فِي الْمَنْبَتِ السَّوِّءِ »

فهذا أيضا من السعادات ؛ ولا نغنى به الانتساب إلى بنى الدنيا ورءوسها وأمرائها ، ولكن الانتساب إلى النفوس الزكية الطاهرة المزينة بالعلم ، والعبادة ، والعقل .

وجه الحاجة إلى الفضائل الجسمية

فان قلت: فما غناء هذه الفضائل الجسمية ؟ فنقول : أما الحاجة إلى الصحة والقوة ، وطول العمر - فلا شك فيه . وإنما يستحق أمر الجمال ، فيقال يكفي أن يكون البدن سليما من الأمراض الشاغلة عن تحرى الفضائل . ولعمري إن الجمال لقليل الغناء ، ولكنه من السعادات والخيرات على الجملة : أما في الدنيا فلا يخفى وجهه ، وأما في الآخرة فمن وجهين :

أحدهما - أن القبح مذموم ، والطباع منه نافرة ، وحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب . فكأنه جناح مبلغ مثال المال . والمعين على قضاء حاجات الدنيا معين على الآخرة ؛ إذ الوصول إلى الآخرة بهذه الأسباب الدنيوية . والثاني - أن الجمال في الأكثر يدل على فضيلة النفس ؛ لأن نور النفس

إذا تم إشراقه تأدّى إلى البدن ، والمنظر والخبر كثيرا ما يتلازمان . ولذلك عول أصحاب الفراسة على هيئات البدن ، واستدلوا بها على الأخلاق الباطنة ، والعين والوجه كالمرآة للباطن ، ولذلك يظهر فيهما أثر الغضب والشر . وقيل

(طلاقة الوجه عنوان مافي النفس) ، (ومافي الارض قبيح إلا ووجهه أقيح)
 واستعرض المأمون جيشا، فعرض عليه رجل قبيح ، فحادثه فاذا هو الكن ،
 فأسقط اسمه ، وقال : (الروح إن أشرقت على الظاهر فقصاحة ، وهذا ليس
 له ظاهر ولا باطن) وقد قال عليه السلام : « أَطْلُبُوا الْحَاجَةَ عِنْدَ حِسَانِ الْوُجُوهِ »
 وقال : (إِذَا بَعَثْتُمْ رَسُولًا فَأَطْلُبُوا حُسْنَ الْوَجْهِ ، وَحُسْنَ الْأَسْمِ » وقال الفقهاء :
 (إذا تساوت درجات المصلين فأحسنهم وجها أولا هم بالامامة) وقال تعالى
 ممتنا به : (وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ) وإنما نغنى بالجمال ارتفاع القامة
 مع الاعتدال في اللحم : وتناسب الأعضاء وتنصف خلقه الوجه ، بحيث
 لا تنبو الطباع عن النظر إليها

« معنى الفضائل التوفيقية ووجه الحاجة إليها »

فان قلت : فامعنى الفضائل التوفيقية التي هي : الهداية ، والرشد ، والتسديد ،
 والتأييد فاعلم أن :
التوفيق : هو الذي لا يستغنى عنه الانسان في كل حال . ومعناه موافقة
 إرادة الانسان وفعله قضاء الله تعالى وقدره ، وهو صالح للاستعمال في الخير
 والشر ، ولكن صار متعارفا في الخير والسعادة . ووجه الحاجة إلى التوفيق بين ،
 ولذلك قيل :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر مايجنى عليه اجتهاده
وأما الهداية : فلا سبيل لأحد إلى طلب الفضائل إلا بها . فهي مبدأ
 الخيرات كما قال تعالى : (أُعْطِيَ كُلُّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) وقال تعالى : (وَلَوْلَا
 فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي
 مَنْ يَشَاءُ) وقال عليه الصلاة والسلام : « مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا بِرَحْمَةٍ »

الله « أى بهدأيته ، قيل : « ولا أنت يارسول الله ؟ » قال : « ولا أنا » .
والهداية ثلاث منازل :

الأولى — تعريف طريق الخير والشر المشار إليه بقوله عز وجل :
(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) وقد أنعم الله به على جميع عباده : بعضهم بالعقل ،
وبعضهم على السنة الرسل . ولذلك قال تعالى : (وَأَمَّا نُمُودَ فِهْدَيْنَاهُمْ فَأَسْتَحَبُّوا
الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

والثانية — ما يمد به العبد حالاً بعد حال بحسب ترقيه في العلوم ، وزيادته في
صالح الأعمال ، وإياه عنى بقوله تعالى : (وَالَّذِينَ آهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَامُ
تَقْوَاهُمْ)

والثالثة — النور الذى يشرق فى عالم الولاية والنبوة ، فيهدى به إلى ما لا
يهتدى إليه بضاعة العقل الذى به يحصل التكليف وإمكان التعلم . وإياه
عنى بقوله تعالى : (قُلْ إِنْ هُدًى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى) فأضافه إلى نفسه ، وسماه
الهدى المطلق ، وهو المسمى حياة فى قوله : (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا
لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ) وبقوله تعالى : (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ
فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ)

وأما الرشـد — فعنى به العناية الإلهية التى تعين الإنسان على توجهه إلى
مقاصده ، فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده . ويكون ذلك
من الباطن ، كما قال تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا
بِهِ عَالِمِينَ »

وأما التسديد — فهو أن يقوم إرادته وحركاته نحو الغرض المطلوب
ليهجم عليه فى أسرع وقت : فالرشـد تنبيه بالتعريف ، والتسديد إعانة ونصرة
بالتحريك .

وأما التأييد : فهو تقوية أمره بالبصيرة من داخل ، وبالبطش من خارج وهو المراد بقوله تعالى : (إِذْ أَيْدَتْكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ) ويقرب منه العصمة : وهى فيض إلهى يقوى به الانسان على تحرى الخير وتجنب الشر ، حتى يصير كأنه من باطنه غير محسوس ، وإياه عنى بقوله : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) ولن تستتب هذه الأمور إلا بما يمد الله به عبده من الفهم الثاقب الصافى ، والسمع المصغى الواعى ، والقلب البصير المراعى ، والمعلم الناصح ، والمال الزائد على مقتضى المهمات لقلة القاصر ، لاما يشغل عن الدين لكثرتة ، والعشيرة ، والعز الذى يصون عن سفه السفهاء ، ويرفع ظلم الأعداء . فهذه الأسباب تكمل السعادات .

رتب السعادة

رأى أرسطوطاليس

أول رتب الفضائل تسمى سعادة : وهى أن يصرف الانسان إرادته ومحاولاته إلى مصالحه فى العالم المحس والأمور المحسة من أمور النفس والبدن ، وما كان من الأحوال متصلا بهما ومشاركا لهما من الأمور النفسانية . ويكون تصرفه فى الأحوال المحسة تصرفا لا يخرج به عن الاعتدال الملائم لأحواله الحسية . وهذه حال قد يتلبس فيها الانسان بالآهواء والشهوات ، إلا أن ذلك بقدر معتدل غير مفرط ، وهو إلى ما ينبغى أقرب منه إلى غيره : وذلك أنه يجرى أمره نحو صوب التدبير المتوسط فى كل فضيلة ، ولا يخرج به عن تقدير الفكر ، وإن لابس الأمور المحسة وتصرف فيها . ثم الرتبة الثانية : وهى التى يصرف الانسان فيها إرادته ومحاولاته إلى الأمر الأفضل من صلاح النفس والبدن من غير أن يتلبس مع ذلك بشئ من الآهواء والشهوات ، ولا يكثر بشئ من النفسيات المحسة إلا بما تدعوه إليه الضرورة .

ثم تتزايد رتبة الانسان في هذا الضرب من الفضيلة : وذلك أن الأماكن والرتب في هذا الضرب من الفضائل كثيرة بعضها فوق بعض . وسببه اختلاف طبائع الناس ، وعاداتهم ، ومنازلهم ، ومواضعهم : من الفضل والعلم والمعرفة والفهم ، وبحسب هممهم ، وشوقهم ، ومعاناتهم ، وجدهم .

الرتبة الأخيرة : ثم تكون النقلة في آخر الرتبة الثانية إلى الفضيلة الالهية المحضة : وهي التي لا يكون فيها تشوف إلى آت ، ولا تلفت إلى ماض ، ولا تشيع لحال ولا تطلع إلى ناء ، ولا ضن بقريب ، ولا خوف ولا فزع من أمر ، ولا شغف بحال ، ولا طلب لحظ من الحظوظ الانسانية ولا من الحظوظ النفسانية أيضا ، ولا مائدعو الضرورة إليه من حاجة البدن والقوى الطبيعية والنفسانية . لكن يتصرف بتصرف الخير العقلي في أعالي رتب الفضائل ، وهو صرف الوقت إلى الأمور الالهية ومعاناتها ومحاولاتها بلا طلب عوض ، أغنى أن يكون تصرفه فيها ومحاولته لها لنفس ذاتها فقط .

وهذه الرتبة أيضا تتزايد بالناس بحسب الهمم والشوق وفضل المعاناة والمحاولة وقوة النجيزة وصحة الثقة ، وبحسب منزلة من بلغ إلى هذا المبلغ من الفضيلة في هذه الأحوال التي عددناها إلى أن يشتد قربها من الذات العلية واقتداؤه بها وبأفعالها

الرتبة الأولى من السعادة

يقول ابن مسكويه : « إن من غنى ببعض القوى التي ذكرناها دون بعض ، أو تعتمد إصلاحها في وقت دون وقت - لم تحصل له السعادة . وكذلك يكون حال الرجل في تدبير منزله : إذا غنى ببعض أجزائه دون بعض أو في وقت دون وقت فانه لا يكون مدبر منزل . وكذلك حال مدبر المدينة إذا خص بنظره طائفة دون طائفة ، أو وقتا دون وقت لا يستحق اسم الرياسة على الإطلاق » ومثل لذلك « أرسطوطاليس » بقوله : إن يوما واحدا معتدل الهواء لا يبشر بالربيع

فملى طالب السعادة أن يطلب السيرة اللذيذة عنده ، فيسربها دائماً ، فإن تلك السيرة واحدة ولذيذة في نفسها فلذلك قلنا : إنه ينبغي أن يتشوقها دائماً ، ويثبت عليها أبداً .

ولما كانت السير ثلاثة ؛ لأنها تنقسم بانقسام الغايات الثلاث التي يقصدها الناس : أعنى سيرة اللذة وسيرة الكرامة ، وسيرة الحكمة ، وكانت سيرة الحكمة أشرفها وأتمها ؛ وكانت فضائل النفس كثيرة - وجب أن يفضل الانسان بأفضلها ويشرف بأشرفها : فسيرة الأفاضل السعداء سيرة لذيذة بنفسها ؛ لأن أفعالهم أبداً مختارة ممدوحة ، وكل إنسان يلتذ بما هو محبوب عنده : يلتذ بعدل العادل ، أو يلتذ بحكمة الحكيم . والأفعال الفاضلة والغايات التي ينتهى إليها بالفضائل لذينة محبوبة . فالسعادة ألد من كل شيء : يقول « أرسطوطاليس » : إن السعادة الآلهية وإن كانت في ذروة الشرف ، وسيرتها ألد وأشرف من كل سيرة - محتاجة إلى السعادات الأخر الخارجة لأن تظهر بها ، وإلا كانت كامنة غير ظاهرة ، وإذا كانت كذلك كان صاحبها كالفاضل النائم الذي لا يظهر فعله ، وحينئذ لا يكون بينه وبين غيره فرق . فالمطلع إذن على حقيقة هذه السعادة المتمكن من إظهار فعله بها هو الذي يلتذ بها ، وهو الذي يسر سرورا حقيقيا غير مموه ولا مزخرف بالباطل ، وهو الذي يخرج من حد المحبة إلى العشق والهيام . وحينئذ يأنف أن يصير سلطانه العالى تحت سلطان بطنه : فلا يخدم بأشرف جزء فيه أخس جزء فيه . وأعنى بالسرور المزخرف بالباطيل اللذات التي تشاركنا فيها العجاوات ؛ فإن تلك اللذات حسية ، تنصرم وشيكا ، وتملأ الحواس سريعا ، فإذا دامت عليها صارت كريهة ، وربما عادت مؤلمة . وكما أن للحس لذة عرضية على حدة - فكذلك للعقل لذة ذاتية على حدة . فلذة العقل هي اللذة الحقيقية ، ومن لا يعرف اللذة الحقيقية كيف يلتذ بها ؟ ومن لا يعرف الرياسة الذاتية كيف يصير إليها ؟ ومن لا يعرف الخير المطلق والفضيلة العامة والحكمة

العملية أى ايثار الأفضل والعمل به والثبات عليه — لا ينشط له ولا يرتاح إليه .
المحن والمصائب لا تخرج السعيد عن سعادته :

وينبغي أن يعلم أن السعيد مادام حيا تحت هذا الفلك الدائر بكواكبه ودرجاته ومطالع صعوده ونحوه — يرد عليه من النكبات والنوائب وأنواع المحن والمصائب ما يرد على غيره ، إلا أنه لا يذعر منها ولا يلحقه ما يلحق غيره من المشقة فى احتمالها ؛ لأنه غير مستعد لسرعة الانفصال منها بعادة الهلع والجزع والأحزان ، ولا قابل أثر الهموم والأحزان بالأحوال العارضة . وإن أصابه من هذه الآلام شئ فهو يقدر على ضبط نفسه ، كي لا تنقله عن السعادة إلى ضدها ، بل لا تخرجه عن حد السعادة البتة .

ولو ابتلى بما أصاب أيوب عليه السلام وأضعافه ما أخرجته عن حد السعادة : وذلك لما يجد فى نفسه من المحافظة على شروط الشجاعة والصبر على ما يجزع منه أصحاب خور الطباع ، فيكون سروره أولا بذاته وثانياً بالأحاديث الجميلة التى تنشر عنه ؛ ويرى أن القاتل الذى يدعى « الشطارة » والمصارع الذى يهوى الغلبة — كل واحد منهما يصبر على شدائد عظيمة : من تقطيع أعضاء نفسه ، وترك الشهوات التى يتمكن منها طلبا لما يحصل له من الغلبة وانتشار الصيت ، فيرى نفسه أخرى وأولى منهما بالصبر ؛ إذ كان غرضه أشرف ، وصيته فى الفضلاء أبلغ وأشهر وأكرم ؛ ولأنه يسعد فى نفسه ، ثم يصير قدوة لغيره . يقول (أرسطوطاليس) : إن بعض الأشياء تعرض من سوء البخت بما يكون يسيرا سهل المحتمل ، فإذا عرض للانسان واحتمله لم يكن فيه دلالة على كبر نفسه ، وعظم همته .

ومن لم يكن سعيدا ولا سبقت له رياسة بهذه الصناعة الشريفة من تهذيب الأخلاق فإنه سينفعل انفعالا قويا ، فيعرض له عند حلول المصائب إحدى الحالتين : إما الاضطراب الفاحش والألم الشديد والخروج بها إلى الحد الذى

يرثى له ويرحم ، وإما أن يتشبه بالسعداء ويسمع مواعظهم ، فيظهر الصبر والسكون إلا أنه جزع الباطن متألم الضمير .

وكما أن الأعضاء المفلوجة إذا حركت إلى اليمين تحركت إلى الشمال — كذلك تكون حركات نفوس الأشرار : تتحرك إلى خلاف ما يحملونها عليه من الجميل ، فتكون هذه حالهم إذا تشبهوا بالأجواد وأهل العدالة .

شقاوة الأبناء لا تخرج السعيد بعد موته من زمرة السعداء :

يقول « أرسطوطاليس » في كتاب الأخلاق : قد حكمنا أن السعادة شيء ثابت غير متغير ، وقد علمنا أيضاً أن الإنسان قد تلحقه تغيرات كثيرة واتفاقات شتى : فانه قد يمكن لمن هو أرغد عيشاً أن يصاب بمصائب عظيمة . ومن تتفق له هذه المصائب ومات عليها فلا يسميه أحد من الناس سعيداً . وعلى هذا القياس لا يسمى أحد من الناس سعيداً مادام حياً ، بل ينتظر به آخر عمره ، ثم يحكم عليه .

فالإنسان إذن إنما يصير سعيداً إذا مات ، إلا أن هذا قول في غاية الشناعة ؛ لما قرره من أن السعادة هي « خير ما » والمرء ينال كثيراً منه في حياته .

وما لا مجال للشك فيه أن الإنسان بعد مماته قد يلحقه من أفعال بنيه ما يسره أو يحزنه ، وما ينفعه أو يؤذيه . فقد يمكن فيمن عاش عمره كله سعيداً إلى أن بلغ الشيخوخة وتوفى على هذا السبيل أن يلحقه مثل هذه التغيرات في أولاده : فقد يكون بعضهم خياراً حسن السيرة ، وبعضهم بضد ذلك . ومن البين أنه قد يمكن أن يوجد بين الآباء والأولاد تباين واختلاف من كل جهة ، ولكن من المنكر أن تتغير حال الميت بتغير غيره : يصير مرة سعيداً ، ومرة أخرى شقياً . ومن المنكر أيضاً ألا تكون أمور الأولاد متصلة بالوالدين في وقت من الأوقات . فالإنسان بعد مماته يتصل به لاحالة من أمور أولاده وأولاد أولاده أحوال مختلفة بحسب اختلاف سيرهم ، ولكن

الانسان إذا مات سعيدا ثم لحقه من شقاوة بعض أولاده ؛ أو سوء سيرة من يحيا من نسله ما يكون ضد سيرته وهو حي ، فإن ذلك لا يغير من سعادته : يقول : « أرسطو طاليس » في إقامة البرهان على ما تقدم : « إن سيرة الإنسان ينبغي أن تكون سيرة محودة ؛ لأنه يختار في كل ما يعرض له أفضل الأعمال : من الصبر مرة ، ومن اختيار الأفضل فالأفضل مرة ، ومن التصرف في الأموال إذا اتسع فيها ، وحسن التجميل إذا عدها ؛ ليكون سعيدا في جميع أحواله غير منتقل عن السعادة بوجه من الوجوه . فالسعيد إذا ورد عليه نحس عظيم جعل سيرته أكثر سعادة ؛ لأنه يداريه مداراة جميلة ، ويصبر على الشدائد صبرا جميلا ، وحتى لم يفعل كدر سعادته ونقصها وجلب له أحزانا وهموما تعوقه عن أفعال كثيرة . والجميل إذا ظهر من السعداء في هذه الأحوال والأفعال كان أشد إشراقا وحسنا : وذلك إذا احتمل ما كبر وعظم من المصائب احتمالا سهلا بعد ألا يكون ذلك لعدم حسه أو لنقصان فهمه بالأمور — بل لشهامته وكبر نفسه . ثم قال « أرسطو طاليس » أيضا : « إذا كانت الأفعال هي ملاك السيرة كما قلنا ، فليس يكون أحد من السعداء شقيا ، لأنه لا يفعل في وقت من الأوقات أفعالا مردولة . فإذا كان هكذا فالسعيد أبدا يكون مغتبطا بها كان نوع المصائب التي حلت به ، ولا يكون أيضا شقيا ، ولا سريع التنقل من ذلك ؛ لأنه لا يتنقل عن السعادة بسهولة ، فلا تنقله عنها الآفات اليسيرة ، بل لا تنقله عنها الآفات العظيمة الكثيرة ، وليس يكون سعيدا إذا نالته هذه الأمور زمانا يسيرا ، بل إذا ظفر بأمور جميلة في زمان طويل » ثم قال بعد قليل : « وأما حال الانسان بعد موته فالقول بأن الآفات التي تعرض لأولاد الميت وأصدقائه بأجمعهم ليست تتعلق به أصلا — مضاد لما يعتقد جميع الناس . وإذا كانت الأمور العارضة لهؤلاء كثيرة متيقنة ، وكان بعضها يتعدى إلى الميت أكثر وبعضها أقل ، — صارت قسمتنا إياها إلى الأشياء الجزئية غير

منتهية . وأما بالإجمال فنكتفي بأن نقول : كما أن الآفات التي تعرض للميت في حياته بعضها يثقل عليه احتمالها ويثلم سيرته ، وبعضها يخفف عليه احتمالها — كذلك حاله فيما يعرض لأولاده وأصدقائه . إلا أن كل واحد من العوارض التي تعرض للأحياء يخالف تمام المخالفة لما يعرض لهم إذا ماتوا ، وما يصل إليهم من هذه الأشياء خيرا كان أو شرا يكاد يكون يسيرا نورا بمقدار مالا يجعل غير السعيد سعيدا ، ولا ينتزع السعادة من السعداء .

الرتبة الأخيرة من السعادة

وآخر المراتب في الفضيلة أن تكون أفعال الانسان كلها أفعالا إلهية ، وهذه الأفعال هي خير محض ، والفعل إذا كان خيرا محضا فليس يفعله فاعله من أجل شيء آخر غير الفعل نفسه ؛ وذلك أن الخير المحض هو غاية متوخاة لذاتها أي هو الأمر المطلوب المقصود لذاته ، والأمر الذي هو غاية في النفاسة لا يكون من أجل شيء آخر . فأفعال الانسان إذا صارت كلها إلهية — فهي كلها إنما تصدر عن له وذاته الحقيقية التي هي عقله الإلهي ، وتهدر وتموت سائر دواعي طباعه البدنية مع سائر النفسين البهيميتين ، فلا يبقى له حينئذ إرادة ولاهمة خارجتان عن فعله ، بل إرادته وهمته في ذات الفعل ، وهذا هو سبيل العقل الإلهي .

فهذه الحال هي آخر رتب الفضائل التي يتقيل فيها الانسان أفعال «الأول» خالق الكل عز وجل : فيكون فيما يفعله لا يطلب به حظا ولا مجازاة ولا عوضا ولا زيادة ، بل لذات الفعل ؛ ولأنه لا يليق به سواء . ففعل الانسان في هذه الحال خير محض وحكمة خالصة ؛ إذ هو يبدأ بالفعل لاظهاره لا لغاية أخرى يتوخاها به .

وهكذا فعل الله عز وجل الخاص به ، ليس من أجل شيء وخارج عن ذاته ، وإلا كانت الأشياء الخارجة أسبابا وعللا لأفعاله وهذا شنيع قبيح . تعالى الله عنه علوا كبيرا .

وهكذا سبيل الانسان إذا بلغ الغاية القصوى الممكنة من الاقتداء بالبارى عز وجل : تكون أفعاله التي يفعلها من أجل ذاته نفسها التي هي العقل الالهى ومن أجل الفعل نفسه . وإن فعل فعلا يرفد به غيره ، وينفعه به — فليس فعله من أجل ذلك الغير بل لذاته ولنفس الفضيلة والخير ، لا لاجتلاب منفعة ودفع مضرة ، ولا للتباهى وطلب الرياسة ومحبة الكرامة . فهذا غرض الفلسفة ، ومنتهى السعادة ، إلا أن الإنسان لا يصل إلى هذه الحال حتى تفتى إرادته الناشئة عن باعث خارج وتفتى العوارض النفسانية ، وتموت خواطره التي تكون عن هذه العوارض ، ويمتلئ شعورا إلهيا وهمة إلهية . وإنما يمتلئ من ذلك إذا صفا من الأمر الطبعي البتة ، ونفى منه نفيا كاملا . وحينئذ يمتلئ معرفة إلهية وشوقا إلهيا .

وليست تحصل هذه المراتب التي يترقى فيها صاحب السعادة التامة إلا بعد أن يعلم أجزاء الحكمة كلها علما صحيحا ، ويستوفى فيها تدريجا . ومن ظن أنه يصل إليها بغير تلك الطريقة وعلى غير ذلك المنهج — فقد ظن باطلا وبعد عن الحق بعدا كثيرا . ولتذكر في هذا الموضع الخطأ العظيم الذي وقع فيه قوم ظنوا أنهم يدركون الفضيلة بتعطيل القوة العالمة وإهمالها ، وبترك النظر الخاص بالعقل واكتفائهم بأعمال ليست مدنية ، ولا بحسب ما يقسطه التمييز والعقل .

فإذا بلغ الإنسان إلى غاية هذه السعادة ، وتجرد بنفسه اللطيفة التي غنى بتطهيرها وغسلها من الأدناس الطبيعية لأخراه العلية — فقد فاز وأعد ذاته للاتصال بخالقه عز وجل إعدادا روحانيا ، ليس فيه نزاع إلى تلك القوى التي كانت تعوقه عن سعادته ولا تشوف إليها ، لأنه قد تطهر منها ، وتنزه عنها ، ولم تبق فيه إرادة لها ولا حرص عليها ، وقد استخلصها للقاء رب العالمين ولقبول كراماته وفيض نوره الذي كان غير مستعد له . ويأتيه حينئذ الذي وعد به المتقون والأبرار ، كما سبق الإيماء إليها في قوله عز وجل : (فَلَا تَعْلَمُ

نَفْسٌ مَا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم :
« هُنَاكَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ »

رأى الغزالي في رتب السعادة

اعلم أن السعادة الحقيقية هي الآخروية ، وما عداها سميت سعادة : إما مجازا
أو غلطا كالسعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة ، وإما صدقا ولكن الاسم
على الآخروية أصدق ، وذلك كل ما يوصل إلى السعادة الآخروية ويعين
عليه ، فإن الموصل إلى الخير والسعادة قد يسمى خيرا وسعادة .

والأسباب النافعة المعينة تشرحها تقسيمات أربعة :

التقسيم الأول : منها ما هو نافع في كل حال وهي الفضائل النفسية ،
ومنها ما ينفع في حال دون حال ونفعه أكثر : كالمال القليل . ومنها ما ضرره
أكثر في حق أكثر الخلق : وذلك بعض العلوم والصناعات .

والأكثر الانباس في هذا وجب على العاقل الاستظهار بمعرفة حقائق
هذه الأمور ، حتى لا يؤثر الضار على النافع : بل النافع على الرافع ، والرفع
على النفيس الأهم : فيطول عليه الطريق : فكم من ناظر يحسب الشحم فيمن
شحمه ورم : وكم من طالب حبالا ليمتنطق به ، فيأخذ حية يظنها حبالا ،
فتلدغه . والعلم الحقيقي هو الذي يكشف عن هذه الأمور .

التقسيم الثاني : إن الخيرات بوجه آخر تنقسم إلى مؤثرة لذاتها ، وإلى
مؤثرة لغيرها . وإلى مؤثرة تارة لذاتها وتارة لغيرها . فينبغي أن يعرف
مراتبها ليعطى كل رتبة حقها :

فالمؤثرة لذاتها : السعادة الآخروية : فليس وراء تلك الغاية غاية أخرى .
والمؤثرة لغيرها : من المال كالدرهم والدنانير ؛ فلو لا أن الحاجات
تنقضى بها لكانت كالحصاء وسائر الجواهر الخسيسة

والمؤثرة تارة لذاتها وتارة لغيرها : كصحة الجسم ؛ فإن الإنسان - وإن

استغنى عن المشى الذى تراد سلامة الرجل له - يريد أيضا سلامة الرجل من حيث هي سلامة .

التقسيم الثالث : إن الخيرات تنقسم من وجه آخر إلى نافع وجميل ولذيذ . والشرور ثلاثة : ضار وقيح ومؤلم . وكل واحد ضربان :

أحدهما - مطلق : وهو الذى يجمع الأوصاف الثلاثة فى الخير : كالحكمة ؛

فإنها نافعة وجميلة ولذيذة ، وفى الشر : كالجهل ، فإنه ضار وقيح ومؤلم

والثانى - مقيد : وهو الذى جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض .

فرب نافع مؤلم : كقطع الاصبع الزائدة والسلعة الخارجة . ورب نافع قبيح :

كالحمق ، فإنه راحة : إذ قيل : استراح من لاعقل له . أى لا يغتم للعواقب ،

فيستريح فى الحال . ورب نافع من وجه ضار من وجه : كالقاء المال فى البحر

عند خوف الغرق فإنه ضار للمال : ونافع فى نجاة النفس . والنافع قسمان :

قسم ضرورى : كالفضائل النفسية والوصول إلى سعادة الآخرة . وقسم

قد يقوم غيره مقامه فلا يكون ضروريا : كالسكنجبين فى تسكين الصفراء

التقسيم الرابع : إن اللذات بحسب القوى الثلاث والمشتبهات الثلاثة -

ثلاث ؛ (إذ اللذة عبارة عن إدراك المشتبهى ، والشهوة عبارة عن انبعاث

النفس لنيل ما تشوقه) :

لذة عقلية ، وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات ، وبدنية مشتركة مع

بعض الحيوانات :

الأولى : كلذة العلم والحكمة ، وهى أقلها وجوداً وأشرفها :

أما قلتها : فإن الحكمة لا يستلزمها إلا الحكيم . وقصور الرضيع عن إدراك

لذة العسل : والطيور السمان : والحلاوات الطيبة - لا يدل على أنها ليست

لذيذة ؛ واستطابته للبن لا تدل على أنه أطيب الأشياء . والناس كلهم إلا النادر

مبتلون بالقصور عن تقدير العلم فلذلك يستلذون الجهل :

ومن يك ذا فم مرمرىض * يجد مرأ به الماء الزلالا

وأما أشرفيتها : فلأنها لازمة لاتزول ، ودائمة لاتحول وثمرها في الدار الآخرة إلى غيرنهاية . والقادر على الشريف الباقي إذا رضى بالخسيس الفاني كان مصابا في عقله ، محروما بشقاوته وإدباره . وأقل أمر فيه أن الفضائل النفسية لاسيما العلم والعقل لاتحتاج إلى أعوان وحفظة ، بخلاف المال ؛ فإن العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم يزيد بالاتفاق والمال ينقص به ، والعلم نافع في كل حال ومطلقا وأبدا ، والمال تارة يجذب إلى الرذيلة وتارة إلى الفضيلة . ولذلك ذم في القرآن في مواضع ، وإن سمي خيرا في مواضع .

الثانية : هي اللذة المشتركة بين الانسان وبين جميع الحيوانات : كذة المأكل والمشرب وهي أكثرها وجوداً .

الثالثة : اللذة التي يشارك فيها الانسان بعض الحيوانات : وهي لذة الرياسة والغلبة ، وهي أشد التصاقا بالعقلاء . ولذلك قيل : (آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة) وكيف تكون لذة الأكل لذة مطلقة وهي من وجه إزالة ألم . ولذلك قال الحسن : (الاإنسان صريع جوع وقيل شبع) وجميع لذات الدنيا سبع : مأكل ومشرب وملبس ومسكن ومشموم ومسموع ومبصر . وهي بجملتها خسيسة ، كما روى عن علي كرم الله وجهه : إذ قال لعمار بن ياسر ، وقد رآه يتنفس كالحزين : « يا عمار ، إن كان تنفسك على الآخرة فقد ربحت تجارتك ، وإن كان على الدنيا فقد خسرت صفقتك ؛ فاني وجدت لذاتها المأكولات والمشروبات والملبوسات والمسكنات والمشمومات والمسموعات والمبصرات : فأما المأكولات فأفضلها العسل ، وهو صنعة ذباب . والمشروبات أفضلها الماء . وهو أهون موجود وأعز مفقود . وأما الملبوسات فأفضلها الديباج ، وهو نسج دودة .

وأما المشمومات فأفضلها المسك ، وهو دم فأرة . وأما المسموعات فريح هابة في الهواء . وأما المبصرات فخيالات صائرة إلى الفناء .

ومن آقبا أن كل واحدة منها يتبرم بها بعد استيفائها في لحظة . فليعتبر حاله الفراغ من الأكل بما قبله ، ولينتظر كيف ينقلب المطلوب مهروبا منه في الحال . فأين يوازي هذا ماتدوم لذته ، ولا تقنى أبد الآباد راحته ؟ وهو الابتهاج بكال النفس بانفضائل النفسية ، خصوصا الاستيلاء على الكل بالعلم والعقل

أسباب السعادة

لو عرف الإنسان أسباب السقوط وامتنع عنها ماسقط مطلقا ، ولو عرف أسباب الخيبة وتحاشاها ماخاب في عمل أبدا : انظر إلى رقة الحديث وبلاغة القول تجدهما ترفعان قدر المتكلم في نظر السامعين ، ولكن كثرة الكلام تحذو بهم إلى سآمته وإلى الملل من المتكلم . فلو عرف الثرثار هذه الحقيقة ما تجنبه الناس ، ولا ملوا سماع حديثه . ترى العين حشرة فتستهين بها ، ثم تراها تلدغ فتقتل ، فيكبر الإنسان أمرها ويخشها ، يأخذ لنفسه الحيلة منها . وهكذا الناس : مرت بهم ظروف كثيرة متنوعة وأحوال متباينة ، فكانت سبب رفعة بعضهم ونجاحه ، وسقوط الكثير منهم وخيبته . فلو تعرف الإنسان أسباب الرفعة والنجاح وتطلبها ، وأسباب السقوط والخيبة وتجنبها - لفاز بكل أمانيه . وما شكا في حياته سوء الحظ ونكد الطالع .

ليس غرض الناس من الحرب مجرد القتل والإفناء والتخريب ، وإنما الاستعاضة من المغارم غنا ، ومما زهق من نفوس المقتولين عوضا ودية . وما الحياة إلا حرب طاحنة بين الناس وحظوظهم ، حرب دائمة لا انقطاع لها بدأت منذ بدأ العالم ، ولا تنقطع إلا يوم يفنى آخر إنسان من على وجه الأرض . فلو تعرف العاقل أسباب انتصار المنتصرين وانكسار المخدولين.

وترسم في المءارك القائمة بينه وبين حظوظه خطط الأولين - ماخذل ، ولا غلبه الشقاء .

إن للتجربة ثمنا من الجهد والراحة ومن عمر الإنسان ، فلو رغب الإنسان في معرفة حقائق الحياة من تجاربه وحده لانقضت حياته قبل أن يدرك مايريد ، وماذاق شيئاً من المناء ، ولا عرف السعادة :

فليس يتعين على التاجر الإفلاس لرغبته في معرفة سر النجاح ، ولا يقتضى الحال إغراق الربان سفينته ليتعلم وسائل إنقاذها من الغرق ؛ فقد يتعذر نجاح التاجر بعد إفلاسه ؛ وإنقاذ السفينة بعد غرقها . ولما كانت صحيفة الكون بعجائبه وبحوادثه منشورة أمام الإنسان في كل حين ، فله أن يعتبر بها : فيتعلم الحكمة من شقاء غيره دون أن يشقى ، ويعرف أسرار الحياة من المتألمين منها دون أن يتألم ؛ ويقف على سر النجاح من أسباب سقوط المفلس دون أن يفلس ، ويتعلم النجاة من المصيبة ممن وقع فيها دون أن يلقى نفسه إلى أحضانها . وهذا هو معنى قولهم : السعيد من وعظ بغيره

حقا إن الحياة علم له أصول وقواعد : فمنها ما يختص بصحة الجسم والعقل أو الأخلاق . ومنها ما يختص بالنجاح أو السعادة . وكلها من ثمار الحكمة ، ومن نتائج أفكار الناس . فمن عرفها عهم أمن شر الحوادث التى أوصلتهم إلى عرفانها ، والحكيم من اعتبر بمصائب غيره ، واستخدمها للاتفاع منها : يجعلها سبباً لمناءه وسعادته .

من يعنى بجمع طاقة من الأزهار لايهمل شأنها حتى تذبل وتذوى وتفقد رائحتها الذكية ، وإنما ينتفع بما فيها من الفائدة : فيشم عطرها ، وينعش به نفسه . وما العالم إلا مثال الحديقة ، وما الأزهار إلا عبر الحوادث ، وما لزوم شم الأزهار إلا وجوب الاتفاع من العبر : يجعلها وساطة للاغتياب والمناء بدلا من ضياعها سدى .

. سئل حكيم عن أنجع الوسائل المؤدية إلى شمول السلام ، فقال : « محبة الانسان غيره كنفسه »

وفي كلام سيد الانام محمد عليه الصلاة والسلام ما يشير إلى ذلك ، فقد جمع أشتات الحكم في أوجز العبارات ، ووصل إلى الغاية من أقصر السبل .
يظن الانسان أن السيل إلى السعادة بعيد الشقة كثير العقبات ، والحال أن كثيرا من النفوس الساذجة تصل إليها من أقصر الطرق وأقلها وعورة .
ولما كانت معرفة وجود الشيء لا تكفي للوصول إليه بل يحتاج الأمر معها إلى معرفة الطريق إليه وإلى قطعها أيضا - فكذلك ثبوت وجود السعادة في الحياة لا يكفي لتحقيق سعادة الإنسان ، بل يحتم عليه معرفة الطريق إليها والسير فيها لنيلها .

وقد كتب كثيرون عن السعادة ولكنهم أغفلوا الهداية إلى الطريق المؤدى إليها . ولما كانت مقتضياتها وأسبابها كثيرة اقتصرنا على المهم منها :

فالأول

الايمان

ينبغي للباحث في هذا الموضوع أن ينير سبيل بحثه بإيضاح أمور أربعة هي : الاعتقاد ، واليقين ، والايمان ، والدين . فيخص كلامنا ببينة تجلي غامضه وتوضح مشكله ، ثم يتبع ذلك بيان ما بين الجميع من قرابة وصلة ، وعلى ذلك عولت أن أسير ، وبالله التيسير :

الاعتقاد : قال في المصباح المنير : « اعتقدت كذا عقدت عليه القلب

والضمير حتى قيل : العقيدة ما يدين به الانسان ، وله عقيدة حسنة سالمة من الشك » وأصل ذلك كله من العقد وهو الجمع بين أطراف الشيء ، فكأن المعتقد قد جمع أطراف قلبه على معتقده ، فأحكم وثاقه ، وأمن انطلاقه ، ووثاقه الأدلة القاطعة عنده ، والبراهين الساطعة لديه . فالاعتقاد بشيء هو تصديقه ، وعقد القلب والضمير عليه . ويجوز أن يكون اعتقادا بحق لامية فيه ،

أو يباطل يلتبس بالحق فينازعه مكانه وينحيه : فالأول كالا اعتقاد بوحداية الخالق ، والآخر كالا اعتقاد بإلهية الصنم .

وصاحب العقيدة لا يعمل ما يخالف عقيدته مادامت العقيدة قد تملكته عليه نفسه ، ووصلت إلى أعماق قلبه ؛ لأن الانسان مفطور على أن يصدر عن إرادة وفكر : يعمل الشيء بعد أن يترجح لديه نفعه ، ولا يقربه إذا ترجح لديه ضره . فما دام الإنسان إنساناً والفطرة هي الفطرة فعمل المرء منوط باعتقاده ناشئ عن إراته وتفكيره . ولئن طرأ عليه من الأسباب ما يحمله على مخالفة ما يعتقد فلا يلبث أن يعمل بموجب اعتقاده متى زال ما حال بينه وبين مراده .

فالعقيدة هي صاحبة الحول والطول : تصدر أمرها فلا يكون من صاحبها سوى الطاعة والرضا ، وتنتهى فلا يكون منه إلا الخضوع والخنوع . وأما الأسباب التي تحول بين المرء وتلبية داعي عقيدته فهي ملابسات شاذة وأسباب مؤقتة : فصديقك قد يسيء إليك ، ولا يمكن أن تكون إساءته ديدناله ، وصاحب المبدأ قد يضطر إلى أن يسيء إلى مبدئه ، ولكنه لا يستمر في تلك الإساءة ، بل لا يصبر عليها ، كما أن التقي قد يفرط منه ذنب ، ولكنه لا يرضى به ولا تطمئن إليه نفسه ، بل تكثر من لومه وتعنيفه ، حتى يعقد عقدة الندم . وفي حديث الدعاء : « لك من قلوبنا عقدة الندم » يريد عقد العزم على الندامة : وهو تحقيق التوبة : (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً) .

أما ذوالألوان الذي يتغير بتغير الزمان ، ويتلون تلون الحرباء ، ويتذبذب

بين هؤلاء وهؤلاء — نخلق ألا يكون من الوجهاء أولى العقائد السليمة والمبادئ القويمة والنفوس الكريمة ، بل من أصحاب العقائد السقيمة والنفوس اللئيمة الذين فسدت ضمائرهم ، وعميت بصائرهم .

اليقين : يقن الأمر وضع ، ويقن فلان الأمر عليه وتحققه . فاليقين إزاحة الشك ، ولا يزاح الشك إلا بالدليل القطعي الذي لا شبهة فيه ، ولذلك قال صاحب المصباح المنير : « اليقين : العلم الحاصل عن نظر واستدلال » وقال بعض أجلاء العلماء : « اليقين : هو اعتقاد أن الشيء كذا (أى على حالة أو صفة معينة) مع اعتقاد أنه لا يكون إلا كذا (على هذه الحالة أو الصفة المعينة) اعتقاداً مطابقاً للواقع غير ممكن الزوال . ولأن اليقين عدو مبين للشك سمي العلماء الموت يقينا : قال البيضاوى : اليقين الموت ؛ لأنه متيقن لحاقه لكل مخلوق . »

قال الراغب الأصفهاني : « اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتهما يقال : علم يقين : وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم . وعلم اليقين ، وحق اليقين ، وعين اليقين ، وبينها فروق : (علم اليقين يعنى علماً كعلم الأمر اليقين ، وحق اليقين أى حق الخير اليقين أو الحق الثابت من اليقين ، وعين اليقين أى الرؤية التى هى نفس اليقين ، يعنى المشاهدة التى هى أقصى مراتب اليقين ، يليها فى مراتب اليقين حق اليقين ، ويلى حق اليقين علم اليقين) ويقال استيقن وأيقن قال تعالى : (إِنْ نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِقِينَ) (وفى الأرض آياتٌ للمؤمنين) (لقومٍ يُوقِنُونَ) وقوله عز وجل : (وما قتلوه يقيناً) أى ما قتلوه قتلاً يقنوه ، بل إنما حكموا تخميناً ووهماً .

كتب رجل من العباد إلى صديق له : « إني رأيت الله تبارك وتعالى جعل اليقين بأعظم المواضع فى أمر الدنيا والدين : فهو غاية علم العالم وبصر البصير وفهم السامع ، ليس كسائر الأشياء التى تدخلها الشبهات ، ويجرحها الاغفال ويشوبها الوهن : وذلك أن الله تعالى جعل مغرسه القلب ، وأغصانه العمل ،

وثمرته الثواب . وإنما جعل القلب لليقين مغرساً ، لأنه جعل الخمس الجواب لعلم الأشياء كلها إلى القلب : السمع والبصر والمجسة والمذاقة والاسترواح . فإذا صارت الأشياء إليه ميز بينها العقل ، ثم صارت بأجمعها إلى اليقين ، فكان هو المثبت لها والموجه كل واحدة منها جهتها .

ولولا معرفة القلب بالعقل الذي جعله الله لذلك لم يفرق سمع بين صوتين مختلفين ، ولا بصر بين صورتين متقاربتين ، ولا مجسة بين شيئين غير متشابهين . ولليقين بعد ذلك منزلة يُعرفُ بها حال الضار والنافع في العاقبة عند الله تعالى . فلما صار اليقين في التشبيه كالشجرة النابتة في القلب ، أغصانها العمل ، وثمرتها الثواب — أخبر ذلك أنه قد تكون الشجرة نابتة الأصل بلا أغصان ، كما قد يكون أثيقين نابتاً بلا عمل ، وأنه كما لا تكون الأغصان نابتة بلا أصل — فكذلك لا يكون العمل نافعاً إلا يقين ، وكما أنه لا تُحذفُ الثمرة في الطيب والكثرة إذا كان الأصل نابتاً والأغصان ملتفة — فكذلك يكون الثواب لمن صح يقينه وحسن عمله . وقد تعرضُ للأعمال عوارضُ من العلل : « منهن الأمل المثبِّطُ ، والنفس الأمارة بالسوء ، والهوى المزين للباطل ، والشيطان الجارى من ابن آدم مجرى الدم » — يضررون بالعمل والثواب ولا يبلغ ضررهن اليقين ، فيكون ذلك كبعض ما يعرض للشجرة من عوارض الآفات : فتدوى أغصانها ، وتثور ورقها ، وتمنع ثمرتها ، والأصل ثابت . فإذا تجلت الآفة عادت إلى صلاحها .

فإذا يجبك من عمل امرئ لا يشبه يقينه ، وأن يقينه لا يرتبط رجاءه وخوفه على ربه ؟ إنما العجب من خلاف ذلك !! ولعمري لو أشبه عمل امرئ يقينه : فكان في خوفه ورجائه كالمعائن لما يعانيه بقلبه من الوقوف بين يدي الله ، والنظر إلى ما وعد وأوعد — لكان ما يعتلج على قلبه من خطرات الخوف شاغلاً له عن الرجاء ، حتى يأتي على نفسه أول لحظة ينظر بها إلى النار خوفاً لها ، أو إلى الجنة أسفاً عليها إذا حرمها . وإذن لكان الموقن بالبعث

بقوله كالمعائن له يوم القيامة ، وكيف يستطيع من كان كذلك أن يعقل فضلا عن أن يعمل !!

وأما قولك : « كيف لم يكن خائف الآخرة لربه كخائف الدنيا لسلطانها » - فإن الله عز وجل خلق الإنسان ضعيفاً وجعله عجولاً : فهو لضعفه موكل بخوف الأقرب فالأقرب مما يكره ، وهو بعجلته موكل بحب الأبعد فالأبعد مما يشتهى . وزاده حرصاً على المخلص من المكروه وطلباً للمحبوب - حاجته إلى الاستمتاع بمتاع الدنيا الذي لولا ما طبع عليه القلب من حبه ، وسهل على المخلوقين من طلبه - ما انتفع بالدنيا منتفع ، ولا عاش فيها عاش . ومع ذلك ، إن مكاره الدنيا ومحابها عند ابن آدم على وجهين : أما المكروه فيقول فيه : عسى أن أكون ابتليت به لذنب سلف مني . وأما المحبوب فيقول فيه : عسى أن أكون رزقته بحسنة كانت مني ، فهو ثواب عجل . وهو مع هذا يعلم أن حلوم المخلوقين إلى الضيق ، وأن قلوب أكثر مُسلّطِيهم إلى القسوة . وأن العيب عنهم مستور ، فليس يلتمس ملتسمهم إلا علم الظاهر ، ولا يلتفت من أمرى إلى صلاح سريره دون صلاح علانيته .

ومن طباع الإنسان اللثوم : فليس يرضى إذا خيف إلا بأن يُذل ، ولا إذا رُجى إلا بأن يتعب ، ولا إذا غضب إلا بأن يخضع له ، ولا إذا أمر إلا بأن ينفذ أمره ، ولا ينتفع المتشفع بإحسانه عنده إذا أساء ، ولا المطيع بكثرة طاعته في المعصية الواحدة إذا عصى ، ولا يرى الثواب لازماً له ولا العقاب محجوراً عليه : فإن عاقب لم يستبق ، وإن غضب لم يتثبت ، وإن أساء لم يعتذر ، وإن أذنب إليه مذنّب لم يغفر . واللطيف الخبير يعلم السريرة فيغفر بها العلانية ، ويمحو بالحسنة عشرة من السيئات ، ويصفح بتوبة الساعة عن ذنوب مائة عام . إن دعى أجاب ، وإن استغفر غفر ، وإن أطيع شكر ، وإن عصي عفا . ومن وراء عبده بعد هذا كله ثلاث : رحمته التي وسعت كل شيء ، وشهادة الحق التي لا يزكو عمل إلا بها ، وشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم .

وهذا كله مثبت لليقين ، باسط للأمل ، مشبط عن العمل ، إلا من شاء الله ،
وقليل ما هم . فلا تحمل نطف عملك على صحة يقينك ، فتوهن إيمانك .
ولا ترخص لنفسك في مقارفة الذنوب ، فيكون يقينك خصا لك وحبّة
عليك . وكذب أملك : وجاهد شهوتك ؛ فإنهما داءاك المخوفان على دينك ،
واسأل الله الغنيمة لنا ولك »

الرابطة بين الاعتقاد واليقين :

علمنا مما تقدم أن الاعتقاد بشيء هو تصديقه وعقد القلب والضمير عليه .
ويجوز أن يكون ذلك التصديق وهذا العقد على حق ، كما يجوز أن يكونا
على باطل لباس لباس الحق . وأما اليقين فهو اعتقاد الشيء على حالته اعتقادا
مطابقا للحقيقة والواقع غير ممكن الزوال . إذن اليقين اعتقاد بحق ، أو اعتقاد
حق فقط . فكل يقين اعتقاد وليس كل اعتقاد يقينا ؛ لأن الاعتقاد قد يكون
في الحقيقة ، وقد يزايها ويزيغ عنها . وأما اليقين فهو عين الحقيقة ، والله
ورسوله أعلم .

الايمان : لفظ الايمان إذا أفرد دخلت فيه الأعمال الباطنة والظاهرة ،
وقيل الايمان : قول وعمل . أى قول القلب واللسان ، وعمل القلب والجوارح ،
ومنه قول النبي صلى الله عليه في الحديث المتفق عليه : « الْإِيْمَانُ بَضْعٌ وَسِتُّونَ
شُعْبَةً ، أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ
الطَّرِيقِ » و « الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيْمَانِ » ومنه قوله تعالى : (إِنَّمَا
الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) وقوله : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ
إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ، وَعَلَى
رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، أُولَئِكَ هُمُ

الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) وقوله : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ)

والإيمان المطلق : يدخل فيه الإسلام ، كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لو فد عبد القيس : « أَمْرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وإِقَامُ الصَّلَاةِ ، وإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَأَنْ تُؤَدُّوا خُمْسَ مَا غَنِمْتُمْ » ولهذا قال من قال من السلف : « كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً » .

وأما إذا قرن لفظ الإيمان بالعمل أو بالإسلام فإنه يفرق بينهما ، كما في قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » وهو في القرآن كثير ، وكما في قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح لما سأله جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فقال : « الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ » قال فما الإيمان ؟ قال : « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَتَبْعَثَ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ » قال : « فما الإحسان ؟ » قال : « أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » ففرق هذا النص بين الإسلام والإيمان لما قرن بين الاسمين ، وفي النص السابق أدخل الإسلام في الإيمان لما أفردته بالذكر . وكذلك لفظ العمل : فإن الإسلام المذكور هو من العمل ، والعمل الظاهر هو موجب إيمان القلب ومقتضاه . فإذا حصل إيمان القلب حصل إيمان الجوارح ضرورة : وإيمان القلب لا بد فيه من تصديق القلب وانقياده ، وإلا فلو صدق قلبه بأن محمداً رسول الله ، وهو يبغضه ويحسده ويستكبر عن متابعتة — لم يكن قد آمن به ، بل هو كافر به .

ومن هذا الباب كفر إبليس وفرعون وأهل الكتاب الذين يعرفونه كما

يعرفون أبناءهم ، وغير هؤلاء ؛ فإن إبليس لم يكذب خبرا ولا مخبرا ، بل استكبر عن أمر ربه ، وفرعون وقومه قال الله فيهم : (وَجَعَدُوا بِهَا ، وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) وقال له موسى : « لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر » وقال تعالى : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ »

فمجرد علم القلب بالحق إن لم يقترن به عمل القلب بموجب علمه : مثل محبة القلب له ، واتباع القلب له - لم ينفع صاحبه . بل أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَنَفْسٍ لَا تَشْبَعُ ، وَدُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ ، وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ)

ولكن الجهمية ظنوا أن مجرد علم القلب وتصديقه هو الايمان : وأن من دل الشرع على أنه ليس بمؤمن فإن ذلك يدل على عدم علم قلبه . وهذا من أعظم الجهل شرعا وعقلا . وحقيقته توجب التسوية بين المؤمن والكافر . ولهذا أطلق وكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة كفرهم بذلك ؛ فإنه من المعلوم أن يكون الانسان عالما بالحق ويبغضه لغرض آخر ، فليس كل من كان مستكبرا عن الحق يكون غير عالم به .

وحينئذ فالإيمان لا بد فيه من تصديق القلب وعمله . وهذا معنى قول السلف : « الايمان قول وعمل » ثم إنه إذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للارادة لزم وجود الأفعال الظاهرة ؛ فان الارادة الجازمة إذا اقترنت بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعا ، وإنما ينتفى وجود الفعل لعدم كمال القدرة أو لعدم كمال الارادة ، وإلا فمع كمالهما يجب وجود الفعل الاختياري .

فاذا أقر القلب إقرارا تاما بأن محمدا رسول الله ، وأحبه محبة تامة - امتنع

مع ذلك ألا يتكلم بالشهادتين مع قدرته على ذلك ، لكن إن كان عاجزا
لخرس ونحوه ، أو لخوف ونحوه - لم يكن قادرا على النطق بهما . وأبو طالب
وإن كان عالما بأن محمدا رسول الله ، وهو محب له - لم تكن محبته له لمحبه
الله ، بل كان يحبه لأنه ابن أخيه ، فيحبه للقرابة . وإذا أحب ظهوره فلما
يحصل له بذلك من الشرف والرياسة ، فأصل حبه هو الرياسة . فلماذا لما
عرض عليه الشهادتين عند الموت رأى أن الاقرار بهما زوال دينه الذي
يحبه ، فكان دينه أحب إليه من ابن أخيه ، فلم يقر بهما . فلو كان يحبه ؛ لأنه
رسول الله ، كما كان يحبه أبو بكر الذي قال الله فيه : (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي
يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى : وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ، إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ
رَبِّهِ الْأَعْلَى ، وَلَسَوْفَ يَرْضَى) وكما كان يحبه سائر المؤمنين : كعمر وعثمان
وعلى - لنطق بالشهادتين قطعا . فكان حبه جامع مع الله ، لاحبا لله . ولهذا لم
يقبل الله ما فعله : من نصر الرسول وموازرته ؛ لأنه لم يعمله لله ، والله
لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه .

الايان قابل للزيادة والنقصان :

قال الامام أبو الحسن علي بن خلف بن بطلال المالكي المغربي في شرح
صحيح البخاري : « مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها أن
الايان قول وعمل ، يزيد وينقص . والحجة على زيادته ونقصانه ما أورده
البخاري من الآيات ، يعنى قوله عز وجل : (لِيَزِدَّادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ)
وقوله تعالى : (وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) وقوله تعالى : (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا
هُدًى) وقوله تعالى : (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى) وقوله تعالى : (وَيَزِدَّاد
الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا) وقوله تعالى : (أَيْدِيكُمْ زَادَتْهُ هُدًى إِيمَانًا ، فَأَمَّا الَّذِينَ
آمَنُوا فزَادَهُمْ إِيمَانًا » وقوله تعالى : (فَآخْشَوْهُمْ فزَادَهُمْ إِيمَانًا) وقوله تعالى :
وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا) :

قال عبد الرزاق : سمعت من أدركت من شيوخنا وأصحابنا : سفيان

الثوري ، ومالك بن أنس ، وعبيد الله بن عمر ، والأوزاعي ومعمّر بن راشد ، وابن جريح ، وسفيان بن عيينة — يقولون : الإِيمان قول وعمل يزيد وينقص وهذا قول ابن مسعود : وحذيفة ، والنخعي ، والحسن البصري ، وعطاء ، وطاوس ، ومجاهد ، وعبد الله بن المبارك . فالمعنى الذي يستحق به العبد المدح : والولاية من المؤمنين — هو إتيانه بهذه الأمور الثلاثة : التصديق بالقلب ، والإقرار باللسان ، والعمل بالجوارح . وذلك أنه لا خلاف بين الجميع في أنه لو أقر وعمل على غير علم منه ومعرفة بربه — لا يستحق اسم مؤمن ، ولو عرفه وعمل وجحد بلسانه وكذب ما عرف من التوحيد — لا يستحق اسم مؤمن .

وكذلك إذا أقر بالله تعالى وبرسله صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين ولم يعمل بالفرائض لا يسمى مؤمناً بالاطلاق . وإن كان في كلام العرب يسمى مؤمناً بالتصديق فذلك غير مستحق في كلام الله تعالى ، لقوله عز وجل : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) فأخبرنا سبحانه وتعالى أن المؤمن من كانت هذه صفته

وقال ابن بطال في باب من قال : « الإِيمان هو العمل » : فإن قيل قد قدمتم أن الإِيمان هو التصديق قيل : التصديق هو أول منازل الإِيمان ، ويوجب للصدق الدخول فيه ، ولا يوجب له استكمال منزله ، ولا يسمى مؤمناً مطلقاً . هذا مذهب جماعة أهل السنة أن الإِيمان قول وعمل . قال أبو عبيد :

وهو قول مالك والثوري والأوزاعي ومن بعدهم من أرباب العلم والسنة الذين كانوا مصاييح الهدى وأئمة الدين من أهل الحجاز والعراق والشام وغيرهم . قال ابن بطال : وهذا المعنى أراد البخاري رحمه الله إثباته في كتاب الإِيمان ، وعليه بوب أبوابه كلها ، فقال : باب : (أمور الإِيمان) وباب :

« الصلاة من الإيمان » وباب : « الزكاة من الإيمان » وباب : « الجهاد من الإيمان » ، وسائر أبوابه . وإنما أراد الرد على المرجئة في قولهم : « إن الإيمان قول بلا عمل » وتبيين غلطهم وسوء اعتقادهم ومخالفتهم للكتاب والسنة ومذاهب الأئمة .

الفرق بين الإيمان والتصديق :

الإيمان وإن تضمن التصديق فليس مرادفا له : فلا يقال لكل مصدق بشيء : إنه مؤمن به . فلو قال :

أنا أصدق بأن الواحد نصف الاثنين ، وأن السماء فوقنا والأرض تحتنا ونحو ذلك مما يشاهده الناس ويعلمونه - لم يقل لهذا إنه مؤمن بذلك : بل لا يستعمل إلا فيمن أخبر بشيء من الأمور الغائبة كقول إخوة يوسف : « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا » فإنهم أخبروه بما غاب عنه

وهم يفرقون بين من آمن له وآمن به : فالأول يقال للمخبر والثاني للمخبر به ، كما قال إخوة يوسف : (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا) وقال تعالى : (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ) وقال تعالى : (وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ، قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ ، يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ) ففرق بين إيمانه بالله وإيمانه للمؤمنين : لأن المراد يُصدق المؤمنين إذا أخبروه ، وأما إيمانه بالله فهو من باب الإقرار به . ومنه قوله تعالى عن قول فرعون وملئه : (أَنْتُمْ مِنْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ؟) أى نقرها ونصدقهما . ومنه قوله : (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ؟) ومنه قوله تعالى : (فَاَمِنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي) ومن المعنى الآخر قوله تعالى : (يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) وقوله : (آمَنَ الرَّسُولُ) ﴿ م - ١٩ الخلق الكامل ﴾ .

بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ، وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا تَفَرُّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ (وقوله :) (وَلَئِنْ الْبَرُّ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ) أى أقر بذلك . ومثل هذا فى القرآن كثير .

المؤمن الكامل الايمان لا يخرج به الابتلاء عن كمال إيمانه :

ليس المؤمن بالذى يؤدى فرائض العبادات صورة ، ويتجنب المحظورات فقط ، إنما المؤمن الكامل الايمان لا يختلج فى قلبه اعتراض ، ولا يساكن فيما يحرى وسوسة . وكلما اشتد البلاء زاد إيمانه ، وقوى تسليمه . وقد يدعو فلا يرى للاجابة أثر أو سره لا يتغير : لأنه يعلم أنه مملوك وله مالك يتصرف بمقتضى إرادته . فإن اختلج فى قلبه اعتراض خرج من مقام العبودية إلى مقام المناظرة . كما جرى لإبليس . والايمان القوى يبين أثره عند قوة البلاء . فأما إذا رأينا مثل يحيى بن زكريا عليهما السلام : تسلط عليه فاجر ، فيأمر بذبحه فيذبح - فربما اختلج فى الطبع أن يقول : فهل رد عنه من جعله نبياً ؟ وكذلك كل تسلط من الكفار على الأنبياء والمؤمنين ، وما وقع رد عنهم . فإن هجس بالفكر أن القدرة تعجز عن الرد عنهم كان كفراً ، وإن علم أن القدرة متمكنة من الرد وما ردت . وأنها قد تجوع المؤمنين ، وتشبع الكفار ، وتعافى العصاة ، وتمرض المتقين - لم يبق إلا التسليم للمالك وإن أمض وأر مض . وقد ذهب يوسف بن يعقوب عليهما السلام فبكى أبوه طويلاً ثم لم يئس : فقد قال لما ضم إلى فقدته فقد أخيه : (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا) وقد دعا موسى عليه الصلاة والسلام على فرعون فأجيب بعد زمن طويل ، وكم من بلية نزلت بمعظم القدر ، فما زاده ذلك إلا تسليماً ورضاً ، فهناك يظهر معنى قوله : (وَرَضُوا عَنْهُ) وما هنا يظهر مبلغ قوة الايمان ، لا فى ركعات : قال الحسن البصرى : « استوى الناس فى العافية . فإذا نزل البلاء تباينوا »

حقا إنه يبينُ إيمان المؤمن عند الابتلاء : فهو يبالغ في الدعاء ولا يرى أثرا للإجابة ، ولا يتغير أمله ورجاؤه ، ولو قويت أسباب اليأس ؛ لعلمه أن الحق أعلم بالمصالح . أولأن المراد منه الصبر والإيمان : فإنه لم يحكم عليه بذلك إلا وهو يريد من القلب التسليم ؛ لينظر كيف صبره ، أو يريد كثرة اللجأ والدعاء . فأما من يريد تعجيل الإجابة ، ويتذمر إن لم تتعجل - فذاك ضعيف الإيمان يرى أن له حقا في الإجابة ؛ وكأنه يتقاضى أجره عمله . ومن أعظم الجهل أن يتذمر في باطنه لذلك أولا انعكاس أغراضه ، ومن الحق أن يقال : حصول الغرض لا يضر ، والدعاء لم يستجب . ولا شك أن ذلك من ضعف الإيمان ، وعدم التسليم للحكمة الإلهية .

ومن الذي حصل له غرض ثم لم يكدر ؟ هذا آدم طاب عيشه في الجنة وأخرج منها ، ونوح سأل في ابنه فلم يعط مراده ، والخليل ابتلى بالنار ، وإسحاق بالذبح ، ويعقوب بفقد الولد ، ويوسف بمجاهدة الهوى ، وأيوب بالضر ، وداود وسليمان بالفتنة ، وجميع الأنبياء على هذا ، وما لقي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من الجوع والأذى وكدر اليش معلوم . فالدنيا خلقت للجهاد ؛ فينبغي للعاقل أن يوطن نفسه على الصبر ؛ وأن يعلم أن ما حصل من المراد لطف ، وما لم يحصل فعلى أصل الخلقة والجملة للدنيا كما قيل :

طُبعت على كدر وأنت تريدها * صفوا من الأقدار والآ كدار
ومكلف الأيام ضد طباعها * متطلب في الماء جذوة نار

وهنا تبين قوة الإيمان وضعفه ، فليس للمؤمن الكامل الإيمان إلا التسليم للمالك والتحكيم لحكمته ، وليقل قد قيل لسيد الكل : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ)

فلا يئس من روح الله ، وإن طال عناؤه في هذه الحياة . وله خير

قدوة فيمن غبر ، وامتلات حياته بالبلاء والكدر ، ولا محيص من الصبر على ذلك ؛ ليحظى برضا مالك المالك : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْأَسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى

يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)
وسياتى الكثير من هذا إن شاء الله عند الكلام على الرضا .

فله سبحانه من الحكم فى ابتلائه أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين ما تنقصر
عقول العالمين عن معرفته . وهن وصل من وصل إلى المقامات المحمودة ،
والنهايات الفاضلة ، إلا على جسر المحنة والابتلاء :

كذا المعالى إذا مارمت تدركها * فاعبر إليها على جسر من التعب

الدين

قال فى المصباح المنير : « ودان بالائسلام ديناً (بالكسر) : تعبد به ، وتدّين
به كذلك ، فهو دين ، مثل ساد فهو سيد . ودَيْنتُهُ (بالثقل) : وكلته إلى
دينه ، وتركته وما يدين : لم أعترض عليه فيما يراه سائغاً فى اعتقاده » فصرح
هذه العبارة أن الدين هو العبادة التى توجبها العقيدة : والطاعة التى يدعو إليها
التصديق : والانقياد الذى يوجبه الايمان ويسميه . فهو نتيجة مقدمات
الاعتقاد والايمان وثمرة غرسهما ، وظاهرة وجودهما . ومعلوم مما سبق
أن الاعتقاد قد يكون بحق يقينى لا ريب فيه : كاعتقاد توحيد الخالق ، كما
قد يكون بباطل تزيابزى الحق ونازعه مكاته : كاعتقاد إلهية الصنم .

وبذلك يكون الدين - وهو نتيجة مقدمته ، وفرع نبعته ، وثمرة شجرته -
تابعاً له فى الأحقية والبطلان ، والصحة والاعتلال ؛ لأن الدين قد يكون
مبنياً على الاعتقاد اليقين الذى تعززه الأدلة اليقينية والبراهين القطعية . فهو
والحالة هذه دين صحيح ، ومذهب خالص صريح ، لا يتطرق إليه وهن
ولا تجريح ، وقد يكون مبنياً على الاعتقاد الزائع ، والايمان غير السائغ
الذى يتعلل معتنقه بالأدلة الوهمية والبراهين الواهية ، فيكون ديناً فاسداً ،
ومذهباً خاطئاً .

يؤيد هذا قوله تعالى : (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا

أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا عَبَدُ ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ .
لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ

قال الراغب الأصفهاني في مفردات غريب القرآن ما يفيد : « والدين يقال للطاعة والجزاء ، واستعير للشرية ، ويطلق على الطاعة والانقياد للشرية : قال تعالى : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ) أى طاعة (وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ) وقوله : (لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ) وذلك حث على اتباع دين النبي صلى الله عليه وسلم الذى هو أوسط الأديان ، كما قال : (جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)

وقوله : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) قيل يعنى الطاعة ؛ فإن ذلك لا يكون فى الحقيقة إلا بالإخلاص ، والإخلاص لا يتأتى فيه الإكراه . وقيل إن ذلك مختص بأهل الكتاب الباذلين للجزية . وقوله : (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ ؟) يعنى الإسلام لقوله : (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ) وعلى هذا قوله : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ) (وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ) وقوله : (فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ) أى غير مجزيين .

الرابطه بين الدين والايمان

قال بعض الفلاسفة : « الإِيمان وإن تنوعت صورته قريب من الدين مرتبط به ، بل إن الدين لا يكون بدونه ، مع إمكان وجوده هو بدون الدين . وكما أن الأشياء قد تختلف فى الصور والأوضاع الظاهرة وتكون كلها من مادة واحدة . فكذلك الإِيمان والدين : هما من جوهر واحد ، وإن جاز اختلافهما فى الشكل الظاهر .

وإذا أرجعنا النظر قليلا إلى الحديث الشريف الذى سأل فيه سيدنا جبريل

عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم عن الايمان والاسلام والاحسان ،
وقوله بعد جوابه عما سأل عنه وانصرافه : هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم -
نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أراد بالدين ما يشمل الايمان والاسلام
والاحسان . فجماع هذه الثلاثة على ذلك هو الدين . والله ورسوله أعلى وأعلم .

الايان بالالهية

الحياة تجهر بوجود إله :

قد توصل العلماء بوساطة الآلة المكبرة التي ترى الجسم أكبر مما هو بأكثر
من ألف ألف مرة إلى أن في الأجسام الحية جراثيم صغيرة شفة لزجة
خالية من اللون قوامها كقوام البيض النقي . وقد راقبها العلماء طويلاً ،
وفحصوها بأقوى ما عندهم من المكبرات ، فلم يروا لها أعضاء ، ولا آلات ،
ووجدوا شكلها واحداً في كل أنواع النبات والحيوان : من الفطير الدنيء إلى
دماغ الإنسان . ووجدوا أنها تتحرك بحيث لا تبقى على حالة ولو لحظة من
الزمان . ولا تزال تتناول المواد غير الحية مما جاورها ، وتحييها حالاً بطريقة
عجيبة لم يكشفها العلم . ثم تكون منها خيوطاً عصبية أو شريانية أو عظمية أو
عضلية أو نحو ذلك . وتنسج هذه الخيوط أعصاباً وشرابين وعظاماً وعضلات :
فإن كانت مما يكون عظماً لا يمكن أن تكون عصباً مهما استعمل لها من
الوسائط ، وكذا ما يكون منها ورقاً لا يمكن أن يكون ثمراً ، وما يكون زهراً
لا يكون خشباً . وقس على ذلك .

هذا مع أن جراثيم الورق والزهر والثمر واللحم والعظم والشرابين
والأوردة - هي بحسب ما يعلم واحد أبداً ودائماً في كل أنواع النبات والحيوان
وفي كل أدوار الحياة ، وكثيراً ما تكون مواد غذائها واحدة أيضاً ، ولكنها
لا تخطئ ولا تخط في عملها .

ثم إنها إذا كوت هذه الأعضاء لا تتركها . بل هي نفسها تكون قد تجزأت

أجزاء كثيرة وانتشرت فيما كوته لهما أو عظمًا أو ورقًا أو ثمرًا الخ. حتى إنك تراها منتشرة في كل أنسجة الجسد بحيث لا تجد فسحةً قطرها جزء من خمسمائة جزء من البوصة خاليةً من هذه الجراثيم . ومقدارها في الجسد الحى نحو خمسة جرماً . ومن المؤكد أن هذه الجراثيم لا تتكون إلا من جراثيم حية . فإن قيل : أنى أنت حياة الجرثومة الأولى ؟ وكيف تأتى أن تعطى الحياة لما جاورها من المواد غير الحية ؟ وكيف تستطيع أن تنقسم أقساماً كثيرة جداً ، ولكل قسم خواص الجرثومة الأولى تماماً ؟ وكيف تتم أعمالها دائماً على غاية الإتقان ؟ هنا طأطأ كل العلماء رموسهم ، وقالوا : لانعلم ، ولم يكشف لنا عما هى الحياة ، ولا يمكن أن تكون خاصة من خواص المادة ؛ للتناقض الظاهر بينها وبين الاستمرار ، بل هى عرض خارجى يؤتى به إليها ويذهب به عنها ، والآتى بها إلى هذه الجراثيم ذات قديرة قدرتها بالغة إلى كل الموجودات الحية وقابضة على زمام الطبيعة .

ألا يبين من هذا أن الحياة - محور دوالاب الكون ، وروح العالم الحى - تجهر بوجود إله محى قدير حكيم ؛ جرياً على القول الحق : إن لكل معلول علة ، ولكل عمل عاملاً ؟

موازنة :

الذين ذهبوا إلى المعرض رأوا هنالك آلات مختلفة الأشكال والصفات : رأوا آلة تطحن القمح وتعجنه وتخبره ، وأخرى تبل التبغ وتفرمه وتنسقه ، وأخرى تطبع الورق وتطويه وتخيطة ، إلى غير ذلك . فذهلوا عن أنفسهم ، وقالوا : ما أحكم الإنسان ، وأعجب ما وصل إليه ! ! ولو حاولت إقناعهم بأن هذه الآلات وجدت من نفسها ، أى إن دقائق الحديد ، ودقائق الخشب تجمعت وتركبت ، فصار بعضها عوارض ، وبعضها مخارز ، وبعضها دواليب ، وبعضها أساطين إلى غير ذلك من الأجزاء المختلفة الأقدار والهيئات ، ثم تركبت على أوضاع خاصة ، فتألفت منها تلك الآلات العجيبة . ثم إن هذه الآلات

جذبت إليها الفحم من طبقات الأرض ، وأضرمت فيه النار ، وملأت جوفها من مياه الينابيع ، فسخن الماء بحرارة النار ، فصار بخارا ، ورفع الأساطين التي فوقه فارتفعت ، وأدارت الدواليب الكثيرة ، وحركت الأدوات المختلفة ، فأحدث ذلك طحن القمح وعجن الطحين ، وخبز العجين ، وطبع الورق وبل التبغ الخ ، وقد جرى كل ذلك ولم تدخل فيه يد الانسان . لو جهرت لهم بهذه النتيجة لعدوك مجنوناً أو هاذراً ، بل من تراه يسلم بذلك ؟ وأى عقل يعتقد سخيلاً كان أو ثقيلاً ؟ أيمن أن توجد هذه الآلات من نفسها ؟ أيمن أن تختار هذه الأوضاع بلاصانع قادر على صنعها ؟ كلا ؛ فالعقل والنقل لا يسلطان بذلك ، بل يرفضانه . لكن ماهذه الآلات بالنسبة إلى أصغر ضروب الحيوان التي لصغرها لا تراها العين ، والتي لو جمع ألف حيوان منها معا ما بلغ جرمها كلها جرم الخردلة الصغيرة ؟ ماهذه الآلات بالنسبة إلى العفن الذي نراه مندوراً كالرماد الأخضر ؟ وإذا نظرنا إليه بآلة التكبير رأيناه غابات من الأشجار ، وكلها تمحيا وتنمو على صورة قصرت عقول البشر عن إدراك كنهها !!

من يتجاسر فيقول : إن هذه الحيوانات وهذه النباتات وجدت هكذا من نشء الطبيعة ؟

لكن ما هذا بالنسبة إلى الحيوانات الكبيرة ذات الأيدي والأرجل والعيون والآذان ؟ أين آلات البشر من جسد الانسان ؟ من عينيه ذات الطبقات الكثيرة والتراكيب العجيبة ؟ فلو جمعت كل آلات البشر شرقاً وغرباً ما ساوت كلها عينا واحدة في الإيقان والغرابة ، ولو اجتمع كل علماء الأرض وصناعها ، وأرادوا أن يصنعوا عينا باصرة كعين البعوضة ، وصرفوا عمرهم كله في هذا العمل إلى أن حانت منيتهم - لجثتهم في آخر حياتهم وقدرموا آلاتهم في النار ، وقالوا كلهم : عجونا عجونا .

ليس في ذلك شيء من المبالغة ، لأن سبيل الحياة والنمو لم يخط فيه الانسان

فيما مضى ، ولا يؤمل أنه يخطو فيه فيما يأتى . وأيسر على الإنسان أن يصدق بإقامة سلم يصل من الأرض إلى الشمس من أن يصدق بإمكان عمل عين باصرة ، أو أذن سامعة ، أو جرثومة نامية :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

وإن كان لا يمكن الآلات التي يعملها الإنسان أن تكون من نفسها ، بل لا بد لها من صنع قادر على عملها ، وهي دون الآلات الموجودة الحية بمالا يقدر . فمن يصدق أن هذا العالم العظيم مع ما فيه من الأجسام الحية التي لا تقع تحت الحصر أوجد نفسه ؟

وخلاصة ما تقدم : أن الكائنات الحية تنطق بوجود خالق قدير خذقها وأحيها . وليس هذا قولاً حراً على لسان الخلق - كما يزعم بعض المتفلسفين - بل هو حقيقة وقف العلماء عندها ، وحكم أذعن له مشهورو الباحثين .

عناية الله :

قلت سابقاً : إن جميع الأجسام الحية مؤلفة من جراثيم زلائية شفة ، وإن تركيبتها واحد في جميع أنواع النبات والحيوان . أما هذه الجراثيم فمركبة كيمياوياً من أربعة عناصر بسيطة وهي : الأكسجين والهيدروجين والنيتروجين والكربون : فالأكسجين : غاز شف كالهواء يشعل أكثر الأجسام وإن كانت باردة ، وفيه خاصية لتقوية اشتعال الأجسام المشتعلة .

والهيدروجين : غاز شف كالأكسجين ، ولكنه أخف منه كثيراً ، وأخف من كل العناصر المعروفة ، ومن جملة خواصه أنه يتحد بالأكسجين فيكون منهما ماء . وكل المياه التي على الأرض وفي البحر وفي السحاب مركبة من الأكسجين والهيدروجين .

والنتروجين : غاز شف كالا كسجين ، ولكن خواصه تخالف خواص
 الاكسجين والهيدروجين . وهو يتحد بالا كسجين فيتكون من اتحادهما
 حوامض شديدة الفعل : أهمها الحامض النتريك أى ماء الفضة الذى
 يذيب الفضة وأكثر المعادن ، ويميت الأنسجة الحيوانية والنباتية كما لا يخفى
 قلت : إن الجراثيم الحية مركبة من هذه العناصر الأربعة : فلو اتحد
 الاكسجين والهيدروجين عند أول اتصالهما لحدث من ذلك ماء فقط ، وبقي
 النتروجين والكربون معلقين . ولو اتحد الاكسجين بالكربون لتكون من
 ذلك غاز سام . ولو اتحد الاكسجين بالنتروجين لتكون منهما حامض أكال .
 ولو اتحد الهيدروجين بالكربون لتكون منهما غاز قابل للاشتعال . ولو
 جمعت هذه العناصر الأربعة وتركبت ما أمكن أن يتركب منها إلا هذه
 المركبات ، ولكنها غير حية . وأكثرها مضر بالحياة .

فمن يخالف السنن الكونية ويركب هذه العناصر . ويجعل منها أصلا
 حيا : ويعتنى بها دائما حتى لا تنحل ولا تتركب بخلاف ذلك ؟
 ومن يعطى هذه الجراثيم قوة . حتى تكون فى النبات نباتا ، وفى السمك
 سمكا ، وفى الطير طيرا . وفى الإنسان إنسانا . ويحكم عليها . ويعتنى بها فى كل
 أدوار حياتها حتى لا تخطئ أبدا ؟ مع أنه لم يعهد عن جرثومة نبات كونت حيوانا ،
 ولا عن جرثومة سمك كونت إنسانا ، مع أن الجراثيم واحدة دائما ، وتركيبها
 غير متغير فى كل أنواع النبات والحيوان . وفى كل أدوار الحياة .

قل لنا من يرتاب فى العناية الإلهية لو بطلت العناية حقيقة ؟ أما كان
 أوكسجين الهواء يحرق الجسد كما يحرق الحديد ؟ أما كان أوكسجين جسدك
 يتحد بهيدروجينه فيصير ثلاثة أرباعك ماء ؟

أما كان أوكسجين جسدك يتحد بنتروجينه فيصير حامضا أكالا
 ويأكل البدن ؟

قل لنا يا من تنكر العناية - لو انتفت العناية كما تزعم - فمن كان يمنع جراثيم

جسدك من أن تكونَ لحماً فقط ، فتصير كلك لحماً لا عظم فيه ، أو أن تكونَ عظماً فقط ، فتصير كلك قطعة من عظم ، أو أن تكون دماً فقط ، فتصير بركة دم تنن عما قليل ، وتهب رائحتك الخبيثة في الأقطار ؟
شمول عناية الله :

ومن الناس من يقول : إن الله معتن بالأمور الكبيرة ، ولكنه لا يلتفت إلى الصغيرة : (وما يعزُّبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْفَرٍ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) . فلو صح زعمهم وترك صغار الأشياء لترك الجرائم نفسها ، لأنها من أصغر ما يوجد . ولو تركها سنة واحدة لخرب نظام العالم ، وصار الإنسان يزرع أرضه قمحا فتنبت له عقارب . وينصب كرمه عنباً فيخرج له حيات ، ويتزوج بامرأة قتله له جنادب ، ويركب على فرس فيستحيل تحته ضفدعا !!

ولا تظن أنني خرجت بهذا من معرض الجد إلى معرض الهزل . بل الحق أنه لو انقطعت العناية لحظة من الزمان لتعذر علينا أن نعرف مصير هذه الجرائم . أما الذين أرادوا أن ينكروا العناية فقد بذلوا جهدهم في جمع شواذ الكون لإثبات دعواهم ، ولما وجدوها شيئاً لا يذكر بالنسبة إلى أموره اتقياسية أخذوا يبحثون عن سبب في المادة يجعلها تسير على سنن واحد ، وإلى الآن ما وجدوا .

أما ما تقدم فكاف لإقناع غير المكابر بأن حياة الأجسام الحية تقتضى وجود إله محي ، وإتمامها وظائفها بلا خلل يستدعى كون هذا الإله ناظراً إليها ومعتنياً بها .

العالم الأدبي يدل على وجود الله وعلى عنايته :

قد ظهر من البحوث الوافية أن الإنسان قد اعتقد في كل أين وأن وجود إله ، ووجوب العبادة له . ولا يخلو هذا الاعتقاد أن يكون غريزة في فطرة البشر : « كل مولود يولد على الفطرة » أو استنباطاً وصلوا إليه بالدليل ،

أو إعلانا جاءهم بوحى من هذا الإله : فإن كان غريزة في فطرتهم فالذى فطرهم عليه هو خالقهم ، وهو خير شاهد لنفسه . وإن كان استنباطا فلا بد من أنهم استنبطوه بما في الطبيعة من الشواهد على وجود الله وعنايته ، ونعم ما فعلوا . وإن كان الله سبحانه وتعالى قد أعلن لهم ذاته بطريقة ما فاعتقادهم في محله وهو عين الصواب . وعلى كل فوجود هذا الاعتقاد بين كل البشر دليل على أن آداب الإنسان تثبت وجود الله وعنايته . فالعالم الأدبي يعلن وجود الله ، ويثبت كونه معتنياً بخلائقه دائماً مثل العالم المادى .

أثر الايمان بالالهية :

يترتب على ما تقدم أمر جوهرى جدا : وهو أن الله ناظر إلى كل فرد من أفراد البشر دائماً وأبداً . فإذا كان الله ناظراً إلينا دائماً فأى أناس يجب أن نكون ؟

يادعاة الحق ، يامن يغارون على خير بلادهم ، يامن يقصدون إصلاح العالم ، يامن يضحون بمصالحهم في خدمة وطنهم ، يامن يسفكون دمهم في طلب الراحة والحرية وإنقاذ المظلومين ورفع لواء العدل والإنصاف ، أنا أريكم طريقاً لبلوغ أمانيتكم : اذهبوا وعلّموا الناس أن الله ناظر إليهم دائماً ، واطيعوا في عقولهم أن عني الله عليهم دائماً ، أى أنه مطلع عليهم ومعين بهم . اطيعوا في عقل القاضى أن الله مطلع عليه يَنْتَفِ كل ظلم من حكمه . اطيعوا في عقل التاجر أن الله مطلع عليه يَنْتَفِ كل خداع من متاجرته . اطيعوا في عقل العامل أن الله مطلع عليه يَنْتَفِ كل غش من عمله . اطيعوا في عقل الجميع أن الله لطيف خبير يعلم ما فى ملكه من كبير وصغير يرتع الناس في مجبوحة الأمن والراحة والحرية والسعادة .

أيها الناس قتشوا عن كل الوسائط التى يمكن استخدامها لترقية شأن بلادكم تجدوا أن هذه هى الوساطة الفضلى . وإن لم يمكن أن نغير عقول أهل الجيل الحاضر فلنسعى في تغيير عقول الجيل المقبل . وفقنا الله إلى الصواب .

واعقاد كون الانسان مخلوقا له خالق ديان ، يرضيه العمل الصالح ، ويغضبه لعمل الطالح - يرجع نفعه إلى الإنسان ذاته ، ولو ضل معرفة ذلك الخالق ، وتاه عن حقيقته .

وهذا الاعتقاد ينهضه إلى الفضائل ، ويقعده عن الرذائل على قدر ما يميز بين الأولى والثانية وعلى قدر رسوخ عقيدته في نفسه ورغبته في إرضاء ربه . ولولاه ما كان للحياة قيمة ولا منها فائدة ، ولكانت في نظر الإنسان ليلاً بلا فجر ، فيسأمها ويقل نشاطه ، ويتكدر عيشه . فالإيمان هو في الحقيقة منشأ القوة في النفس وجمال العالم في نظر العين ، وهو الذي يجعل للحياة غرضاً منها وغاية لها ، فينطلق الشخص إلى تحقيق غرضه منها ، ويسعى إلى الغاية ليدركها . والأمل بنيل الثواب في اليوم الآخر يملأ نفسه قوة وابتعاشاً . أما عدم الإيمان فإنه أضر بالإيمان من الاعتقاد الباطل ، لأنه أقوى العوامل المؤدية به إلى حضيض السفه والتلف .

فالإيمان بالله من أسباب رقي الإنسان وسعادته ، ولولاه ما كان نظام العالم ، ولا عرف معنى الواجب ولا حدوده . والواجب هو نقطة ارتكاز النظام بين الأفراد والجماعات والأمم والإنسانية عامة .

حقاً إنه ليس للشهوة قاصع ، ولا للأهواء رادع - إلا الإيمان بأن للعالم صانعاً عالماً بمضمرات القلوب ومطويات الأنفس ، سامي القدرة ، واسع الحول والقوة ، مع اعتقاد أنه قد قدر للخير والشر جزاء يوفاه مستحقه في حياة بعد هذه الحياة .

وفي الحق أن هاتين العقيدتين وازعان قويان ، يكبحان النفس عن الشهوات ، ويمنعانها العدوان ظاهره وخفيه ، وحسامان صارمان يحوان أثر الغدر . ويستأصلان مادة التدليس .

وهما أفضل وسيلة لإحقاق الحق والتوقيف عند الحد ، وهما مجلبة الأمن ومتنسم الراحة . وبدون هذين الاعتقادين لا تلبس المدنية سربال

الحياة ، ولا يستقيم نظام المعاملات ، ولا تصفو صلات البشر من شائبات الغل وكدورات الغش .

فالدين - وان انحطت درجته بين الأديان ، ووهى أساسه - أفضل من عدمه ، وأمس بالمدينة ونظام الجمعية الإنسانية وأجمل أثرا في عقد روابط المعاملات ، بل في كل شأن يفيد المجتمع الإنساني . وفي كل ترق بشري إلى أية درجة من درجات السعادة في هذه الحياة الأولى .

ولا ريب في أن الدين هو السبب الفردي لسعادة الإنسان . فلو قام الدين على قواعد الأمر الإلهي الحق ، ولم يخالطه شيء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه فلا شك أنه يكون سببا في السعادة التامة والنعيم الكامل ، ويذهب بمعتقديه في طرق الكمال الصوري والمعنوي ، ويصعد بهم إلى ذروة الفضل الظاهري والباطني ، ويرفع أعلام المدينة لطلابها ، بل يفيض على المتدينين من ديم الكمال العقلي والنفسى ما يظفروهم بسعادة الدارين . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم

انكار الإلهية

هذه العقيدة الفاسدة كلما نجحت في أمة أفسدت أخلاقها ، وأوقعت الخلل في عقولها ، وتخطفت قلوب آحاديها بأنواع من الحيل والوان من التليس ، حتى تصبح تلك الأمة وقد وهى أساسها . وتفطر بناؤها ، واغتالتها رذائل الأخلاق من الأثرة وعبادة الشهوات والجرأة على ارتكاب الخيانات ، ولا يزال الفساد يتغلغل في أحشائها حتى تضحل ويمحي اسمها من صفحة الوجود أو تضرب عليها الذلة ، ويخلد أبنائها في الفقر والعبودية .

وقد يظن بعض ضعفة العقول أن في جحد الإله بسطة الفكر ، وسعة الحرية ، مع أن هذه النزعة وحدها كافية في إفساد المجتمع وتزعزع أركان المدينة . وليس من ضروب الباطل ما هو أشد منها تأثيرا في نحو الفضائل

وإثارة الخباثات والرزائل . وليس من الممكن أن يجتمع لشخص واحد وهم المنكر وفضيلة الأمانة والصدق وشرف الهمة وكال الرجولة :

ذلك أن كل فرد من نوع الإنسان قد أودع بحسب فطرته وبناء بنيته شهوات تميل به إلى تحصيل مشتهياته ، ولا يستطيع تسكين هواه . ولا كسر سورة نفسه إلا بنيل ما يمكنه من تلك المشتهيات . كأنه يعالج ألم الطلب بما يصل إليه من المطلوب . ولم تحدد الطبيعة طريقا معينة يسلكها الراغبون للوصول إلى رغائبهم : فسيل حق ، وسيل باطل ، وسيل الفتنة والفساد ، وسيل الهدى والرشاد ، وسيل سفك الدماء واغتصاب الحقوق ، وسيل الإجمال والتعفف . وكلها ميسر للطالب غير ممتنع على السالك .

فقصر النفوس على طريقة محدودة ، ووقف أهوائها عند حدود معينة ومنعها من تجاوز حد الاعتدال في آثارها وأعمالها ، وإرضاء كل ذى شهوة بحقه ، وكفه عن الاعتداء والاجحاف بحقوق غيره . هذا كله إنما يكون بأحد أمور أربعة : دفاع شخصي ، وشرف نفسي ، وحكومة رادعة ، واعتقاد بآله مجاز في حياة بعد هذه الحياة .

الأول : أما المدافعة الشخصية فكفاح وضراب ، ونضال وقتال ، وجلاد تسيل به الأودية مهجا ، وتخضل به الربى دما ، وتتفانى به النفوس طلبا للحقوق ، أودفاعا عنها . وتكون الدائرة للأقوياء على الضعفاء . حتى إذا قوى الضعفاء يوما ما ثاروا على الأقوياء ، فلا يزال صاحب القوة يطحن الضعيف ، والأقران يسحق بعضهم بعضا ، إلى أن يعم جميعهم الفناء ، وينقرض النوع الإنساني من وجه البسيطة .

الثاني : وأما شرف النفس فصفة تنكب بصاحبها عن اتیان ما يذم عند قبيلته ، وغشيان ما يقبح في أنظار عشيرته . ويقابلها خسة النفس : وهي صفة لا يتأثر معها صاحبها من التشنيع ، ولا تفعل نفسه من التقييح

فصفة شرف النفس ليست لها حقيقة معينة ، ولا هي في حدود معروفة

عند جميع الأمم حتى يمكنهم بالمحافظة عليها أن يقفوا بالشهوات عند حد الاعتدال : ألا ترى أن كثيرا من الأمور يعد ارتكابه عند بعض الأمم خسة ودناءة ، وهو بعينه عند بعض آخر شرف ورفعة يستتبع المدح والثناء ، على أنه في الحقيقة شر الشرور وأعظم الفجور ؟ . وذلك كالغارة عند سكان البادية وأهل الجبال وسكان المدن وأهل الحضارة ، وكذلك الحيلة والمكر يحسبهما قوم خسة وخبثاً ، وآخرون حكمة وعقلا . واعتبر ذلك في الطبقات المتعددة في الأمة الواحدة : فقد يكون الشيء عند بعض الطبقات في ذروة الشرف والكمال ، وهو عند الطبقة الأخرى خارج عن حد الاعتدال : قدور السلطان لا يبالون بنقض العهد وخفر الذمم خصوصا مع من دونهم في السلطان ومن لا يضارهم في القوة ، ولا يأنفون الظلم ولا ينكرون الغدر ، ولا يتجافون مذمة من . تلك المذام ، ولا يعدون شيئا منها خسة ، ولا يحسبونها من غاشيات الدناءة . مع أن واحدا من هذه الأعمال لو صدر من آحاد الرعية بعضهم مع بعض - لعد من دنيات الفعال . ورمى صاحبه بخسة النفس وسقوطها . هذا كله إذا فرضنا وقوف كل طالب لشرف النفس عند ما يظنه شرفا ، لا يخالفه إلى سواء لا خفية ولا جهره ، لكن من حيث كان الباعث على التجميل بهذا الوصف إنما هو الرغبة في تحسين المعيشة والفرار من مضانكا - فقلما يستوى ظاهر الإنسان وباطنه في هذه الصفة ، فهو في معلنات أموره يسلك سبل الشرف لينال حظه من ميل القلوب إليه ، ثم لا يمنع ذلك غشيان الخيانة الخفية ، وغمس يده في قدر العدوان من وراء حجاب التستر ، وبسط كفه لتناول الرشوة في زوايا المحاكم ، لأن طالب خفض العيش يعرف أن هذه الخبائث الخفية تصل به إلى مقصده من السعة على أمن من الاشتهار بصفة الدناءة . وذلك معروف من أحوال الظاهرين في ثياب الشرف والعفة : والله أعلم ماذا يسترون تحت ذيوهم ، وما يضمرون دون جيوبهم ، وما يحتجنون من الأموال في خزائهم .

فاذن لا يلقى بذى عقل أن يجعل شرف النفس ميزانا للعدل . ولا مجال للظن بأن هذه الصفة تقف بكل عند حده . وترضيه بحقه ، وتكف النفوس عن غصب الحقوق ، وتدفعها عن الجور وتمنعها الحيف ماظهر منه وما بطن . ولم تبق رية في قصور هذه الحلة عن الكفاية في تعديل الأخلاق ، وتحديد الشهوات وحجب العدوان ، وحفظ النظام الإنساني . اللهم إلا أن تكون مستندة إلى عقيدة في دين ، وتكون حقيقتها محدودة في ذلك الدين ، فعند ذلك تكون دعامة لبناء الشركة الإنسانية ، ومعقدا لروابط الألفة ، وسياً لا تنظم سلسلة المعاملات ، لاستنادها على الدين لا بنفسها مجردة .

الثالث : الحكومة : ليس بخاف أن قوة الحكومة إنما تأتي على كف العدوان الظاهر ، ورفع الظلم البين . أما الاختلاس والزور المموه ، والباطل المزين ، والفساد الملوّن بصبغ من الصلاح . ونحو ذلك مما يرتكبه أرباب الشهوات - فمن أين للحكومة أن تستطيع دفعه ؟ وأنى يكون لها الاطلاع على خفيات الخيل ، وكامنات الدسائس ، ومطويات الخيانة ، ومستورات الغدر . حتى تقوم بدفع ضرره ؟

على أن الحاكم وأعوانه قد يكونون - بل كثر ما كانوا ويكمنون - بمن تملكهم الشهوات . فأى وازع يأخذ على أيدي أصحاب السلطة . ويمنعهم مطاوعة شهواتهم المتسلطة على عقولهم ؟ وأى غوث ينقذ ضعفاء الرعايا . وذوى المسكنة منهم - من شره أولئك المتسلطين وحرصهم ؟

قد يكون الحاكم في خفي أمره رئيس السارقين ، وفي جلي حاله قائد الناهبين . وأعوانه آلات يستعملها في الجور ، وأدوات يستعين بها على الفساد والشر . فيعطلون من حقوق عباد الله . ويهتكون من أعراضهم ، ويغنمون من أموالهم : يروون ظمأ شهواتهم بدماء الضعفاء ، وينقشون قصورهم بمهج الفقراء ، ويكون مبلغ سعيهم هلاك العباد ودمار البلاد !!

الرابع - الاعتقاد بأن لهذا العالم صانعاً قادراً محيط العلم نافذ الحكم ، وأنه

يوفي كل عامل جزاء عمله : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) - ثوابا جزيلًا ، أو عقابًا ويلا في حياة بعد هذه الحياة .
حقا إن الإيمان بذلك هو وحده الكفيل بقمع الشهوات ، وردع الأهواء .
وقد سبق الكلام في ذلك ، فلو خوت القلوب من هاتين العقيدتين (الاعتقاد بالله ، وبالثواب والعقاب في الحياة الأبدية) - لسكنتها شياطين الرذائل ، وسدت عليها طرق الفضائل . ومن أين لمنكر الجزاء أن يكف نفسه عن خيانة ، أو يترفع بها عن كذب وغدر وتملق ونفاق ؟ وقد تقرر أن العلة الغائية لأعمال الإنسان إنما هي نفسه ، فإن لم يؤمن بثواب ، وعقاب ، وحساب وعتاب في يوم بعد يومه - فما الذي يمنعه ذمائم الفعال ؟ خصوصاً إذا تمكن من إخفاء عمله ، وأمن سوء عاقبته في الدنيا ، أو رأى منفعته الحاضرة في ركوب طريق الرذيلة : والعدول عن سنن الفضيلة ، وأى حامل يحمله على المعاونة ، والمرادقة ، والمرحمة ، والمروءة ، وعلو الهمة وما يشبه ذلك من الأخلاق التي لا غنى للمجتمع عنها ؟

(ولئن وجد في أحد الجاحدين شيء من مكارم الأخلاق بمقتضى الغريزة لكان عرضة للفساد ، أو كان أبتراً ناقصاً ، لفقد ما يمدده من سائر صفات الكمال) .
الحق أن جحده الإلهية في أى أمة ، وبأى لون ظهروا - كانوا ولا يزالون يسعون لقلع أساس هذا القصر المسدس الشكل : قصر السعادة الإنسانية القائم بستة جدران : ثلاث عقائد ، وثلاث خصال ، (وسيأتى الكلام عليها)
أعاصير أفكارهم تدكدك هذا البناء الرفيع . وتلقى بهذا النوع الضعيف إلى عراء الشقاء ، وتهبط به من عرش المدنية الإنسانية ، إلى أرض الوحشية الحيوانية .

وضعوا مذاهبهم على بطلان الأديان جميعها ، وعدوها أوهاما باطلة ، ومجعولات وصفية ، وبنوا على هذا أن لاحق لملة من الملل أن تدعى لنفسها شرفاً على سائر الملل اعتماداً على أصول دينها ، بل الأليق بها - على رأيهم -

أن تعتقد أنها ليست أولى من غيرها بفضيلة ، ولا أجدر بمزية . ولا يخفى ما يتبع هذا الرأي الفاسد من فتور الهمم ، وركود الحركات الإرادية عن قصد المعالي ، كما يأتي بيانه إن شاء الله .

قالوا : إن الإنسان في المنزلة كسائر الحيوانات ، وليس له من المزايا ما يرتفع به عن البهائم ، بل هو أخس منها خلقه ، وأدنى فطرة . فسهلوا بذلك على الناس إتيان القبائح ، وهونوا عليهم اقتراف المنكرات ، ومهدوا لهم طرق البهمية ، ورفعوا عنهم معاييب العدوان .

ذهبوا إلى أنه لا حياة للإنسان بعد هذه الحياة ، وأنه لا يختلف عن النباتات الأرضية : تنبت في الربيع مثلاً ، وتيبس في الصيف ، ثم تعود تراباً . والسعيد من يستوفي في هذه الحياة حظوظه من الشهوات البهمية . وبهذا الرأي الفاسد أطلقوا النفوس من قيد التأثم ، ودفعوها إلى أنواع العدوان : من قتل وسلب وهتك عرض . ويسروا لها الغدر والخيانة ، وحملوها على فعل كل خبيثة ، والوقوع في كل رذيلة ، وأعرضوا بالعقول عن كسب الكمال البشري ، وأعدموها الرغبة في كشف الحقائق وتعرف أسرار الطبيعة .

متى ظهر جحده الإلهية في أمة نفذت وساوسهم في صدور الأشرار من تلك الأمة : واستهوت عقول الخبثاء الذين لا يهمهم إلا تحصيل شهواتهم ونيل لذاتهم من أي وجه كان ، لموافقة هذه الآراء الفاسدة لأهوائهم الخبيثة . فيميلون معهم إلى ترويج مشربهم وإذاعته بين العامة غير ناظرين إلى ما يكون من أثره . ومن الناس من لا يساهمهم أراءهم ، ولا يضرب في طرقهم ، إلا أنه لا يسلم من مضارها ومفاسدها ، فإن الوهن يلم بأركان عقائده ، والفساد يسرى إلى أخلاقه من حيث لا يشعر ، إذ أن أغلب الناس مقلدون في عقائدهم منقادون للعادة في أخلاقهم ، وأقل التشكيك وأدنى الشبهة يكفي علة لزعة قواعد التقليد : وضععة قوائم العادة . وإن هؤلاء الجحدة بما يقدفون بين الناس من أباطيلهم يبدرون في النفوس بذور المفاسد ، فلا تلبث أن تنمو في تراب الغفلة ، فتكون ضريعاً وزقوماً .

ولهذا قد يعم الفساد أفراد الأمة التي تظهر فيها هذه الطائفة ، وكل لا يدري من أي باب دمر الفساد عليه قلبه . فتشيع بينهم الخيانة والغدر والكذب والنفاق ، ويهتكون حجاب الحياء ، وتصدر عنهم شنائع تنكرها الفطرة البشرية . يأتون ما يأتون من تلك القبائح مجاهرة بلا تخرج . وكل منهم وإن كان يدعى بلسانه أنه مؤمن بيوم الجزاء ، وفي نفسه أن ذلك اعتقاده واعتقاد آبائه ، إلا أن عمله عمل من يعتقد أن لاهية بعد هذه الحياة لسريان عقائد المنكرين إلى قلبه ، وهو في غفلة عن نفسه

فلهذا تغلب عليهم الأثرة ، وهي إفراط الشخص في حب نفسه إلى حد لو عرض في طريق منفعة مضرّة كل العالم لطلب تلك المنفعة ، ومن أثر هذه الصفة أن صاحبها يؤثر منفعة الخاصة على المنافع العامة ، ويبيع وطنه وأمه بأبخس الأثمان . بل لا يزال به الحرص على هذه الحياة الدنيئة يبعث فيه الخوف ، ويكن فيه الجبن حتى يسقط به في هاوية الذل ؛ ويكتفى من الحياة بمدها ، وإن كانت مكتنفة بالذلة ؛ محاطة بالمسكنة ؛ مبطنة بالعبودية . فإذا وصلت الحال في أمة إلى أن تكون آحادها على هذه الصفات تقطعت فيها روابط اللئام ، وتمزقت وحدتها الجنسية ، وفقدت قوتها المحافظة ، وهوت عروش مجدها ؛ وهجرت الوجود كما هجرها .

اختلاف العقائد

واختلاف أنصارها

إن آراء الناس تتباين في تقريرها الحقائق عن الأديان ، وتقرير الصور المختلفة المتناقضة للوجه الواحد تدل أوضح دلالة على خطأ التقرير ، وعلى بقاء الحقيقة ضائعة بين الأباطيل . وهذا يستدعي وجوب تلخيصها ، والبحث عنها ، ولزوم إعلان الباحث آراءه لتمحيصها ؛ لجواز الخطأ والصواب فيها . فلو لا البحث عن الفاقد ما وجد ، ولو لا التمحيص ما عرف الطيب من

الحديث ، ولولا الإفراط في الحذر والاحتباس لاجتلا العالم نور الهداية إلى الحق من زمن بعيد ، ولرجع الناس إلى دين واحد وإله واحد ، ولزال من بينهم موجب خلافهم وداعى تقاطعهم ، ولشمل العالم السكون والسلام : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ) .

ولما كانت العقائد مختلفة ، وكان الناس ينتصر كل لعقيدته لتسليمه بسلامتها من الشك وبفساد ما يخالفها - : (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) ، (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) لما كانت العقائد كذلك كثر الخلاف بين أنصار كل دين والمتألبين عليه من الأديان الأخرى : كل يدعى أن الحق حليفه ، والصواب أليفه ، وأن من سواه ليس على جانب الحق ، ولا على سبيل الصواب : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ، وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) .

ونشأ من هذا الخلاف قيام من أنكرها جميعا وناهضا جميعا .

إنكار الاسلام تعادى الأديان

جاء الإسلام والناس شيع في الدين ، وكانوا - إلا قليلا - في جانب عن اليقين ، يتنابدون ويتلاعنون ، ويزعمون في ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون . فرقة وتخالف وشغب ، يظنونها في سبيل الله أقوى سبب ، أنكر الإسلام ذلك كله ، وصرح تصريحاً لا يحتمل الريية بأن دين الله في جميع الأزمان ،

وعلى ألسن جميع الأنبياء واحد . قال الله تعالى : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) (وَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ) (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

وكثير من ذلك يطول إبراده في هذه الوريقات . والآيات الكريمة التي تعيب على أهل الدين مانزعوا إليه من الاختلاف والمشاقة ، مع ظهور الحجة واستقامة المحجة لهم في علم ما اختلفوا فيه - معروفة لكل من قرأ القرآن ، وتلاه حق تلاوته .

أصول دين الله واحدة واختلاف الفروع رحمة :

نص الكتاب على أن دين الله في جميع الأزمان هو إفراده بالربوبية ، والاستسلام له وحده بالعبودية ، وطاعته فيما أمر به ونهى عنه : مما هو مصلحة للبشر ، وعماد لسعادتهم في الدنيا والآخرة . قد ضمته كتبه التي أنزلها على المصطفين من رسله ، ودعا العقول إلى فهمه منه ، والعزائم إلى العمل به . وإن هذا المعنى من الدين هو الأصل الذي يرجع إليه عند هبوب ريح التخالف . وهو الميزان الذي توزن به الأقوال عند التناصف ، وإن اللجاج والمراء في الجدل مفارقة للدين ، وبعد عن سنته . ومتى روعيت حكمته ، ولوحظ جانب العناية الإلهية في الإيعان على البشرية — ذهب الخلاف

وتراجعت القلوب إلى هداها ، وسار الناس جميعاً في مرشدهم إخواناً بالحق مستمسكين ، وعلى نصرته متعاونين .

فالآديان كلها ترمى إلى غاية واحدة : هي عبادة موجد الوجود وخالق الكائنات . أماصور العبادات ، وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الآديان سابقها مع لاحقها ، والأحكام متقدمها مع متأخرها فمصدر ذلك رحمة الله ورأفته في إيتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة والملازمة للزمان . وكما جرت سنته وهو رب العالمين بالتدريج في تربية الأشخاص : من خارج من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، إلى راشد في عقله ، كامل في نشأته . يمزق الحجب بفكره ، ويواصل أسرار الكون بنظره . كذلك لم تختلف سنته ، ولم يضطرب هديه في تربية الأمم ، فلم يكن من شأن الإنسان في جملته ونوعه أن يكون في مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب ، من يوم خلقه الله ، إلى أن يبلغ به من الكمال منتهاه ، بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملته في النمو قائماً على ماقررتة الفطرة الإلهية في شأن أفرادهِ . ومن هنا تظهر حاجة البشر إلى الرسالة ، وتتجلى رحمة الله تعالى بخلقهِ في تتابع إرسال الرسل إليهم بالآديان التي تناسب استعدادهم وأزمانهم ، فبعثة الأنبياء صلوات الله عليهم من مميزات وجود الإنسان ، ومن أهم حاجاته في بقاءهِ ، ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص . نعمة أتمها الله ؛ لكي لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

مأفادته الآديان من العقائد والخصال :

أ كسب الدين عقول البشر ثلاث عقائد . وأودع نفوسهم ثلاث خصال : كل منها ركن لوجود الأمم ، وعماد لبناء المجتمع ، وأساس محكم لمدينتها ، وفي كل منها سائق يحث الشعوب والقبائل على التقدم نحو غايات الكمال والرقى إلى دار السعادة ، ومن كل واحدة وازع قوى يباعد النفوس عن الشر ، ويزعها عن مفارقة الفساد ، ويصدها عن مقارنة ما يبئدها ويبيدها .

العقائد الثلاث :

الأولى — التصديق بأن الإنسان ملك أرضي ، وهو أشرف المخلوقات .
الثانية — يقين كل ذي دين بأن أمته أشرف الأمم ، وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل .

الثالثة — جزمه بأن الإنسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال بهيته للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي ، والانتقال من دار ضيقة الساحات ، كثيرة المكروهات ، جديرة بأن تسمى بيت الأحزان ، وقرار الآلام ، إلى دار فسيحة الساحات ، خالية من المؤلمات ، لاتنقضي سعادتها ، ولاتنتهي مدتها .

لا يغفل العاقل عما يتبع هذه العقائد الثلاث من الآثار الجلية في الاجتماع البشري والمنافع الجمّة في المدينة الصحيحة ، وما يعود منها بالإصلاح على روابط الأمم وما لكل واحدة من الآثار في بقاء النوع والميل بأفراده لأن يعيش كل منهم مع الآخر بالمسالة والمواذعة والأخذ بهمم الأمم إلى الصعود في مراقى الكمال النفسى والعقلى . وإليك البيان :

العقيدة الأولى :

من البين أن لكل عقيدة مظاهر لاتزايها : فمن مظاهر الاعتقاد بأن الإنسان أشرف المخلوقات — ترفع المعتقد بحكم الضرورة عن الخصال البهيمية ، واستنكافه عن ملاسة الصفات الحيوانية . ولا ريب أنه كلما قوى الاعتقاد اشتد به النفور من مخالطة الحيوانات في صفاتها ، وكلما اشتد هذا النفور سما بروحه إلى العالم العقلى ، وكلما سما عقله أوفى على المدنية ، وأخذ منها بأوفر الحظوظ ، حتى ينتهى به الحال إلى أن يكون واحداً من أهل المدينة الفاضلة ، يحيا مع إخوانه الواصلين معه إلى درجته على قواعد المحبة ، وأصول العدالة . وتلك نهاية السعادة الإنسانية في الدنيا ، وغاية ما يسعى إليه العقلاء والحكماء فيها .

فهذه العقيدة أعظم صارف للإنسان عن مضارعة الحر الوحشية في معيشتها ،
والثيران البرية في حالتها ، ومضاربة البهائم السائمة ، والدواب الهائلة ،
والهوام الراشحة التي لا تستطيع دفع مضرة ولا التقية ، ولا تهتدى طريقا
لحفظ حياتها ، وتقضى آجالها في دهشة الفرع ، ووحشة الانفراد . هذه العقيدة
أشد زاجر لأبناء الإنسان عن التقاطع المؤدى إلى افتراس بعضهم بعضا ،
كما يقع بين الأسود الكاسرة ، والوحوش الضارية ، والكلاب العاقرة ،
وأشد مانع يدفع صاحبها عن مشاكلة الحيوانات في خسائس الصفات . وهذه
العقيدة أحجى حاد للفكر في حركاته ، وأنجح داع للعقل في استعمال قوته ،
وأقوى فاعل في تهذيب النفوس وتطهيرها من دنس الرذائل . إن شئت فارم
بنظر العقل إلى قوم لا يعتقدون هذا الاعتقاد ، بل يظنون أن الإنسان حيوان
كسائر الحيوانات ، ثم تبصر ماذا يصدر عنهم من ضروب الدنايا والرذائل ،
وإلى أى حد تصل بهم الشرور : وبأى منزلة من الدناءة تكون نفوسهم ،
وكيف أن السقوط إلى الحيوانية يقف بعقولهم عن الحركات الفكرية ؟

العقيدة الثانية : ومن مظاهر يقين الأمة بأنها أشرف الأمم ، وجميع من
يخالفها على الباطل - أن ينهض آحادها لمكاثرة الأمم في مفاخرها ، ومساهماتها
في مجدها : ومسابقتها في شرائف الأمور وفضائل الصفات ، وأن يتفق جميعها
على الرغبة في فوت جميع الأمم ، والتقدم عليها في المزايا الإنسانية ، عقلية
كانت أو نفسية ، ومعاشية كانت أو مادية . وتأبى نفس كل واحد عن اقتراف
الدنية ، والرضا بالضم لنفسه ، أو لأحد من بني أمته . ولا يسره أن يرى
شيئا من العزة ، أو مقاما من الشرف لقوم من الأقوام ، حتى يطلب لأمته
أفضله وأعلاه ، ذلك أنه بهذا الاعتقاد يرى أبناء قومه أليق وأجدر بكل
ما يعد شرفا إنسانيا .

فإن جارت صروف الدهر على قومه : فأضرعتهم أو ثلثت مجدهم ، أو سلبتهم

مزية من مزايا الفضل - لم تستقر له راحة ، ولم تفتأ له حمية ، ولم يسكن له حيشان ، فهو يمضى حياته في علاج ما ألم بقومه ، حتى يأسوه ، أو يموت في أساه .
فهذه العقيدة أقوى دافع للأمم إلى التسابق إلى غايات المدنية ، وأمضى الأسباب إلى طلب العلوم والتوسع في الفنون والإبداع في الصناعات ، وإنها لا تبلغ في سوق الأمم إلى منازل العلا . ومقاوم الشرف : من غالب قاصر ، ومستبد قاهر عادل .

وإن أردت فالح بعقلك حال قوم فقدوا هذا اليقين : ماذا تجد من فتور في حركات آحادهم نحو المعالي ؟ وماذا ترى من قصور في هممهم عن درك الفضائل ، وما ينزل بقواهم من الضعف ، وماذا يحل بديارهم من الفقر والمسكنة ، وإلى أي هوة يسقطون من الذلة والهوان خصوصاً إذا بغى عليهم الجهل ، فظنوا أنهم أدنى من سائر الملل ؟

العقيدة الثالثة : ومن مقتضيات الجزم بأن الإنسان ماورد هذا العالم إلا ليزود منه كالا يعرج به إلى عالم أرفع ، ويرتحل به إلى دار أوسع ، وجناب أمرع أن من أشربت هذه العقيدة قلبه ينبعث بحكمها ، وينساق بحاديها لإضاءة عقله بالعلوم النافعة ، والمعارف الصافية ؛ خشية أن يهبط به الجهل إلى نقص يحول دون مطلبه . ثم ينصرف همه لإبراز ما أودع فيه من القوة السامية ، والمدارك العقلية ، والخواص الجليلة باستعمالها فيما خلقت له ، فينجلي كماله من عالم الخفاء إلى عالم الظهور . ويرتقى من درجة القوة إلى مكانة الفعل . فهو ينفق ساعاته في تهذيب نفسه وتطهيرها من دنس الرذائل ، ولا يناله التقصير في تقويم ملكاته النفسية ، وينزع لكسب المال من الوجوه المشروعة متنكباً عن طرق الخيانة ووسائل الكذب والحيلة ، معرضاً عن أبواب الرشوة ، مترفعاً عن الملق الكلي ، والخداع الشعبي

ثم ينفق ما كسب في الوجه الذي يليق ، وعلى الوجه الذي ينبغي ، وبالقدر الذي ينبغي ، لا يأتي فيه باطلا ، ولا يغفل حقاً عما أوخاها .

فهذه العقيدة أحكم مرشد ، وأهدى قائد للانسان إلى المدينة الثابتة المؤسسة على المعارف الصحيحة ، والأخلاق الفاضلة . وهذا الاعتقاد أقوى ركن في بناء المجتمع الذي لاعماده إلامعرفة كل واحد حقوقه ، وحقوق غيره ، والقيام على صراط العدل المستقيم . هذا الاعتقاد أنجح الذرائع لتوثيق الروابط بين الأمم : إذ لا عقد لها إلامراعاة الصدق ، والخضوع لسلطان العدل في الوقوف عند حدود المعاملات .

هذا الاعتقاد نفحة من روح الرحمة الأزلية ، تهب على القلوب ببرد الهدوء والمسالة : فإن المسالة ثمرة العدل والمحبة ، والعدل والمحبة زهر الأخلاق والسجايا الحسنة ، وهي غراس تلك العقيدة التي تحيد بصاحبها عن مضارب الشرور ، وتنجيه من متاهة الشقاوة وتعاسة الجد . وترفعه إلى غرف الحضارة الصحيحة الفاضلة : وتجلسه على كرسى السعادة .

وقد يسهل عليك أن تتخيل جيلاً من الناس حرم هذه العقيدة : فكم يبدو لك فيه من شقاق وكذب ونفاق وحيل وخداع ورشوة واختلاس !! وكم يغشى نظرك من مشاهد الحرص والشره والغدر والاعتيال وهضم الحقوق والجدال والجلاد !! وكم تحس فيه من جفاء للعلم وعشوة من نور المعرفة !!

الخصال الثلاث

وأما الخصال الثلاث التي توارثها الأمم من تاريخ قد لا يحد قداما : وإنما طبعها في نفوسهم طابع الدين :

فأحدها - خصلة الحياء : وهو انفعال النفس من إتيان ما يجلب اللأئمة ، وينحى عليها بالتوبيخ ، وتأثرها من التلبس بما يبعد عند الناس نقصا . وفي الحق أن يقال : إن تأثير هذه الخلة في حفظ نظام الجماعة البشرية

وكف النفوس عن ارتكاب الشنائع - أشد من تأثير مئين من القوانين وآلاف من الشرط والمحتسبين ؛ فإن النفوس إذا مزقت حجاب الحيلة ، وسقطت إلى حضيض الخسة والدناءة ؛ ولم تبال بما يصدر عنها من الأعمال - فأى عقاب يردعها عن المفاسد التى تخل بنظام الاجتماع سوى القتل ؟
وقد راعى ذلك (سولون) حكيم اليونان ؛ إذ جعل القتل جزاء كل عمل قبيح ؛ حتى الكذبة الواحدة .

وخلة الحياء يلزمها شرف النفس ؛ وهو مما تدور عليه دائرة المعاملات ، وتتصل به سلسلة النظام ، وهو مناط صحة العقود والتزام أحكامها ، ومعصم الوفاء بالعهود ، ورأس مال الثقة بالإنسان فى قوله وعمله . وشيمة الحياء هى بعينها شيمة الإباء وسجية الغيرة ، وإنما تختلف أسماؤها باختلاف جهاتها وآثارها فى ردع النفس عن شئ أو حملها على عمل . والإباء والغيرة هما مبعث حركات الأمم والشعوب لاستفادة العلوم والمعارف ، وتسهم قم الشرف والرفعة . وتقوية الشوكة وبسط جناح العظمة ؛ وتوفير مواد الغنى والثروة . وكل أمة فقدت الغيرة والإباء حرمت الترقى ، وإن تسنى لها من أسبابه ما تسنى فى تعطى الدنية . ولا تأنف من الخسة ، وتضرب عليها الذلة والمسكنة ، حتى ينقضى أجلها من الوجود .

ملكه الحياء تنتهى إليها روابط الألفة بين آحاد الأمة فى معاشراتهم ومخالطاتهم ؛ فإن حبال الألفة إنما يحكمها حفظ الحقوق ، والوقوف عند الحدود . ولا يكون ذلك إلا بهذه الملكة الكريمة .

هذه سجية تزين صاحبها بالآداب ، وتنفر به عن الشهوات البهيمية ، وتفيض روح الاعتدال على حركاته وسكناته وجميع أعماله .

هذا هو الخلق المفرد الذى ينهض بصاحبه لمجاعة أرباب الفضائل ، ويتجافى به عن مضاجع النقائص . ويأنف عن الرضا بالجهل والغباوة أو الضعة والضراعة .

هذا الوصف الكريم هو منبت الصدق والأمانة ؛ وهما معه فى قرآن ، هو أداة المعلمين . والقائمين على التربية والدعاة إلى مكارم الأخلاق والمولعين

بترقية الفضائل صورية ومعنوية ، يستعملونها في نصائحهم ، يذكرون بها الغافل ، ويحرضون الناكل ، ويوقظون النائم ، ويقعدون القائم : ألا ترى المعلم الحكيم : كيف يعظ تلميذه بقوله : ألا تستحي من تقدم قرينك عليك وتخلفك عنه !! فإن لم تكن هذه الخصلة فلا أثر للتويخ ولا نفع للتقريع ولا نجاح للدعوة . فأنكشف مما بينا أن هذه الخلة مصدر لجميع الطيبات ، ومرجع لكل فضيلة ، وسلم لكل ترق . ويمكن أن تمثل قوما هجر الحياء نفوسهم : فما ذا نرى فيهم سوى المجاهرة بالفحشاء ، والمنافسة في المنكر وشوش الطباع . وسوء الأخلاق ، والإخلاد إلى دنيات الأمور . وسفساف الشئون ؟ وكفى بمشهدهم شناعة أن نرى تغلب الشهوات البهيمية عليهم ، وتملك الصفات الحيوانية لأرادتهم ، وتسلطها على أفعالهم !!

الخصلة الثانية

الأمانة

من المعلوم الجلي أن بقاء النوع الإنساني قائم بالمعاملات والمعاوضات في منافع الأعمال . وروح المعاملة والمعاوضة إنما هي الأمانة ، فإن فسدت الأمانة بين المتعاملين قطعت صلات المعاملة ، وانبرت حبال المعارضة ، فاختل نظام المعيشة ، وأفضى ذلك بنوع الإنسان إلى الفناء العاجل .

ثم من البين أن الأمم في رفاهتها ، والشعوب في راحتها وانتظام أمر معيشتها - محتاجة إلى الحكومة بأى أنواعها : إما جمهورية . وإما ملكية مطلقة . أو مقبدة . والحكومة في أية صورها لا تقوم إلا برجال يلون ضروبا من الأعمال : فمنهم حراس على حدود المملكة : يحمونها من عدوان الأجانب عليها ، ويدافعون الوالج في ثغورها . وحفظة في داخل البلاد يأخذون على أيدي السفهاء : بمن يهتك ستر الحياء ، ويميل إلى الاعتداء من فتك أو سلب أو نحوها . ومنهم حملة الشرع وعرفاء القانون ، يجلسون على منصات الأحكام لفصل الخصومات ، والحكم في المنازعات . ومنهم أهل جباية الأموال .

يحصلون من الرعايا ما فرضت عليهم الحكومة من خراج مع مراعاة قانونها في ذلك ، ثم يستحفظون ما يحصلون في خزائن المملكة ، وهي خزائن الرعايا في الحقيقة ، وإن كانت مفاتيحها بأيدي خزنتها . ومنهم من يتولى صرف هذه الأموال في المنافع العامة للرعية ، مع مراعاة الاقتصاد والحكمة : كإنشاء المعاهد والمدارس ، وتمهيد الطرق ، وبناء القناطر ، وإقامة الجسور ، وإعداد المستشفيات . ويؤدي أرزاق سائر العاملين في شئون الحكومة : من الحراس والحفظة وقضاة العدل وغيرهم حسبما عين لهم .

وهذه الطبقات من رجال الحكومة الوالين على أعمالها إنما تؤدي كل طبقة منها عملها المنوط بها بحكم الأمانة . فإن خربت أمانة أولئك الرجال وهم أركان الدولة — سقط بناء السلطة ، وسلب الأمن ، وراحت الراحة من بين الرعايا ، وضاعت حقوق المحكومين ، وفشا فيهم القتل والتناهب ، ووعرت طرق التجارة ، وتفتحت عليهم أبواب الفقر والفاقة ، وخوت خزائن الحكومة ، وعميت على الدولة سبل النجاح : فإن حزبها أمر سدت عليها نوافذ النجاة .

لا ريب في أن قوماً يساسون بحكومة خائنة إما أن ينقرضوا بالفساد ، وإما أن يأخذهم جبروت أمة أجنبية عنهم يسومونهم خسفاً ، ويستبدون فيهم عسفاً ، فيذوقون من مرارة العبودية ما هو أشد من مرارة الانقراض والزوال . ومن الظاهر أن استعلاء قوم على آخرين إنما يكون باتحاد أحاد العالين ، والتسام بعضهم ببعض ، حتى يكون كل منهم لبينة قومه كالعضو للبدن . ولن يكون هذا الاتحاد حتى تكون الأمانة قد ملكت قيادهم . وعمت بالحكم أفرادهم . فقد كشف الحق أن الأمانة دعامة بقاء الإنسان ، ومستقر أساس الحكومات ، وباسط ظلال الأمن والراحة ، ورافع أبنية العز والسلطان ، وروح العدالة وجسدها ، ولا يكون شيء من ذلك بدونها .

وإليك الاختيار في تصور أمة عطلت نفوسها من حلية هذه الخلة الجليلة ، فلا تجد فيها إلاقات جائحة ، ورزايا قاتلة ، وبلايا مهلكة ، وفقرا معوزا ،

وذلك معجزاً . ثم لا تلبث بعد هذا كله أن تبتلعها بلاليع انعدام ، وتلتهمها
أمهات اللئيم (١)

الخصلة الثالثة

الصدق

الإنسان كثير الحاجات ، غير معدود الضرورات . وكل ما يسد حاجاته
ويدفع ضروراته وراء ستر الخفاء محجوب ، وتحت حجاب الغيب مكنون .
قدف بالإنسان من غيب يجهله إلى ظهور لا يعرفه ، فقام في بده إنشائه في
زاوية عماء ، لا يذكر اسماً ولا يعرف رسماً .

هذا الإنسان على ضعفه كأنما أحفظ الآكوان قبل وجوده ، فأرصدت
له القتال ، وهيات له النضال ، فله في كل ثنية منها بلية كامنة . وفي كل حنور رزية
رابضة ، وكل أفاق سهمه في قسي الأدوار الزمنية ليصيب مقاتل الإنسان .
منح الإنسان خمسة مشاعر : السمع ، والبصر ، والذوق ، واللمس ، والشم .
ولكن لا غناء بها في هدايته لأقرب حاجاته ، وإرشاده لدفع ما خف من
ضروراته ، فأحجى أن لا كفاء لها في استطلاع مكانم البلايا ، وكشف مخاني
الرزايا ، ليأخذ حذره ، ويحرز أمره . فهو في حاجة كل الحاجة للاستعانة
بمشاعر أمثاله من بني جنسه ، والاستهداء بمعارفهم ، ليتفادى بهدايتهم بعض
لاسعات المصائب ، ويصيب من الرزق ما فيه قوام معيشته ، وسداد عوزه .
والاستهداء إنما يكون بالاستخبار ، ولا تتم فائدة الخبر في الهداية إلا أن
يكون من مصدر صدق ، يحدث عن موجود ، ويحكى عن مشهود ، وإلا فما
الهداية في خبر لا واقع له ؟

حقاً إن الكاذب يرى البعيد قريباً ، والقريب بعيداً ، ويظهر النافع في
صورة الضار ، والضار في صورة النافع . فهو رسول الجهالة ، وبعيثة الغواية ،
وظهير الشقاء ، ونصير البلاء .

فعلى ما تقدم تكون صفة الصدق ركنار كينالوجود الا انساني ، وعمادا للبقاء
الشخصي والنوعي ، وموصل العلاقات الاجتماعية بين آحاد الشعوب ، ولا
تتحقق دونه ألفة مدنية أو منزلية .

وانظر فيما إذا فقدت أمة خلة الصدق : كيف ينبخ الشقاء بها رواحله ،
وينفذ سوء البخت فيها عوامله ! ! وكيف ينتثر نظامها ، ويفسد الثامها !

الدين والعلم

الاديان كثيرة : وقد قصر بعضها صور العبادة على أوضاع وأقوال
تؤدي في أوقات مخصوصة بشروط معينة .

ولما كان العلم ناهضاً إلى توسيع المدارك والعقول ، وإلى اطراح ما
فيها مما يتفق مع حقائقه — قامت حرب عوان بينه وبين كثير من التقاليد ،
فأخذت هذه تنكش أمامه . ولا زال هو يتأثرها . ومن الواضح أنه لودام
الحال على هذا المنوال فلا بد من مجيء يوم تزول فيه كل المعتقدات التي لا
تتلاءم مع روح العلم .

لقد احتفظ رجال الديانات بتقاليد وأوضاع اعتبروها دينية ، واحتفظوا
بها على قدر ماسمح الوقت ببقائها وانتشارها : وجرى الناس على مناهجها ،
ثم صدمتها قوة العلم . فزعزعت أسسها الواهية : فكادت تتداعى ، فأخذت
تطرح منها ما ظنته يقف قوتها العادية رغبة في البقاء . ولكن التمسك
بالمألوفات عاق العلم عن الإسراع بها إلى التلاشي والفناء .

العلم يناهض كثيرا من التقاليد والمعتقدات الفاسدة ، ويتفق دائماً مع
الإيمان بوحدة الخالق : فإنه يثبت وحدة الوجود ، ووحدة القوة الموجدة .
وعلى هذا لا يكون الخلاف بين الإيمان والعلم الصحيح : ولا بينه وبين
الدين الصحيح : وإنما هو بين ما يرمى إليه العلم من الحقائق ، ويدركه العقل
منها أو يفوته فهمه — وبين فهم حقائق الإيمان ومقتضياته من الشريعة .

لحظ العقل أن بعض الأديان مؤسس على السلطة المطلقة وعلى التسليم بدون الاقتناع ، وأن العلم يرتكز على التجربة والتحقق بالاختبار. ولهذا قرر تعذر جمع النقيضين وموافقة المتخالفين في الأساس والمبدأ ، والحال أن ما يرى متعذراً ربما لم يكن كذلك ، وإنما ظهر في تلك الصورة لقصور العقل عن إدراك مكان الاتفاق ، وأسبابه ، ودواعيه : فهناك كثير من النظريات الفاسدة لبث الناس دهوراً يعتقدونها حقائق ثابتة ، ثم ظهر فسادها عند ظهور الصواب بخالفها . إن منشأ الإيمان القلب ، ومرجعه إلى القلب ، ومنشأ العلم العقل ، وسلطانه عليه وحده .

ولما كان الدين الصحيح هو ما كانت أركانه وعقائده سالمة من الشك ومتفقة مع العقل والحقيقة لم تكن حركة العلم إلى تحرير الأفكار وإطلاقها من قيود السخافات والأباطيل ضارة بمبادئ ذلك الدين ، ولا منافية لعقائده الصحيحة ، بل لابد من امتزاج القوتين ، والعمل بهما لتطهير المجتمع من كل فاسد يرجع به إلى عصور الجهل .

الدين الاسلامي والعقل

إبطال الإسلام للتقليد ومخاطبته للعقل :

أنهى الإسلام على التقليد ، وحمل عليه حملة صادقة بددت فيالقه المتغلبة على النفوس ، واقتلعت أصوله الراسخة في المدارك ، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم .

صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته ، وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها . كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق خلصت إليه هينة من سدة هياكل الوهم : « نـم فـإن اللـيل حـالك : والطـريق وعـرة ، والغـاية بـعيدة ، والراحـلة كـليـة ، والأزـواد قـليـة » علا صوت الإسلام على وساوس الطغام ، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام : أعلام الكور ، ودلائل الحوادث . وإنما المعلمون منبهون

ومرشدون ، وإلى طرق البحث هادون .

صرح في وصف أهل الحق بأنهم : (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ؛ ليأخذوا بما عرفوا حسنه ، ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه . ومال على الرؤساء ، فأنزلهم من مستوى كانوا يأمرؤن وينهون ، ووضعهم تحت أنظار مرءوسيهم يخبرونهم كما يشاءون ، ويمتحنون مزاعمهم على حسب ما يحكمون ، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون ، لا بما يظنون ويتوهمون .

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء ، وسجل الحق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان ، ولا مُسمياً لعقول على عقول ، ولا لأذهان على أذهان ، وإنما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان ، بل للاحق من علم الأحوال الماضية ، والاستعداد للنظر فيها ، والارتفاع بما وصل إليه من آثارها في الكون - ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه ، وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهر العواقب السيئة لأعمال من سبقهم ، وطغيان الشر الذي وصل إليهم بما اقترفه سلفهم : (فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ) وأن أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ، ورحمته التي وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب

عاب أرباب الأديان في اقتفاءهم أثر آباءهم . ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم : (بَلْ نَذْبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ) فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده ، وخلصه من كل تقليد كان استعبده ، وردّه إلى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع في ذلك لله وحده ، والوقوف عند

شريعته ، ولا حد للعمل في منطقة حدودها ، ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها .

بناء الإسلام على استقلال الفكر والإرادة :

بما تقدم تم للإنسان بمقتضى هذا الدين أمران عظيمان ، طالما حرّمتها : وهما استقلال الإرادة ، واستقلال الرأي والفكر . وبهما كملت له إنسانيته ، واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هياه الله له بحكم الفطرة التي فطر عليها . وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم : إن نشأة المدنية في أوربة ، إنما قامت على هذين الأصلين : فلم تنهض النفوس للعمل ، ولم تتحرك العقول للبحث والنظر ، إلا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم ، وأن لهم حقا في تصريح اختيارهم ، وفي طلب الحقائق بعقولهم . ولم يصل إليهم هذا النوع من العرفان إلا في الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح عليه السلام . وقرر ذلك الحكيم : أنه شعاع سطع عليهم من آداب الإسلام ، ومعارف المحققين من أهله في تلك الأزمان .

دعوة الإسلام إلى فهم الدين :

رفع الإسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين في فهم الكتب السماوية استئثارا من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم ، وضنابه على كل من لم يلبس لباسهم ، ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتب المقدسة ، فقرضوا على العامة ، أو أباحوا لهم أن يقرءوا قطعا من تلك الكتب ، لكن على شريطة ألا يفهموها ، ولا أن يطيلوا أنظارهم إلى ما رمى إليه ، ثم غالوا في ذلك ، فخرموا أنفسهم أيضا مزية الفهم إلا قليلا ، ورموا عقولهم بالقصور عن إدراك ما جاء في الشرائع والنبوات ، ووقفوا بالناس عند تلاوة الألفاظ تعبدا بالأصوات والحروف ، فذهبوا بحكمة الإرسال ، فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا ، فقال :

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) أما الاماني فقست بالقراءات والتلاوات أى لا يعلمون منه إلا أن يتلوه ، وإذا ظنوا أنهم على شيء مما دعا إليه فهو عن غير علم بما أودعه وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه دينا ، وإذا عن لأحدهم أن بين شيئا من أحكامه ومقاصده لشهوة دفعته إلى ذلك جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة ، واعتسف في التأويل ، وقال هذا من عند الله : (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) أما الذين قال : إنهم لم يحملوا التوراة وهى بين أيديهم بعد ما حملوها فهم الذين لم يعرفوا منها إلا الألفاظ ، ولم تسم عقولهم إلى درك ما أودعته من الشرائع والأحكام ، فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها ، وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التى نصبت بإزالتها ، فحق عليهم ذلك المثل الذى أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به : مثل الحمار الذى يحمل الكتب ، ولا يستفيد من حملها إلا العناء والتعب وقصم الظهر وانبهار النفس . وما أشنع شأن قوم انقلبوا بهم الحال : فما كان سبباً فى إسعادهم - وهو التنزيل والشرعة - أصبح سبباً فى شقائهم بالجهل والغباوة !!

وبهذا التقرير ونحوه ، وبالدعوة العامة إلى الفهم وتمحيص الأبواب للتفقه واليقين مما هو منتشر فى القرآن العزيز فرض الإسلام على كل ذى دين أن يأخذ حظه من علم ما أودع الله فى كتبه ، وما قرر من شرعه ، وجعل الناس فى ذلك سواء بعد استيفاء الشرط بأعداد ما لا بد منه للفهم ، وهو سهل المنال على الجمهور الأعظم من المتدينين ، لا تختص به طبقة من الطبقات ، ولا يحتكر مزيتها وقت من الأوقات .

الاسلام والمدنية :

الإنسان بما فطر عليه من حب الذات مدفوع إلى أن يحصل لنفسه أقصى ما يستطيع من كمال جسدي وادني واذة بدنية ، ويدفع عنها ما يمكنه دفعه من مييدات الوجود ومهلكاته ، ثم إن مامتع به من القوى المعنوية البعيدة المدى يمكنه من الوصول إلى أكثر رغائبه ، مادام يعمل للحصول عليها بالوسائل المشروعة . على هذا فطر الإنسان ، وقد حقق لنفسه بعض هذه الاماني في أزمنة مختلفة ، ولكن قادة الأديان أرادوا أن يقبضوا على نواصي الأمم ، ويسخروها لاهوائهم ، وخشوا أن تكون السعادة الجسدية مغرية للإنسان بالتملص من قيودهم ، والتخلص من سطوتهم ، فيضعوا مكانهم الموهومة ، فمزجوا بأحكام الدين ما ليس منها من الدعوة إلى الذل والاستكانة ، وحبوا إليهم الزهد ، والتقشف . نعم أرسل الله بعض الرسل بالدعوة إلى الزهد المطلق في الدنيا ونعيمها ، ولكن كان ذلك لأسباب خاصة في أحوال تقتضيها ؛ لا لأن الدين بطبيعته عدو للنافع المادية ، وخصم للسعادة الجسدية .

تمسكت أمم بالدين المشوب بتلك البدع ، فانحط أهلها إلى أسفل الدركات ، وصاروا أضعف الناس في ميدان التغالب الحيوي ؛ ووقر في النفوس أن الدين ينافي كل عمل يؤدي إلى النعيم البدني ، فنجحت الشبه والشكوك ، وتناقضت أحكامه والفطرة البشرية ، وتمسك قاداته بأصولهم ؛ فأخذوا يعملون على إبادة كل نزعة تبدو من الأمم لطلب الرقي ، وأصبح الدين في أيديهم آلة للتعذيب والقهر ، وكانت الحرب سجالات بينهم وبين الدعاة إلى المدنية ، حتى تم لهم الفوز المطلق ، فضبت موارد العلم ، ودرست أعلامه ، وأمسى العالم في ظلام حالك من الجهل والعماية .

ظهر الاسلام ، فقرر أن الدين ليس عدواً للمدنية ، بل هو دليلها الصادق ، ومرشدها الخير ، فقال تعالى : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) وقال تعالى : (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ

(حَسَنَةً) وقال تعالى : (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) وقال تعالى : (وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ) ولما كان العامل في إيجاد المدنية المادية هو العلم قرر الاسلام طلبه على كل مسلم ومسلمة : فقال تعالى : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) وقال : (وَمَا أَوْتَيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) وقال : (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) وقال : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ) وقال عليه الصلاة والسلام : « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لَا تَمْنَعُوا الْعِلْمَ أَهْلُهُ ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ فُسَادَ دِينِكُمْ وَالتَّبَاسَ بَصَائِرِكُمْ) ثم قرأ : (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ، أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ) وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ كَتَمَ عِلْمًا يُحْسِنُهُ أَجْلَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ »

الإسلام والمساواة :

كانت الشعوب تن من ضروب الامتياز التي رفعت بعض الطبقات بغير حق ، وكان من حكمها ألا يقام وزن لشئون الأديين ، متى عرضت دونها شهوات الأعلىين ، وكم قاسى الأولون في سبيل ذلك شقاء وأهوالا ، وذاقوا في إسعاد الآخرين وبالا ونكالا . فلما جاء الإسلام قرر أن الناس كلهم سواء . أبوهم آدم والام حواء : فلا فضل لأبيض على أسود ، ولا لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) وجاء هذا الدين

يحدد الحقوق ، ويسوى بين جميع الطبقات في احترام النفس والدين والعرض والمال ، ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسئلة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لأمير عظيم مطلق السلطان في قطر كبير ، وما كان يريد لنفسه ، ولكن ليوسع به مسجدا

فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى إلى الخليفة ، فورد أمره برد بيتها إليها ، مع تأنيب الأمير على ما كان منه . عدل يسمع ليهودى أن يخاصم مثل على بن أبى طالب أمام القاضى ، وهو من نعلم ، ويستوقفه معه للتقاضى إلى أن قضى الحق بينهما . عدل يجعل أول خليفة للمسلمين يخطب فيقول : (يا أيها الناس قد وليتكم ولست بخيركم ، ولقد وددت أن واحدا منكم قد كفى هذا الأمر ، فلو وجدتم فى أعوجاجا فقوموه) فكان هذا إقامة لصرح الحرية الإنسانية الذى ارتفعت عليه الشعوب إلى أعلى منازل الشعور بالكرامة الاجتماعية ، وبنت عليه مآقدها من معارج الصعود إلى ذروة الرفعة القومية .

تظاهر العقل والدين واقتضار أحدهما إلى الآخر :

العقل لن يهتدى إلا بالشرع ، والشرع لا يتبين إلا بالعقل ، فالعقل كالأس والشرع كالبناء ، ولن يغنى أس ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس . وأيضا العقل كالبصر ، والشرع كالشعاع ، ولن يغنى البصر ما لم يكن شعاع من خارج ، ولن يغنى الشعاع ما لم يكن بصر . ولهذا قال الله تعالى : (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ) وأيضا العقل كالسراج ، والشرع كالزيت الذى يمدده : فإن لم يكن زيت لم يحصل الإِسراج ، وما لم يكن سراج لم يضيء الزيت ، قال الله تعالى : (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِثْلِ شِكَاهٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ

كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا
غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ
لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ) . وأيضاً الشرع عقل من خارج ، والعقل شرع من
داخل ، وهما متعاضان ، بل متحدان . ولكون الشرع عقلاً من خارج
سلب الله تعالى اسم العقل من الكافر في غير موضع من القرآن :
نحو قوله : (صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) ولكون العقل شرعاً من
داخل قال في وصف العقل : (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ
لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) فسمى العقل ديناً . ولكونها متحدتين قال :
(نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ) أي نور الشرع ونور العقل ، ثم قال : (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ
مَنْ يَشَاءُ) فجعلهما نوراً واحداً : فالشرع إذا فَقِدَ العقل عجز عن أكثر
الأمور عجز العين عند فقد الشعاع . والعقل بنفسه قليل الغناء ، لا يكاد
يتوصل إلا إلى معرفة كليات الأشياء دون جزئياتها : نحو أن يعلم جملة :
حسن اعتقاد الحق ، وقول الصدق ، وتعاطي الجميل ، وحسن استعمال
العدالة ، وملازمة العفة ، ونحو ذلك من غير أن يعرف ذلك في كل شيء
على حدة . والشرع يُعرف كليات الأشياء ، ويبين ما الذي يجب أن يعتقده
في كل شيء على انفراده ، وما الذي هو معدلة في كل شيء منفصلاً عن
غيره . ولا يعرفنا العقل أن لحم الخنزير والدم والخمر محرم ، وحظر
زواج المحرمات ؛ فإن أشباه ذلك لا سبيل إليها إلا بالشرع . فالشرع نظام
الاعتقادات الصحيحة ، والأفعال المستقيمة ، والدال على مصالح الدنيا
والآخرة ، ومن عدل عنه فقد ضل سواء السبيل . ولأنه لا سبيل للعقل إلى معرفة
ذلك قال الله تعالى : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) وقد قال الله تعالى :

(وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى) وإلى العقل والشرع أشار بالفضل والرحمة بقوله تعالى : (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا) وعن القليل المصطفين من الأخيار .

الدين الاسلامي أعظم الأديان

استيفاء للأمر التي تتم بها سعادة الأمم

قال السيد جمال الدين الأفغاني رحمه الله تعالى عليه : إذا نظرنا فيما بين أدياننا من الأديان وجدنا دين الإسلام قد أقيم على أساس من الحكمة متين، ورفع بناؤه على ركن لسعادة البشر ركين : ذلك أن عروج الأمم في معارج الحق الأعلى ، وتدرج الشعوب في مدارج العلم الأجل ، وصعود الأجيال في مراقى الفضائل ، وإشراف طوائف الإنسان على دقائق الحقائق ، ونيهم للسعادة الحقيقية في الدارين - كل ذلك مشروط بأمور لا يتم إلا بها :

الأول

صفاء العقول من كدر الخرافات ، وصدأ الأوهام ؛ فإن عقيدة وهمية يُدنس بها العقل تقوم حجاباً كثيفاً يحول بينه وبين حقيقة الواقع ، ويمنعه من كشف نفس الأمر ، بل إن خرافة قد تقف بالعقل عن الحركة الفكرية وتدعوه بعد ذلك إلى أن يحمل المثل على مثله ، فيسهل عليه قبول كل وهم ، وتصديق كل ظن ، وهذا مما يوجب بعده عن الكمال ، ويضرب له دون الحقائق ستارا لا يخرق ، وفوق ذلك ما تجلبه الأوهام على النفوس من الوحشة ، وقرب الدهشة ، والخوف مما لا يخيف ، والفرع مما لا يفرع . ترى الواهم المسكين يقضى حياته بين رجفة واضطراب ، يتطير من طيران الطيور وحركات البهائم ، ويضطرب من هبوب الرياح ، وينزعج لقصف

الزغد والتماع البرق ، ويسلك به الوهم طرق الخيفة مما لا أثر له في الإحاطة ، وبهذا يسجل عليه الحرمان من أغلب أسباب السعادة ، ثم يكون العوبة في أيدي المحتالين ، وصيدا في حبال الماكبرين والدجالين .

وأول ركن بني عليه الدين الاسلامي صقل العقول بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الاوهام : فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله منفرد بتصرف الأكوان ، متوخذ في خلق الفواعل والأفعال ، وأن من الواجب طرح كل ظن في إنسان أو جماد علوى أو سفلى بأن له في الكون أثرا بنفع أو ضر ، أو إعطاء أو منع ، أو إعزاز أو إذلال .

. ومن المفروض خلع كل عقيدة بأن الله جل شأنه ظهر أو يظهر بلباس البشر ، أو حيوان آخر ؛ لصالح أو فساد ، وأن تلك الذات المقدسة نالت في بعض أطوارها شديد الآلام وأليم الأسقام ؛ لمصلحة أحد من الخلق ، فضلا عما يحف بذلك من خرافات ، كل واحدة منها كافية في إهمال العقول وطمس نورها .

الثاني

أن تكون نفوس الأمم مستقبلة وجهة الشرف ، طامحة إلى بلوغ الغاية منه : بأن يجد كل واحد من نفسه أنه لائق بأية مرتبة من مراتب الكمال الانساني ، ماعدا رتبة النبوة ؛ فإنها بمعزل ، وإنما يختص الله بها من يشاء من عباده . ولا يذهب وهم أحد من الأمة أنه ناقص الفطرة ، منحط المنزلة خاقد الاستعداد لشيء من الكمالات .

فإذا أخذت نفوس الناس حظها من هذه الصفة ، أغنى الإقبال على وجوه الشرف - تسابق الآحاد في مجالات الفضائل ، وتمادت بهم المجاراة إلى محاسن الأعمال ، فبلغ كل واحد ما أتى عليه سعيه من عاليات الأمور ، وشرائط المراتب . ولو أن قوما أساموا الظن بأنفسهم ، واعتقدوا أن نصيبهم من

الفطرة نقص الاستعداد ، وخسة المنزلة ، وأن لاسيل لهم إلى الوقوف في مصاف غيرهم من طبقات الناس فلا ريب في أن يسقط من همهم مقدار ماظنوا في أنفسهم . وبذلك يتولى النقص أعمالهم ، ويملك الخود عقولهم ، فيحرمون معظم الكمالات البشرية ، وينقطعون دون كثير من مقامات الشرف الدنيوية .

إن الدين الإسلامي فتح أبواب الشرف في وجوه الأنفس ، وكشف لها عن غايته ، وأثبت لكل نفس صريح الحق في أي فضيلة ، وأنبا كل ذي فطر بوفرة استعداده لأي منزل من منازل الكرامة ، وتحق امتياز الأجnas ، وتفاضل الأصناف ، وقرر المزايا البشرية على قاعدة الكمال العقلي والنفسى لا غير : فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة . وقد لا تجد من الأديان ما يجمع أطراف هذه القاعدة : فديك دين (برهما) : قسم الناس أربعة أقسام ، وقرر لكل منزلة من كمال الفطرة لا يجاوزها ، وكان هذا التقسيم سببا في انحطاط المتدينين بهذا الدين ، وقصور خطاهم عن الرقي في مدارج المدنية ، وانحسار أفكارهم دون الوصول إلى ما يطلبه استعدادهم من المعارف الصحيحة ، والعلوم النافعة ، مع أنهم أقدم الأمم وأسبقها نظراً في الكون وشئونه .

ومن الأديان ما يغلب اليوم على أمم من البشر ، وفي أصوله تفضيل شعب خاص على بقية الشعوب كشعب إسرائيل مثلاً ، وكتابه المعروف يخاطب أبناء ذلك الشعب بالكرامة والإجلال ، ويذكر غيرهم بالتحقير والإهانة نعم جاء رؤساء ذلك الدين وانسلوا من هذا الحكم ، وأغفل فيما بينهم ، حتى كأنه لم يكن من دينهم ، إلا أن ماسلبوه من الكرامة عن غيرهم اتحلوه لأنفسهم ، فارتفع امتياز الجنسية من بين أهل الدين ، وخلفه امتياز الصنفية ، فسقطت منزلة الرؤساء الروحانيين في قلوب الآخذين بدينهم ، حتى صار من عقائدهم أن صنفاً من الناس على منزلة القرب من الله بحيث لا يرد الله له

طلبة ، ثم الحجاب بين الله وبين سائر الأصناف : لا يقبل الله من أحد صرفاً ولا عدلاً ، ولا يعتد له ولا يغفر له ذنباً بتوبة ، حتى يتوسط له أهل طبقة الرياسة . فعندهم أن كل نفس - وإن بلغت من الكمال ما بلغت - ليس فيها ما يؤهلها لعرض ذنوبها على أبواب العفو الإلهي ، ولا أن ترفع إليه طلب المغفرة لخطيئاتها ، بل لا بد في قبول ذلك منها أن يكون بوساطة الرئيس الديني . ومن آمن بالله وصدق به وأخذ بأحكامه لا ينظر الله لإيمانه حتى ينظر إليه الرئيس الديني ويعتده إيماناً . واستندوا في هذه العقائد على نصوص من كتابهم ، تفيد أن ما يحلونه في الأرض يكون محلولاً في السماء ، وما يعقدونه في الأرض يعقد في السماء . وقد جلبت هذه العقيدة على أهل هذا الدين شقاء طويلاً ، وألقت بهم في جهالة عمياء ، وذلة خرساء زمنا مديداً ، حتى ظهر فيهم مجددون ، نقضوا ذلك العقد ، وخالفوا فيه ما اشتهر من نصوص الكتاب ، وقلدوا في ذلك الدين الاسلامي ، وسموا مذهبهم « الإصلاح » ونشروه في ممالك متعددة ، فلم يلبث قومهم بعد ذلك أن تكشف عنهم تلك الجهالات ، وحلت من أعناقهم هذه الرباقي ، ونهضوا من حضيض ذلة إلى ذروة رفعة ، فنطقوا بعد ما صمتوا ، وعللوا بعد ما جهلوا ، وحكموا بعد ما حكموا ، وسادوا بعد ما سيدوا .

الثالث

أن تكون عقائد الأمة - وهي أول رقم ينقش في ألواح نفوسها - مبنية على البراهين القوية والأدلة الصحيحة ، وأن تتحامي عقولهم مطالعة الظنون في عقائدها ، وترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها ، فإن معتقداً لاحت العقيدة في مخيلته بلا دليل ولا حجة قد لا يكون موقناً ، فلا يكون مؤمناً . هذا والآخذ في عقائده بالظن ينصبُّ عقله على متابعة الظنون ، والقانع بأن آباءه كانوا على مثل عقيدته ، فأولى به أن يكون عليها - يلتقي مع سابقه في مضارب الوهم ، وفجاج الظن . وأولئك المتبعون للظن القانعون

بالتقليد تقف بهم عقولهم عند ما تعودت إدراكه ، فلا يذهبون مذاهب الفكر ، ولا يسلكون طرائق النظر . وإذا استمرت بهم ذلك تغشتهم الغباوة بالتدريج ، ثم تكاثفت عليهم البلادة ، حتى تعطل عقولهم عن أداء وظائفها العقلية بالمرة ، فيدركها العجز عن تمييز الخير من الشر ، فيحيط بهم الشقاء ويتعثر بهم البخت . وبئس المآل مآلهم .

وإن كان لابد من الاستئناس لما نقول بقول أوربي ، فهذا (كيزو) الفرنسي صاحب تاريخ التمدن الأوربي ، قال : « إن من أشد الأسباب أثراً في سوق أوربة إلى تمدنها ظهور طائفة في تلك البلاد قالت : إن لنا حقاً في البحث عن أصول عقائدنا ، وطلب البرهان عليها ، ولو كان ديننا هو الدين المسيحي . وعارضها كثير من رؤساء الدين ، ومنعوها ما دعت من الحق محتجين عليها بأن بناء الدين على التقليد . فلما أخذت تلك الطائفة قوتها ، وانتشرت أفكارها برئت عقول الأوربيين من علة الغباوة والبلادة ، ثم تحركت في مداراتها الفكرية ، وترددت في المجالات العلمية ، وكدحت لاستحصال أسباب المدنية . »

إن الدين الإسلامي يكاد يكون متفرداً من بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل ، وتوخيخ المتبعين للظنون ، وتبكي الخاطبين في عشواء العماية ، والقدح في سيرتهم . هذا الدين يطالب المتدينين بأن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم ، وكلما خاطب الخاطب العقل ، وكلما حاكم حاكم إلى العقل . تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة ، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة ، وإهمال العقل ، وانطفاء نور البصيرة ، ويرفع أركان الحجة لأصول من العقائد كل منها ينفع العامة ، ويفيد الخاصة ، وكلما جاء بحكم شرعي أتبعه ببيان الغاية منه في الأغلب . وفي القرآن من ذلك ما لا يحصى كثرة . وكلما يوجد من الأديان ما يساويه أو يقاربه في هذه المزية ، وأظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصة الجليلة .

ومن الأديان الظاهرة مابني أعظم أركانه على أصل الكثرة في الواحد ، أو الوحدة في الكثير ، وأن الواحد يكون أكثر ، والكثير يكون واحداً ، مما تنبذه بداهة العقل ، فلما أنكر العقل أصله هذا أجمع أهل الدين على أنه فوق نظر العقل ، فلا ينال الفكر دركه لا بالكنه ولا بالوجه ، ولا يهتدى لدليل عليه ، ولا مرشد إليه . يريدون أنه لا بد من تنكب طريق العقل ، ونبذ أحكامه ، حتى يمكن الإيمان بهذا الأصل ، مع أن العقل مشرق الإيمان ، فمن تحول عنه فقد دابر الإيمان ، وإن فرقا بين مالا يصل العقل إلى كنهه ، لكنه يعرفه بآثره ، وبين ما يحكم العقل باستحالته : فالأول معروف عند العقل يقرّ بوجوده ، وأما الثاني فطروح من نظره ، ساقط من اعتباره ، لا يتعلق به عقد من عقوده ، فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه ؟ .

الرابع

أن يكون في كل أمة طائفة يختص عملها بتعليم سائر الأمة ، لا ينون في تنوير عقولهم بالمعارف النافعة وتحليلها بالعلوم الصافية ، ولا يألون جهداً في تبين طرق السعادة لهم والسلوك بهم في جوادتها . هم طائفة أخرى تقوم على النفوس ، تتولى تهذيبها وتقويم أودها ، وتكشف عن الأوصاف الفاضلة وحدودها ، وتمثل للبدارك فوائدها ومحاسن غاياتها ، وتفضح مستور الرذائل ، وتشق الحجاب عن مضارها ، وسوء منقلب المتدسسين بها . وتشتد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا تلهيها عنهما غفلة ولا تردّها صعوبة . وذلك أن بداهة العقل حاكمة بأن جلّ المعارف البشرية ، والعقائد الدينية مكتسبة . فإن لم يكن في الناس معلم قصرت العقول عن درك ما ينبغي لها دركه ، وانقطعت دون الكفاية مما تستدعيه ضرورات الحياة الأولى والاستعداد لما يكون في الأخرى ، وساوى الإنسان في معيشته سائر الحيوانات ، وحرّم سعادة الدارين ، وفارق هذه الدنيا على أتعس الأحوال .

فإذن من الواجب الدينى إقامة معلم . والشهوات النفسية ليس لها من ذاتها حد تقف عنده ، ولا لرغائب الأنفس غاية تنقطع عندها ، فإن فقد من بين الناس مقوم النفوس ، ومعدل الأخلاق - طغى سلطان الشهوة ، واندفع إلى الحيف والإجحاف ، ومن طغت بهم شهواتهم سلبوا راحة غيرهم ، وهتكوا ستر أمتهم ، ثم هم لا ينفلتون من غائلة أعمالهم ، بل يحترقون بنيران شهواتهم ، فيرافقون الدنيا على عناء ، ويفارقونها على شقاء ، فأذن لابد من الأمر بالمعروف ، الناهى عن المنكر ، القائم بتقويم الأخلاق .

وإن من أهم الأركان الدينية فى الديانة الإسلامية هاتين الفريضتين : نصب المعلم ليؤدى عمل التعليم ، وإقامة المؤدب الأمر بالمعروف الناهى عن المنكر : (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَذَكَّرُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن دين الإسلام قد فاق غيره من الأديان فى العناية بهذين الأمرين .

أمور أخرى

وإذ كانت أركان الدين الإسلامى بالغة حدًّا الكثرة ، فلو أخذت فى بيان ما يفيد كل ركن منها فى تقويم المدينة ، وتشديد بناء النظام الإنسانى ، وإقامة الدليل على أن كل أصل من أصول هذا الدين عنصر لحياة السعادة الإنسانية - لطال المقال . والحق أن (المدينة الفاضلة) التى مات الحكماء حسرة من فقدوها لا تختط فى العالم الإنسانى إلا بالدين الإسلامى . وإنما كان المسلمون على مانرى من الحال والشأن المحزن ، لأنهم حادوا عن محجة دينهم ، وطرحوه وراءهم ظهريا ، بعد أن بلغوا به ما بلغوا ، حتى شهد العالم بفضلهم : (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

السبب الثاني من أسباب السعادة

التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل

« الفضائل التي بتحصيلها تنال السعادة »

إذا عرف أن السعادة تنال بتزكية النفس وتكميلها ، وأن تكميلها باكتساب الفضائل كلها - فلا بد من تعرف الفضائل جملة وتفصيلاً :
فأما الفضائل بجملة فتحصر في معنيين : أحدهما جودة الذهن والتمييز .
والآخر : حسن الخلق .

أما جودة الذهن : فليميز بين طريق السعادة والشقاوة ، وليعتقد الحق في الأشياء على ما هي عليه : عن براهين قاطعة مفيدة لليقين ، لا عن تقليدات ضعيفة ، ولا عن تخيلات واهية .

وأما حسن الخلق : فبأن يزيل جميع العادات السيئة ، التي بين الشرع تفاصيلها ، وأن يتعود العادات الحسنة ويشتاق إليها ، فيؤثرها ويتنعم بها كما قال عليه الصلاة والسلام : « جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » . أما أداء المأمورات وترك المحظورات مع استئصال وكراهة فنقص قد يقعد بصاحبه عن بلوغ كمال السعادة ، ولكن دوام المجاهدة يفضي إلى الغاية ، وإن كان أقل رتبة من العمل عن طوع ورغبة . وقولهم : الحق مر : يصدق على من لم يتهدب ، فبقيت فيه صوارف عن الحق ولذلك قال الله تعالى : (وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) وقال عليه السلام : « إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ فِي الرِّضَا لِلَّهِ فَاعْمَلْ ، وَإِلَّا فَفِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ »

ثم لا يكفي في نيل السعادة استلذاذ الطاعة ، واستكراه المعصية في زمان دون زمان ، بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام في جملة العمر . ولذلك لما سئل عليه السلام عن السعادة قال : « طُولُ الْعُمُرِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ » ولذلك

كره الأنبياء والأولياء الموت ؛ فإن الدنيا مزرعة الآخرة ، وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أكثر ، والنفس أزكى وأطهر ، وكلما أتم ، وابتهاج صاحبها بجمالها عند التجرد عن علائق البدن أشد وأوفر . يتم ذلك إذا طرح الشواغل ، وتنبه من نومه الذي أغفله عن إدراك حال نفسه : من جمال يتنهج به ، أو خزي وخبال يبتلى به ؛ فالناس من شهواتهم نيام ؛ فإذا أماتوها انتبهوا من رقدتهم .

فهذه مجامع الفضائل ، وغايتها أن تصدر من الإنسان أبداً بغير فكر وروية وتعب ، ويطلع على الحق بغير كبير عناء كالصانع الحاذق في الخياطة والكتابة ؛ لا يعاني في عمله نصب التفكير

تلك الفضائل محصورة في فن نظري ، وفي فن عملي ، يحصل كل واحد منها على وجهين :

أحدهما - بتعلم بشري ، وتكلف اختياري : يحتاج فيهما إلى زمان وتدريب وممارسة ؛ وبتقوى الفضيلة فيه تدريجاً خفياً يختلف عند الناس على حسب استعدادهم .

والآخر - يحصل بجود إلهي : نحو أن يولد الإنسان ، فيصير بغير علم عالماً كعيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا ، وسائر الأنبياء عليهم السلام الذين حصل لهم من الإحاطة بحقائق الأمور ما لم يحصل لطلاب العلم بالتعلم . وقد يحصل ذلك أيضاً لغير الأنبياء ممن نهجوا نهجهم وساروا على سنتهم . ولا ينبغي أن تستبعد أن يكون بالطبع في مبدأ الفطرة من الخلال ما يحصل بالجهد والاكتساب : فرب صبي صادق للهجة ، سخي جرىء ، ورب آخر على خلافه . تتم هذه الخلال من طريق التأديب والتعويد : فالفضيلة تارة تحصل بالطبع ، وطوراً بالاعتياد ، ومرة بالتعلم . فمن تيسرت له الجهات الثلاث ، حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلماً - فهو في غاية الفضيلة . ومن كان رذلاً من هذه الجهات الثلاث فهو في غاية الرذالة ، وبينهما رتبة من

اختلفت فيه هذه الجهات ، والأخيران في حاجة شديدة إلى الرياضة والمجاهدة .

الذريعة إلى محاربة الهوى

للإنسان في مجاهدة الهوى ثلاثة أحوال :

الأول - أن يغلبه الهوى ، فيملكه ولا يستطيع له خلافاً ، وهو حال أكثر الخلق . وهو الذي قال الله تعالى فيه : (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) ؛ إذ لا معنى للإله إلا المعبود ؛ والمعبود هو المتبوع بالإشارة . فمن كان تردده في جميع أطواره خلف أغراضه البدنية وأوطاره فقد اتخذ إلهه هواه .

الثاني - أن تكون الحرب بينهما سجالاتاً : فهذا الرجل من المجاهدين ، فإن اخترمته المنية في هذه الحالة ، فهو من الشهداء ؛ لأنه مشغول بامتنال قوله صلى الله عليه وسلم : « جَاهِدُوا أَهْوَاءَكُمْ كَيْ تُجَاهِدُوا أَعْدَاءَكُمْ » وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الجهاد أفضل يا رسول الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « جِهَادُكَ هَوَاكَ » وَلِذَلِكَ قَالَ : « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ مَنْ تَلَكَ نَفْسُهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » وهذه الرتبة العليا لغير الأنبياء والأولياء .

الثالث - أن يغلب هواه ، فيصير مستولياً عليه . لا يقهره بحال من الأحوال . وهذا هو الملك الكبير . والنعيم الحاضر ، والحرية التامة ، والخلاص من الرق . ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ شَيْطَانٌ وَلِي شَيْطَانٌ » وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَانَنِي عَلَى شَيْطَانِي حَتَّى مَلَكَتُهُ » وقال في حق عمر : « مَا سَلَكَ عُمَرُ فُجَاءًا إِلَّا وَسَلَكَ الشَّيْطَانُ فُجَاءًا غَيْرَهُ » وهنا منزلة القدم : فكم من إنسان يظن أنه نال هذه الرتبة ، وهو في الحقيقة شيطان مريد ؛ فإنه يتبع أغراضه ، ويلبسها لباس الدين : فقد ترى جماعة اشتغلوا بالوعظ والتدريس والخطابة وأنواع الرياضة : وهم متبعون للهوى ، ويزعمون أن باعهم الدين ، ومحركهم طلب الثواب ، ومنافستهم عليها للشرع ، وهي

نهاية الحق والغرور . وإنما تعرف حقيقة ذلك بأمر : هو أن الواعظ المقبول : إن كان يعظ الله لا لطلب القبول . وقصد دعوة الخلق إلى الله - فعلامته أنه لو جالس مكانه وانهض أحسن منه سيرة ، وأغزر منه علماً . وأطيب منه لهجة ، وتضاعف قبول الناس له - فرح به . وشكر الله على إسقاط هذا الفرض عنه بغيره . وبمن هو أقوم منه : كمن تعين عليه جهاد كافر ، وقتله لارتداده ، فنزلت بالكافر صاعقة أحرقتة ، وكفى مثوته ، والجهاد معه - ففرح به وشكر الله تعالى

وتلك حال لا يحسبها إلا الأصفياء : وآيتها دوام الحذر واليقظة ، كما نقل عن الصديق رضي الله عنه قوله : « افعلوا في فلست بخيركم »
الفرق بين إشارة الهوى وإشارة العقل :

إن هذا مطلب عويص ولا خلاص منه إلا بالعلوم الحقيقية ؛ إذ بها ينكشف التلبس عن الحق ؛ ولكن القدر الذي ينبغي أن يضرع إليه عند التحير هو العلم بأن العقل في أكثر الأمور يشير بالأصلح للعواقب ، وإن كان فيه كلفة ومشقة في الخال ؛ والهوى يشير بالاستراحة . وترك التكلف . فإن عرض لك أمران ، ولم تدر أيهما أصوب - فعليك بما تكرهه لا بما تهواه ؛ فأكثر الخير في الكراهة : قال عليه السلام : « حَفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ ، وَحَفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » وقال تعالى : (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) وقال تعالى : (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) فما تميل فيه إلى الدعة والرفاهية ، وحذر الكلف ، وإثار الراحة في الحال - فأنهم فيه نفسك ؛ فإن حبك الشيء ، يعنى ويصم . وأكثر ما يلبس به الهوى معاذير مزخرفة ، والعقل يسترشد بحجج حقيقية ؛ والعاشق لشخص قبيح أو المتناول لطعام بشع شغف به لعادته لو روجع لزخرف فيه معاذير مبرهنة ؛ يشهد عليه العقل بأنه متصنع متكلف .

وبالجملة : إدراك هذه الحقيقة لا يكون إلا بنور إلهي ، وتأيد سماوي . فليكن الفرع إلى الله في مظان الحيرة ؛ فقد قال بعض العلماء : إذا مال العقل إلى مؤله في الحال نافع في العاقبة ، ومال الهوى في نحو نقيضه الملة في الحال الوخيم العاقبة ، وتنازعا وتحاكما إلى القوة المدبرة المفكرة - سارع نور الله تعالى إلى نصره العقل ؛ وبادر وسواس الشيطان ؛ وأولياؤه إلى نصره الهوى ، وقام صف القتال بينهما : فإن كانت القوة المدبرة من حزب الشيطان وأولياؤه ذهلت عن نور الحق ؛ وعميت عن نفع الآجل ؛ واغترت بلذة العاجل ؛ وجنحت إليه ؛ وقهر أولياء الله . وإن كانت من حزب الله وأولياؤه اهتدت بنوره ، واستهانت بالعاجلة ، وطلبت الآجلة . قال الله تعالى : (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

ويرى بعض العلماء أن الله تعالى شبه العقل بشجرة طيبة ، والهوى أشجرة خبيثة ، فقال : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلُّ حِينٍ وَإِذْنُ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » فعند قيام الصف والتحام القتال بين هذين الجندين اللذين أحدهما من أعداء الله والآخر من أولياؤه - لا سبيل إلا إلى الفرع إلى الله تعالى ، والاستعاذة من الشيطان الرجيم . قال تعالى : (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذْ مَسَّهُ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

والهوى محمود ومذموم :

فالمحمود : من فعل الله تعالى : وهو قوة جعلت في الإنسان ، لتنبعث بها النفس لنيل ما فيه بقاء بدنه أو نوعه . أو إصلاحهما .

والمذموم : من فعل النفس الأمارة بالسوء : وهو استحبابها لما فيه لذتها

البدنية . وهى إذا غلبت سميت هوى ؛ فإنها تستتبع الفكرة ؛ وتستخدمها لتستغرق وقتها فى الامثال لأمرها . والفكرة مترددة بين الشهوة والعقل ، يخدمها العقل فوقها والشهوة تحتها . فتى مالت الفكرة نحو العقل ارتفعت وشرفت وولدت المحاسن ؛ وإذا مالت إلى الشهوة تسفلت إلى أسفل السافلين ؛ وولدت القبائح وبعدت من المحاسن .

قد تصدر الفضائل ممن ليس بسعيد ولا فاضل :

أجل ابن مسكويه هذا البحث فيما يلى : إن السعادة تظهر فى أفعال العدالة والشجاعة ، والعفة ، وسائر ما تحت هذه الأنواع التى سنحصيها ونحددها إن شاء الله تعالى . وهذه الأفعال قد تظهر ممن ليس بسعيد ولا فاضل : وذلك أنه قد يعمل بعض الناس عمل العدول وليس بعاذل ؛ ويعمل عمل الشجعان وليس بشجاع ؛ ويعمل عمل الأعفاء وليس بعفيف . مثال ذلك :

إن من ترك الشهوات من المآكل والمشارب وسائر اللذات التى ينهمك فيها غيره : إما لأنه ينتظر منها أكثر مما يحضره ، وإما لأنه لا يعرفها ولم يباشرها : كالأعراب الذين يعدون عن البلاد ، وكالرعاة فى البوادي وقلل الجبال . وإما لأنه ممتلىء مما يحده ويحضره ؛ وإما لجمود شهوته ونقصان تركيه ، وإما لأنه استشعر خوفا من تناولها ومكروها يلحقه بسببها ، وإما لأنه ممنوع منها - هؤلاء كلهم يعفون وليسوا بأعفاء على الحقيقة ، وإنما يسمى عفيفا على الحقيقة من وفى العفة حدها . واختارها لنفسها ، لا لغرض آخر غيرها ، وآثرها لأنها فضيلة ؛ ثم تناول كل واحدة من شهواته بمقدار الحاجة ؛ ومن الوجه الذى ينبغى ، وفى الوقت الذى ينبغى ، وفى الحال الذى ينبغى .

وكذلك حال الذى يعمل أعمال الشجعان وليس بشجاع : وذلك أن من باشر الحروب ، وأقدم على ركوب الأهوال لبعض ما توصل إليه من المال ، أو لبعض الرغبات التى لا تحد كثرة - مثل هذا يعمل عمل الشجعان ؛ ولكن عمله بطبيعة الشره ، لا بطبيعة الفضيلة التى تدعى شجاعة . وكل من كان أكثر

إقداما وأصبر على أهوال هذه الأحوال - يجب أن يكون أكثر شرها ونهما ،
لا أكثر شجاعة : وذلك أنه يخاطر بنفسه الشريفة ، ويصبر على المكاره
العظيمة ؛ طمعا في المال وما يصل إليه بالمال .

وقد رأينا أهل الشقاوة يعملون عمل الأعفاء وعمل الشجعان وهم أبعد
الناس عن كل فضيلة : وذلك أنهم يصبرون عن الشهوات كلها ، ويصبرون
على عقوبات السلطان وضرب السياط وتقطيع الأعضاء والجراحات التي
لا يؤمن منها ، ويتهنون فيها لأقصى الصبر على الصلب وسمل العيون ، وقطع
الأيدي والأرجل ، وضروب التمثيل ؛ طلبا لاسم وذكر بين قوم في مثل
حالهم من سوء الاختيار ونقصان الفضائل . وقد يعمل أيضا عمل الشجعان
من يخاف لأئمة عشيرته ؛ أو عقوبة سلطانه ؛ أو خوف سقوط جاهه ؛ أو ما
أشبه ذلك . وقد يعمل عمل الشجعان من اتفق له مرارا كثيرة أو يغلب
أقرانه فهو يقدم ثقة منه بالعادة الجارية وجهلا بمواقع الاتفاقات . وقد
يعمل عمل الشجعان أيضا العشاق : وذلك أنهم يركبون الأهوال في طلب
المعشوق ؛ لحرصهم على متعة العين منه ؛ لالطب الفضيلة ولا لاختيار الموت
الجميل على الحياة الرديئة ؛ كما يفعل الشجعان بالحقيقة .

وأما شجاعة الأسد والفيل وأشباههما من الحيوانات فإنها تشبه الشجاعة ،
وليست بشجاعة حقيقية : وذلك أنها قد وثقت بقوتها ، وأنها تفوق غيرها
فهي تقدم ؛ لا بطبيعة الشجاعة ، بل لتمام القدرة وثقة النفس بالغلبة .
وأما الشجاع : فإن خوفه من الأمر أشد من خوفه من الموت ، ولذلك
يختار الموت الجميل على الحياة القبيحة .

على أن لذة الشجاع لا تكون في مبادئ أموره ؛ فإن مبادئ الأمور
تكون مؤذية له ، لكنها تكون في عواقب الأمور ، وتكون أيضا باقية
مدة عمره وبعد عمره ، لاسيما إذا حامى عن دينه وعن اعتقاداته الصحيحة في

وحدانية الله عز وجل ، والشرعة التي هي سياسة الله وسنته العادلة التي بها مصالح العباد في الدنيا والآخرة .

فإن مثل هذا - وقد فكر في قصر مدة عمره ، وعلم أنه لا محالة سيموت بعد أيام ، ثم كان محبا للجميل . ثابتا على الرأي الصحيح - لا محالة يحامي عن دينه ، ويمنع العدو عن استباحة حريمه والتغلب على مدينته . ويألف من الفرار ، ويعلم أن الجبان إذا اختار الفرار - فإنما يستبقى شيئا هو لا محالة فان زائل ، وإن تأخر أياما معدودة . ثم هو في هذه الحياة اليسيرة ممقوت مكدر الحياة بالذل وضروب الصغار .

وهذه حال الشجاع في تغلبه على شهواته واعتصامه بالشجاعة لذاتها .
ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » ومن سمع كلام الإمام على رضي الله عنه الذي صدر منه عن حقيقة الشجاعة : إذ قال لأصحابه : « أيها الناس ، إن لم تقتلوا تموتوا . والذي نفس ابن أبي طالب يده لآلف ضربة بالسيف على الرأس أهون من مية على الفراش » - من سمع هذاتين له أن جميع ما أحصيناه للإنسان من مظاهر الشجاعة ليس بمعدود فيها . وإن كان يشبهها بالصورة . فليس كل من يقدم على الأهوال بشجاع ، وكذلك من لا يفرع من ذهاب شرفه . أو عند حدوث الرجفات والزلازل والصواعق : أو الزمانة في الأمراض أو عدم الإخوان والأصدقاء ، أو عند اضطراب البحر وهول الأمواج : فهو بأن يوصف بالجنون أولى بأن يوصف بالشجاعة .

وكذلك من خاطر نفسه في وقت الأمن والطمأنينة : بأن يثب من سطح عال : أو يصعد مرتقى صعبا : أو يحمل نفسه على السبح في ماء غزير ، وهو لا يحسن السباحة ، أو يساور جملا هائجا : أو ثورا صعبا ، أو فرسا لم يرض . من غير ضرورة تدعوه إلى ذلك . بل مرادة بالشجاعة وإظهار أنه من أهلها ، فهو بأن يسمى مطرِذا (١) مائقا أولى منه بأن يسمى شجاعا .

وأما من خنق نفسه خوفاً من الفقر أو الذل ، أو أهلكها بالسهم وما أشبهه ؛
فرارا من الضيم - فهو بأن يوصف بالجبن أولى منه بأن يوصف بالشجاعة ؛
وذلك أن الإقدام وقع منه بطبيعة الجبن ، لا بطبيعة الشجاعة ؛ فإن الشجاع
يصبر على ما يرد عليه من الشدائد صبراً جميلاً ، ويعمل أعمالاً تليق
بتلك الحال .

ولذلك يجب أن يعظم الشجاع ، ويشح بنفسه ، وحق على السلطان
خاصة ، والقيم بأمر الدين والملك أن ينافس فيه ، ويحل قدره ، ويعلى خطره ،
ويميزه من سائر من يتشبه به ممن ذكرناه .

تبين من جميع ما قلناه أن الشجاع هو الذي يستهين بالشدائد في الأمور
الجميلة ، ويصبر على الأمور الهائلة ويستخف بما يستعظمه عوام الناس حتى
بالموت لاختيار الأمر الأفضل ، ولا يحزن على ما لا يدرك فيه ، ولا يضطرب
عندما يفدحه من المصائب ، ويكون غضبه إذا غضب بمقدار ما يجب ، وعلى
من يجب ، وفي الوقت الذي يجب . وكذلك يكون انتقامه على هذه الشرائط ؛
فإن الحكماء قالوا : إن من لا ينتقم يلحق قلبه ذبول ، فإذا انتقم عاد إلى
حالته من النشاط . وهذا الانتقام إذا كان بحسب الشجاعة كان محموداً ، وإذا
لم يكن كذلك كان مذموماً : فقد نقل إلينا في الأخبار المأثورة روايات
كثيرة عن أقدم على سلطان قوى ، ورام أن ينتقم منه : فأهلك نفسه
من غير أن يضر سلطانه . وكذلك حال من أقدم على قرن قوى أو خصم
ألد . لا يستطيع مقاومته : فإن الانتقام منه يعود وبالاً عليه ، وزيادة في
الذل والعجز .

فاذن ليست تتم شرائط الشجاعة والعفة إلا للحكيم الذي يستعمل كل
شيء في موضعه الخاص به ، وبقدر إقسط العقل له . فكل شجاع عفيف
حكيم ، وكل حكيم شجاع عفيف .

وهذه الحال بعينها تظهر فيمن عمل عمل الأسخياء وليس بسخي : فمن

بذل أمواله في شهواته ، طلبا للسمعة والرياء ، أو تقربا إلى السلطان ، أو لدفع مضرة عن نفسه وحرمة وأولاده ، أو بذلها لمن لا يستحق من أهل الشر أو الملمين أو الساخرين ، أو بذلها لطمع في أكثر منها على سبيل التجارة والمراбجة - فكل هؤلاء يعمل عمل الأسخياء وليس بسخى : أما بعضهم فيبذل ماله بطبيعة الشره ، وأما بعضهم فبطبيعة الطرمة والرياء ، وأما بعضهم فعلى طريق الازدياد من المال والربح فيه ، وأما بعضهم فعلى سبيل التبذير وقلة المعرفة بقدر المال . وهذا أكثر ما يعرض للوارث ، ولمن لا يتعب في اكتساب المال ، فلا يعرف صعوبة الأمر فيه : لأن المال صعب الاكتساب ، سهل الإنفاق والتفرقة . وقد شبه الحكماء بمن يرفع حملا ثقيلًا إلى قمة جبل ، ثم يرسله ، فإن الأمر في ترقيته وإصعاده صعب ، ولكن إرساله من هناك أمر سهل .

السبب الثالث من أسباب السعادة

الإخلاص

كل شيء يتصور أن يشوبه غيره إذا صفا عن شوبه ، وخلص عنه - سمي خالصا . ويسمى الفعل المصفى المخلص إخلاصا : قال الله تعالى : (مِنْ يَبْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ ابْنًا خَالِصًا سَائِقًا لِلشَّارِبِينَ) فإنما خلوص اللبن ألا يكون فيه شوب من الدم والفرت ، ومن كل ما يمكن أن يمتزج به . والإخلاص يضاده الإشراك : فمن ليس مخلصا فهو مشرك ، إلا أن الشرك درجات : منه الخفي ومنه الجلي ، وكذلك الإخلاص .

والإخلاص وضده يتواردان على القلب . فمحله القلب ويكون ذلك في القصد والنية . ومن حيث إن النية ترجع إلى إجابة البواعث . فمتى كان الباعث واحداً فقط سمي الفعل الصادر عنه إخلاصا : فمن فعل خيراً بقصد الرياء فقط فهو مخلص ، ومن كان غرضه الوحيد التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص . ولكن العرف قد خصص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب

إلى الله تعالى عن جميع الشوائب . ومثل ذلك الإلحاد ، فهو عبارة عن الميل إلى الحق أو عنه . ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق .
الإخلاص والصدق :

قد يذكر الصدق ويراد به الإخلاص : وذلك إذا كان متعلقاً بالنية والإرادة وهو ألا يكون للمرء باع في حركاته وسكناته إلا الله تعالى : فإن ما زجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وسمى صاحبه كذاباً ، قال عليه السلام : « أَوَّلُ مَنْ يُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ : رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْعِلْمَ ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مَا صَنَعْتَ فِيهَا عَلِمْتَ ؟ فَيَقُولُ : يَا رَبُّ كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آثَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : كَذَبْتَ ، وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ : كَذَبْتَ ، بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ : فَلَانٌ عَالِمٌ ، أَلَا قَدْ قِيلَ ذَلِكَ . وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : لَقَدْ أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ فَمَاذَا صَنَعْتَ ؟ فَيَقُولُ : يَا رَبُّ كُنْتُ أَتَصَدَّقُ بِهِ آثَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : كَذَبْتَ ، وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ : كَذَبْتَ ، بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ : فَلَانٌ جَوَادٌ ، أَلَا قَدْ قِيلَ ذَلِكَ . وَرَجُلٌ قَتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : مَاذَا صَنَعْتَ ؟ فَيَقُولُ : يَا رَبُّ أَمَرْتُ بِالْجِهَادِ ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ ، فَيَقُولُ اللَّهُ : كَذَبْتَ ، وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ : كَذَبْتَ ، بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ : فَلَانٌ شَجَاعٌ أَلَا قَدْ قِيلَ ذَلِكَ » قال أبو هريرة : « ثم خط رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذى وقال : « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، أَوَّلِيكَ أَوَّلُ خَلْقٍ تَسْمُرُ نَارَ جَهَنَّمَ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

فليس الغرض من التكذيب في هذا الحديث نفي العمل ، بل نفي الإخلاص في العمل . ولذلك قال بعضهم : « الصدق صحة التوحيد في القصد » وكذلك قول الله تعالى : (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)

وقد قالوا : « إنك لرسول الله » وهذا صدق ؛ ولكن كذبهم لامن حيث نطق اللسان ؛ بل من حيث ضمير القلب ؛ فهم في قرارة نفوسهم مكذبون ، وفي إخبارهم عن ذلك كاذبون .

فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية ، وهو الإخلاص : فكل صادق لا بد من أن يكون مخلصا قال الله تعالى :

« أَلَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَكِّلُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرُّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ »

فهذه الآية الكريمة حاوية لجميع الكمالات البشرية برمتها . تصريحاً أو تلويحاً ؛ لما أنها مع تكثر فنونها ؛ وتشعب شجونها — منحصرة في خلال ثلاث : صحة الاعتقاد ؛ وحسن المعاشرة مع العباد . وتهذيب النفس . وقد أشير إلى الأولى بالإيمان بما فصل . وإلى الثانية بإيتاء المال . وإلى الثالثة بإقامة الصلاة إلخ . ولذلك نعت المتسمون بها بالصدق لإيمانهم واعتقادهم ، وبالتقوى لحسن معاشرتهم مع الخلق ومعاملتهم مع الحق . وإليه يشير قوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ عَمِلَ بِهَذِهِ الْآيَةِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ »

الإخلاص والنصيحة :

فسر صاحب المصباح المنير النصيحة بأنها : « الإخلاص والصدق والمشورة والعمل » فهي كلمة جامعة لكل ذلك . قال ابن الأثير في النهاية : « النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة : وهي إرادة الخير للنصوح له » وليس

يمكن أن يعبر عن هذا المعنى بكلمة واحدة تجمع معناه غيرها . وأصل النصيح في اللغة الخلوص . . . وفي حديث أبي : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن التوبة النصوح ، قال : « هِيَ الْخَالِصَةُ الَّتِي لَا يُعَاوَدُ بَعْدَهَا الذَّنْبُ » وقال تعالى حكاية عن إخوة يوسف عليه السلام : (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ)

قال الإمام أبو سليمان الخطابي رحمه الله : « النصيحة كلمة جامعة معناها : حيازة الحظ للنصوح له . ويقال : هو من وجيز الأسماء ، ومختصر الكلام . وليس في كلام العرب كلمة مفردة تستوفى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة ، كما قالوا في الفلاح : ليس في كلام العرب كلمة أجمع لخير الدنيا والآخرة منه . وقيل : النصيحة مأخوذة من نصح الرجل ثوبه : إذا خاطه ، فشبها فعل الناصح فيما يتحراه من صلاح النصوح له بما يسدده من خلل الثوب . وقيل : إنها مأخوذة من نصحت العسل : إذا صفيته من الشمع : شبها تخلص القول من الغش بتخلص العسل من الخلط »

أوردنا ذلك جميعه : ليتجلى لك أن الإخلاص والصدق والنصيحة كلمات تتعاور المعنى الواحد وتتداول المفهوم المنفرد . وأن النصيحة قد تطلق ويراد بها الاثنان قبلها معا ، أو أحدهما على انفراده .

أنواع الاخلاص

روى تميم الدارى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الدِّينُ النَّصِيحَةُ » قلنا لمن ؟ قال : « لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ » فهذا حديث عظيم الشأن أوجز فيه النبي صلى الله عليه وسلم أنواع الإخلاص التي عليها مدار السعادتین : الدنيوية والأخروية ، والتي لو شرحت حق الشرح بما انطوى تحتها من شعب ، وما أجمل فيها من مفردات لاستغرقت كثير

المجلدات ، وجهدت الجهود دون ملها من غايات . ولا غرابة فقد أوتى صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم ، حتى جاءت أحاديثه حكمة الحكم : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوسَى) وسنين هذه الأنواع على القدر المستطاع :

الإخلاص لله تعالى :

الإخلاص لله تعالى معناه منصرف إلى الإيمان به ونفى الشرك عنه . وترك الإلحاد في صفاته ، ووصفه بصفات الكمال والجلال كلها ، وتنزيهه سبحانه وتعالى عن جميع النقائص ، والقيام بطاعته ، واجتناب معصيته ، والحب فيه والبغض فيه ، وموالاته من أطاعه ، ومعاداته من عصاه ، وجهاد من كفر به ، والاعتراف بنعمته ، وشكره عليها ، وتخليص جميع الأمور عن الشوائب كلها : قليلها وكثيرها ، حتى يتجرد فيها قصد التقرب إلى الله تعالى ، فلا يكون فيها باعث سواه . ثم الدعاء إلى جميع الأوصاف المذكورة ، والحث عليها . والتلطف في جمع الناس . أو من أمكن منهم عليها : قال محمد بن سعيد المروزي : « الأمر كله يرجع إلى أصلين : فعل منه بك . وفعل منك له ، فترضى ما فعل ، وتخلص فيما تعمل ، فإذا أنت قد سعدت بهذين ، وفزت في الدارين »

وقد أكثر الشيوخ الأقاويل في الإخلاص لله تعالى ، وإنما البيان الشافى بيان سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم : إذ سئل عن الإخلاص فقال : « أَنْ تَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ . ثُمَّ تَسْتَقِيمَ كَمَا أَمَرْتَ » أى لاتعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك . وتستقيم في عبادته كما أمرت .

وهذا إشارة إلى قطع ماسوى الله عن مجرى النظر . وهو الإخلاص حقا . وهو المراد بقوله تعالى : (وَمَا أَمُرُّوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) وقال تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ) وقال تعالى : (فَمَنْ كَانَ

يَرْحُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) نزلت هذه الآية فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه .

الإخلاص لكتاب الله تعالى :

وأما الإخلاص لكتابه سبحانه وتعالى فالإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله ، لا يشبهه شيء من كلام الخلق ، ولا يقدر على مثله أحد من الخلق . ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته ، وتحسينها والخشوع عندها ، وإقامة حروفه في التلاوة والذب عنه من تأويل المحرفين وتعرض الطاعنين ، والتصديق بما فيه ، والوقوف مع أحكامه ، وتفهم علومه وأمثاله ، والاعتبار بمواعظه والتفكر في عجائبه ، والعمل بحكمه ، والتسليم لمتشابهه ، والبحث عن عمومته وخصوصه ، وناسخه ومنسوخه ، ونشر علومه ، والدعاء إليه وإلى ما ذكرنا من نصيحته

الإخلاص لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

الإخلاص له صلى الله عليه وسلم تصديقه على الرسالة ، والإيمان بجميع ما جاء به ، وطاعته في أمره ونهيه ، ونصرته حيا وميتا ، ومعاداة من عاداه وموالاة من والاه ، وإعظام حقه وتوقيره ، وإحياء طريقته وسنته ، وبث دعوته ونشر شريعته ونفي التهمة عنها ، واستثارة علومها ، والتفقه في معانيها والدعاء إليها ، والتلطف في تعليمها وتعليمها ، وإعظامها وإجلالها والتأدب عند قراءتها ، والإمساك عن الكلام فيها بغير علم ، وإجلال أهلها لانتسابهم إليها ، والتخلق بأخلاقه ، والتأدب بأدابه ، ومحبة أكثر من الأهل والمال والناس أجمعين ، بل وأكثر من النفس : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » وفي روايه : « وَمِنْ نَفْسِهِ » وقد قال تعالى في معرض التهديد والإنكار : (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ

وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) ثم محبة أهل بيته وأصحابه، ومجانبة من ابتدع في سنته أو تعرض لأحد من أصحابه، ونحو ذلك مما يطول استيفاؤه، ويتعذر استقصاؤه.

الإخلاص لأئمة المسلمين :

الإخلاص لهم معاوتهم على الحق : وطاعتهم فيه ، وأمرهم به ، وتنبيهم وتذكيرهم برفق ولطف : وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين ، وترك الخروج عليهم ، وتألف قلوب الناس لطاعتهم . قال الخطابي رحمه الله : « وحق النصيحة لهم الصلاة خلفهم : والجهاد معهم ، وأداء الصدقات إليهم : وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حيف أو سوء عشرة ، وألا يغروا بالثناء الكاذب عليهم . وأن يدعى لهم بالصلاح » وهذا كله على أن المراد بأئمة المسلمين الخلفاء وغيرهم ممن يقوم بأمور المسلمين من أصحاب الولايات وهذا هو المشهور : قال الخطابي : « وقد يتأول ذلك على الأئمة الذين هم علماء الدين ، وأن من نصيحتهم قبول ما رووه ، وتقليدهم في الأحكام ، وإحسان الظن بهم » .

الإخلاص لعامة المسلمين :

عامة المسلمين هم من عدا ولاية الأمر ، والإخلاص لهم إرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم ، وكف الأذى عنهم : فيعلمهم ما يجهلونه من دينهم ، ويعينهم عليه بالقول والفعل ، وستر عوراتهم ، وسد خللاتهم ، ودفع المضار عنهم ، وجلب المنافع لهم ، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص ، والشفقة عليهم ، وتوقير كبيرهم ، ورحمة صغيرهم ، وتخولهم بالموعة الحسنة ، وترك غشهم وحسدهم . وأن يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير ،

ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه ، والذب عن أموالهم وأعراضهم ، وغير ذلك من أحوالهم بالقول والفعل ، وحثهم على التخلق بجميع ما ذكرناه من أنواع الإخلاص . وتنشيط همهم إلى الطاعات .

وقد كان في السلف رضي الله عنهم من تبلغ به النصيحة إلى الإضرار بدنياء : قال جرير بن عبد الله : « بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم » ولجرير في هذا منقبة ومكرمة رواها الحافظ أبو القاسم الطبراني : اختصارها : أن جريراً أمر مولاه أن يشتري له فرساً ، فاشترى له فرساً بثلاثمائة درهم ، وجاء به وبصاحبه لينقده الثمن ، فقال جرير لصاحب الفرس : « فرسك خير من ثلاثمائة درهم !! أتبيعه بأربعمائة درهم ؟ » قال ذلك إليك يا أبا عبد الله ، فقال : « فرسك خير من ذلك !! أتبيعه بخمسمائة درهم ؟ » ثم لم يزل يزيده مائة مائة ، وصاحبه يرضى ، وجرير يقول : « فرسك خير » إلى أن بلغ ثمانمائة درهم ، فاشتراه بها ، فقيل له في ذلك ، فقال : « إني بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم » والله أعلم .

السبب الرابع من أسباب السعادة

الصحة

العلاقة بين النفس والبدن :

كل من النفس والبدن متأثر بصاحبه ؛ فإن النفس إن كملت وكانت زاكية حسنت أفعال البدن وكانت جميلة . وكذا البدن : إن جملة آثاره حدث منها في النفس هيئات حسنة ، وأخلاق مرضية .

ولما كانت النفس مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالجسم على نحو ما ذكر كان أحدهما متعلقاً بصاحبه متغيراً بتغيره ، فيصح بصحته ، ويمرض بمرضه . ونحن نرى ذلك مشاهدة وعياناً بما يظهر لنا من أحوالهما : وذلك أنا نرى المريض من جهة بدنه - خصوصاً إذا كان مريضاً بالدماع أو القلب - يتغير عقله

ويمرض ، حتى ينكر ذهنه وفكره وتخيله وسائر قوى نفسه الشريفة .
ويحس هو من نفسه بذلك ، كذلك أيضا نرى المريض من جهة نفسه -
إما بالغضب ، وإما بالحزن ، وإما بالشهوات الهائجة به - تتغير صورة بدنه حتى
يضطرب ويرتعد ، ويصفر ويحمر ويهزل ويسمن . ويلحقه ضروب التغير
المشاهدة بالحس .

تصوير المرض :

لهذه العلاقة يجب أن تتفقد مبدأ الأمراض : فإذا كان مبدؤها من النفس
ذاتها : كالفكر في الأشياء الرديئة وإجالة الرأي فيها ، وكاستشعار الخوف
من الأمور العارضة والمتربة والشهوات الهائجة - قصدنا علاجها بما يخصها .
وإن كان مبدؤها من المزاج ومن الحواس : كالخور الذي مبدؤه ضعف
حرارة القلب مع الكسل والرفاهية . وكالعشق الذي مبدؤه النظر مع
الفراغ والبطالة - قصدنا أيضاً علاجه بما يخص هذه .

ولما كان طب الأبدان ينقسم قسمين : أحدهما : حفظ صحتها إذا كانت
حاضرة . والآخر : ردها إليها إذا كانت غائبة . (وسياًتى إن شاء الله
الكلام على ما يجب نحو صحة الأبدان) - لما كان طب الأبدان ينقسم
هذه القسمة وجب أيضاً أن نقسم طب النفوس هذه القسمة بعينها :
فحفظها إذا كانت حاضرة ، وردها إذا كانت غائبة .

ما يجب لحفظ صحة النفس

إذا كانت النفس خيرة فاضلة : تحب نيل الفضائل ، وتحرص على
إصابتها ، وتشتاق إلى العلوم الحقيقية والمعارف الصحيحة - يجب على صاحبها
أن يراعى الأمور الآتية :

الأول

معاشرة الأخيار

فيجب عليه أن يعاشر من يجانسونه . ويطلب من يشاكلونه ، ولا يأنس
بغيرهم ، ولا يجالس سواهم . ويحذر كل الحذر من معاشرة أهل الشر
والمجون ، والمجاهرين بإصابة اللذات القبيحة ، وركوب الفواحش والمفتخرين
بها والمنهمكين ، ولا يصغى إلى أخبارهم مستطياً ، ولا يروى أشعارهم
مستحسناً ، ولا يحضر مجالسهم مبهجاً . وذلك أن حضور مجلس واحد من
مجالسهم ، وسماع خبر واحد من أخبارهم - يعلق من وضره ووسوسه
بالنفس مالا يغسل عنها إلا بالزمان الطويل والعلاج الصعب ، وربما كان
سبباً لفساد الفاضل المحنك ، وغواية العالم المستبصر . حتى يصير فتنة لهما ،
فضلاً عن الحدث الناشئ المسترشد :

أصبح الأخيار وارغب فيهمو رب من صاحبه مثل الجرب
والعلة في ذلك أن محبة اللذات البدنية والراحات الجسمية طبيعة للإنسان
للقائص التي فيه ، فنحن بالجبلة الأولى والفطرة السابقة نميل إليها ، ونحرص
عليها ، وإنما نزم أنفسنا عنها بزمام العقل والشرع ، حتى نقف عند ما يرسم
لنا ، ونقتصر على المقدار الضروري منها .

وكذلك : إن معاشرة الأصدقاء الذين سندكر أحوالهم فيما يأتي ، وسنحكم
بتهم السعادة معهم ولهم - لا تتم هذه المعاشرة إلا بالمؤانسة والمداخلة ، ولا
بد في ذلك من المزاح المستعذب ، والأحاديث المستطابة ، والفكاهة المحبوبة ،
وإصابة اللذة التي تطيقها الشريعة ويقدرها العقل ، حتى لا يتجاوزها إلى
الإسراف ، ولا يقصر عنها تهاونا بها . لأن الخروج إلى أحد الطرفين إن
كان إلى جانب الزيادة سمى مجونا وفسقا وخلاعة وما أشبهها من أسماء الذم ،
وإن كان إلى جانب النقص سمى فداة ، وعبوسا ، وشكاسة . وما أشبهها من

أسماء الذم أيضا . والمتوسط بينهما هو الظريف الذى يوصف بالهشاشة والطلاقة وحسن العشرة . ويعرض من الصعوبة فى وجود هذا الوسط ما يعرض فى سائر الفضائل الخلقية .

الثانى

الارتياض بالأمور الفكرية

ومما يؤخذ به من يحفظ صحة نفسه أن يلتزم وظيفة من الجزء النظرى والعملى لا يسوغ له الإخلال بها البتة : لتجرى للنفس مجرى الرياضة التى تلزم فى حفظ البدن . وأطباء النفوس أشد تعظيما لها فى حفظ صحة النفس : لأن النفس متى تعطلت من النظر ، وعمت الفكر والغوص على المعانى تبادت وتبلهت ، وانقطعت عنها مادة كل خير . وإذا ألقت الكسل ، وتبرمت بالروية واختارت العطلة - قرب هلاكها ؛ لأن فى عطلتها هذه انسلاخا من صورتها الخاصة بها ورجوعا منها إلى رتبة البهائم ، وهذا هو الاتتكاس فى الخلق نعوذ بالله منه . وإذا تعود الحدث الناشئ من مبدأ تكوينه الارتياض بالأمور الفكرية ، وأخذ نفسه بها - ألف الصدق ، واحتمل ثقل الروية والنظر ، وأنس بالحق ، ونبا طبعه عن الباطل ، وسمعه عن الكذب . فإذا بلغ أشده وانتقل إلى مطالعة الحكمة استمر طبعه ، وتشرب ما يستودع منها ، ولا يرد عليه أمر غريب ، ولا يحتاج إلى كثير تعب فى فهم غوامضها واستخراج دقائقها : فيصل سريعا إلى سعادتها التى سندكرها إن شاء الله تعالى .

وإن كان حافظ هذه الصحة قد توحّد فى العلم وبرع ، فلا يحملنه العجب بما عنده على ترك الزدياد ؛ فإن العلم لانهاية له ، وفوق كل ذى علم عليم . ولا يتكاسل عن معاودة ماعله ودرسه ؛ فإن النسيان آفة العلم . وليتذكر

قول الحسن البصري رحمه الله عليه : « اقدعوا هذه النفوس ؛ فإنها طلعة ، وحادثوها ؛ فإنها سريعة الدثور »

الثالث

عدم إثارة قوى الشهوة والغضب

وينبغي لحافظ الصحة على نفسه ألا يحرك قوته الشهوانية ، وقوته الغضبية بتذكر ما أصاب منهما ، بل يتركهما حتى يتحركا بأنفسهما : وذلك أن الإنسان ربما تذكر لذاته في إصابة الشهوات وطبيها ومراتب كرامته من السلطان وغيرها ، فاشتاق إليها ، وإذا اشتاق إليها تحرك نحوها ، وجعلها غرضاً له ، فيضطر إلى استعمال الروية واستخدام النفس الناطقة فيها ؛ لتدبره الوصول إليها . وهذه صورة من يثير بهائم عادية ، ويهيج سباعاً ضارية ، ثم يلتمس معالجتها والخلاص منها . وليس يختار العاقل لنفسه هذه الحال ، بل هي من أفعال المجانين الذين لا يميزون بين الخير والشر ولا بين الصواب والخطأ . ولذلك يجب ألا يتذكر أعمال هاتين القوتين ؛ لئلا يشتاق إليهما ، ويتحرك نحوهما ، بل يتركهما : فإنهما سيثوران لأنفسهما ، ويهيجان عند حاجتهما ، ويلتمسان ما يحتاج البدن إليه ، ويتخذان من باعث الطبيعة ما يعينك عن بعثهما بالفكر والروية والتمييز ؛ فيكون حينئذ فكرك وتميزك في إزاحة عليهما وتقدير ما تطلقه لهما في الأمر الضروري الواجب لأبداننا الحافظ لصحتها ، وهذا هو إمضاء أمر الله تعالى ، وسلوك سبيل حكمته ؛ لأنه تعالى إنما وهب لنا هاتين القوتين لنستخدمهما عند حاجتنا إليهما ، لا لنخدمهما وتعبد بهما . فكل من استعمل النفس الناطقة في حاجات خادمها فقد تجاوز أمر الله ؛ وتعدى حدوده ؛ وحاد عن سبيل حكمته ؛ لأن خالقنا عز وجل رتب لنا هذه القوى بتدبيره وتقديره ، ولا عدل أشرف وأفضل من ترتيبه وتقديره ، وكل من خالفه وعدل عنه فهو أعظم جائر على ذاته ، وأكبر ظالم لنفسه .

هذا . ولولا خوف الإطالة لفصلنا ما يحمد ويذم من هاتين القوتين .
وبالإجمال : ليحذر حافظ . صحة نفسه في جميع أوقاته ملابسة رذيلة ، أو مساعدة
رفيق عليها ، أو مخالفة صواب . ولا يستحقرن شيئاً مما يأتية من صغار السيئات ،
ولا يطلبن رخصة فيها ؛ فإن ذلك يدعو إلى أعظم منها . ومن تعود في أول
نشوئه وحدثان شبابه ضبط النفس عن شهواتها عند ثورة غضبه وحفظ
لسانه واحتمال أقرانه - خف عليه ما يثقل على غيره ممن لم يتأدب بتلك الآداب .
وبيان ذلك : أما نجد الخدم وأشباههم إذا بلوا بمخدومين ساءت أخلاقهم
يسفهن عليهم ويسبون أعراضهم - هاهنا عليهم الخطب فيما يسمعون منه ؛
حتى لا يؤثر فيهم ، وربما تضاحكوا عند سماع مكروه شديد ضحكا غير
متكلف ، ويعملون عند ذلك أعمالهم ودعين طالقين غير قلقين ، وقد كانوا
قبل ذلك شرسين غضوبين غير محتملين ولا ممسكين عن الأجوبة والانتقام
بالكلام وطلب التشفى بالخصام ؛ ويكثر ذلك منهم إذا حسنت أخلاق
مخدوميهم : قيل لحكيم : لا تصفح عن عبدك ، وهو يقصر في خدمتك ،
فيفسد باحتمالك ؛ قال : « لأن يفسد عبدى في صلاح نفسى خير من أن
تفسد نفسى في صلاح عبدى » فإن احتمال ذلك إصلاح للنفس ؛ والانتقام
إصلاح للعبد .

وهذه سبلنا إذا ألفنا الفضائل . وتجنبنا الرذائل ، وأمسكنا عن مقابلة
السفهاء ومجاراتهم والانتقام منهم

ويجب على حافظ الصحة على نفسه أن يتشبه بالملوك الموصوفين بالحزم ؛
فإنهم يستعدون للأعداء بالعدة والعتاد والتحصن قبل هجوم العدو ؛ وهم
في مهلة من زمانهم ، وفي اتساع من نظرهم . ولو أغفلوا ذلك إلى أن تحل بهم
المكاره وتطرقهم الشدائد لأذهلهم الأمر عن الحيلة والرأى السديد . فعلى
هذا الأصل يجب أن نبني أمورنا في الاستعداد لأعدائنا من الشر والغضب ،
وسائر ما يزيلنا عن أغراضنا من الفضائل : بأن نتعود الصبر على ما يجب الصبر

عليه والحلم عن ينبغى أن نحلم عنه ؛ ونضبط النفس عن الشهوات الرديئة . ولا تنتظر دفع هذه الرذائل وقت هيجانها ؛ فإن الأمر عند ذلك صعب جدا ، ولعله غير ممكن البتة . ومثال رد الشهوة في أول انبعاثها صرف عنان الدابة عن توجهها إلى باب دار تدخله : فما أهون منعها وصرف عنانها . ومثال علاجها بعد استحكامها أن تترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب ، ثم تأخذ بذنبها جارا لها إلى الورا . وما أعظم التفاوت بين الأمرين . فليكن الاحتياط في بدايات الأمور ، فأما أواخرها فلا تقبل الإصلاح في إلاكثر إلا بجهد شديد يوازي نزع الروح .

الرابع

التدبر في كل الأمور ومعاينة النفس عند فعل المحظور

ينبغي لحافظ الصحة على نفسه أن يلفظ نظره في كل ما يعمل ويدبر ، ويستعمل فيه آلات بدنه ونفسه ؛ لئلا يجرى فيه على عادة تقدمت له مخالفة لما يوجب تمييزه ورويته ؛ فما أكثر ما يعرض للإنسان من بدو أفعال تخالف ما قدم فيه عزيمته ؛ وعقد عليه رأيه .

فمن عرض له مثل هذا وجب عليه أن يفرض لنفسه عقوبات يقابل بها أمثال هذه الذنوب : فإذا أنكر من نفسه مبادرة إلى طعام ضار وترك حمية قد كان استشعرها . أو تناول فاكهة غير موافقة أو حلواء كذلك عاقب نفسه بصوم لا يفطر فيه إلا على ألطف ما يقدر عليه وأقله ، وإن أنكر من نفسه مبادرة إلى غضب في غير موضعه ، أو على من لا يستحقه ، أو زيادة على ما يجب منه - فليقابل ذلك بلوم نفسه وتعنيفها وإرضاء من غضب عليه ؛ وليفرض على نفسه مالا يخرج صدقة . وإن أنكر من نفسه كسلا وتوانيا في مصلحة له فليعاقبها بسعى فيه مشقة ، أو بصلاة فيها طول ، أو ببعض الأعمال الصالحة التي فيها كد وتعب . وبالإجمال : ليرسم على نفسه رسوماً تصير عليها فرائض

ونحدودا ، لا يخل بها ولا يترخص فيها إذا أنكر من نفسه مخالفة لعقله ،
وتجاوزا لرسومه .

الخامس

استقصاء عيوب النفس

ويجب على حافظ الصحة على نفسه أن يطلب عيوبها باستقصاء شديد ،
ولا يعمل بما قاله جالينوس في ذلك : فإنه ذكر في كتابه المعروف
بتعرف المرء عيوب نفسه : « لما كان كل إنسان يحب نفسه خفيت عليه
معايبه ، ولم يرها وإن كانت ظاهرة » وأشار في كتابه هذا بأن يختار من
يحب أن يبرأ من العيوب صديقا كاملا فاضلا ، فيخبره بعد طول المؤانسة
أنه إنما يعرف صدق مودته ، إذا أصدقه عن عيوبه حتى يتجنبها ، ويأخذ
عهده على ذلك ، ولا يرضى منه إذا قال له : لا أعرف لك عيبا ، بل ينكر
عليه ، ويعلمه أنه قد اتهمه بالخيانة . ويعاود مسأله والإلحاح عليه . فإذا لم
يخبره بشيء من عيوبه زاد في العتب الصريح والإلحاح قليلا ، فإذا أخبره
ببعض ما يعثر عليه منه فلا يظهر له في وجهه استنكارا ولا انقباضا ، بل
يبسط له وجهه ، ويظهر السرور بما أخرج به إليه ، ونبهه عليه ، ويشكره
على الأيام وفي أوقات المؤانسة : ليسهل عليه إهداء مثله إليه ، ثم يعالج ذلك
العيب بما يزيل أثره ويمحو ظله ، ليعلم ذلك المهدي إليك عيبك أنك من
وراء نفسك وفي طريق علاج مرضك ، فلا ينقطع عن معاودتك ونصيحتك .
وهذا الذي أشار به جالينوس معوز غير موجود ولا مطموع فيه ، ولعل
العدو في هذا الموضع أنفع من الصديق ؛ فإن العدو لا يحتشمنا في إظهار
عيوبنا ، بل يتجاوز ما يعرف منا إلى التخرص والكذب فيها ، فلنتنبه إلى
كثير من عيوبنا من جهتهم ، بل تتجاوز ذلك إلى أن تهتم نفوسنا بما ليس
فيها . ولجالينوس أيضا : (إن خيار الناس ينتفعون بأعدائهم .) قال الشاعر :

عداى لهم فضل على ومنه فلا أبعد الرحمن عنى الأعاديا

همو بحشوا عن زلتى فاجتنبتها وهم نافسونى فاكتسبت المعاليا
قال أبو يوسف بن اسحق الكندى : « ينبغي لطالب الفضيلة لنفسه أن يتخذ
جميع معارفه من الناس مرآة له تراه صور كل واحد منهم عند ما تعرض له
آلام الشهوات التى تنمر السيئات حتى لا يغيب عنه شيء من سيئاته . وبذلك
يكون متفقدا سيئاتهم ، فمتى رأى سيئة بدية من أحدهم ذم نفسه عليها كأنه
فعلها وأكثر عتبه على نفسه من أجلها ، ويعرض عليها كل يوم وليلة جميع
أفعاله ، حتى لا يشذ عنه شيء منها .

فاذا وقفنا على سيئة من أفعالنا اشتد عدلنا لأنفسنا عليها ، ثم لنقم عليها
حدا نفرضه ولا نضيعه . وإذا تصفحنا أفعال غيرنا ووجدنا فيها سيئة عاتبنا
أيضا نفوسنا عليها : فإن نفوسنا تردع حينئذ عن المساوى وتألف الحسنات ،
وتكون المساوى أيضا يبالنا لا ننساها ولا يأتى عليها زمن طويل ، فيعفو
ذكرها ، ولذلك ينبغي أن نعمل فى الحسنات لنفرغ لها ، ولا يفوتنا منها
شيء . قال وينبغي ألا تنقطع بأن نصير أشباه الدفاتر والكتب التى تفيد
غيرها معانى الحكمة ولا تتصف بها : أو كالمن يشهد ولا يقطع ، بل نكون
كالشمس التى تفيد القمر كلما أشرقت عليه إنارة من ذاتها فتكسبه تمامها ،
حتى يكون له شبهها . وإن قصر عن نورها . فهكذا ينبغي أن يكون حالنا إذا
أفدنا غيرنا الفضائل .

قيمة حفظ الصحة النفسية

حافظ صحة نفسه إنما يحفظ عليها نعماء شريفة جليلة موهوبة لها وكنوزا ،
عظيمة مدخرة فيها ، وحللا فاخرة مفرغة عليها . ومن كانت هذه المواهب
الجليلة موجودة له فى ذاته لا يحتاج إلى تطلبها من خارجها ولا إلى بذل الأموال
فيها لغيره ، ولا يكلف العناء والمؤن الثقال لتحصيلها ، ثم مع ذلك أعرض
عنها ، وأهمل أمرها ، حتى انسلخ عنها وعرى منها - من كان كذلك فهو ملوم فى
فعله ، مغبون فى رأيه ، غير رشيد ولا موفق ؛ إذ هو يرى طالبى النعم

الخارجة يتجشمون الأسفار البعيدة الخطرة، ويقطعون السبل المخوفة الوعرة، ويتعرضون لضروب المكاره وأنواع التلف من السباع العادية، وطبقات الأشرار الباغية، وهم يخبون في أكثر الأحوال مع مقاساة هذه الأهوال، وربما عرضت لهم الندامة المفرطة، والحسرة المعطبة التي تقطع أنفاسهم، وتفصل أعضائهم. فإن ظفروا بشيء من مطالبهم كان لا محالة زائلا عن قرب، أو معرضا للزوال، وغير مطموع في نجوائه؛ لأنه من خارج النفس، وما كان خارجا عنها فهو غير ممتنع عما يطرقه من الحوادث التي لا تحصى كثرة، وصاحبه مع هذه الحال شديد الوجل، دائم الإشفاق، متعب الجسم والنفس بحفظ مالا يجد إلى حفظه سبيلا. والحذر على مالا يغني فيه الحذر قليلا. وإن كان طالب هذه الأشياء الخارجة عن النفس سلطانا أو صاحب سلطان - تضاعفت عليه المكاره أضعافا كثيرة بقدر ما يلابسه وبحسب ما يقاسيه من الأضداد والحساد على البعد ومن القرب، وبكثرة ما يحتاج إليه من المؤن في استصلاح من يليه ويلي من يليه، وفي مداراة من يواليه ويعاديه. وهو في كل ذلك ملوم مستبظا، ومعتب مستقصر. ويستزيده جميع أهله والمتصلين به، ولا سبيل له إلى إرضاء واحد منهم بله جميعهم، ولا يزال يبلغه عن أخص الناس به من أولاده وحرمة ومن يجري مجراهم: من حاشيته وخوله - ما يملؤه غيظا وحنقا. وهو غير آمن على نفسه من جهتهم مع التحاسد الذي بينهم من مكاتبة الأعداء إياهم ومواطأة الحساد لهم. وكلما ازداد من الأعوان والأعضاء والأنصار زادوه في شغل القلب، وجلبوا إليه من المكاره ما لم يكن عنده فهو غنى عن الناس. وهو أشدهم فقرا، ومحسود وهو أكثرهم حسدا. وكيف لا يكون فقيرا وحاد الفقر: هو كثرة الحاجة. فأكثر الناس حاجة أشدهم فقرا، كما أن أغنى الناس أقلهم حاجة:

فإنه تعالى أغنى الأغنياء؛ لأنه لا حاجة له إلى شيء من الأشياء، والملوك منا أشد الناس فقرا لكثرة حاجتهم إلى الأشياء. ولقد صدق أبو بكر الصديق

في خطبته حيث قال : « أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك » ثم وصفهم فقال : « إن الملك إذا ملك زهد الله فيما في يده ، ورغبه فيما في يد غيره ، وانتقصه شطر أجله ، وأشرب قلبه الإشفاق ، فهو يحسد على القليل ، ويتسخط بالكثير ، ويسأم الرخاء ، ولا يسكن إلى الثقة ، فهو كالدرهم الغش والدراب الخادع ، جلد الظاهر ، حزين الباطن . فإذا وجبت نفسه . ونضب عمره ، ومحي ظله - حاسبه الله فأشد حسابه ، وأقل عفوه . ألا إن الملوك هم المرحومون »

ولعل من يرى ظاهر الملوك من الأسرة والفرش والزينة والأثاث ، ويشاهدهم في مواكبهم محفوفين محشودين ، بين أيديهم الجنائب والمراكب والعبيد والخدم ، والحجاب والحشم - يروعه ذلك ، فيظن أنهم مسرورون بما يراه لهم . لا ، والذي خلقهم وكفانا شغلهم ، إنهم لفي هذه الأحوال ذاهلون عما يراه البعيد لهم ، مشغولون بالأفكار التي تعتورهم فيما قلناه من ضروراتهم . ولعل بعض من يصل إلى الملك أو السلطان يلتذ في المبدأ مدة يسيرة جدا بمقدار ما يتمكن منه وتفتح عينه فيه ، وبعد ذلك يصير جميع مملكته كالشيء الطبعي له ، لا يلتذ به ، ولا يفكر فيه ، ويمد عينه إلى مالا يملكه . فلو ملك الدنيا بخذافيرها لمتى دنيا أخرى ، أو نزلت همته إلى البقاء الأبدى . والملك الحقيقي : ذلك أن حفظ الدنيا صعب جدا لما في طبيعتها من الإخلال والتلاشي . ولما يضطر الملك إليه من الأمور التي وصفناها ، والأموال الجمة المصروفة إلى الجند المرتبطين ، والخدم المسوَّمين ، والذخائر والكنوز المعدة للآفات ، والحوادث التي لا يؤمن طرقها .

فهذه حال طلاب النعم الخارجة عنا ، وأما تلك النعم التي هي في ذواتنا فإنها موجودة عندنا وفينا وهي غير مفارقة لنا ؛ لأنها موهبة الخالق - جل وعلا - وقد أمرنا باستثمارها والترقي فيها . فإذا قبلنا أمره أثمرت لنا نعمة بعد نعم ودرجة بعد درجة ، حتى تؤدينا إلى النعم الأبدية التي هي الملك

الحقيقى الذى لا يزول ، والغبطة الدائمة الصافية التى لا تحول . فمن أخسر صفقة وأظهر سقطة من أضع جواهر نفيسة باقية عنده موجودة له . وطلب أعراضاً خسيصة فانية ليست عنده . ولا موجودة له : فإن اتفق أن يجدها لا تبقى له . ولا تترك عليه : وذلك أنها تُثقل عنه ، أو يُنقل عنها لا محالة .

لذلك يطلب من رزق الكفاية . ووجد القصد من السعادة الخارجة . ألا يشتغل بفضول العيش : فإنها بلا نهاية . ومن طلبها أوقعته فى مهالك لانهاية لها .

علاج النفس

علاج النفس رد الصحة إليها إذا لم تكن حاضرة : وذلك بمداواة أمراضها الغالبة ، وهى مقابلات الفضائل الأربع : الشجاعة . والعفة . والحكمة . والعدالة .

ولما كانت الفضائل أوساطاً محدودة . وأعياناً موجودة أمكن أن تطلب وتقصد وتنتهى إليها الحركة والسعى والاجتهاد . وأما سائر النقط التى ليست بأوساط فإنها غير محدودة . ولا أعياناً موجودة . ووجودها بالعرض لا بالذات . فلكل فضيلة طرفان محدودان يمكن الإشارة إليهما . وأوساط بينهما كثيرة لانهاية لها . ولا يمكن الإشارة إليها : إلا أن الوسط الحقيقى واحد ، وهو الذى سميناه فضيلة . وبحسب هذا البيان تكون أجناس الشرور والرذائل ثمانية : لائنها ضعف الفضائل الأربع . وهى هذه :

التهور والجبن طرفان للوسط الذى هو الشجاعة ، والشره والخمود طرفان للوسط الذى هو العفة ، والسفه والبله طرفان للوسط الذى هو الحكمة ، والجور والمهابة طرفان للوسط الذى هو العدالة . فهذه أجناس الأمراض المقابلة للفضائل التى هى صحة ، وتحت هذه الأجناس أنواع لانهاية لها . ونذكر بعون الله تعالى هذه الأجناس مع بيان أسبابها ووسائل علاجها

مبتدئين بذكر التهور والجن اللذين هما طرفا الشجاعة :

التهور والجن

الشجاعة فضيلة للقوة الغضبية لكونها قوية . وهى مع قوة الحمية منقادة
للعقل المتأدب بالشرع فى إقدامها وإحجامها ، فهى وسط بين رذيلتيها المطيفتين
بها : وهما التهور والجن :

فالتهور لطرف الزيادة عن الاعتدال ، وهى الحالة التى بها يقدم الإنسان
على الأمور المحظورة التى يجب فى العقل الإحجام عنها .

سبب التهور : وسبب التهور الغضب : وهو حركة للنفس يحدث بها
غليان دم القلب شهوةً للانتقام . وسيأتى إن شاء الله إسهاب القول فى
الغضب وأسبابه وعلاجه

علاج التهور :

علاجه أن يشعر المرء نفسه بعواقب الأمور ، ويعظم أخطارها . ويتكلف
الإحجام إلى الاعتدال ، أو ما يقرب منه : فإن التزام حد الاعتدال شديد ،
ولو تم ذلك لتخلصت النفس من شوائب البدن وأكداره فلا تتعذب أصلاً
بالتأسف على ما يفوتها منه ، ولا يتكدر عليها ابتهاجها بما يتجلى لها من جمال
الحق وجلاله ، ومن استقام على الصراط فى الدنيا استقام على الصراط فى
الآخرة : إذ يموت المرء على ما عاش عليه ، ويحشر على مامات عليه . ولذلك
وجب فى كل ركعة من الصلاة قراءة الفاتحة المشتملة على قوله : « اهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ »

والجن لطرف النقصان عن الاعتدال ، وهى حالة بها تنقص حركة
الغضبية عن القدر الواجب ، فتصرف عن الإقدام حيث يجب الإقدام .
سبب الجن : لما كانت الأضداد يعرف بعضها ببعض ، وقد عرفنا الطرف
الذى حددناه بحركة للنفس عنيفة يحدث منها غليان دم القلب شهوةً

للاتتقام - فقد عرفنا إذن مقابله : أعنى الطرف الآخر الذى هو سكون للنفس عند ما يجب أن تتحرك فيه ، وطلان شهوة الانتقام : فإذا كان الغضب هو مبعث التهور فالطرف المقابل له سبب الجبن والخور .

ويتبعهما إهانة النفس وسوء العيش ، وطمع طبقات الأندال وغيرهم من الأهل والأولاد والمعاملين وقلة الثبات والصبر فى المواطن التى يجب فيها ذلك وهما أيضا سبب الكسل ومحبة الراحة اللذين هما سبب كل رذيلة . ومن لواحق هذه الخلة الاستخذاء لكل أحد والرضا بكل رذيلة وضميم . والدخول تحت كل فضيحة فى الأهل والنفس والمال . وسماع كل قبيحة فاحشة من الشتم والقذف ، واحتمال كل ظلم من كل معامل ، وقلة الأنفة بما يأنف منه الناس .

علاج الجبن :

تعالج الأسباب السابقة ولو احقها بأضدادها : وذلك بأن توقظ النفس التى تمرض هذا المرض بالحريك ؛ فإن الإنسان لا يخلو من القوة الغضبية رأساً حتى تجلب إليه من مكان آخر ؛ ولكنها تكون ناقصة عن الواجب ، فهى بمنزلة النار الخامدة التى فيها بقية لقبول الترويح والنفخ ، فهى تتحرك لا محالة إذا حركت بما يلائمها ، وتبعث ما فى طبيعتها من التوقد والتلهب : فمن كان فى طبعه ميل إلى النقصان الذى هو الجبن فليتعاط أفعال الشجعان متكلفا مواظبا عليها ، حتى يصير له الاعتياد طبعاً .

وقد حكى عن بعض المتفلسفين أنه كان يعتمد مواطن الخوف ؛ فيقف فيها ، ويحمل نفسه على المخاطر العظيمة بالتعرض لها ، ويركب البحر عند اضطرابه وهيجانه ؛ ليعود نفسه الثبات فى المخاوف ، ويحرك منها القوة التى تسكن عند الحاجة إلى حركتها ، ويخرجها عن رذيلة الكسل ولواحقه . ولا يكره لصاحب هذا المرض بعض المراء ، والتعرض للملاحة ، وخصومة من يأمن غائلته حتى يقرب من الفضيلة التى هى وسط بين الرذيلتين : أعنى

الشجاعة التي هي صحة النفس المطلوبة . فإذا وجدها وأحس بها من نفسه كف ووقف ؛ ولم يتجاوزها حذراً من الوقوع في التهور الذي تقدم سببه وعلاجه .

ما يندرج تحت التهور والجبن

يندرج تحتها البذخ والبذالة والجسارة والنعول والتبجح وصغر النفس والهلع والاستشاطاة والانفراك والتكبر والتخاس ، والعجب والمهانة . فما يميل منها إلى جانب الزيادة فهو تحت التهور ، وسببه سبب التهور ، وعلاجه علاجه . وما يميل إلى جانب النقصان فهو تحت الجبن ، وسببه سبب الجبن . وعلاج الجبن علاج له :

فأما البذخ فهو الإِنفاق فيما لا يجب من الزينة وغيرها طلباً للصلف . وأما البذالة فهي الدناءة وترك الإِنفاق فيما يجب والافتخار بالأشياء الصغار . وأما الجسارة فالاستهانة بالموت حيث لا تجب الاستهانة ؛ أو هي قلة التأثير بأسباب الهلاك من غير أثر جميل تقتضيه . وأما النعول فهو الانقباض فيما لا يجب عنه الانقباض خوفاً من الهلاك . وأما الهلع فهو سوء احتمال الآلام والمؤذيات .

وأما التبجح فهو تأهيل النفس للأمر الكبار من غير استحقاق . وأما صغر النفس فهو تأهيل النفس لما دون الاستحقاق . وأما الاستشاطاة فسرعة الغضب وحده . وأما الانفراك فبطء الغضب وبلادته

وأما التكبر فهو رفع النفس فوق قدرها . وأما التخاس فخط النفس في الكرامة والتوقير دون قدرها . فإن كان على الوجه الواجب سمى تواضعاً محموداً . وذم الناس للتكبر والنخل أشد من ذمهم للتخاس والتبذير ؛ فإن الأولين في غاية القبح . والآخرين وإن كانا مذمومين - شديهان بالسوء والتواضع ، وربما يدق الفرق بينهما ؛ فيظن أنهما محمودان ، وهما رذيلتان

بالحقيقة مائلتان عن الوسط ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « طوبى لمن تواضع من غير منقصة ، وذلل في نفسه من غير مسكنة »

الغضب

إن القوة الغضبية هي مبعث التهور والجبن ومبدؤهما ، فالثلاثة بأسرها من علائق الغضب . والغضب في الحقيقة هو - كما تقدم - حركة للنفس يحدث بها غليان دم القلب شهوة للانتقام . فإذا كانت هذه الحركة عنيفة أجتجت نار الغضب وضرمتها ، فاحتد غليان دم القلب ، وامتلات الشرايين والدماغ دخانا مظلما مضطربا يسوء منه حال العقل ويضعف فعله ، ويصير مثل الإنسان عند ذلك على ماحكته الحكماء مثل كهف نلى حريقا وأضرمت نارا ، فتجمّع فيه اللهب والدخان ، وعلا التأجج فصعب علاجه ، وتعذر إطفأؤه ، وصار كل مايدنى منه للإطفاء سببا لزيادته ومادة لقوته . كذلك يعمى الإنسان عن الرشده ، ويصم عن الموعظة ، بل تصير المواقف في تلك الحال سببا للزيادة في الغضب ، ومادة للهب والتأجج ، وليس له في تلك الحال حيلة . وقال بعض الحكماء : إني للسفينة إذا عصفت الرياح ، وقذفت بها إلى موج كالجبال - أرجى مني للغضبان الملهب : ذلك بأن السفينة في تلك الحال يلفظ لها الملاحون ، ويخلصونها بضروب الحيل . وأما النفس إذا استشاطت غضبا فليس يرجى لها حيلة البتة : وذلك أن كل ما رجى به الغضب من التضرع والمواعظ والخضوع يصير له بمنزلة الجزل من الخطب : يوهجه ويزيده اشتعالا .

اختلاف الناس في الغضب :

يتفاوت الناس في ذلك بحسب المزاج : فإن كان المزاج حديدا كان قريب الحال من حال الكبريت الذي إذا أدنيت منه الشرارة الضعيفة التهب ، وإن كان المزاج بالضد فحاله كذلك بالضد . وهذا في مبدأ أمره . فأما إذا احتدم فيكاد حال الناس يتقارب فيه .

وتصور ذلك من الحطب اليابس والرطب ، ومبدأ اشتعال النار بسرعة وشدة من الكبريت والنفط ، ثم انحدر منهما إلى الأدهان المتوسطة ، إلى أن تنتهي إلى الاحتكاك : فإن الاحتكاك وإن كان ضعيفا في توليد النار ربما قوى حتى تلهب منه الأجمة العظيمة . وكفاك مثل السحاب الذي هو من البخار : كيف تحتك السحابتان حتى تنقذ بينهما النيران ، وتنزل منهما الصواعق التي لا يثبت إثرها شيء من المواد ، ولا تفارق ما تمر به حتى يصير رميما ، وإن كان جبلا أطلس ، أو حجرا أصم أملس .

قال الغزالي : « والناس في الغضب يختلفون : فبعضهم سريع التوقد سريع الخمود ، وبعضهم بطيء التوقد بطيء الخمود ، وبعضهم بطيء التوقد سريع الخمود ، وهو الأحمد مالم ينته إلى فتور الحمية والغيرة » ومقتضى القسمة العقلية أن يكون هناك قسم رابع : سريع التوقد بطيء الخمود . ولو وجد لكان الأكثر ذمما ، والأوخم عاقبة .

مراتب أفعال الغضب :

تنقسم أفعال الغضب إلى محمود ، ومكروه ، ومحذور :

أما المحمود ففي موضعين : أحدهما : المسمى غيرة : وهو أن يقصد حریم الرجل ، ويتعرض لمحارمه . فالغضب له ، لدفعه محمود ، وقلة التأثير به مذمة ومعة . ولذلك قال عليه السلام : (إِنَّ سَعْدًا لَغَيُورٌ وَإِنَّ اللَّهَ أَغْيَرُ مِنْهُ) وقد وضع الله الغيرة في الرجال لحفظ الأنساب ؛ فإن النفوس لو فقدتها لاختلطت الأنساب . ولذلك قيل : كل أمة وضعت الغيرة في رجالها وضعت الصيانة في نساءها .

والثاني : الغضب عند مشاهدة المنكرات والفواحش ؛ غيرة على الدين وطلبا للانتقام . ولذلك مدح النبي عليه السلام والذين معه بكونهم أشداء على الكفار ، رحماء بينهم . وقال عليه الصلاة والسلام : « خَيْرُ أُمَّتِي أَحَدًاؤُهَا »

فالمراد به الحدة للدين ، ولذلك قال تعالى : (وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)

ومع هذا ، فالسلطان إذا غضب عند جناية جان ، ينبغي أن يحبس ، ولا يبادر إلى عقوبته ، حتى يحدد النظر فيه ؛ فإن الغضب غول العقل ، وربما يحمله على مجاوزة حد الواجب في الانتقام .

وأما المكروه : فغضبه عند فوات حظوظه المباح نيلها : كغضبه على خادمه ، وعبده عند كسر آنيته ، أو توانيه في خدمته بحكم تغافل يمكن الاحتراز عنه . فهذا لا ينتهي إلى حد المحذور ، ولكن العفو والتجاوز أولى وأحب . قيل للحكيم : لا تصفح عن عبدك ، وهو يقصر في خدمتك ، فيفسد باحتمالك ، فقال : « لأن يفسد عبيدي في صلاح نفسي خير من أن تفسد نفسي في صلاح عبيدي »

وأما المحذور : فهو الاستشاعة الصادرة عن الفخر والتكبر والمباهاة والمنافسة والحقد والحسد ، وعن أمور واهية تتعلق بالحظوظ البدنية من غير أن يكون في الانتقام مصلحة في المستقبل دينا ودنيا . وهو الغالب على أكثر الخلق ، وهو انقياد للخلق الذي يضاد الحلم والتعلم ؛ فإن الحلم عبارة عن إمساك النفس عن هيجان الغضب ، والتعلم عبارة عن إمساكها عن قضاء الوطر منه إذا هاج . والكمال في الحلم ، ولكن التعلم صبر على المكروه ، وفيه أيضاً خير كثير .

أسباب المصّب صنفان : صنف تطبع النفس به ، وآخر يبعثه منها

والأول مرده أمران : المزاج والاعتیاد .

أما المزاج : فإن الغضب - كما تقدم - غليان دم القلب : فإن كان على من فوقك في القدرة على الانتقام تولد منه انقباض من ظاهر الجلد إلى القلب ، وكان حزنا ، ولأجله يصفر الوجه . وإن كان على من دونك تولد منه ثوران دم

القلب لا انقباضه ، فيكون منه الغضب الحقيقي وطلب الانتقام . وإن كان على نظيرك في القدرة على الانتقام تولد منه تردد الدم بين انقباض وانبساط ، ويختلف به لون الوجه ، فيحمر ويصفر ويضطرب .

وأما الاعتياد : فإن من يعاشر جماعة يباهون بالغضب والطباع السبعية انطبع ذلك فيه . وإن من خالط أهل الهدوء والوقار أثرت العادة أيضا فيه . وأما الصنف الثاني فيرجع إلى العجب والافتخار والمراء واللجاج والمزاح والتهيه والاستهزاء والغدر والضيم وطلب الأمور التي فيها لذة ، ويتنافس فيها الناس ويتحاسدون عليها . وشهوة الانتقام غاية لجميعها ، ونهاية لها .

لواحق الغضب :

ومن لواحق الغضب : الندامة وتوقع المجازاة بالعقاب عاجلا أو آجلا وتغير المزاج وتعجل الألم : ذلك بأن الغضب جنون ساعة ، وربما أدى إلى التلف باختناق حرارة القلب فيه ، وربما كان سببا لأمراض صعبة مؤدية إلى التلف ، ثم من لواحقه : مقت الأصدقاء ، وشهادة الأعداء ، واستهزاء الحساد والأراذل من الناس

حسم أسباب الغضب :

ولكل واحد من أسباب الغضب علاج يبدأ به ، حتى يقلع من أصله ، وإذا ما تقدمنا لحسم هذه الأسباب فقد أوهنا قوة الغضب ، وقطعنا مادتها وأمننا غائلتها . فإن عرض لنا عارض - لا يمنعنا أن نطيع العقل ونلتزم شرائطه ، وتحلى بفضيلته : وهي الشجاعة - يكن إقدامنا على ما تقدم عليه كما يجب ، وبحيث يجب ، وبالمقدار الذي يجب ، وعلى من يجب .

وإليك القول مفصلا في حسم الأسباب المفضية إليه واحداً بعد الآخر :

العجب والافتخار

« ا » فالعجب : ظن كاذب بالنفس باستحقاق مرتبة هي غير مستحقة لها . وحقيق على من عرف نفسه أن يعرف كثرة العيوب والنقائص التي تعتورها ؛

فإن الفضل مقسوم بين البشر ، وليس يكمل الواحد منهم إلا بفضائل غيره ، وكل من كانت فضيلته عند غيره فواجب عليه أن لا يعجب بنفسه .

« ب » والافتخار : هو المباهاة بالأشياء الخارجة عنا . ومن باهى بما هو خارج عنه فقد باهى بما لا يملكه ، وكيف يملك ما هو معرض للآفات والزوال في كل ساعة وفي كل لحظة ، ولسنا على ثقة منه في وقت من الأوقات ؟ وأصح الأمثال وأصدقها فيه ما قاله الله عز وجل : (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رُّجَايُنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ) إلى قوله : (فَأَصْبَحَ يُغْلِبُ كَفْيُهُ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) وقال تعالى : (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا) وفي القرآن من هذه الأمثال شيء كثير ، وكذلك في الأخبار المروية عن النبي عليه الصلاة والسلام

وأما المفتخر بنسبه : فأكثر ما يدعيه - إذا كان صادقاً - أن أباه كان فاضلاً ، فلو حضر ذلك الفاضل ، وقال : إن الفضل الذي تدعيه لي أنا مستبد به دونك فما الذي عندك منه مما ليس عند غيرك ؟ - لو حضر وقال له ذلك لأفحمه وأسكته . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى أخبار كثيرة صحيحة منها أنه قال : « لَا تَأْتُونِي بِأَنْسَابِكُمْ وَائْتُونِي بِأَعْمَالِكُمْ » أو ما هذا معناه . ويحكى عن ملوك كان لبعض الفلاسفة أنه افتخر عليه بعض رؤساء زمانه ، فقال له : « إن افتخرت على بفرسك ، فالحسن والفراهة للفرس لالك ، وإن افتخرت بثيابك وآلاتك فالحسن لها دونك ، وإن افتخرت بآبائك فالفضل كان فيهم لافيك ، فإذا كانت الفضائل والمحاسن خارجة عنك ، وأنت منسلخ عنها ، وقد رددناها على أصحابها ، بل لم تخرج عنهم ، فترد عليهم - فكيف تسنى لك أن تفتخر بها ؟ ..

المراء واللجاج

المراء : الطعن في القول تزييفا له وتصغيراً لقائله ، واللجاج : تماحك الخصمين وتماديهما .

ومن هذا كان واجبا أن نحذرها مع كل أحد وبخاصة الصديق ؛ فإن مماراته تقتلع المودة من أصلها ؛ لأنها سبب الاختلاف ، والاختلاف سبب التباين وقطع الألفة التي دعت إليها الشريعة القويمة . ومن الناس من يؤثر المراء ، ويزعم أنه يقدح خاطره ، ويشحد ذهنه ، ويزيل شكوكه ، فهو يعتمد في المحافل التي تجمع رؤساء أهل النظر ومتعاطي العلوم بممارسة صديقه ، ويخرج في كلامه معه إلى ألفاظ الجهال من العامة وسقاطهم ؛ ليزيد في خجل صديقه ، وليظهر انقطاع حجته . وليس يفعل ذلك عند خلوته به ومذاكرته له ، وإنما يفعله حين يُظنُّ به أنه أدق نظرا ، وأحضر حجة ، وأغزر علما وأحد قريحة .

فما أشبه هذا بأهل البغي ، وجبارة أصحاب الأموال ، والمشبهين بهم من أهل الدع ؛ فإن هؤلاء يحتقر بعضهم بعضا ؛ ولا يزال يغض من صاحبه ويزدرى مروءته ، ويتطلب عيوبه ، ويتبع عثراته ، ويبالغ في إساءته ، حتى يؤدي بهم الحال إلى العداوة التامة التي تصحبها السعاية وإزالة النعم ؛ وقد تجاوز ذلك إلى سفك الدم وأنواع الشرور . فالمرء واللجاج لا تثبت معهما محبة ، ولا ترجى بهما ألفة ، ولا يولدان إلا الشتات والفرقة والتباغض بين الإخوان .

المزاح والتهيه والاستهزاء

المزاح : هو الدعابة وما يستملح من الكلام . والمعتدل منه محمود ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقا . والوقوف على المقدار المعتدل منه صعب ، وأكثر الناس يبتدىء ولا يدري أين يقف

منه ؟ فيخرج عن حده ، ويروم الزيادة فيه على صاحبه ، حتى يصير سببا للوحشة ، فيثير غضبا كامنا ، ويزرع حقدا باقيا . فلذلك عددناه في الأسباب ، فينبغي أن يحذره من لا يعرف حده ، ويذكر قول القائل : « وبعض الحرب أوله مزاح » فقد يهيج فتنة لا يهتدى لعلاجها ، ويشعر نارا يصلها الأبرياء ، ولا تطفأ إلا بآراقه الدماء .

التيه : هو قريب من العجب ، والفرق بينهما : أن المعجب يكذب نفسه فيما يظن لها ، والتيه يتيه على غيره ولا يكذب نفسه ، إلا أن علاجه علاج المعجب بنفسه : وذلك بأن يعرف أن ما يتيه به لا مقدار له عند العقلاء ، وأنهم لا يعتدون به لحساسة قدره ونزارة حظه من السعادة ، ولأنه متغير زائل غير موثوق ببقائه ، ولأن المال والأثاث وسائر الأعراض - قد توجد عند كل صنف من الناس الأراذل والأشراف والعلماء والجهال . وأما الحكمة فلا توجد إلا عند الحكماء خاصة .

الاستهزاء : هو السخرية من الناس . ويستعمله المجان ، ومن لا يبالى بما يقابل به ، لأنه قد وضع في نفسه احتمال مثل ذلك وأضعافه ، فهو ضاحك قرير العين بضروب الاستخفاف التي تلحقه ، وإنما يتعيش بالدخول تحت المذلة والصغار ، بل إنما يتعرض بقليل ما يتبدى به لكثير ما يعامل به - ليضحك غيره ، وينال اليسير من بره .

والحر الفاضل بعيد من هذا المقام جدا ، لأنه يكرم نفسه وعرضه ، ويصونهما عن تعريضهما للسفهاء ، ويعيها بجميع خزائن الملوك ، فضلا عن الحقير التافه .

الغدر والضيم

الغدر : هو نقض العهد ، وترك الوفاء بالوعد . ووجوه كثيرة : فقد يستعمل في المال ، وفي الجاه ، وفي الحرم ، وفي المودة . وهو على كثرة وجوهه

مذموم بكل لسان ، ومعيب عند كل أحد ، ينفر السماع من ذكره ، ولا يعترف به إنسان ، وإن قل حظه من الإنسانية ، ولا يوجد إلا فيمن فسدت طباعهم وأسفت أخلاقهم ، فيتوقاهم الناس ، ويأنفون منهم ، ومن عرف قبح الغدر باسمه ، ونفور العقلاء منه ، ثم عرف معناه - فلا يستعمله ، وبالأخص من جادت طبيعته ، وسمت خليقته : وطابت أعراقه .

والضيم : هو تكليف احتمال الظلم والغضب ، وربما يعرض منه شهوة الانتقام . وينبغي ألا نسرع إلى الانتقام عند ضيم يلحقنا ، بل ننظر فيه ونحذر ، حتى لا يعود علينا الانتقام بضرر أعظم من احتمال ذلك الضيم . وهذا النظر والحذر هو استشارة العقل ، وهو الحلم بعينه .

المقتنيات النفسية

الخلط بين الغضب والشجاعة

يسمى بعض الناس الغضب في غير موضعه رجولة وشدة شكيمة ، ويذهبون به مذهب الشجاعة التي هي في الحقيقة اسم للبدح ، وشتان ما بين المذهبين : فإن صاحب هذا الخلق الذي ذمناه تصدر عنه أفعال رديئة كثيرة يجوز فيها على نفسه ، ثم على إخوانه ، ثم على الأقرب فالأقرب من معامليه حتى ينتهي إلى خدمه وحرمة ، فيكون عليهم سوط عذاب ، ولا يقلهم عثرة ولا يرحم لهم عبرة ، وإن كانوا برءاء من الذنوب غير مجترمين ولا مكتسبين سوءاً ، بل يتجرم عليهم ، ويهيج من أدنى سبب يحد به طريقاً إليهم حتى يبسط لسانه ويده . وهم لا يمتنعون منه ، ولا يتجاسرون على رده عن أنفسهم ، بل يذعنون له ، ويقرون بذنوب لم يقتروها استكفاً لشره وتسكيناً للغضب ، وهو مع ذلك مستمر على طريقته ، لا يكف يدا ولا لساناً ، وربما تجاوز في هذه المعاملة الناس إلى البهائم التي لا تعقل وإلى الآواني التي لا تحس : فإن صاحب هذا الخلق الرديء ربما قام إلى الحيوان أو الطائر ، فيتناوله بالضرر والمكروه ، وربما عض القفل إذا تعسر عليه ، وكسر الآنية التي لا يجد

فيها طاعة لأمره . فهذا النوع من رداءة الخلق مشهور في كثير من الجهال ، يستعملونه في الثوب والزجاج والحديد وسائر الآلات .

وهذه الافعال كلها قيحة ، وبعضها مع قبحة مضحك يزرى بصاحبه . فكيف يمدح بالرجولة والشدة وشرف النفس وعزتها ، وهي بالمدمة أولى منها بالمديح ؟ وأي حظ لها في العزة والشدة ، وهي في المرضى أقوى منها في الأصحاء ، والصبيان أسرع غضباً وضجراً من الرجال ، والشيوخ أكثر من الشبان ؟ ونجد رذيلة الغضب مع رذيلة الشره : فإن الشره إذا تعذر عليه ما يشتهي غضب وضجر على من يهيء طعامه وشرابه من نسائه وأولاده وخدمه وسائر من يلبس أمره ، والبخل إذا فقد شيئاً من ماله تسرع بالغضب على أصدقائه ومخالطيه ، وتوجهت تهمته إلى أهل الثقة من خدمه ومواليه .

وهؤلاء الطبقات لا يحصلون من أخلاقهم إلا على فقد الصديق وعدم النصيح وعلى الذم السريع واللوم الوجيع . وهذه حال لا تتم معها غبطة ولا سرور ، وصاحبها أبداً محزون كئيب متنقص بعيشه متبرم بأموره ، وهي حال الشقى المحروم . تلك خصال الشجاع الزيف .

الشجاع الحق :

أما الشجاع العزيز النفس فهو الذي يقهر بحلمه غضبه ، ويتمكن من التمييز والنظر فيما يدهم ، ولا يستفز ما يرد عليه من المحركات لغضبه ، بل يتروى وينظر كيف ينتقم ، ومن ينتقم ، وعلى أي قدر يكون انتقامه وكيف يصفح ويغضى ، وعن ، وفي أي ذنب ؟

حكى عن الإسكندر أنه نمي إليه عن بعض أصحابه أنه يعيبه وينقصه ، فقال له بعض أصحابه : لو أدبته أيها الملك بعقوبة تنهكه بها فقال له : ليس من الحكمة نهكه بالعقوبة ، لأنه حينئذ أبسط لساناً ، وأعذر عند الناس . وأتى يوماً ببعض أعدائه من المتغلبين الخارجين عليه ، وكان قد عاث في أطراف بلاده عيثاً كثيراً ، فصفح عنه ، فقال له بعض جلسائه : «لو كنت

أنا أنت لقتله » فقال له الإِسْكَندَرُ: « ولكن لم أكن أنا أنت فلست بقاتله »
 هذه هي معظم أسباب الغضب مقروناً بها علاجها ، والغضب أعظم
 أمراض النفس ، وإذا تقدم الإِنسان في حسم سيئه لم يخش تمكنه منه ، وكان
 ما يعرض له سهل العلاج ، قريب الزوال ، لا مادة له تلبه وتمده ، ولا
 سبب يسعره ويوقده ، وتجدر الروية موضعاً لا جالة النظر والفكر في فضيلة
 الحلم واستعمال المكافأة إن كان صواباً ، أو التغافل إن كان حزماً .

أسباب الخوف وعلاجه

لما كان الخوف الشديد في غير موضعه من أمراض النفس ، وكان متصلاً
 بالقوة الغضبية - وجب أن نذكره ، ونذكر أسبابه وعلاجه فنقول :
 إن الخوف يعرض من توقع مكروه ، وانتظار محذور ، والتوقع
 والانتظار إنما يكونان للحوادث في الزمان المستقبل ، وهذه الحوادث ربما
 كانت عظيمة ، وربما كانت يسيرة ، وربما كانت محتومة ، وربما كانت
 ممكنة .

والأمور الممكنة : قد نكون أسبابها ، وقد يكون غيرنا سببها :
 ١ - أما الأمور الممكنة : فهي بالإجمال مترددة بين أن تكون ، وبين ألا
 تكون ، ويجب ألا نقطع بأنها تكون ، فنستشعر الخوف منها ، وتتعجل
 مكروه التألم بها ، ولعلها لا تقع ، وقد أحسن الشاعر في قوله :

وقل للفؤاد إن ترى بك نزوة : من الروع أفرخ ؛ أكثر الروع باطله
 وما كان كذلك فالخوف من مكروهه يجب أن يكون على قدر حدوثه ،
 وإنما يحسن العيش وتطيب الحياة بالظن الجليل ، والأمل القوى ، وترك
 الفكر في كل ما يمكن ألا يقع من المكاره . هذا ما كان سيئه غيرنا . وأما
 ما كان سيئه سوء اختيارنا وجنايتنا على أنفسنا فينبغي أن نحترز منه بترك
 الذنوب والجنايات التي نخاف عواقبها ، ولا تقدم على أمر لا تؤمن غائلته ؛

فإن هذا فعلٌ من نسي أن الممكن هو الذي يجوز أن يكون ، ويجوز ألا يكون : ذلك بأنه إذا أتى ذنباً أو جنى جناية قدّر في نفسه أن عمله يخفى ولا يظهر ، أو لا يخفى ويظهر ، إلا أنه يتجاوز عنه ، أو لا تكون له غائلة . وكأته - كصاحب القسم الأول - يجعل طبيعة الممكن واجباً ، إلا أن هذا يأمن الجانب المحذور خاصة .

وجلي أن الممكن وسط طرفاه الواجب والممتنع ، فإذا صار مستقبله ماضياً بطل اسم الممكن عنه ، وكان : إما في جانب الواجب ، وإما في جانب الممتنع . ولا يصح مادام ممكناً أن يحسب من جانب هذا أو من جانب ذاك ، بل تعتقد فيه طبيعته الخاصة به ، وأنه يمكن أن يصير إلى أحد الجانبين ، ولذلك يقال : وجوه الأمور الممكنة في أعقابها .

ب — وأما الأمور المحتومة - كالهرم وتوابعه - فعلاج الخوف منه أن نعلم أن الإنسان إذا أحب طول الحياة فقد أحب لامحالة الهرم ، واستشعره استشعار مالا بد منه . ومع الهرم يحدث نقصان الحرارة الغريزية والرطوبة الأصلية التابعة لها ، وغلبة ضديهما من البرد واليبس ، وضعف الأعضاء الأصلية كلها . ويتبع ذلك قلة الحركة وبطلان النشاط ، وضعف آلات الهضم ، وسقوط آلات الطحن ، ونقصان القوى المدبرة للحياة . وليست الأمراض والآلام شيئاً غير هذا ، ثم يتبع ذلك موت الأحياء وفقد الأجزاء ، والمستشعر لهذه الأشياء الملزم لشرائطها في مبدأ كونه لا يخاف منها ، بل ينتظرها ويتوقعها

هذه جملة الكلام على الخوف المطلق . ولما كان أعظم ما يلحق الإنسان هو خوف الموت ، وكان هذا الخوف عاماً ، وهو مع عمومته أشد وأبلغ من جميع المخاوف - وجب أن نبسط القول بعض البسط في ذكر أسبابه وعلاجه :

اسباب الخوف من الموت وعلاجه

نذكر هنا أسباب الخوف من الموت مع العلاج الناجع لكل سبب .
وأشهر هذه الأسباب ستة :

١ - عدم معرفة حقيقة الموت :

ليس الموت بشيء أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها ، وهي الاعضاء التي يسمى مجموعها بدنا ، كما يترك الصانع استعمال آلاته . والنفس جوهر ليس بجسم ولا عرض ولا قابل للفساد ، وهذا الجوهر مفارق لجوهر البدن مبين له كل المباينة بذاته وخواصه وأفعاله وآثاره . فإذا فارق البدن بقي البقاء الذي يخصه ، وتخلص من علائق الطبيعة ، ولا سبيل إلى فناءه وعدمه ؛ فإن الجوهر لا يفنى من حيث هو جوهر ، ولا تبطل ذاته ، وإنما تبطل الأعراض والنسب والإضافات التي بينه وبين الأجسام بأضدادها ، فأما الجوهر فلا ضد له ، وكل شيء فائما فساده من ضده .

وإن تأملنا الجوهر الجسماني الذي هو أحسن من ذلك الجوهر الكريم ، واستقرينا حاله - وجدناه غير فان ولا متلاش من حيث هو جوهر ، وإنما يستحيل من حالة إلى أخرى ، وتستحيل خواصه وأعراضه التي كانت له في الحالة الأولى إلى خواص وأعراض تناسب الحالة الأخرى . فأما الجوهر نفسه فهو باق لا سبيل إلى عدمه وبطلانه .

مثال ذلك : الماء : فإنه يستحيل بخاراً وهواء ، وكذلك الهواء يستحيل ماء وناراً ، فتبطل عن الجوهر أعراضه وخواصه ، وأما هو فلا سبيل إلى عدمه .

هذا في الجوهر الجسماني القابل للاستحالة والتغير ، وأما الجوهر الروحاني الذي لا يقبل الاستحالة ولا التغير في ذاته وإنما يقبل كماله وتمام صورته ، فكيف يتوهم فيه العدم والتلاشي ؟

٢ - جهل المصير أوجهل بقاء النفس :

من يخاف الموت لأنه لا يعلم إلى أين يصير بعده ، وجهل بقاء النفس ، وكيفية المعاد - فليس في الحقيقة يخاف الموت ، وإنما يجهل ما ينبغي أن يعلمه ، فالجهل إذن هو المخوف ، وهذا الجهل هو الذي حمل الحكماء على طلب العلم والتعب به ، وتركوا لأجله اللذات الجسدية وراحات البدن ، وفضلوا عليه النصب والسهر ، ورأوا أن الراحة من طرح الجهل هي الراحة الحقيقية وأن التعب الحقيقي هو تعب الجهل ؛ لأنه مرض مزمن للنفس ، والبرء منه خلاص لها ، وراحة سرمدية ولذة أبدية .

لذلك وجب على العاقل أن يطلب العلم الحقيقي الذي يكشف له حال الإنسان بعد موته ، كما قال حارثة للنبي صلى الله عليه وسلم : « كأتى أنظر إلى عرش ربى بارزاً وكأتى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وإلى أهل النار يتلاعنون فيها » وهذا العلم إنما يحصل بالبحث عن حقيقة النفس ووجه علاقتها بالبدن ووجه خاصيتها التي خلقت لها ووجه التذاه بخاصيته وكاله مع معرفة الرذائل المانعة له من كاله . وقد نبه الشرع على ذلك العلم في مواضع كثيرة ، وأمر بالتفكر في النفس ، كما أمر بالتفكر في ملكوت السموات والأرض .

ولما يتقن الحكماء أن كمال النفس وسعادتها في العلم ، ونقصها وشقاءها من الجهل ، وألا برء من هذا إلا بذاك - لما يتقنوا ذلك ، واستبصروا فيه ، وهجموا على حقيقته ، ووصلوا إلى الروح والراحة منه - هانت عليهم أمور الدنيا كلها ، واحتقروا ما يعظمه الجمهور : من المال والثروة واللذات الحسية والمطالب التي تؤدي إليها ؛ إذ كانت قليلة الثبات والبقاء ، سريعة الزوال والفناء ، كثيرة الهموم إذا وجدت ، عظيمة الغموم إذا فقدت .

وقد اقتصروا منها على المقدار الضروري في الحياة ، وتسلاوا عن فضول العيش الذي حوى ما ذكر من العيوب ومالم يذكر ، ولا منها مع ذلك

بلا نهاية ، لأن الإنسان إذا بلغ منها غاية تآقت نفسه إلى غاية أخرى من غير وقوف على حد ، ولا انتهاء إلى أمد .

وهذا هو الموت لا ما يخاف منه ، والحرص عليه هو الحرص على الزائل ، والشغل به هو الشغل بالباطل . ولذلك جزم الحكماء بأن الموت موتان : موت إرادى ، وموت طبعى . وكذلك الحياة حيتان : حياة إرادية ، وحياة طبيعية . وعَنَوَا بالموت الإِرادى إماتة الشهوات ، وترك التعرض لها . وبالموت الطبعى مفارقة النفس البدن . وعَنَوَا بالحياة الإِرادية ما يسعى له الإنسان لحياته الدنيا من المآكل والمشارب والشهوات ، وبالحياة الطبيعية بقاء النفس السرمدى بما تستفيده من العلوم الحقيقية ، وتبرا به من الجهل . ولذلك وصى أفلاطون طالب الحياة بقوله له : « مت بالإِرادة تحى بالطبيعة » ومثل ذلك قول الإِمام على كرم الله وجهه : « من أمات نفسه فى الدنيا فقد أحياها فى الآخرة » على أن من خاف الموت الطبعى للإنسان فقد خاف ما ينبغى أن يرجوه : ذلك أن هذا الموت هو تمام حد الإنسان لأنه حى ناطق ميت : قال الراغب الأصفهاني : « وليس معناه ما توهمه كثير من الناس من أنه من الحياة الحيوانية والموت الحيوانى ، والنطق الذى هو فى الإنسان بالقوة ، وإنما أريد بالحى من كانت له الحياة المذكورة فى قوله تعالى : (لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا) وبالنطق البيان المذكور بقوله : (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) وبالميت من جعل قوته الشهوانية والغضبية مقهورتين على مقتضى الشريعة » فالموت تمام الإنسان وكأله ، وبه يصير إلى أفقه الأعلى . ومن علم أن كل شىء مركب من حد ، وحده مركب من جنسه وفصوله ، وأن جنس الإنسان هو الحى ، وفصله الناطق والميت - علم أنه سينحل إلى جنسه وفصوله ، لأن كل مركب لا محالة منحل إلى ما تركب منه . فمن أجهل ممن يخاف تمام ذاته ! ومن أسوأ حالا ممن يظن أن فناءه بحياته ! ونقصانه بتمامه !! ذلك بأن الناقص إذا خاف أن يتم فقد دل من نفسه على غاية الجهل . فاذن الواجب على العاقل أن يستوحش من النقصان ، ويأنس بالتمام ، ويطلب كل ما يتممه ،

ويكمله ، ويشرفه ، ويعلى منزلته ، ويخلى رباطه من الوجه الذى يأمن به الوقوع فى الأسر لا من الوجه الذى يشد وثاقه ، ويزيده تركيا وتعقيدا .
ويثق بأن الجوهر الشريف الالهى إذا تخلص من الجوهر الكثيف الجسمانى خلاص بقاء وصفو ، لا خلاص مزاج وكدر . فقد سعد وعاد إلى ملكوته وقرب من بارئه وفاز بجوار رب العالمين ، وخالط الأرواح الطيبة من أشكاله وأشباهه ، ونجا من أضداده وأغياره .

ومن هنا يعلم أن من فارقت نفسه بدنه وهى مشتاقة إليه خائفة من فراقه .
فهى فى غاية السقاء والبعد من ذاتها وجوهرها ، سالكة إلى أبعد جهاتها من مستقرها ، طالبة قرار مالا قرار له .

٣ - خوف العقاب الذى يعقب الموت :

إن من خاف الموت لأجل العقاب الذى يوعده به بعده ينبغى أن نبين له أنه ليس يخاف الموت بل يخاف العقاب ، وهو لا محالة معترف بذنوب له وأفعال سيئة يستحق عليها العقاب ، ومع ذلك هو معترف بحاكم عدل يعاقب على السيئات لا على الحسنات ، فهو إذن خائف من ذنوبه لا من الموت ، ومن خاف عقوبة على ذنب فالواجب عليه أن يحذر ذلك الذنب ويحتنبه ، ويتدارك ما فرط منه بالتوبة النصوح . والأفعال الرديئة التى تسمى ذنوبا إنما تصدر عن أخلاق رديئة هى منشأ الرذائل الى أحصيناها وعرفنا أضدادها من الفضائل . فالخائف من الموت من هذه الجهة جاهل بما ينبغى أن يخاف منه ، وعلاج الجهل هو العلم . فالحكمة هى التى تخلصنا من هذه الآلام والظنون الكاذبة الناشئة عن الجهل ، والله الموفق لما فيه الخير .

٤ - جهل ما يقدم عليه بعد الموت :

ومثل ما تقدم من خاف الموت لأنه لا يدرك على ما يقدم بعد الموت ؛ لأن هذه حال الجاهل الذى يخاف بجهله ، فعلاجه أن يتعلم ليعلم ويشتاق ؛ وذلك أن من أثبت لنفسه حالا بعد الموت ، ثم لم يعلم ما هى تلك الحال

ـ فقد أقر بالجهل . وعلاج الجهل العلم ، ومن علم فقد وثق ، ومن وثق فقد عرف سبيل السعادة ، فهو يسلكها لا محالة ، ومن سلك طريقا مستقيما إلى غرض صحيح فقد أفضى إليه بلا شك ولا مرية ، وهذه الثقة التي تكون بالعلم هي اليقين ، وهي حال المستبصر في دينه ، المستمسك بحكمته .
هـ — الحزن على ما يخلف من الأهل والولد والمال :

من يزعم أنه ليس يخاف الموت ، وإنما يحزن على ما يخلف من أهله وولده وماله ونشبهه ، ويأسف على ما يفوته من ملاذ الدنيا وشهواتها — ينبغي له أن يعلم أن الحزن تعجل ألم ومكروه على ما لا يجدى الحزن عليه . وسنذكر علاج الحزن في باب خاص .

جملة القول في الخوف من الموت

الخوف من الموت لا يعرض إلا لمن لا يدرك حقيقة الموت ، أو لا يعرف إلى أين تصير نفسه ، أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحل وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور ، وأن العالم سيقى موجوداً ، وليس هو فيه ، كما يظن ذلك من يجهل بقاء النفس وكيفية المعاد ، أو لأنه يظن أن للموت ألما عظيما غير ألم الأمراض التي ربما تقدمته ، وأدت إليه ، وكانت سبب حلوه ، أو لأنه يعتقد عقوبة تحل به بعد الموت ، أو لأنه متحير لا يدرك على أي شيء يقدم بعد الموت ، أو لأنه يأسف على ما يخلفه من المال والمقتنيات . وهذه كلها ظنون باطلة لا حقيقة لها كما سبق بيانه .

والإنسان من جملة الكائنات ، وكل كائن فاسد لا محالة ، فمن أحب ألا يفسد فقد أحب ألا يكون ، ومن أحب ألا يكون فقد أحب فساد ذاته ، فكأنه يحب أن يفسد ويحب ألا يفسد ، ويحب أن يكون ويحب ألا يكون ، وهذا محال لا يخطر ببال عاقل .

وأيضاً لو لم يمت أسلافنا وآباؤنا لم ينته الوجود إلينا ، ولو جاز أن يبقى الإنسان لبقى من تقدمنا ، ولو بقي من تقدمنا من الناس على ما هم عليه من التناسل ولم يموتوا ما وسعتهم الأرض :

هب أن رجلا واحداً من السلف المشهورين كعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه مثلاً بقى موجوداً إلى الآن ثم ولد له أولاد ولأولاده أولاد ، وبقوا كذلك يتناسلون ولا يموت منهم أحد : كم يكون مقدار من يجتمع منهم إلى وقتنا هذا ؟ فإنك تجدهم آلاف آلاف ألف رجل : وذلك أن بقيتهم الآن مع ما قدر فيهم من الموت والقتل الذريع أكثر من ألف ألف نسمة في جميع الأرض . واحسب لمن كان في ذلك العصر من الناس على بساط الأرض مثل هذا الحساب ؛ فإنهم إذا تضاعفوا هذا التضاعف لم تضبطهم كثرة ، ولم تحصهم عدداً . ثم امسح بساط الأرض ؛ فإنه محدود معروف ؛ لتعلم أن الأرض حيث لا تسعهم قياماً ، فكيف قعوداً أو منصرفين ، ولا يبقى موضع عمارة يفضل عنهم ، ولا مكان زراعة ، ولا مسير لأحد ، ولا حركة ، فضلاً عن غيرها . وهذه مدة يسيرة من الزمان ، فكيف إذا امتد الزمان وتضاعف الناس على هذه النسبة ؛ فهذه حال من يتمنى الحياة الأبدية للبدن ، ويكره الموت ، ويظن ذلك ممكناً أو مطموعاً فيه ؛ وهي حال جهل وغباء . فإذن الحكمة البالغة والعدل المبسوط بالتدبير الإلهي هو الصواب الذي لا معديل عنه ، ولا محيص منه ، وهو غاية الجود الذي ليس وراءه غاية أخرى لطالب مستزيد أو راغب مستفيد . ولذلك ذكره الله في النعم ، وعرضه في معرض الامتنان : (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) وقدم الموت على الحياة لأنه السبيل الوحيد إليها . فالخائف من الموت هو الخائف من عدل الباري وحكمته ، بل هو الخائف من جوده وعطائه . فقد ظهر ظهوراً حسياً أن الموت ليس بردى كما يظنه جمهور الناس ، وإنما الردىء الخوف منه ، وأن الذي يخاف منه هو الجاهل به وبذاته . وقد ظهر أيضاً فيما تقدم أن حقيقة الموت هي مفارقة النفس البدن ، وهذه المفارقة ليست فساداً للنفس ، وإنما هي فساد المركب ، وأما جوهر النفس الذي هو ذات الإنسان

ولبه وخلاصته فهو باق ، وليس بجسم يلزم فيه مالزم في الأجسام فلا يتزاحم في المكان لاستغنائه عن المكان ، ولا يحرص على البقاء الزماني لاستغنائه عن الزمان ، وإنما استفاد والأجسام - كمالا . فإذا كمل بها ثم خلص منها صار إلى عالمه الشريف القريب إلى بارئه ومنشئه تعالى وتقدس . وهذا الكمال الذي يستفيدة في هذا العالم الحسى هو السعادة القصوى للإنسان .

نسأل الله حسن المعونة على ما يقربنا منه ، ويبعدنا من سخطه . إنه جواد كريم رؤوف رحيم .

ذكرى الموت

للإنسان - في تذكر الموت - حالان : حال قبله ، وأخرى عنده

الحال الأولى

ينبغي للإنسان قبل الموت أن يكون دائم الذكر له ، ولذلك كان من أول هداية الأنبياء للناس تذكرهم الموت وحشهم على دوام تذكره ، ومن أكبرهم الفلاسفة تفكيرهم به ، وبسط القول في أن الحياة باطلة والموت حق : قال عليه الصلاة والسلام « أَكْثَرُ مَا مِنْ ذِكْرٍ هَازِمٍ لِلذَّاتِ ؛ فَإِنَّهُ مَا ذَكَرَهُ أَحَدٌ فِي ضِيقٍ إِلَّا وَسَّعَتْ عَلَيْهِ وَلَا فِي سَعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَتْهَا عَلَيْهِ » وقد أخذ أهل الصين عن فلاسفتهم سنة أجروها بينهم مجرى العادة في وجوب تذكر الموت كل حين : فإذا ولد الطفل عندهم صنعوا له نعشاً بقدره ، ووضعوه بجانب المهد ، يحدونه على مقدار النمو في الطفل ، ولا يزالون يفعلون ذلك ، حتى إذا بلغ أشده وضعوا النفس بجانب السرير إلى أن يحل يوم أجله ، فيحملونه عليه : يشيرون بذلك إلى أن يوم الولادة ويوم الوفاة أمران متلاصقان وحبلا متصلان ، وأن الإنسان يمشى في هذه الدنيا وكأنه عابر جسر : عن يمينه الموت وعن شماله الحياة . وأنه كما

يدب بنموه في الحياة يدب بأنفاسه نحو المات ، وأنه يجب على العاقل أن يحضره على الدوام ذكر الموت ، كما يحضره ذكر الحياة ، وأن اليقين كل اليقين في أعواد النعش ، والشك كل الشك في أساطين القصر . وهم يلبسون السواد حدادا في يوم الولادة والبياض فرحا عند حلول الأجل ، ولم يعتبروه شرا ، بل هو الخير كله عندهم . فمن منتهى غباوة الإنسان وجهله أن يتخذ في كل منبت شعرة من جسمه حبلا من الأمل يعلقه بالبقاء في الحياة الدنيا ، ويمحو من ذاكرته كل سبب يربطه بصفائح القبر ، فما الدنيا في الآخرة - كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم - إلا مثل ما يجعل الواحد أصبعه في اليم فلينظر بهم يرجع ؟

ما عليه الناس في هذه الحالة

الناس في الحالة السابقة ينقسمون ثلاثة أقسام : قسم لا يذكروه ألبتة ، وقسم يذكروه رعبا وخشية ، وآخر يذكروه عقلا وحكمة :
القسم الأول : هو ذلك الأحق الذي لا يتذكر الموت ، ولا يجري له على خاطر ، كأنه قد رسخ في ذهنه أن لا فناء ، فلا يحس هذه الحقيقة إلا عند المشاهدة ، ولا يذكّر الموت إلا ريثما تنقضي تلك المشاهدة : كأن يشتد به المرض ، أو يختطف الموت أحد أهله أو جيرانه .

فهو لا يتفكر في الموت وما بعده إلا نظرا في حال أولاده وتركاته عند موته ، ولا ينظر ويتدبر في أحوال نفسه ، وعند ما يرى جنازة إلا بقوله بلسانه : (إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) . ولا يرجع إلى الله بأفعاله بل بأقواله فقط ، فيكون كاذبا فيها تحقيقا .

القسم الثاني : وهو ذلك الذي يذكّر الموت دائما لخشيته من وقوعه وخوفه من نزوله ، فيتولاهم الرعب ، ويستولي عليهم الفزع . وأكثر ما يذكرونه إذا خلوا من أشغالهم ، وانتقلوا إلى أوقات فراغهم ، فيكثرون صفاء همتهم

ويسودون بياض معيشتهم . وأشد ما يكون عذابهم من ذكرى الموت إذا أردف الله عليهم النعمة إثر النعمة ، وزادهم من متاع الدنيا وزينة الحياة قترهم فيهم دائماً وعناء مقيم ؛ للتوقى من الأخطار ، والتحرز من أسباب الهلاك ، ويتغالون في ذلك التوقى إلى حال الجنون ، فيحاذرون هبوب النسيم وحرارة الضياء ، ويتوهمون في كل لقمة نخمة ، وفي كل جرعة غصة ، حتى تمرض الأجسام من تلك الوسوس والأوهام التي قد تؤدي إلى الموت الزؤام .

القسم الثالث : وهو العاقل الكيس الذي لا يفارقه ذكر الموت كالمسافر

إلى مقصد الحاج مثلاً ؛ فإنه لا يفارقه ذكر المقصد ، وأشغال المنازل في الحط والترحال لا تنسيه مقصوده .

وذلك لأنه يعلم أن ذكر الموت يطرد فضول الأمل ، ويكف غرب المنى ، ويهون المصائب ، ويحول بين الإنسان والطغيان . ومن ذكر الموت تتولد القناعة بما رزق ، والمبادرة إلى التوبة ، وترك المحاسدة والحرص على الدنيا ، والنشاط في العبادة ، ولا ينبغي أن يهمل الإنسان نفسه من تذكر الموت أكثر من يوم ، بل يصبح كل يوم على تقدير الاستعداد للرحلة ؛ فكل من ينتظر أن يدعوه ملك من الملوك كل ساعة ينبغي أن يكون مستعداً للإجابة ، فإن لم يكن فربما يأتيه الرسول وهو غافل ، فيحرم السعادة ؛ فإما من وقت إلا والموت فيه ممكن .

الحالة الثانية

هي حال الإنسان عند الموت ، والناس عنده ثلاثة أقسام أيضاً :

الأول : ذو بصيرة علم أن الموت يعتقه والحياة تسترقه ، وأن الإنسان وإن

طال في الدنيا مكثه فهو كخطفة برق لمعت في أكناف السماء ، ثم عادت للإختفاء ، فلا يثقل عليه الخروج من الدنيا إلا بقدر ما يفوت من خدمة ربه عند رجوعه ، والإزدىاد من تقربه ، والإشفاق بما يقول أو يقال له ، كما

قال بعضهم لما قيل له : لم تجزع ؟ قال : « لأنى أسلك طريقا لم أعهده ، وأقدم على رب لم أره ، ولا أدري ما أقول وما يقال لى » ومثل هذا الشخص لا ينفر من الموت ، بل إذا عجز عن زيادة العبادة ربما اشتاق إليه . وقال بعضهم فى مناجاته : « إلهى ، إن سألتك الحياة فى دار الممات فقد رغبت فى البعد عنك ، وزهدت فى القرب منك ؛ فقد قال نبيك وصفيك - صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ فَقَدْ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ »

والثانى : رجل ردى البصيرة ، متلطف السريرة ، منهك فى الدنيا ، منعس فى علائقها ، رضى بالحياة الدنيا ، واطمأن بها ، ويئس من الدار الآخرة ، كما يئس الكفار من أصحاب القبور : فإذا خرج إلى دار الخلود أضر ذلك به ، كما تضر رياح الورد بالجعل ، وإذا خرج من قاذورات الدنيا لم يوافقها عالم العلاء ، ومصباح الملائ الأعلى ، فكان كما قال الله تعالى : (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْتَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَغْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا) فالدنيا سجن الأول وجنة الثانى ، (والأول) كعبد دعاه مولاه ، فأجابه طوعا ، وقدم عليه مسرورا يتوافر على خدمته ، (والثانى) كعبد آبق ، رد إلى مولاه مأسورا ، وقيد إلى حضرته مقهورا ، فيبقى ناكس الرأس بين يدى مولاه ، محتزيا من جنايته . وشتان ما بين الحالين .

والثالث : رتبة بين الرتبتين : رجل عرف غوائل هذا العالم ، وكره صحبته ولكن أنس به وألفه ، فسيله سبيل من ألف بيتا مظلمة قدرا ، ولم ير غيره ، فهو يكره الخروج منه ، وإن كان قد كره دخوله ، فإذا خرج ورأى ما أعد الله للصالحين لم يتأسف على ما كره فواته ، بل قال : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ، الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ

المُقَامَةُ مِنْ فَضْلِهِ ، لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ)
ولا يبعد أن يكره الإنسان مفارقة شيء ، ثم إذا فارقه لا يتأسف عليه .
فالصبي وقت الولادة يبكي لما يناله من ألم الانتقال ، ثم إذا عقل لا تمنى
العود إليه ،

والموت ولادة ثانية يستفاد بها كمال لم يكن قبل بشرط ألا يكون قد تقدم
قبل ذلك الكمال من الآفات والعوارض ما يبطل قبول المحل للكمال ، كما أن
الولادة سبب لكمال مغبوط لم يكن عند الاجتنان بشرط ألا يصيبه وقتئذ
من الأسباب والعلل مامنع قبول الكمال .

علاج الحزن

الحزن ألم نفسي يعرض لفقد محبوب أو فوت مطلوب ، وسببه الحرص
على القنيات الجسمانية ، والشره إلى الشهوات البدنية ، والحسرة على ما يفقده
أو يفوته منها . ومتى كان الإنسان آمناً في سربه ، معافى في بدنه ، وله قوت
يومه - فحزنه وغمه بسبب أمر الدنيا أمانة نقصانه وحقاقته ؛ فإن غمه ليس
ينخلو : إما أن يكون تأسفاً على ماض ، وإما أن يكون خوفاً من مستقبل ،
وإما أن يكون حزناً على سبب حاضر في الحال :

الحزن على ماض :

فإن كان على فائت فالعاقل بصير بأن الجزع على مافات لا يلم شعناً ، ولا
يرم ما اتكث ، وما لاحيلة فيه فالغم عليه خرق ؛ فإنما يحزن ويجزع على
فقد المحبوب ، وفوت المطلوب - من يظن أن ما يحصل له من متاع الدنيا
يجوز أن يبقى ويثبت عنده ، أو أن جميع ما يطلبه من مفقوداتها لا بد أن
يحصل له ويصير في ملكه . فإذا أنصف نفسه ، وعلم أن متاع الدنيا زائل ،
واقصر بهيمته على الباقي ، وأعرض عما ليس في طبعه أن يثبت ويبقى ، وإذا
حصل له منه شيء بادر إلى وضعه في موضعه ، وأخذ منه مقدار الحاجة إلى

دفع الآلام من الجوع والعري وما يشبههما ، وترك الادخار المذموم ،
 والتهالك على الاستكثار الممقوت ، والتماس المباهاة والافتخار ، ولم يحدث
 نفسه بالمكاثرة بها والتنى لها ، وإذا فارقت لم يأسف لها ، ولم ييال بها . فإن
 من فعل ذلك أمن فلم يجزع ، وفرح فلم يحزن ، وسعد فلم يشق . ومن لم
 يقبل هذه الوصية . ولم يعالج نفسه بهذا العلاج - لم يزل في جزع دائم ،
 وحزن غير منتقص ؛ وذلك لأنه لا يعدم في كل حال قوت مطلوب .
 أوفقد محبوب ، وهذا لازم لعالمنا : عالم الكون والفساد . ومن طمع من
 الكائن الفاسد ألا يكون ولا يفسد فقد طمع في المحال ، ومن طمع في المحال
 لم يزل خائباً ، والخائب أبداً محزون ، والمحزون شقى . ولذلك قال تعالى :
 (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ) وقال الشاعر : « وهل جزع مجدد
 على فأجزعا »

الحزن على حاضر :

وإن كان حزنه على حاضر : فإما أن يكون حسداً لوصل نعمة إلى من
 يعرفه ، وإما أن يكون حزناً للفقر ، وفقدان المال ، والجاه ، وأسباب الدنيا .
 وسبب هذا الجهل بغوائل الدنيا وسمومها ، ولو عرفها معرفتها لشكر الله
 تعالى على كونه من المخففين دون المثقلين ، ولو فكر العاشق في منتهى حسن
 الذي يعشقه لم يعشقه ؛ إذ يعلم أن الدنيا حالة المصائب كدرة المشارب ،
 تورث للبرية أنواع البلية : فما أحد فيها إلا وهو في كل حال غرض لأسهم
 ثلاثة : سهم نقمة ، وسهم رزية ، وسهم منية :

تناضله الأحداث من كل جانب فتخطئه طوراً وطوراً تصيبه

فمن كان معتبراً بما يتجدد كل يوم : من ارتجاع النعم من أربابها ، وحلول
 القوارع بأصحابها ، وشدة اغتمامهم بفقدائها - لم يتأسف على فواتها . ولذلك
 قيل لبعضهم : لم لا تغتم ؟ قال : « لأنى لا أقنى ما يغنى فقدته » ومتى أمعن
 الإنسان فكره في غفلة أرباب الدنيا عن الآخرة ، وكثرة مصائبهم فيها تسلى

عنها وهان عليه تركها . وكان بعض الصوفية وظف على نفسه كل يوم أن يحضر دار المرضى ليشاهدهم ويشاهد علمهم ومحنتهم ، ويحضر الحبس أيضاً ويشاهد أرباب الجنايات ومجئتهم لإقامة العقوبات ، وأيضاً يحضر المقابر ، فيشاهد أرباب المصائب وأسفهم على ما لا ينفع مع اشتغال الموتى بما هم فيه ، وكان يعود إلى بيته بالشكر طول النهار على نعم الله عليه في تخليصه من كل البلايا . وحق على الإنسان في الدنيا أن ينظر أبداً ما عاش إلى من هو دونه لي شكر ، وفي الدين إلى من هو فوقه لي شمر . والشيطان إذا استولى نكس هذا النظر وعكسه . فإذا قيل له : لم تتعاطى هذا الفعل القبيح ؟ اعتذر بأن فلاناً يتعاطى ما هو أكبر منه ، مع أنه ليس في المعصية ولا في الكفر مناظرة . وإذا قيل له لم لا تقنع بهذا الموجود ؟ فيقول : فلان أغنى مني ، فلم أصبر على ما ليس يصبر عنه ؟ وهذا عين الضلال والجهل المحض .

الحزن على مستقبل :

إن كان الغم على الأمر المستقبل : فإن كان على أمر ممتنع وجوده أو واجب كونه مثل الموت فعلاجه محال . وإن كان ممكناً وجوده نظر : فإن كان لا يقبل الدفع كالموت قبل الهرم ، فالحزن له حماقة . وإن كان قابلاً للدفع فلا معنى للغم ، بل ينبغي أن يحتال للدفع بعقل غير مشوب بحزن . فإذا فعل ما قدر عليه من تمهيد حيل الدفع بقي ساكن القلب منتظراً لقضاء الله وقدره ، عالماً بأنه لا مرد لما قضاه ، فيلتقاه بصبر إن لم يندفع ، ويتحقق أن ما قدر فهو كائن ، ويتذكر قول الله تعالى : (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ، لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتِكُمْ ، وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

وإنما حرص الناس على تهيئة أسباب الدنيا منشؤه الغرور وحسن

الظن بانحسار الآفات ، وتقدم صدقاء الأوقات . وهيات ثم هيات . قال
على رضى الله عنه : « ما قال الناس لقوم : طوبى لكم - إلا وقد خبأهم الدهر
ليوم سوء » وصدق الشاعر فيما قال :

إن الليالى لم تحسن إلى أحد إلا أساءت إليه بعد إحسان
فالعاقل إذا أمعن النظر فى هذه الأمور خف على قلبه أكثر الغموم ، إلا
إذا كانت العلاقة قد استحسنت بينه وبين معشوقه من آدمى أو مال أو عقار
أو حرفة أو رياسة أو ولاية أو أى أمر من الأمور ، فلا خلاص له من غمومها
إلا بعد قطع العلائق عنها . ولا يمكن ذلك إلا بكف النفس عنها تدريجاً
والاشتغال بغيرها ، وإن كان ذلك الغير أيضاً مما يجانسها فى وجوب التباعد
عنه ، ولكن لا بأس بغسل الدم بالدم إذا كان الأول أشد لصوقاً ، وهذه من
دقائق الرياضات ؛ فإن النزوع عما وقع الإلف به دفعة واحدة عسير بل
ممتنع . ولذلك يرقى المعلم الصبي بالترغيب فى اللعب بالصولجان والطيور ،
ثم يكفه عن اللعب بالترغيب فى الثروة والمال ، والتزيين بالثياب الجميلة
وغيرها ، ثم يرقيه من ذلك بالترغيب فى المحمدة والثناء ونيل الكرامة والرياسة ،
ثم يرقيه بالترغيب فى سعادة الآخرة . والرياسة آخر ما يخرج من رموس
الصديقين . ولقد كانت هذه المعالجة بأمور محذورة فى نفسها ، ولكن
مطلوبة بالاضافة إلى ما هو شر منها ، وكأنها منازل وأطوار يرتقى فيها الإنسان
واحداً واحداً ، ولا يمكن الخلاص إلا بهذا التدريج . فليراع ذلك فى كل
صفة استولت على النفس ، واشتدت علاقتها بها ، وبقطع العلائق تمحى الغموم .
انتفاء الألم لا يستدعى وجود السعادة :

يقولون : إنه لا اغتباط مع وجود الألم ، وما دام هو ثابت الوجود فلا
سبيل إلى الغبطة والهناء ، فإذا كان هذا القول صواباً كانت نتيجته أنه إذا
انتفى الألم أو انتفى شعور الإنسان به حصلت السعادة : والواقع غير هذا ؛
فإن من بين الناس كثيرين من ضعيف الإدراك والبله والمجانين لا يشعرون
بالألم مطلقاً ويندرون أن يكون للبوثرات المشجبة تأثير فى شعورهم ، أو للأعراض

الموجة قوة كافية لتنبيه حاسة الألم في نفوسهم . فهل أولئك سعداء ؟ وهل يكون عدم شعورهم بالألم هو السعادة التي يطمع فيها الإنسان ؟ وهل يرضى عاقل أن يكون من ذلك الفريق ليغيب مثل السعادة إن صح أن الجنون سعادة ؟ ألا إن هذا الخير دليل على أن تلاشي الألم أو عدم الشعور به لا ينشأ عنه وجود السعادة ، بل ليس من الأسباب الضرورية للشعور بالهناء .

اجتماع الألم والسعادة :

ذكرنا فيما تقدم أن السعيد كثيره تنبأه ضروب الذكبات والنوائب وأنواع المحن والمصائب إلا أنه لا يفرع منها ، ولا يجد مشقة في احتمالها ، ولا تؤثر فيه أحوالها . فالنوازل منها قويت وتوالت ، والآلام منها اشتدت وتالت لا تخرجه عن سعادته ؛ لما اتصف به من صبر وشجاعة ، بل قد يجد السعادة في مكافحة تلك الآلام ومنازلتها ، فهو سعيد بآلامه مغتبط بشدائده : كالمراة تتألم عند الولادة وألم الوضع مما لا يسهل احتمالها ، ومع شدة تأثير الحادث في نفسها ، وعظم الألم ، وكثرة التألم - تسر الوالدة بسلامة المولود ، وتشعر بلذة الأمومة ، وتغتبط ، وتكون سعيدة في ذات اللحظة التي تتألم فيها .

ضرورة الألم في السعادة :

قد قال العقلاء ، ولا زالوا يقولون : إنه لولا الشر ما كانت الرغبة في الخير ، وكذلك يجب أن نقول : إنه لولا الألم ما عرفت الرغبة في اللذة والهناء ، فالألم - إذا لم يكن بليغاً إلى حد لا يحتمل أو يقتل - يكون حتماً وساطة للتقوية والإسعاد : يأخذ الإنسان من بعض أنواع السموم مقداراً معيناً للتداوى به ولتقوية جسمه ، فإذا زاد المقدار كان البوار ، والألم ليس أعظم منه خطراً ولا أضر ضرراً . فالمحتمل منه يرقى النفس ، ويقوى الجسم ، ويشحذ غرار العزيمة ، ويصقل مرآة الفكر .

الألم حقيقة لا بد منها :

ما تقدم يعرف الإنسان أن الألم الذي يخشاه ويتوقاه ويلعنه حقيقة

لا بد من وجودها لتكون معياراً للسرور المفقود ، ووساطة للرجبة في نوع جديد منه ، ويعرف أيضاً أنه لاقيمة للذة بدون احتمال الألم ، ولا مكان للسرور بدون عرفان الحزن . وبضدها تتميز الأشياء ، فالآلم والشقاوة هما السبيل المؤدى إلى السرور والسعادة .

إن الأرض لا يحسن زرعها دون حرثها وشق كبدها ، وكذلك النفس لا تشعر بالغبطة ولا يبدو أثرها فيها ، دون أن تعرف الشقاء وتتألم منه . فالآلم هو الذى يولد الذكاء ، ويقوى الهمة ، ويبعث النشاط . وهو الذى يطهر النفس ، ويسمو بها إلى أوج النبيل والشرف ، ويحدد العقل إلى الروية والتدبير . وهو المنبه الوحيد للضمير الميت ، ومن يحيا ضميره يعود إلى الحياة .

الآلم كالظل :

فكما لا يبحث الإنسان عن ملاشاة ظله لو ثوقه من تعذر الوصول إلى ذلك ، ومن بحث في مفارقة ظله فقد أقام البرهان على ضعف عقله - كذلك يعتبر من الحق وخطل رأى البحث عن ملاشاة الآلم ؛ لأنه لا يزول من الوجود ما بقى إلا إنسان على قيد الحياة ، ومن الحكمة تحويل نتائجها إلى فائدة الفرد والمجتمع ، ولا أقل من أن يكون هو الوساطة في تهذيب النفوس وإحياء الشعور .

الحياة بدون ألم ناقصة :

لو سلطنا جدلاً إمكان خلو الحياة الدنيا من الآلم لكانت حياة ناقصة ينقصها الجزء المتمم لأسباب الهناء والسعادة : إذ من خاصة النفس سامة الحال الواحدة والمنظر الدائم ، فإذا ما ألقت السرور زال بعد حين تأثيره المبهج فيها ، واعتراها الملل والسامة والفتور . ومن خاصة الآلم تجديد قوة النفس ونشاطها ، وبعث الميل إلى الراحة والسرور . فما الآلم في الواقع إلا مثال الحمام الكهربائي : يعالج به المريض ، فيتألم منه ، ويصرخ ، ولكنه يبرئ علة ، ويمنع أسباب مرضه ، ويعيد له العافية والهناء .

الآلم سر النبوغ:

من النظريات المعروفة : أن شدة الضغط تضاعف القوة المضغوط عليها .
فكذلك يكون الآلم الحاد ، والتآلم الشديد من الأسباب التي تخرج الإنسان
من حاله الطبيعية في كثير من الظروف فيبرز تبريزا لا يتم له لولا التآلم ، وهاك
أمثلة على ذلك :

١ — كل من يعنى بالبحث عن سر نبوغ عظماء الرجال وقادة الأفكار
ورجال الانقلابات السياسية لا يعتم أن يتحقق من كون السبب الوحيد الذي
نشط بهم إلى الفوق والظهور بتلك المظاهر لم يكن إلا كثرة التآلم .

٢ — ما الشعر إلا تصوير الخيال والشعور النفسى فى شكل الألفاظ التي
تدنيه من أفهام الناس . فقد الشعر ورقته وبلاغته يكون على قدر تنبه
إحساس الشاعر ورقة عواطفه ، وما أكثر ما يسمو به الإنسان إلى عالمي الخيال
والحقيقة إذا تآلم شديداً ، ونبه الآلم شعوره ، وألهب عواطفه .
فكذلك يكون ما تأثرت به النفس من أنواع الشقاء ، وما نالها من الآلم -
هو معيار حظها من النبل ، ومن المروءة والهمة .

٣ — انظر إلى من نبغوا من صفوف الأحزاب المعارضة تجد أن تآلم
نفوسهم من معارضة خصومهم هي التي نشطت هممهم ، وأظهرت قواهم ،
وفتقت لهم الحيلة ، فنُسبت إليهم القدرة والنبوغ . وأمعن في النظر طويلا
تجد أن هذا الامتياز يزول تماما ، ويعود النابغ إلى حاله الطبيعية بمجرد زوال
القوة الضاغطة عليه أو المقاومة إياه ، وإذا ما أتيح له أن يتربع عرش
السلطة ، ويستأثر بالنفوذ - يبدو له من الضعف ومن حقيقة حاله ما لم يكن
يعرفه في نفسه ، ولا يعرفه الناس منه .

٤ — يشعر المرء بتقصير عن إخوانه ، ويحس في نفسه نقصا عن أخدانه ،
فيتآلم لذلك كثيرا ، ويتذوق طعمه مرا مريرا ، ويفتش في زوايا نفسه عن
منبت هذا التقصير ، ويبحث في حناياها عن موطن الضعف فيها ، ثم إذا

وقف على ما ينقب عنه شرع يفكر في الوسائل التي يتوصل بها إلى تقوية ضعفه وإكمال نقصه ، ومتى وفق إلى ذلك أقبل على العمل بهمة قوية وعزيمة ماضية ، ولا يزال كذلك في جد وكد ، لا يتطرق إليه ملل ، ولا يعتوره وهن ولا كلل ، حتى يفوق أقرانه ويبدخلانه .

ومن هذه الأمثلة يتجلى لنا أن القوة والنبوغ والعظمة والرقى كلها تكون بسبب الألم .

الأمم كالأفراد في أثر الألم :

ليست الحقيقة السابقة مقصورة على الأفراد ، وإنما تشمل حكمها الشعوب والأمم : فالأمة التي تن من الألم يكون هو خير وساطة للم شملها ، واجتماع قلوب أبنائها ، وتقوية رابطة الإخاء بين أفرادها ، وتكا تفهم في طلب الخلاص من بواعث الألم ، كما أنه يكون من أقوى البواعث على حب العظمة وطلب السمو والسودد : انظر إلى اليهود : فقد أجمع الناس على تقرير امتيازهم بالذكاء والدهاء . وما هذا لخاصة فيهم ، وإنما نشأ عن الاضطهاد الذي توالى عليهم أزمانه ، والآلام البالغة التي ذاقوها من أبناء البلاد التي تشتتوا فيها . وقد بق لهم هذا الفوق الفكرى مابق الاضطهاد ودام الإرهاق ، ثم أخذ يقل ويهبط إلى مستوى ذكاء الآخرين منذ زال سبب وجوده ومنذ تمتع الإسرائيلون في البلاد التي يسكنونها بالمواطينهم من الحقوق الاجتماعية .

الشره والحمود

تكلما فيما سبق عن أمراض القوة الغضبية ، وأتبعنا كل مرض بأسبابه وعلاجه الذي يستأصل هذه الأسباب ، حتى تبرأ تلك القوة من أمراضها ، وتثوب إليها صحتها وفضيلتها وهي الشجاعة ، إلا أننا قد أسهبنا في ذلك كثيرا لضرورة انتشار هذه الأمراض واستفحالها بين الناس ، حتى كدنا نغسى موضوعنا الأصلي ، والآن نسوق الكلام في أمراض القوتين الشهوية

والعقلية متبعين ذلك بعلاج هذه الأمراض في كثير من الأحيان الذي يقتضيه المقام فنقول :

إن العفة هي فضيلة القوة الشهوانية وهي انقيادها على تيسر وسهولة للقوة العقلية ، حتى يكون انقباضها وانبساطها بحسب إشارتها . ويكتنفها رذيلتان : الشره والخمود : فالشره هو إفراط الشهوة إلى المبالغة في اللذات التي تستقبحها القوة العقلية ، وتنتهي عنها . والخمود هو كلال الشهوة عن الانبعاث إلى ما يقتضيه العقل نيله وتحصيله . وهما مذمومان ، كما أن العفة التي هي الوسط محمودة .

ويندرج تحت هذين الرذيلتين - الوقاحة ، والتخنث ، والتبذير ، والتقتير والرياء ، والهتكة ، والكزازة ، والمجاعة ، والعبث ، والتحاشي ، والشكاسة ، والملق ، والحسد ، والشماتة :

(أ) فأما الوقاحة فلججاج النفس في تعاطي القبيح من غير احتراز من الذم ، وأما التخنث فحال تعثر النفس من إفراط الحياء بقضها عن الانبساط قولاً وفعلًا .

(ب) وأما التبذير فإفناء المال فيما لا يجب ، وفي الوقت الذي لا يجب فيه ، وأكثر مما يجب . وأما التقتير فهو الامتناع من إنفاق ما يجب ، وسببه البخل والشح واللؤم . ولكل واحد من هذه الثلاث رتبة : فالبخل هو الذي يفرط ويقصر في الإنفاق ؛ خوفاً من أن تضطره الفاقة إلى المسألة والتذلل للأعداء ، وكأن سبب البخل هو الجبن عند البحث . وأما الشحيح فهو الذي يجمع إلى البخل أن يكره حسن حال غيره ؛ طمعاً في أن يضطره إلى الحاجة إليه ، فينال به الجاه والرفعة . ومنشأ هذا ضرب من الجهل . وأما اللئيم فهو الذي يجمع إلى البخل والشح احتمال العار في الشيء الحقير . وهو ضرب من الخبث : وذلك كالمخلص ونحوه .

(ح) والرياء هو التشبه بذوى الأعمال الفاضلة ؛ طلباً للسمعة والمفاخرة ،

وَالْهَيْكَلَةُ الْأَعْرَاضُ عَنْ تَزِينِ النَّفْسِ بِالْأَعْمَالِ الْفَاضِلَةِ ، وَالْمَجَاهِرَةِ بِإِعْرَاضِهَا .
(ء) وَالْكُزَازَةُ الْإِفْرَاطُ فِي الْجَدِّ ، وَالْمَجَانَةُ الْإِفْرَاطُ فِي الْهَزْلِ

(هـ) وَالْعَبَثُ الْإِفْرَاطُ فِي الْإِعْجَابِ بِلِقَاءِ الْجَلِيسِ وَالْأَنْيَسِ ، وَالتَّحَاشِي
الْإِفْرَاطُ فِي التَّبَرُّمِ بِالْجَلِيسِ

(و) وَالشُّكَاةُ مَخَالَفَةُ الْمَعَاشِرِينَ فِي شَرَائِطِ الْأَنْسِ ، وَالْمَلَقُ التَّحَبُّبُ إِلَى
الْمَعَاشِرِينَ مَعَ التَّغَافُلِ عَمَّا يَلْحَقُ مِنْ عَارِ الْإِسْتِخْفَافِ .

(ز) وَالْحَسَدُ الْإِغْتِمَامُ بِالْخَيْرِ الْوَاصِلِ إِلَى الْمُسْتَحَقِّ الَّذِي يَعْرِفُهُ الْحَاسِدُ ،
وَالشِّمَاتَةُ الْفَرَحُ بِالْشَّرِّ الْوَاصِلِ إِلَى غَيْرِ الْمُسْتَحَقِّ مَنْ يَعْرِفُهُ الشَّامِتُ

علاج هذه الأمراض

علاج هذه الأمراض كلها أن يراقب الإنسان شهوته ويعلم أن الإفراط والتفريط في مقتضياتها نقصان ، وأن الكمال في الاعتدال . ومعيار الاعتدال العقل والشرع : وذلك أن يفهم الغاية المطلوبة من خلق الشهوة : فشهوة الطعام إنما خلقت لتبعث على تناول الغذاء الذي يسد خلل ما ينحل من أجزائه بالحرارة الغريزية حتى يبقى البدن حيا والحواس سليمة ؛ ليتوصل بالبدن إلى نيل العلوم ودرك حقائق الأمور ، ويتشبه بالطبقة العليا بالإضافة إليه ، وهي رتبة الملائكة ، وبها كمالها وسعادتها . ومن عرف هذا كان قصده من الطعام التقوى على العبادة دون التلذذ به ، فيقتصر ويقتصد لا محالة ، ولا يشتد إليه شرهه . وشهوة الجنس خلقت لبقاء النوع محفوظا ، فتطلب للولد والتجسن ، لا للعب والتمتع . وإن تمتع ولعب كان باعته عليه التألف والاستمالة الباعثة على حسن الصحبة ،

وحكمة شهوتي الطعام والجنس ترجع إلى أمرين : أحدهما إبقاء الشخص بالغذاء ، والنوع بالحرث ؛ فإنهما ضروريان في الوجود بحكم إجراء الله سنته بمشيئته الأزلية التي لا تبدل لها ولا تحويل .

والآخر ترغيب الخلق في السعادات الآخروية ؛ فإنهم مالم يحسوا بهذه اللذات والآلام لم يقدرُوا نعيم الجنة فيرغبوه ، ولم يعرفوا عذاب النار فيحذروه ، ولو اقتصر على الوعد والوعيد لما أثر ذلك بمجردة في نفوسهم

الخب والبله

الحكمة الخلقية حالة وفضيلة للنفس العاقلة ، بها تسوس القوة الغضبية والشهوانية ، وتقدر حركاتهما بالقدر الواجب في الانقباض والانبساط وهي العلم بصواب الأفعال .

وهذه الفضيلة تكتنفها رذيلتان : وهما الخبُّ والبله ؛ فهما طرفا إفراطها وتفریطها : أما الخب فهو طرف إفراطها ، وهو حالة يكون بها الانسان ذا فكر وحيلة باطلاق الغضبية والشهوانية يتحركان إلى المطلوب حركة زائدة على الواجب ، ويسمى السفّة أيضاً .

وأما البله : فهو طرف تفریطها ونقصانها عن الاعتدال ، وهو حال للنفس تقصر بالغضبية والشهوانية عن القدر الواجب ، ومنشؤه بط . الفهم وقلة الإحاطة بصواب الأفعال .

ورذيلة الخب يندرج تحتها الدهاء والجريزة : فالدهاء : استنباط ما هو أبلغ في إتمام ما يظن صاحبه أنه خير ، وليس بخير في الحقيقة ، ولكن فيه ربح خطير : فان كان الربح خسيساً سمي : جريزة . فالفرق بين الدهاء والجريزة يرجع إلى الحُقارة والشرف . وأما رذيلة البله فتندرج تحتها الغمارة والحق والجنون : فالغمارة : قلة التجربة في الأمور العملية مع سلامة التخيل . وقد يكون الانسان غمراً في شيء دون شيء بحسب التجربة . والغمر هو الذي لم تحتكه التجارب . وأما الحق : فهو فساد النظر فيما يؤدي إلى الغاية المطلوبة ، حتى ينهج غير السبيل الموصل : فان كان خلقة سمي خمقا طبعيا ، ويعسر علاجه أو يتعذر . وقد يحدث عند مرض فيزول بزواله . وأما الجنون : فهو فساد التخيل في انتقاء ما ينبغي أن يؤثر ، حتى يتجه إلى إثارة غير المؤثر :

فالفاسد من المجنون غرضه ، ومن الأحمق سلوكه ؛ إذ غرض الأحمق كغرض العاقل ، ولذلك لا يعرف في أول الأمر إلا بالسلوك إلى تحصيل الغرض .
والجنون هو فساد الغرض ، ولذلك يعرف في أول الأمر .

علاج هذه الأمراض : ولما كانت أمراض القوة العقلية هي الإفراط أو التفريط في القوة الغضبية والقوة الشهوانية ، كانت أمراضها تعالج بعلاج أمراض هاتين القوتين ، وقد تقدم شرح ذلك في محله

الغبين والتغابن والجور

العدل حالة للقوى الثلاث : العقلية والغضبية والشهوية - في انتظامها على التناسب بحسب الترتيب الواجب في الاستعلاء والانقياد . فليس العدل على ذلك جزأ من الفضائل ، بل هو جملة الفضائل ، وهذا هو العدل في أخلاق النفس الذي يتبعه لا محالة ، ويتفرع منه العدل في المعاملة والعدل في السياسة . ونستطيع بعد ما تقدم أن نعرف العدل بمعنى أشمل بأنه هو :

الترتيب الواجب في الأخلاق والمعاملات وتدير الشؤون العامة .

والعدل في الأخلاق جماع الفضائل كما أسلفنا ، فالرذائل المطيعة به جماع الرذائل أيضاً ، والعدل في المعاملة وسط بين رذيلتي الغبن والتغابن ؛ إذ هو أن يأخذ المرء ماله أخذه ، ويعطي ماله إعطاؤه . أما الغبن : فأن يأخذ ما ليس له ، والتغابن : أن يعطي في المعاملة ما ليس عليه حمد ولا أجر .

والعدل في السياسة : أن ترتب أجزاء المدينة الترتيب المشاكل لترتيب أجزاء النفس ، حتى تكون المدينة في ائتلافها ، وتناسب أجزائها ، وتعاون أركانها ، على الغرض المطلوب من الاجتماع — كالشخص الواحد . ولا يكتفى العدل بهذا المعنى رذيلتان ، بل يقابله رذيلة الجور فقط ؛ إذ ليس بين الترتيب وعدم الترتيب وسط ، وبمثل هذا الترتيب قامت السموات والأرض ، حتى صار العالم كله كالشخص الواحد متعاون القوى والأجزاء

ومن حيث إن العدل حالة للقوى الثلاث فعلاج أمراضه هو علاج
أمراض القوى الثلاث . والله أعلم

السبب الخامس من أسباب السعادة

الغنى

حقيقة الغنى والفقر :

يحدث الحكماء الغنى بأنه قلة الحاجة ، كما يحدثون الفقر بأنه كثرة الحاجة : فأقل
الناس حاجة أغناهم ، وأكثرهم حاجة أشدهم فقرا . لذلك قال الله
جل شأنه أغنى الأغنياء ، لأنه لا حاجة له إلى شيء من الأشياء ، وكان
الملوك أشد الناس فقرا لكثرة حاجتهم ، فهم أشقى الناس في الدنيا والآخرة ،
كما وصفهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه . وأصل ذلك يرجع إلى توافر
رغبات النفس وعدم توافرها : فأعظم الناس غنى هو من لا تطلب نفسه
شيئا ليس في يده : بأن كان قانعا بما أوتي على قلبه ، مقبلا على طاعته ، مجملا
في طلب حاجته ، مطمئنا كل الاطمئنان إلى حالته . وهذا هو الغنى الحقيقي
وسنفرد له بابا خاصا . أو كان ذا بسطة في المال الحلال فاستطاع أن يحصل
كل ما جال في نفسه : من رغبات وآمال في غير إسراف ولا ضياع لحق معلوم
للسائل والمحروم ، بل كان ينفقه في متعة نفسه غير متجاوز به طاعة ربه ،
يغيث به الملهوف ، ويصطنع به كل معروف ، يحب المال حبا جما ، ولكنه
يطلب في رفق وهوادة ، ويسعى إليه في اطمئنان وتودة . وهذا هو الغنى
المجازى . والفرق بين الحقيقي والمجازى : أن الأول فيه إجمال في الحب
وإجمال في الطلب ، واطمئنان ورفق إلى أقصى حد ممكن للبشرية ، وقد
لا يكون فيه حب ألبته ، ولكنه يطلب لأنه عون على الدين ، وحفظ
للكرامة . وأما الآخر ففيه الحب الجرم ، والطلب الأوفر . ونصيب هذان
الرفق والاطمئنان أقل بكثير من سابقه . وواضح أن كلا النوعين يمت إلى

السعادة بسبب ، إلا أن الأول أقوى سببا ، وأقرب نسبا . وأشد الناس عوزا من يرغب في شيء لا يتيسر له نيله ، ولو كثر ماله ، وامتد سلطانه ، وتعدد أنصاره وأعوانه . والطمع هو تعدد الرغبات والحرص على نيلها : فمن تكثر رغباته يكثر عدد ما يعجز عن الحصول عليه ، وهذا هو الفقر الحقيقي الجدير صاحبه بالرتاء له ؛ لأنه بائس بآماله ، شقى بأمواله .

وعلى هذا لا تكون العبرة بما تملكه اليد من الكثير أو القليل ، وإنما بعدم تجاوز الرغبات حد الممكن نيله .

الغنى والفقر :

ليس ثم فارق صحيح بين المثرى والمعدم في الحياة : فإن الحمى التي تصيب الفقير مثلا هي بعينها التي تصيب الغنى ، وتترك كلا منهما يتألم ويمرض ؛ فلا الفراش الوثير يخفف من وطأتها على المريض ، ولا الخصاصة تخرجها عن نوع المرض . والموت يعدو على الأمير في قصره وهو بين حراسه وحجابه ، فلا يدفعه الحراس ، ولا يمنعه الحجاب ، ولا يطيش سهمه لمعان الذهب ، فيزهق روح ذلك الكبير الخطير ، كما يفعل بالفقير الحقير .

فإذا صح أن المال لا يدفع ألما ، ولا يمنع مرضا ، ولا يحول دون الموت . كان حظ التعس الفقير في الحياة هو بعينه حظ الوجيه الغنى فيها ، لا يميز بينهما غير الطعام والكساء ؛ وما هذه بمميزات صحيحة بين الإنسان وأخيه . فإذا قيل : إن المال من البواعث على نشاط الفكر وعلى الذكاء قلنا : إن حظ الفقير من المواهب والفضل والعقل لا يقل عن حظ الغنى منها .

والتاريخ يدل على أن فئة عظيمة من مشهورى الرجال الذين امتازوا بالأعمال العظيمة ، والفتوحات الباهرة ، أو بالعلوم الغزيرة ومواهب الكتابة والشعر - نبغوا وظهروا من صفوف الفقراء ومتوسطى الحال ، ولا مشاحة في هذا ؛ لأن من هؤلاء كل رجال العمل والفنون والصناعات وأصحاب الاختراعات ورجال العلم أيضا .

إن لراحة البال وهدوء الفكر تأثيرا واضحا في سعادة الإنسان بل هو السعادة نفسها ، والغنى أكثر الناس خوفا من الطوارئ ، وإن كان أقلهم شكوى من تعسر قضاء الحاجات ، ومن الحصول على ما شتهى من المآكل ، وطاب من المشارب والمساكن .

ولما كان اتقيل من الزاد يملأ البطن ويدفع الجوع ، والبسيط من الثياب يستر العورة ، ويدفع عادة الحر والبرد ، والكوخ الحقيير يكفي لسكن الإنسان عند الضرورة - لم تكن هذه من أسباب الشقاء ، كما أنها ليست من بواعث الهناء ، وكانت متاعب الإنسان ليست من قلة المال ، وإنما من جشع النفس وعدم القناعة .

الفقر والعوز :

هنالك فرق بين الفقر والعوز : فالأول يتأتى أن يكون مع وجود الحاجات الضرورية للحياة والعيش ، والآخر يكون بعدم وجود تلك الحاجات . وبعدم استطاعة الإنسان الحصول عليها : فمن يتاح له أن يربح ما فيه كفافه وأسرته لا يكون معوزا وإن كان فقيرا ، ومن لا يستطيع هذا كان معوزا حقا .

والعوز من أكبر المسائل الاجتماعية التي يعنى علماء الاجتماع والاقتصاد بحلها ، وبالبحث عن وسيلة ناجعة تكفل للمعوزين حاجتهم الضرورية وتمنع أن يكونوا عالة على المجتمع : (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ)

من المتعذر بداهة إيجاد حل يساوي الناس بعضهم ببعض في الغنى والثروة ؛ لأنه إذا أمكن هذا في وقت ما لالتبث الحال أن تعود بعد قليل إلى ما كانت عليه من التفاوت بين الأفراد بسبب كسل البعض ونشاط البعض الآخر ، وتبذير فريق من الناس وحرص فريق آخر ، وبسبب التفاوت أيضا في العلم والجهل والذكاء والغباء . فوجود الأغنياء يتحتم وجود الفقراء ،

وبالتزاحم على موارد الكسب جرياً مع تنازع البقاء والأثرة - لا يتأتى أبداً حفظ الموازنة بين الناس على صورة ونسبة واحدة .

وسائل تخفيف شقاء العوز :

هنالك وسائل كثيرة لتخفيف الشقاء ، ولمنع انتشار الفوضى بسبب تكاثر المعوزين واضطرارهم إلى الحياة : فمن أهم هذه الوسائل مباشرة الحكومة جمع الزكاة ممن يجب عليهم لا نفاقها على المعوزين ، وإيجاد عمل نافع لهم يرتزقون منه بإنشاء المعامل والمصانع من أموال الزكاة : ثم قيام الجماعة بأود الشيوخ والعجزة وذوى العاهات البليغة : ومنها التعليم بالمجان والقضاء على الاحتكارات والمضاربات ؛ لأن هذه هي التى يجمع الأغنياء بها المال ، ويسلبونه من الأفراد ؛ وهى فى الحقيقة السبب الأقوى فى سد أبواب الرزق والكسب فى وجوه الكثيرين من الناس ، وفى خلق روح الإِجرام فى نفوس من أضرت بهم الفاقة ، وخط عليهم العوز . ويوم تتساوى جرائم الأغنياء والفقراء فى نظر الناس ، وتكون السرقات المباحة بالاحتكار والمضاربة فى مستوى السرقات المعاقب عليها لا اعتبارها ضارة بالمجتمع — يكون ذلك خطوة واسعة فى سبيل إصلاح الاجتماع .

سلطان المال :

السيد يملك العبد فيكون له السلطان عليه ، فإن لم يكن هذا فلا يكون السيد سيداً ولا العبد عبداً . ويقال : إن الإنسان يملك المال . فإذا كان هذا صحيحاً وجب أن يكون للمالك سلطان على ما يملك . ولما كان الواقع أن الغنى فى هذا العصر أسير المال ، وله السلطان التام عليه - كان المال هو المالك !!

لقد دالت دول عدد عظيم من الأفكار الفاسدة ، وتقوضت مع مرور الزمن ورقى الأفكار دعائم كثير من المعتقدات الباطلة ، ولكن سلطان

المال على الناس لازال على حاله الأولى إن لم يكن قد تضاعف . قام هذا السلطان على اعتقاد باطل ، ودام بدوام جهل الحقيقة أو تجاهلها ، وباستمرار تأثير الوهم في العقول ، والغرور في الأفكار ، والعادة في النفوس . فلو زال أساس هذا السلطان الوهمي لتحرر الناس من قيود العبودية والوثنية ، ولا ارتفعت عن العيون الحجب التي منعتها صدق الرؤية ، وعن الأفكار كل وسائل الإيهام والتغريب التي أبعدتها من تمييز الحقائق ، وجعلتها تخط بين المال والسعادة .

قيمة المال :

الإفراط في تقدير قيمة الشيء يدنى التقدير من الخطأ . والإنسان هو الذي قدر قيمة الحياة واقترضها ثمينة ، وفاته أنها لا قيمة لها بدونه ، فلا جرم أنه أفرط في تقديره ، فأخطأ في عرفان قيمتها ، وقدر لها قيمة وهمية هي دونها في كل حال . فكذلك المال : له مزايا كثيرة تيسر للبرء كثيراً من بواعث السرور ، ولكن الإنسان أفرط في تقدير قيمته حتى تجاوز الحقيقة ، فكان هذا الإفراط داعية سلبه أسباب السعادة الحقيقية ، والاعتباط الصحيح ، وقوة الإرادة ، واستقلال الذات . وكل من يجعل مصدر هوائه من غير ذاته يرى نفسه دون ذلك المصدر ، فيخضع له ويفقد حرية نفسه ،

ولكن الناس لا يرون هذه الحقيقة ، ولا يصدقون الواقع ؛ لعدم تمييزهم الفارق بين القيمة الذاتية للمال ، وبين ما أسند إليه إسناداً .

إن قيمة الذهب في الصحراء الخالية من الناس هي دونها في المدينة العامرة ، وشأن الدرهم مع الغنى لا يستوى مع شأنه عند الفقير المحتاج ، وتقدير البخيل الدينار لا يماثل تقدير المسرف إياه . كل هذه حقائق يستنبط منها العقل أن قيمة المال فيما ينفع له ، وفيما ينيل الإنسان من رغبات نفسه . فهذه القيمة اللاذاتية تثنى وتنقص ، وتغلو وترخص بقدر كثرة رغبات النفس وقتها وبقدر حاجاتها : سئل مثر من كبار الممولين عما إذا كان

سعيدا ، فقال : إذا كان الغرض من السعادة إمتاع النفس وتلذذها بما تشتهيه من اللذائذ المادية فإن المال عندي كثير يكفل قضاء كل تلك الحاجات ، وأما إذا كان معنى السعادة سرور النفس واغتيابها فإن حظي كحظوظ الناس منها ؛ لأن الهناء لا تباع ولا تشتري ، فما المال بموصل إليها .

وسئل عن حقيقة سروره بما يشتريه من منتخبات التحف والآثار ؛ فقال : إن التحفة قبل أن تصل إلى يدي تكون طبعاً عند بائعها . فلو كانت هي وساطة للسعادة والاغتياب بها ما باعها ؛ فما يبيع تلك التحف إلا لينال عوضاً منها ، يظنه يؤدي إلى رغبته ، ويفضي إلى هناءته ، وربما كان سرور البائع بالتخلص مما باع أكثر من سروري بما اشتريته منه .

وفي الحقيقة قيمة التحفة على قدر ندرتها وإعجاب الناس بها ورغبتهم فيها ، والناس ليسوا سواء في النظر والتقدير ، فلولا اختلاف الأنظار لبارت السلع . ومادامت قيمة الشيء تختلف باختلاف رغبة الناس ونظرهم فلا تكون قيمته في ذاته ، وإنما فيما يلوح له من الشأن عند الغير . وفي مقدار ندرته والرغبة فيه . وما قيمة هذه حالها من الاختلاف إلا قيمة وهمية حائلة .

النَّظَرُ الْحَقُّ إِلَى الْمَالِ :

ليست الحكمة في احتقار المال ، وإنما في عدم الاستعباد له ، ولو أمكن هذا لتحرر عشاقه وضحاياهم جميعاً من ربة الإذلال والخضوع . إنهم يعشقون المال لذاته ، وللتلذذ بجمعه ، لا بسبب ما يكفله من الخير إذا حسن استعماله . ولهذا تراهم يفقدون في سبيل جمعه واكتنازه أكثر وأثمن مما ينالون : يفقدون القوة الذاتية ، والمجهودات ، والوقت ، والفكر ، والحياة ، بدون أن يعوضهم المال من ذلك شيئاً يذكر . فلو أتيح أن يتعلم الصغار من الطفولة حقيقة أمر المال وقيمه الذاتية ، والغرض منه ، والسبل التي يجمع لتثمينه فيها - لشبوا وهم واثقون تمام الثقة من أن السعادة لا تكون بوفرة المال ولا بالشهرة والمجد الباطل ، ولو ثقوا أيضاً من أن ما يشعر به الإنسان من السعادة

بسبب طيب القلب ونقاء السريرة والقناعة لا يمكن أن يحصل بدونها ، ولومع الغنى والجاه .

إذا نظرنا هذه النظرة الحق إلى المال استقلنا ذاتا وإرادة ؛ إذ الغنى الصحيح هو استقلال الذات وحرية الإرادة ؛ لأنهما سبب قوة الإنسان وعظمته ونيل النفس وشرفها ، وبهما يتأتى قمع الميول الفاسدة ، ونيل الغايات الجليلة ، وتحقيق الرغبات الصالحة ؛ كما يتأتى شعور النفس بالسرور الصادق والسعادة الحقيقية .

المال للخير وللشر :

يرى الجرم الغفير أن السعادة فى المال الوفير ؛ وهو رأى خاطل ، وهم لاشك باطل : يؤيد ذلك العقل السليم ، والدين القويم ؛ والعلم الصحيح ؛ والواقع المحسوس . والغالب أن المال قد يجر إلى المصائب ، ويوقع فى المعاطب ، وهو من حبائل الشيطان ، وللا نسان فتان ؛ يكتسبه من طرقه المشروعة وغير المشروعة . ويسلك لنيله السبل المألوفة وغير المألوفة . وفى الاتفاق كثير أما يغضب الرزاق بانتهاك حرمة الآداب والدين والأخلاق ، فتجانبه السعادة والنزاهة ، ويزداد به شقاوة وشراسة : كالنار تطفأ بالزيت فيزيدها تقاداً ، ويصعد لها إصعاداً . وكالظمان يشرب من ماء البحر فلا تبرد غلته ، بل تشتد عليه لهفته . فمثل هذا يتهاك فى الحصول على امتياز ، ويستमित فى سبيل نيله واحتيازه ، يجمعه من حله ومن غير حله ، ويمنع ذوى الحقوق حقوقهم ؛ ويلهو عن واجب الله ؛ وينفقه فيما لا يرضاه . وبذلك يكون الثراء وسيلة الشقاء ، لا كما تزعم الدهماء من أنه سبيل الهناء ، ويكون هو الفقر الحقيقى الذى ذمه الأنبياء والحكماء ، وندد به الشعراء ، وفضلوا العُدم عليه : روى عن المسيح عليه السلام أنه قال : « فى المال ثلاث خصال » قالوا : « وما هى يا روح الله ؟ » قال : « لا يكسبه من حله » قالوا : « فإن فعل » قال : « يمنعه من حقه » قالوا : « فإن لم يفعل قال : « يشغله إصلاحه عن عبادة ربه » وقال حكيم :

«ألم تر ذا الغنى؟ ما أدوم نصبه، وأقل راحته، وأخس من ماله حظّه، وأشدّ من الأيام حذرّه، وأغرى الدهر بثّله وتقصّنه!! ثم هو بين سلطان يرعاه، وأكفاء يتنافسونه، وولد يودون فراقه، قد بعث عليه الغنى من سلطانه العناء، ومن أكفائه الحسد، ومن أعدائه البغى، ومن ذوى الحقوق الذم، ومن الولد الملامة، لا كذى البلغة: قنع فدام له السرور، ورفض الدنيا فسلم الجسد، ورضى بالكفاف فتكبته الحقوق: وقال الشاعر:

من شرف الفقر ومن فضله على الغنى إن صح منك النظر
أنك تعصى الله تغى الغنى ولست تعصى الله كي تفتقر

حقاً إن الغلو في تقدير القيمة الوهمية للمال هو علة خراب الذمم، وانتشار الفساد، والتفنن في الخداع، والغش في المعاملات التجارية. فحب المال إلى درجة العبادة يسهل استباحة المحذور وارتكاب الجرائم، ويبدل حقائق الأحوال ومقتضياتها، فيحترم الناس الغنى لغناه، وإن كان لصاً جديراً بالاحتقار والمقت، ويحتقرون النبل الشريف لفقره، وإن كان جديراً بالتكريم والإجلال.

يا لله من فظاعة ما يحدث: إن الطفل منذ الطفولة يحنى ركبتيه للعجل الذهبي، والصحف لا تكف عن الإفاضة بمدح الأغنياء، والناس يتركون لهم الأماكن الممتازة حتى في دور الصلاة والعبادة، والنساء أدنى إلى الانخداع بمظاهر الغنى من الرجال، والجميع يرون المال حائلاً بين حقيقة الإنسان وإن سفل بخصاله، وبين مظاهره الداعية إلى احترامه وإجلاله، فالدنيا إذا أقبلت على أحد أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه. فالكل خادع ومخدوع، وغار ومغرور، وحقيقة الحال ضائعة بين الخداع والغرور، وبين المظاهر الكاذبة وتأثيرها في العقول.

أما إذا كسب المال من حيث يجب، وأنفق فيما يجب وبقدر ما يجب - كان في السعادة أقوى سبب، وكان بمدوحاً، وصاحبه مغبوطاً، والسعى في نيّله مطلوباً: قال تعالى: «فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ» وروى

عن ابن عمر : « احرث لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واحرث لآخرتك كأنك تموت غداً » وقال الشيرازي : « لاتستهزئ بالمال وتنميته ؛ فان المال آلة للمكارم ، وعون على الدهر ، وقوة على الدين ، ومألفه للأخوان ، ومعين على حوادث الزمان ، وبهجة الدنيا وزينتها : قيل لحكيم : لم تجمع المال وأنت حكيم ؟ قال : لأصون به العرض ، وأؤدي به الفرض ، وأستغنى به عن القرض . وفقد المال يصحبه قلة الاكثراث من الناس ، وتبعه قلة الرغبة فيه والرغبة منه ، ومن لم يكن موضع رغبة أو رهبة استخف به الناس » وقال الشاعر :

مأحسن الدين والدنيا إذا اجتماعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل
وقال آخر :

إذا المرء لم يكسب معاشا لنفسه شكا الفقر أو لاقى الصديق فأكثر
وصار على الأدين كلاً وأوشكت صلات ذوى القربى له أن تنكراً
فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا
وما طالب الحاجات من حيث تبتغى من الناس إلا من أجداً وشمراً
فلا ترض من عيش بدونٍ ولا تتم وكيف ينام الليل من كان معسراً ؟
فالمال قوة يمكن استخدامها للخير ، كما يمكن استخدامها للشر ، فلا يجوز أن يسمو بها الإنسان عن مكانها من الاعتبار .

المال آلة تقضى بها الحاجات ، والآلة نافعة لا تحتقر ، ولكنها لا تأخذ شأنها غير الذي لها ، ولا تضيع إلى جانبها قيمة العامل بها ، ولا كرامته الذاتية . ولما كان النزوع بقدر المال إلى أسمى من قدره الحقيقي يغض من كرامة الإنسان كان من الواجب الاحتفاظ بالكرامة الذاتية ، ولو بتضحية كل ماعداها ، فليست كرامة المرء مقدرة بما في حوزته من المال ، وإنما بماله من الصفات الفاضلة ، والأخلاق الكريمة ، والأعمال الجليلة : فالمادحون من الشعراء يتعمدون المغالاة في المدح ، وينسبون إلى ممدوحهم كل ما يعد

من المفاخر والمحامد ، وما عهدناهم ذكروا الغنى محمداً لذاته ، ولا عدوه
مكرمة بخصوصه . فالرفعة والفخر ليسا بالثروة الواسعة ، ولا بالمراكز
السامية ، وإنما بما للأنسان من شمائل نبيلة ، وتربية عالية ، وأخلاق محمودة
فعجيب أن يغضب الإنسان عينه لكي لا يبصر وجوه المفارقة بين ما يفترضه
للثروة من المزايا وبين حقيقة الحال ، وعجيب أيضاً أن ينفرد برأيه ، وألا
يحفل بأقوال الحكماء والأنبياء عنها ، ولا بما نسب إلى الخالق منها .

ما يجب في تناول المال

لتنال به السعادة

الولوع بالدنيا رأس كل جريمة ، وليست الدنيا مقصودة لذاتها ، بل هي
مزرعة الآخرة ، ففيها الخير النافع ، وفيها السم الناقع ، ومثالها مثال حية :
يأخذها الراقى ، ويستخرج منها الترياق ، ويأخذها الغافل فيقتله سمها من حيث
لا يدري . والمال من الخيرات المتوسطة ؛ فإنه ينفع من وجه ويضر
من وجه ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك . فلم يكن بد من الاقتصار على النافع
منه ، والأحتراز من المهلك . وأصل ذلك معرفة رتبة المال وقيمه ؛ فإن
أصل الأمور كلها العلم بحقائق الأشياء ؛ فعلى طالب السعادة مراعاة أمور في
حق المال من حيث قيمته والدخل والخرج والقدر المتناول بالنية الواجبة ،
وسنوضح كلا من هذه الأمور الخمسة فنقول :

١

قيمة المال ورتبته

المقتنيات المرغوب فيها ثلاثة : نفسية ، وبدنية ، وخارجية . والخارجية أدنى
هذه الثلاثة ، والمال من جملة الخارجية ، والدراهم والدنانير أحط أنواع
المقتنيات الخارجية ؛ لأنهما خادمان ولا خادم لهما ؛ إذ النفس تخدم العلم والفضائل
النفسية لتحصلها ، والبدن يخدم النفس ، فيكون آلة ، والمطاعم والملابس

تخدم البدن ، والدراهم والدنانير تخدم المطاعم والملابس ، والمقصود من المطاعم إبقاء البدن ، ومن البدن تكميل النفس . فمن عرف هذا الترتيب وراعه فقد عرف قدر المال ، ووجه رتبته ، ووجه شرفه من حيث هو ضرورة كمال النفس . ومن عرف غاية الشيء واستعمله لتلك الغاية فقد أحسن إلى الغاية ، وعند ذلك يقتصر على قدر الحاجة الموصلة إليها ، فلا يركن إليه معتكفا بكنه همته عليه . وبهذا النظر تنكشف له الشبهة في ذم الله تعالى المال في مواضع حيث قال : (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) ومدحه حيث امتن به فقال : (وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ) فإنه من حيث كونه وسيلة للحياة الباقية والسعادة الدائمة محمود ، ومن حيث كونه صارفا عنها مذموم ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « نِعَمَ الْمَالُ الصَّالِحُ » وقال تعالى : (لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) وكيف لا يكون خاسرا من يجمع الشعر لدابته ثم يترك الدابة ، ويشغل بتنقية الشعر وعد حياته وبناء حصن حواليه ، حتى تهلك الدابة جوعا !! وهذا مثل من صرفته الدنيا عن الآخرة وهو الخسران . بل مثل الناس كلهم في الاغترار بزهرة الدنيا والاعتكاف على لزوم لذاتها مثل راكبي سفينة متوجهين إلى أفضل بلدة ينال فيها أعلى رتبة ، فأفضت بهم السفينة إلى جزيرة ذات أسود وأساود ، فأمرُوا بالخروج لينزودوا منها ، وأن يكونوا على حذر من غوائل الجزيرة ، فأرأوا حجراً مزبرجا وزهراً منوراً ، فأعجبهم ذلك ، وشغفوا به ، فتباعدوا عن المركب ونسوه ونسوا المقصد ، وبقوا لاهين حتى سارت السفينة ، وجن عليهم الليل ، فثارت عليهم الأسود تفترسهم والأساود تنهشهم ، ولم يغن عنهم حجرهم وزهرهم شيئاً ، فيقول واحد منهم : (يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا) والآخر يقول : (مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهَ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهَ) وبعضهم يقول : (يَا حَسْرَتَا

عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ) ولم يبق بأيديهم إلا حسرة وندامة لا آخر لها ومجاورة الأفاعى والأسود مع الخزي والنكال. فهذا بعينه مثال المغترين بمتاع الدنيا . ولهذا الخطر العظيم استعاذ الخليل إبراهيم وقال : (اجنبني وبنيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ) وعنى بها هذين الحجرين : الذهب والفضة ؛ إذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى فيها أن تُعْتَقَدَ إلهية في شيء من الحجارة . ولهذا قال علي : « يا حميراء غري غري ، ويا بيضاء غري غري ، ولذلك شبه عليه السلام طلاب الدنانير والدراهم المشغوفين بهما بعبدة الحجارة ، فقال « تَعِسَ عَبْدُ الدَّرَاهِمِ تَعِسَ عَبْدُ الدَّنَانِيرِ وَلَا اَنْتَعَشَ ، وَإِذَا شَيْكَ (١) فَلَا اَنْتَقَشَ » (٢)

٢

الدخل

الدخل : إما بالاكْتِسَاب ، وإما بالبخت : أما البخت فيراث أو وجود كنز أو حصول عطية من غير سؤال . وأما الكسب فجهاته معلومة . وأخذ المال دون تخرج مذموم شرعاً ، فلا ينبغي أخذه إلا من وجهه . والوجوه الطيبة معلومة من الشرع : فإن وجد حلالاً طيباً فليأخذه ، وإن كان حراماً محضاً فليجتنبه ، وإن كان الغالب أنه حلال فإن قدر على الحلال المطلق من غير تعب فليترك ؛ فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . وإن لم يتيسر الحلال المطلق فليأخذ منه قدر الحاجة ، فإن كان يقدر على الحلال المطلق ولكن بعد طول التعب واستغراق الوقت فله حالتان : إن كان من العاملين بالأبدان مع اعتقاد راسخ فليشتغل بطلب الحلال ؛ فإن تعبته في طلب الحلال عبادة كتعبه في سائر العبادات . وإن كان من أصحاب القلوب وأرباب العلوم ، وكان يتعطل عليه ما هو بصده لو استغرق أوقاته في الحلال المطلق -

فليأخذ من الذى يتيسر قدر حاجته ؛ فإن المحذور المحض قد ينقلب مباحاً خوفاً من محذور آخر شر منه

٣

الخرج

كما للدخل وجه معين كذلك الخرج ، فلا بد من مراعاة الترتيب فيه .
فلا نفاق محمود ومذموم ، والمحمود منه ما يكسب صاحبه العدالة : وهو الصدقة المفروضة والإِنفاق على العيال . ومنه ما يكسب الحرية والفضيلة وهو إيثار الغير على النفس على الوجه المندوب إليه شرعاً .

والمذموم ضربان : إفراط وتفريط : فالإفراط : الانفاق أكثر مما يجب - بحيث لا يحتمله حاله - فيما لا يجب ، والإفراط خلال بالأهم ، والصرف إلى ما دونه . والتفريط : المنع عما يجب الصرف إليه ، والنقصان من القدر الذى يليق بالحال . ومتى أخذ المرء المال من وجهه ووضع في وجهه كان محموداً مأجوراً ، والناس في المال ثلاثة أصناف : صنف منهمكون في الدنيا بلا التفات إلى العقبى إلا باللسان وحديث النفس ، وهم الأكثرون ، وقد سموا في كتاب الله عبدة الطاغوت وشر الدواب ونحوها . وصنف مخالفون لهم غاية المخالفة : اعتكفوا بكنه همهم على العقبى ، ولم يلتفتوا أصلاً إلى الدنيا : وهم النساك . وصنف ثالث متوسطون وفوا الدارين حقهما : وهم الأفضلون عند المحققين : لأن بهم قوام أسباب الدنيا والآخرة . ومنهم الأنبياء عامة عليهم السلام : بعثهم الله عز وجل لإقامة مصالح العباد في المعاش والمعاد . وقيل ثلاثهم - المراد بقوله تعالى : (وَكَتُمُ أَرْوَاجاً ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ، وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ)

فالمراعى للدنيا والدين كما يجب ، وعلى ما يجب ، جامعاً بينهما - خليفة

الله في أرضه ، فهو السابق عند أهل هذا القول .

وقال بعض المحققين : « الناس ثلاثة : رجل شغله معاده عن معاشه فهو من الفائزين ، ورجل شغله معاشه عن معاده فهو من الهالكين ، ورجل مشغل بهما ، وذلك درجة المخاطرين » .

وجلي أن المنازل الرفيعة لاتنال إلا باقتحام الأخطار . وقد حكى أن بعض أولاد الملوك العادلة عظمت رتبته في العلم والحكمة ، فاعتزل الناس وزهد في الدنيا ، فكتب إليه بعض الملوك : قد اعتزلت مانحن فيه ، فإن علمت أن ما اخترته أفضل فعرفنا ؛ لنذر مانحن فيه ، ولا تحسبني أقبل منك قولاً بلا حجة . فكتب إليه :

« اعلم أننا عبيد لرب رحيم ، بعثنا إلى حرب عدو ، وعرفنا أن المقصد من ذلك قهره أو السلامة منه ؛ فلما قربنا من الزحف صرنا ثلاثة أقسام : متخوف طلب السلامة منه ، فاعتزله ، فالتزم ترك الملامة ، وإن لم يكتسب المحمدة . ومتهور قدم على غير بصيرة ، فجرحه العدو وقهره ، واستجلب بذلك سخط ربه . وشجاع أقبل على بصيرة ، فقاتل وأبلى ، اجتهد ، فهو الفائز التام الفوز . وإني لما وجدتني ضعيفاً رضيت بأدنى الهمتين وأدون المنزلتين . فكن أيها الملك من أفضل الطوائف تكن من أكرمهم عند الله . »

وهذا الكلام يكشف حقيقة الأمر فيه ، وينبه على صحة ذلك — قوله

تعالى : (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ) وإنما يكون الإحسان بإدخال السرور على قلوب المسلمين بالمال ، ولكن الخطر فيه عظيم ؛ فإنه ربما يشتغل من ضعف بصيرته بما فيه ضرره من حيث لا يدري . فلخطره وجبت المبالغة في الزجر عنه .



القدر المتناول

لاغنى بك عن ملبس ومسكن ومطعم ، وفى كل واحد ثلاثة أنواع :
أدنى وأوسط وأعلى :

الملبس :

أدنى درجات الملبس من حيث القدر ما يستر الجزء المعتاد ستره من أدنى الأنواع وأخشنها ، وبالإضافة إلى الوقت ما يبقى يوما وليلة ، كما نقل عن عمر رضى الله عنه : أنه رقع قميصه بورق شجر ، فقيل له : هذا لا يبقى . فقال : « أو أحيأ إلى أن يفنى ؟ » .

وأوسطه ما يليق بمثل حاله من غير تنعم وترفه ، ولا ملبوس حرام كأبريسم غالب . وأعلاه جمع الثياب وطلب الترفه بها على ما عليه جماهير أهل الدنيا .

المسكن :

وأدنى المسكن ما يقل من الأرض : من مسجد أو ملجأ أو نحوهما . وأوسطه ملك لا تزاحم فيه ، فتقدر على أن تخلو فيه بنفسك ، ويبقى معك عمرك ، وهو على أقل الدرجات من حسن البناء والمرافق ، وهذا حد الكفاية . وأعلاه دار فيحاء فسيحة مزينة البناء كثيرة المرافق ، وتتبعها زيادات لا تنحصر على ما يرى عليه أرباب الدنيا وأولو الرتب . والأول هو قدر الضرورة ، إذ المقصود من المسكن أرض تقلك يحيط بها حائط يمنع عنك العوادي ، ويظلك سقف يمنع المطر وحر الشمس . ولن يقنع به إلا المتوكلون . والأوسط هو حد الكفاية وما بعده خارج عن حد الدين بإقباله على أمر الدنيا ، واشتغاله بزيئتها ، أما الجلوس فيها مع الغفلة عنها دون اشتغال بها وطمأنيتها إليها فمن المباحات .

المطعم:

أما المطعم فهو الأصل العظيم ، إذ المعدة مفتاح الخيرات والشرور . وله أيضاً ثلاث مراتب :

أدناها : قدر الضرورة : وهو ما يسد الرمق ، ويبقى معه البدن وقوة العبادة ، وذلك يمكن تقليله بالعادة : بتقليل الطعام شيئاً فشيئاً ، حتى يعود الصبر عنه عشرة أيام وعشرين ، وقد انتهى الزهاد في القدر كل يوم إلى حصّة ، وبعضهم في الوقت إلى عشرين يوماً ، وقيل : إلى أربعين . وهذه رتبة عظيمة يقل من يستقل بها ، فإن لم يقدر على ذلك فالدرجة الوسطى : وهي في ثلث البطن ، كما ذكرناه من قبل . ولا ينبغي أن يزيد على القدر الذي حدده الشرع ، فالزيادة عليه بطنه . ثم يقتصر أيضاً من نوعه على الوسط ، كما اقتصر من قدره على الوسط ؛ فنعم السعيد من قنع بقدر الكفاية ، ولكن النظر يختلف في قدر الكفاية من حيث الوقت : فرب إنسان فارغ القلب من قوت يومه مشغول القلب بما بعده ، وينتهي حرصه إلى أن يقدر لنفسه عمراً طويلاً ، ويريد أن يفرغ قلبه طول عمره ، ثم قد يقدر له حاجات ، فيطلب الاستظهار بالخزائن ، وهو الضلال المحض . ومن أوتي من هذه الأمور قدر كفايته ثم اشتغل قلبه بغيره كان مغبوناً : قال عليه السلام : « مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرِّهِ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ ، وَلَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَدِّ أَفْرِهَا »

٥

النية الصالحة

الامر الخامس : أن تكون نية المرء صالحة في الأخذ والترك : فيأخذ بما يأخذه ليستعين به على العبادة ، ويأكل ليتقوى به عليها ، ويترك ما يترك زهداً فيه واحتقاراً له : فقد قال عليه السلام : « مَنْ طَلَبَ رِزْقَهُ عَلَى مَاسِنٍ

فَهُوَ جِهَادٌ» وقال عليه السلام لابن مسعود : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُوجَرُّ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى اللَّقْمَةِ يَضَعُهَا فِي فَمِ امْرَأَتِهِ » وأراد بالمؤمن من يعرف حقائق الأمور فيقصد بما يتعاطاه وجه الله ، والاستعانة على سلوك سبيله .

وعند هذا يتبين أنه ليس الزاهد من لا مال له ، بل الزاهد من ليس مشغولا بالمال ، وإن كان له أموال العالمين ، ولذلك قال على رضى الله عنه : « لو أن رجلا أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله فليس براغب » فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله : بأن تكون حركتك مقصورة على عبادة ، أو على ما يعين على عبادة ولا يستغنى عنه العباد : كالأكل وقضاء الحاجة مثلا ؛ فانهما معينان على العبادة ، وهما أبعد الحركات عن العبادة ، وعند هذا يكون الكامل النفس في تناول الدنيا كالراقى الحاذق في مس الحية متقيا سمها ومستخرجا جوهرها ، والعامي إذا تشبه به ونظر إليه ظن أنه أخذها مستحسنا شكلها وصورتها مستلينا مسها مستصحبيا إياها ، فإذا ظن ذلك أخذها وتقلدها ، فقتلته . وقد شبهت الدنيا بها فقليل :

الدنيا كحبة تنفث السموم النواقع ، وإن لان ملمسها . وكما يستحيل أن يتشبه الأعمى بالبصير في تخطي قلال الجبال وأطراف البحار والطرق المشوكة . فمحال أن يتشبه العامي بالكامل في تناول الدنيا . وإذا تؤمل ملك سليمان وما أوتي مع رتبة النبوة علم أن الزهد زهد النفس ، لا خلو اليد . وكيف تضر الدنيا بالأنبياء والأولياء ، وهم يعرفون ضررها ونفعها ورتبتها في الوجود ، ويعلمون أن للإنسان في وجوده ثلاث منازل : منزلة في بطن أمه ، ومنزلة في فضاء العالم ، ومنزلة بعد الموت . والدنيا في مثال نزل بُنى ، وينتهى إليه المسافر في المنزل الأوسط ، وقد هيئت فيه أسباب وأوان وأقوات ؛ ليستعين بها المسافر ، ويتنفع بها ارتفاعه بالعارية والمنحة ، ويخليها لمن يلتحق بعده ، فيأخذها بشكر ، ويتركها بانشرح صدر ، وقد انتهى إلى النزل جماعة من الحمقى ،

فظنوا أن هذا المنزل وطن وأن هذه الأسباب ليست عارية وإنما هي هبة مؤبدة ، فصاروا لا يخرجونها من أيديهم إلا بكسر اليد ونزع الروح . وقيل : إن مثلَ الناس فيما أعطوا من الدنيا كمثل رجل هيا دارا ، وهو يدعو أقواما إلى داره على الترتيب واحدا بعد واحد ، فأدخل واحدا داره ، فقدم إليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين ؛ ليشمه ويتركه لمن يلحقه لا ليتملكه ، فجهل رسمه ، فظن أنه وهب له ، فلما استرجع منه ضجر وتفجع . ومن كان عالما برسمه انتفع به ورده بانشرائح صدر .

السبب السادس من أسباب السعادة

القناعة

حقيقتها :

عناصر القناعة خمسة : الرضا بالكفاف ، والإجمال في الطلب ، والاطمئنان إلى القدر ، والتوكل على الله ، والزهد في الدنيا . هذه هي القناعة وهي الغنى الحقيقي الذي أشرنا إلى شيء منه سابقا : قال عليه الصلاة والسلام : « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرِضِ ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ » أى أن الغنى غنى النفس وشبعها وقلة حرصها ، لا كثرة المال مع الحرص على الزيادة ؛ لأن من كان طالبا للزيادة لم يستغن بما معه ، فليس له غنى : ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « الْقَنَاءَةُ كَنْزٌ لَا يَنْقَدُ » إذا لا تفارق منها لا ينقطع ؛ لأن صاحبها قد حصر رغباته فيما تحت يده ، وكلما تعذر عليه شيء من أمور الدنيا قنع بما دونه ورضى . وهذه هي السعادة التامة :

إذا شئت أن تحيا سعيدا فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونها . ومن طلب العليا من العيش لم يزل فقيرا وفي الدنيا أسير غيورها . لذلك يجب على من رزق الكفاية ، ووجد القصد من السعادة الخارجة ألا يشتغل بفضول العيش ؛ فإنها بلا نهاية ، ومن طلبها أوقعته في مهالك

لأنهاية لها ؛ إذ الغرض الصحيح من الكفاف والقصد مداواة الآلام ،
 والتحرز من الوقوع فيها ، لا التمتع وطلب اللذة ؛ فإن ذلك يأتي عرضاً
 لا قصداً ، ومن عالج الجوع والعطش اللذين هما مرضان مؤلمان حادان
 لا ينبغي له أن يقصد لذة البدن بل صحته ؛ فالعاقل يأكل ليعيش ولا يعيش
 ليأكل ، ومع ذلك فالذي يقصد صحة البدن سيلتذ لا محالة . وأما من طلب
 بالعلاج اللذة لا الصحة فلا تحصل له الصحة ، ولا تبقى له اللذة . وأما من لم
 يرزق الكفاية ، واحتاج إلى السعي والاضطراب في تحصيلها - فيجب ألا
 يتجاوز القصد وقدر حاجته منها إلى ما يضطره إلى السعي الحثيث والحرص
 الشديد والتعرض لقيح المكاسب أو ضروب المهالك والمعاطب ، بل يحمل
 في طلبها إجمال العارف بخساستها العالم بأنه يضطر إليها لنقصانه ، فيطلب منها
 القدر الضروري ،

فالاقتصار على الكفاف والسعي إلى القوت لحفظ النفس والبدن أمر
 لا يدمنه ، وأما الإيغال في ذلك والإفراط فيه فمشغلة لاحد لها وعناء لا غاية
 له ومدعاة إلى الخروج عن جادة الشريعة : روى عن النبي صلى الله عليه
 وسلم أنه خطب الناس فكان من خطبته قوله : « والله ما أخشى عليكم أيها
 الناس إلا ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا ، فقال رجل : يا رسول الله أيأتي
 الخير بالشر ؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ، ثم قال :
 كيف قلت ؟ قال : قلت يا رسول الله : أيأتي الخير بالشر ؟ فقال له رسول
 الله صلى الله عليه وسلم : إِنَّ الْخَيْرَ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ ، أَوْ خَيْرٌ هُوَ ؟
 إِنَّ كُلَّ مَا يُنْبِتُ الرَّيِّعُ يَقْتُلُ حَبَطًا ^(١) أَوْ يُلِمُّ ^(٢) إِلَّا آكِلَةَ الْخَضِرِ
 أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَلَأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقَمَّتِ الشَّمْسُ ثَلَطَتْ ^(٣) أَوْ بَالَتْ ،

(١) الحبط بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة : التخمّة وأن تأكل الماشية فتكثر ،

معنى تلتفخ لذلك بطونها ، ولا يخرج عنها ما فيها . (٢) أو يلم : يقارب القتل

(٣) الثلط : الرجيع الرقيق . وأكثرت ما يقال للإبل والبقر والبقرة ، ويقال :

ثُمَّ اجْتَرَّتْ (١) فَعَادَتْ فَأَكَلَتْ : فَمَنْ يَأْخُذُ مَالاً بِحَقِّهِ يُبَارِكُ لَهُ فِيهِ ، وَمَنْ يَأْخُذُ مَالاً بِغَيْرِ حَقِّهِ فَمِثْلُهُ كَمِثْلِ الَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ » ومعنى هذا الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم حذرهم من زهرة الدنيا ، وخاف عليهم منها ، فقال هذا الرجل : إنما يحصل ذلك لنا من جهة مباحة كغنيمة وغيرها ، وذلك خير ، وهل يأتي الخير بالشر ؟ وهو استفهام إنكار واستبعاد ، أى يبعد أن يكون الشيء خيراً ، ثم يترتب عليه شر ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أما الخير الحقيقي فلا يأتي إلا بخير ، أى لا يترتب عليه إلا خير . ثم قال : أو خَيْرٌ هُوَ ؟ معناه أن هذا الذى يحصل لكم من زهرة الدنيا ليس بخير ، وإنما هو فتنة . وتقديره : الخير لا يأتي إلا بخير ، ولكن ليست هذه الزهرة بخير ؛ لما تؤدي إليه : من الفتنة ، والمنافسة ، والاشتغال بها عن كمال الإقبال على الآخرة . ثم ضرب لذلك مثلاً : فقال صلى الله عليه وسلم : إِنْ كُلَّ مَا يُنْبِتُ الرِّيعُ يَقْتُلُ حَبِطاً أَوْ يُلِمُ إِلَّا آكَلَةَ الْخُضَرِ إِلَى آخِرِهِ ، ومعناه أن نبات الربيع وخضره يقتل حبطاً بالتخمة لكثرة الأكل أو يقارب القتل ، إلا إذا اقتصر منه على اليسير الذى تدعو إليه الحاجة ، وتحصل به الكفاية المقتصدة ؛ فإنه لا يضر . وهكذا المال : هو كنبات الربيع مستحسن تطلبه النفوس ، وتميل إليه : فمنهم من يستكثر منه ، ويستغرق فيه غير صارف له فى وجوهه ، فهذا يهلكه ، أو يقارب إهلاكه . ومنهم من يقتصد فيه ، فلا يأخذ إلا يسيراً ، وإن أخذ كثيراً فرقه فى وجوهه ، كما تَنْدِطُ الدَّابَّةُ ، فهذا لا يضره . قال الأزهري : « فيه مثلان » أحدهما للكثرة من الجمع المانع من الحق ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « إِنْ نَمَيْتِ الرِّيعُ مَا يَقْتُلُ » ؛ لأن الربيع ينبت أحراراً (٢) البقول ، فتستكثر

ثلث البعير : إذا أُلْقِيَ بعره رقيقاً . (١) اجترت : مضغت جرتها ، والجرة : ما يخرج

البعير من بطنه ليمضغه . (٢) أحرار البقول : الجيد منها

منه الدابة حتى تهلك . والثاني للمقتصد ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : «إلا آكلة الخضر؛ لأن الخضر ليس من أحرار البقول» وقال القاضي عياض: «ضرب صلى الله عليه وسلم لهم مثلاً بحالتي المقتصد والمكثر : فقال صلى الله عليه وسلم : أنتم تقولون : إن نبات الربيع خير ، وبه قوام الحيوان . وليس هو كذلك مطلقاً ، بل منه ما يقتل أو يقارب القتل : فحالة المبطلون المتخوم كحالة من يجمع المال ، ولا يصرفه في وجوهه ، فأشار صلى الله عليه وسلم إلى أن الاعتدال والتوسط في الجمع أحسن ، ثم ضرب مثلاً لمن ينفعه إكثاره ، وهو التشبيه بآكلة الخضر ، وهذا التشبيه لمن صرفه في وجوهه الشرعية . ووجه الشبه أن هذه الدابة تأكل من الخضر حتى تمتلئ خاضرتها ، ثم تثلث ، وهكذا من يجمعه ثم يصرفه ، والله أعلم »

القناعة والعمل :

يظن بعض المتعالمين الذين لم ينشئوا نشأة دينية فلم يتذوقوا طعم الدين ، ولم يتغذوا بلبانه — أن القناعة ، والرضا ، والقضاء ، والقدر ، والتوكل ، والزهد أمور تدعو إلى الجمود والخنول والكسل والتأخر . اعتقاد فاسد ، ووهم خاطئ . يدل على جهالة جهلاء ، وضلالة عمياء ؛ فإن الشرع أمر بالسعى إلى العيش وحث على الجد في تحصيل الرزق ، وكانت دعوته إلى هذه الأمور ؛ ليكون المرء في عمله غير مروع القلب ، ولا مشتت الفكر ، بل رابط الجأش ، ثابت الجنان ، معتمداً على الله في عمله ، مستمداً منه المعونة ، ثم هو بعد ذلك لا يحزنه فوت المطلوب ، ولا يطله نيل المرغوب ؛ إذ النتيجة من تقدير الملك القادر ، وما عمله هذا إلا سبب ظاهر : (وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

وقد جمع الله تعالى القناعة والرضا والقضاء والقدر ، والتوكل والزهد في قوله تعالى : (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ

قَبْلَ أَنْ تَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ، لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

فأنت ترى بهذا أن الدين قد دعا إلى هذه الأمور لغاية سامية ، وحكمة عالية يتوقف عليها النجاح في الأعمال بتقائها ، وبلوغ الآمال بحكام وسائلها : هذه الحكمة وتلك الغاية هي غرس الاطمئنان في النفوس وقت القيام بالعمل ، وإنزال السكينة على القلوب عند ظهور نتيجته ، ولو كانت على غير المنتظر من حيث يعلم العامل أن ما وقع قد سبق تقديره من الحكيم الخبير ، وأنه ليس له قوة على دفعه ، بل بما يزيد اطمئنانه ، ويثبت جنانه - اعتقاده أن الخير في الواقع ، وأنه لو اطلع على الغيب لاختار ذلك الواقع ، كما أخبر بذلك سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وأنه إنما سعى جهده لما كان يظنه خيرا ، ولكن الخير الحقيقي هو ما أراده الله له .

فخير علاج لمن تجرد الرياح بما لا يشتهي هو الرضا بالقدر . وأما من لم يعتقد ذلك فيكون في عمله قلق الخاطر خوف الإخفاق ، مشتبك الفكر خشية الزلل ، متوتر الأعصاب خيفة السقوط ، ومن فرقه تتفرق قواه ، فيكون عن الإيتقان والإجادة بمنحاة ، ويؤتى من ناحية معتقده ، فيقع فيما يخشاه ، فيرغى ويزبد ، ويرق ويرعد ، ويبخع نفسه حزنا ، ويتحزنا وكدا . فأين هذا من يسير في عمله مرتكنا على جانب ربه ، راضيا بقضائه ، وأن ماسيكون وعلى أي وجه يكون هو من آلائه ونعمائه ، فيشكره على السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، اللهم إن الفرق بينهما هو الفرق بين الاطمئنان والقلق ، والأمن والفرق ، والنجاة والغرق ، واليأس والأمل ، والنجاح والخيبة .

انتصار الإسلام بهذه العقائد :

ولا غرابة فيما قدمناه من أثر هذه الصفات في سعادة الإنسان ونجاحه ؛ فقد انتصر الإسلام بالسلف على قلة عددهم وعدتهم ؛ لا شراب هذه العقائد

في قلوبهم بقوة إيمانهم ، وامتزاجها باحتمهم ودمهم ، وتغلغلها في نفوسهم إلى مدى بعيد . وتأثرهم بها إلى أقصى غاية ، يزكي الواحد منهم نفسه بالخروج لله عن كل أمواله ، بل الجود بالنفس في إعلاء كلمة الله كان أحب آماله :
يجود بالنفس إن ضن الجواد بها * والجود بالنفس أقصى غاية الجود
وإليك مثلاً تبين مبلغ أثر هذه العقيدة في تقدم المسلمين :

الأول : لما حصر المسلمون في فتح مصر حصن بابليون أرسل المقوقس إلى عمرو ابن العاص : « إنكم قد ولجتم في بلادنا ، وألحتم على قتالنا ، وطال مقامكم في أرضنا ، وإنما أتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم ، وجهزوا إليكم ، ومعهم من العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أتم أسارى في أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالاً منكم ، نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن يغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ، ولا نقدر عليه ، ولعلكم أن تدموا إن كان الأمر مخالفاً لمطلبكم ورجائكم ، فابعثوا إلينا رجالاً من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء »

فلما أتت عمراً رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين ، حتى خاف عليهم المقوقس ، فقال لأصحابه : « أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم ، ويستحلون ذلك في دينهم !! »

وإنما أراد عمرو بذلك أنهم يرون حال المسلمين ، ثم رد عليهم عمرو مع رسلهم : « إنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إما أن دخلتم في الإسلام ، فكنتم إخواننا في الإسلام وكان لكم مالنا ، وإن أبيتُم أعطيتم الجزية عن يد وأتم صاغرون ، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم ، وهو خير الحاكمين . »

فلما جاءت رسل المقوقس إليه ، قال : « كيف رأيتموهم ؟ » قالوا : « رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من

الرفعة ، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، وإنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون في صلاتهم . فقال المقوقس : « والذي يحلف به لو أن هؤلاء استقلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد »

وبما قاله عبادة بن الصامت للمقوقس : « إنما رغبنا وهمتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدواً ممن حارب الله لرغبة الدنيا ، ولا طلباً للاستكثار منها ، إلا أن الله عز وجل قد أحل ذلك لنا ، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالاً ، وما يبالي أحدنا أكان له قناطير من ذهب أم كان لا يملك إلا درهما ؟ لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته ليلته ونهاره ، وشملة يلتحفها . وإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه ، وإن كان له قطار من ذهب أنفقه في طاعة الله ، واقتصر على هذا ؛ لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء ، إنما النعيم والرخاء في الآخرة . بذلك أمرنا الله ، وأمرنا به نينا ، وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا في الدنيا إلا ما يمسك جوعته ، ويستر عورته ، وتكون همته وشغله في رضائه وجهاد عدوه »

وبينا عبادة بن الصامت يصلي في ناحية ، وفرسه عنده - رآه قوم من الروم ، فخرجوا إليه وعليهم حلية وبزة ، وتحرشوا به ، فلما دنوا منه سلم من الصلاة ، ووثب على فرسه ، ثم حمل عليهم ، فلما رأوه ولوا هارين ، وتبعهم ، فجعلوا يلقون مناطقهم ومتاعهم ليشغلوه بذلك عن طلبهم ، فصار لا يلتفت إليه حتى دخلوا إلى الحصن ، ورمى عبادة من فوق الحصن بالحجارة ، فرجع ولم يتعرض لشيء مما طرحوه من متاعهم ، حتى رجع إلى موضعه الذي كان فيه ، فاستقبل الصلاة ، وخرج الروم إلى متاعهم وجمعوه . هؤلاء هم المسلمون قد اتصروا بالعقيدة ، وأتوا بالأعمال المجيدة ،

فخضعت لهم الأمم القوية العنيدة . ويوم أقفرت النفوس من هذه العقائد
 وذهب أثرها - ضعفت الهمم ، وفسدت الأخلاق ، وانحطت النفوس ،
 وزال مجد الدين ، وخنعت الأمة للمغيرين ، وطأطأت رقابها لنير الاحتلال .
 فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الإسلام الذي انتصر بالقناعة قد حث على السعى :

إن الإسلام الذي انتصر بالقناعة على النحو الذي ضربنا لك مثلاً منه
 من أمثال لا تحصى ولا تستقصي - ليرهن لك على أن دعوته إلى القناعة
 وما يندرج تحتها ليست دعوة إلى الخمول والخيبة والتقهقر ، بل بالعكس هي
 دعوة إلى النجاح والتقدم : إن الإسلام الذي دعا إلى ذلك هو الذي حث
 على السعى والأخذ بالأسباب الظاهرة : قال تعالى للسيدة مريم لما جاءها
 المخاض إلى جذع النخلة : (وَهَزَّيْ إِلَيْكَ الْجِدْعَ النَّخْلَةَ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ
 رُطْبًا جَنِيًّا) ولو شاء الله أن ينزله عليها من غير أن تسعى في هز النخلة لفعل . وقال :
 (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَاذْكُرُوا
 اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) وقال : (فَاَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ
 وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) ، وقال : (وَأَنْ لَيْسَ الْإِنْسَانُ إِلَّا مَاسِيٌّ وَأَنْ سَعِيَّهٗ
 سَوْفَ يُرَى) إلى غير ذلك من الآيات القرآنية الكثيرة .

ولما أقبل النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك استقبله معاذ ، فصاحه
 فوجد في يده أثر العمل ، فسأله عن ذلك فقال : « أحترث بالمسحاة
 وأنفقه على عيالي » فقبله النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : « لا تمسها النار »
 وكان عمر رضي الله عنه إذا نظر إلى قتي وأعجبه سأل : هل له حرفة ؟ فإذا
 قالوا : لا - سقط من عينه . وقال ابن عباس رضي الله عنه : « قدم قوم على
 النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إن فلانا يصوم النهار ويقوم الليل ،
 ويكثر الذكر ، فقال : « أيكم كان يكفي طعامه وشرابه ؟ » فقالوا : كلنا ،

فقال : « كلكم خير منه » . وللمحافظة على الطمأنينة التي تلزم القناعة وراحة البال التي ترمى إليها ، ولتحاشي الانهماك في طلب الدنيا ، وحصر كل الهم في ذلك ، واشتغال الفكر به - أمرنا الإسلام بالقصد في الطلب ، والاجمال في السعي : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اقْتَصِدُوا فِي الطَّلَبِ ؛ فَإِنَّ مَارُزَقْتُمُوهُ أَشَدُّ طَلَبًا مِنْكُمْ لَهُ ، وَمَا حُرِمْتُمُوهُ فَلَنْ تَنَالُوهُ ، وَلَوْ حَرَصْتُمْ »

لامنافاة بين القناعة وكثرة المال :

مما يجدر التنبيه عليه هنا أنه لا تنافر بين القناعة وبين المال الوفير ، مادام هذا المال الوفير لا يذهب بالطمأنينة التي هي حكمة الدعوة إلى القناعة ، ولا يمس هدوء البال الذي هو غاية السعادة ، وما دام هذا المال الوفير لا يقصد به إلا سد الخلة وستر العورة والتقوية على العبادة ، ثم التصديق بالزيادة . ومن هذا يتضح جلياً - كما تقدم - أنه ليس الزاهد من لا مال له ، بل الزاهد من ليس مشغولاً بالمال ، وإن كان له أموال العالمين : ولذلك قال علي رضي الله عنه : « لو أن رجلاً أخذ جميع ما في الأرض ، وأراد به وجه الله فليس براغب » وقال : من عمل بقوله : (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَافَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) - فقد ملك الزهد بطريقه .

القناعة والادخار :

من حيث ثبت أن كثرة المال لا تنافي صفات القناعة أرى أن لا منافاة أيضاً بين هذه الصفات والادخار ، متى توافرت الثقة واليقين والتوكل والاطمئنان ، وقصد بالادخار الأخذ بوجه من وجوه الأسباب الظاهرة ، بل قد يكون الادخار أولى إذا كان المرء بدونه يستشعر في نفسه اضطراباً يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر ، حتى لو كان لا يتفرغ قلبه إلا بإمساك ضيعة يكون دخلها وافياً بقدر كفايته لكان ذلك له أولى ؛ لأن المقصود إصلاح القلب ليتجرد لذكر الله ؛ ورب شخص يشغله وجود المال ؛ ورب

شخص يشغله عدمه ، والمحذور ما يشغل عن الله عز وجل ، وإلا فالدنيا في عينها غير محذورة ، لا وجودها ولا عدمها : ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون ، فلم يأمر التاجر بترك تجارته ، ولا المحترف بترك حرفته ، بل دعا الكل إلى الله تعالى ، وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله تعالى . وعمدة الاشتغال بالله عز وجل - القلب : فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته ، كما أن صواب القوى ترك الادخار ، وهذا كله حكم المنفرد ، أما من يعول غيره فلا يخرج عن حد القناعة بادخار قوت سنة لعياله ؛ جبراً لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم . وادخار أكثر من ذلك مبطل للقناعة . وقد ادخر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعياله قوت سنة ؛ لا لضعف قلب فيه وفي عياله ؛ ولكن ليشرع ذلك للضعفاء من أمته ؛ بل أخبر أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه ، كما يحب أن تؤتى عزائمه تطيباً لقلوب الضعفاء ، حتى لا ينتهى بهم الضعف إلى اليأس والقبوط ، فيتركوا الميسور عليهم من الخير بعجزهم عن منتهى الدرجات . فما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين كلهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم .

دفع الضرر والوقاية منه :

لا ينافى التوكل ولا الرضا أن يسعى المرء في دفع ضرر متوقع حصوله
لنفس أو مال قطعاً أو ظناً لا وهماً :

أما في النفس : فكالنوم في مسبعة أو مجرى سيل أو تحت جدار مائل أو سقف منكسر : فكل ذلك منهي عنه ، وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة . وإذا كان سيناله الضرر من إنسان فإنه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشقى فالصبر أولى : قال تعالى : (فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ) وقال تعالى : (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

الْمُؤْمِنُونَ) وقال عز وجل: (وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) إلى آخر الآيات الكثيرة التي وردت في ذلك .

هذا في أذى الناس ، وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والعقارب مثلاً فترك دفعها ليس من الرضا والتوكل في شيء .

وأما في المال : فلا ينقص الرضا والتوكل بإغلاق باب البيت عند الخروج ، لا بأن يعقل البعير ، ولا بنحو ذلك ؛ لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله تعالى قطعاً أو ظناً : ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي لما أهمل ناقته قال : توكلت على الله :- « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » وقال تعالى : (خُذُوا حِذْرَكُمْ) قال في كيفية صلاة الخوف : (وَلَيَأْخُذْ أَسْلِحَتُهُمْ) وقال سبحانه : (وَأَعِدُّوا) مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطٍ انْخِلِيلِ وقال تعالى لموسى عليه السلام فَأَسِرْ بِعِبَادِي لَيْلاً » والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ، واختفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار اختفاء عن أعين الأعداء دفعاً للضرر . وأخذ السلاح في الصلاة ليس دافعاً قطعاً - كقتل الحية والعقرب - ولكنه سبب مضمون ، والمظنون كالمقطوع كما أسلفنا .

كيف يكون الآخذ بهذه الأسباب راضياً متوكلاً ؟ :

من أخذ سلاحه حذراً من العدو ، وأغلق بابه خوفاً من اللص ، وعقل بعيره خشية أن ينطلق - فهو متوكل راض علمياً ، وحالاً :

فأما العلم : فإن يعلم أن اللص إن اندفع لم يندفع بكفايته في إغلاق الباب ، بل لم يندفع إلا بدفع الله تعالى إياه ، وكذلك عقل البعير وحمل السلاح : فكم من باب يغلق ولا ينفع ، وكم من بعير يعقل ويموت أو يفلت ، وكم من آخذ سلاحه يُقتل أو يُغلب . فلا اعتماد على هذه الأسباب بل على من سببها .

وأما الحال : فهو أن يكون راضياً بما يقضى الله تعالى في بيته ونفسه ، ويقول : اللهم إن سلطت على ما في البيت من يأخذه فهو سيئك ، وأنا راض

بحكمك ، وما أغلقت الباب تحصنا من قضائك وتسخطا له ، بل جريا على مقتضى سنتك في ترتيب الأسباب ، فلا ثقة إلا بك يا موجد الأسباب .

الوقاية من المرض :

إن الوقاية من المرض نوع من الوقاية من الضرر الذي تقدم أنه لا ينافي الرضا والتوكل : فقد أمرنا بالفرار من المجدوم ، كما نفر من الأسد : ويدل على ذلك أيضاً ما روى عن عمر رضى الله عنه وعن الصحابة في قصة الطاعون : فإنهم لما قصدوا الشام ، واتفقوا إلى الجاية (١) - بلغهم أن به موتاً عظيماً ووباءً ذريعاً ، فافترق الناس فرقتين : فقال بعضهم : لا ندخل على الوباء ، فنلقى بأيدينا إلى التهلكة . وقالت طائفة أخرى : بل ندخل وتوكل ، ولا نهرب من قدر الله تعالى ، ولا نفر من الموت ، فنكون كمن قال الله تعالى فيهم : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ) فرجعوا إلى عمر ، فسألوه عن رأيه ، فقال : « نرجع ولا ندخل على الوباء » فقال له المخالفون في رأيه : « أنفر من قدر الله تعالى ؟ » قال عمر : « نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله » ثم ضرب لهم مثلاً ، فقال : رأيتم لو كان لأحدكم غنم ، فهبط واديا له شعبتان : إحداهما مخصبة والأخرى مجدبة ، أليس إن رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى ؟ وإن رعى المجدبة رعاها بقدر الله تعالى ؟ فقالوا : نعم . ثم طلب عبد الرحمن بن عوف ليسأله عن رأيه ، وكان غائباً ، فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن ، فسأله عمر عن ذلك ، فقال : عندي فيه يأمر المؤمنين شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : « الله أكبر » فقال عبد الرحمن : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِذَا مَجِعْتُمْ بِالْوَبَاءِ فِي أَرْضٍ فَلَا تُقَدِّمُوا عَلَيْهِ ، وَإِذَا وَقَعَ فِي أَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَاراً مِنْهُ » ففرح عمر رضى الله عنه

بذلك ، وحمد الله إذوافق رأيه ، ورجع من الجاية بالناس . فهذا إجماع من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على أن الأخذ بأسباب الوقاية من الأمراض لا ينافي التوكل على الله ولا الرضا بقضائه ، كما أنه لا يقدح في الرضا والتوكل الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي .

علاج المرض :

يدل على أن التداوى غير مناقض للرضا والتوكل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله ، وأمره : أما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنْ دَاءٍ إِلَّا وَلَهُ دَوَاءٌ عَرَفَهُ مِنْ عَرَفَهُ وَجِهَلَهُ مِنْ جِهَلَهُ إِلَّا السَّامُ » يعنى الموت ، وقال عليه السلام : « تَدَاوَوْا عِبَادَ اللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ »

وسئل عن الدواء والرقى : هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال : « هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ » وأما أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوى وبالحمية ، فبعث إلى أبي بن كعب طبيباً قطع له عرقاً وكواه عليه (أى فصدّه وكواه) وقال لعلى رضى الله عنه ، وكان رمد العين : « لَا تَأْكُلْ مِنْ هَذَا » يعنى الرطب « وكل من هذا ، فإنه أوفق لك » يعنى سلقاً قد طبخ بدقيق شعير .

وأما فعله عليه الصلاة والسلام فقد روى أنه كان يكتحل ويحتجم ويشرب الدواء ، وتداوى صلى الله عليه وسلم من العقرب وغيرها ، وما روى فى تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن حد الحصر ، وقد صنف فى ذلك كتاب وسمى : طب النبى صلى الله عليه وسلم .

فوجد الأسباب أجرى سنته بربط المسببات بالأسباب إظهاراً للحكمة . والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى ككسائر الأسباب . والله تعالى أعلم .

كيف يرضى القانع بالبلايا والمحن ؟ :

قدمنا أن الابتلاء لا يخرج المؤمن الكامل عن كمال إيمانه ، كما أسلفنا أيضاً أن المصائب والمحن لا تخرج السعيد عن سعادته ؛ لأن كلا منهما يكون راضياً بحالته قانعاً بها ، بل مسروراً بما هو فيه ، فكيف يتصور ذلك :

يتصور ذلك من ناحية حب الله تعالى واستغراق الهم به ؛ إذ لا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب : قال حجة الإسلام الإمام الغزالي : يكون ذلك من وجهين :

أحدهما : أن يطل الإحساس بالألم حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس به .
وتصبيه جراحة ولا يدرك ألمها ، ومثاله :

(أ) الرجل المحارب : فإنه في حال غضبه ، أوفى حال خوفه - قد تصيبه جراحة ، وهو لا يحس بها ، حتى إذا رأى الدم استدل به على الجراحة .

(ب) الذي يغدو في عمل هام قد يصيبه أذى في بدنه ، ولا يحس ألماً لشغل قلبه ؛ لأن القلب إذا صار مستغرقاً بأمر لم يدرك ماعداه .

وكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم له ، لولا عشقه ، ثم لا يدرك غمه وألمه ؛ لفرط استيلاء الحب على قلبه . هذا إذا أصابه من غير حبيبه ، فكيف إذا أصابه من حبيبه .

وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل . وإذا تصور هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف تصور في الألم العظيم بالحب العظيم : فإن الحب أيضاً يتصور تضاعفه في القوة ، كما يتصور تضاعف الألم ، وكما يقوى حب

الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر - كذلك يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة . وجمال حضرة الربوية وجلالها لا يقاس به

جمال ولا جلال : فمن ينكشف له شيء منها فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه فلا يحس بما يجرى عليه : فقد روى أن امرأة فتح الموصلي عثرت ، فانقطع ظفرها فضحكت ، فقيل لها : أما تجدين الوجع ؟ فقالت : « إن لذة ثوابه

أزالت عن قلبي مرارة وجعه « وكان سهل رحمه الله تعالى به علة ، يعالج غيره منها ، ولا يعالج نفسه ، فقيل له في ذلك : فقال : « ضرب الحبيب لا يوجع » ثانيهما : أن يحس بالآلم ويدركه ، ولكن يكون راضيا به ، بل راغبا فيه ، مريدا له ، أغنى بعقله ، وإن كان كارها بطبعه :

(أ) كالذى يلتمس من الطبيب بتر عضو يخشى منه على سائر الجسم ؛ فإنه يدرك ألم ذلك ، إلا أنه راض به وراغب فيه ومتقلد من الطبيب منه بفعله . فهذا حال الراضى بما يجرى عليه من الألم .

(ب) وكذلك كل من يسافر في طلب الربح : يدرك مشقة السفر ، ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر ، وجعله راضيا بها .

ومهما أصابته بلية من الله تعالى ، وكان له يقين بأن ثوابه الذى ادخر له فوق ما فاته رضى به ، ورغب فيه ، وأحبه وشكر الله عليه . هذا إن كان يلاحظ الثواب والإحسان الذى يجازى به عليه ، ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه ورضاه لالمعنى آخر وراه ، فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطلوبا . وكل ذلك موجود في المشاهدات في حب الخلق ، وقد تواففها المتواصفون في نظمهم وثرهم . ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر : فإن نظر إلى الجمال فها هو إلا جلد ولحم ودم ، وإن نظر إلى المدرك للجمال فهى العين التى تغلط فيما ترى كثيرا : ترى الصغير كبيرا ، والكبير صغيرا ، والبعيد قريبا ، والقيح جميلا . فإذا تصوّر استيلاء هذا الحب فمن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلى الأبدى الذى لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التى لا يعثرها الغلط ، ولا يدور بها الموت ، بل تبقى بعد الموت حية عند الله فرحة برزقه تعالى مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف ؟ فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار ، ويشهد لذلك الوجود ، وحكاية أحوال المحبين وأقوالهم ، وهى كثيرة لا تحصى ، فلنكتف بذلك ، والله الموفق .

السعادة هي القناعة

أعتقد - بعد ماتقدم - أن السعادة في القناعة ، بل لا أكون مغاليا إذا قلت : إن السعادة هي القناعة ، والقناعة هي السعادة ؛ لأن الغاية من القناعة غرس الطمأنينة في النفس في كل شيء : في السراء والضراء ، والشدة والرخاء . وهذه الطمأنينة هي عين السعادة ؛ لأننا عرفنا السعادة بأنها : راحة البال : قال جعفر بن محمد : « ثمرة القناعة الراحة » وذلك أن النفس المطمئنة يكون سرورها بالمصيبة مثل سرورها بالنعمة ، فيستوى عندها الغنى والفقر ، والنفع والضرر ، والمنع والعطاء ، لا تحزن على ما فات ، ولا تفرح بما هو آت ؛ فهي ممتلئة رضا ، مفعمة سرورا ، وصاحبها في غبطة دائمة ، وسعادة خالدة : قال عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ جَعَلَ الرُّوحَ وَالْفَرَحَ فِي الرِّضَا وَالْيَقِينَ ، وَجَعَلَ الْغَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ » ونفس شأنها اليقين ، وحالها الرضا - لا تدع صاحبها يفكر إلا في صالح ، ولا يقول إلا صالحا ، ولا يعمل إلا صالحا ، فتعيش في سعادة حقيقية ، ويوم القيامة يقال لها : (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً)

وقد روى عن ابن عباس والحسن رضي الله عنهم في تفسير قوله تعالى : (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَثْنَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً) - أن المراد بالحياة الطيبة القناعة .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا يُرِيحُ الْبَدَنَ ، وَالرَّغْبَةُ فِيهَا تُكَثِّرُ أَلْهَمَ وَالْحُرْنَ » : وقال رجل لمحمد بن واسع : « أوصني » فقال له : « كن ملكا في الدنيا ملكا في الآخرة » فقال : « وكيف لي هذا ؟ » قال : « ازهد في الدنيا واقنع » ومن كلام علي رضي الله عنه : « كفي بالقناعة مُلْكًا ، وبحسن الخلق نعيمًا » : وبينما فتح الموصل في أصحابه إذا بصيين معهما رغيفان : على رغيف أحدهما كاعخ ، وعلى رغيف الآخر

عسل . فقال صاحب الكامخ لصاحب العسل : « أطعمني من عسلك » فقال :
أطعمك على أن تكون لي كلبا ، فقال : « أنا كلبك » فجعل في فيه خرقه
يجره بها ، فالتفت فتح إلى أصحابه وقال : « لو قنع هذا بكامخه لم يصر كلبا
لصاحب العسل »

وقال علي بن موسى : « القناعة تجمع إلى صيانة النفس وعز القدرة
طرح مئونة الاستكثار والتعبد لأهل الدنيا ، ولا يملك طريق القناعة إلا
رجلان : إما متقلل يريد أجر الآخرة ، أو كريم يتنزه عن آثام الدنيا ، »
وقال الراضى : « القانع يعيش آمناً مطمئناً مستريحاً مريحاً ، والشره لا
يعيش إلا تعباً نصباً في خوف وأذى » وقال وهب : « خرج العز والغنى
يجولان ، فلقيا القناعة فاستقرا » والله الهادى إلى سواء السبيل .
محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل فى القناعة :

قال أنس بن مالك رضى الله عنه : « خدمت رسول الله صلى الله عليه
وسلم عشر سنين ، فما قال لى لشيء فعاته : لم فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله : لم
لا فعلته ؟ ولا قال فى شيء كان : ليته لم يكن ، ولا فى شيء لم يكن : ليته كان .
وكان إذا خاصمتى مخاصم من أهله يقول : « دعوه ، لو قضى شيء لكان »
فمن أراد أن يعرف حقيقة الرضا عن الله عز وجل فى أفعاله ، وأن يدرى
من أين نشأ الرضا - فليفكر فى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإنه
لما تكاملت معرفته بالخالق سبحانه رأى أن الخالق مالك ، وللمالك التصرف
فى مملوكه ، وراه حكماً لا يصنع شيئاً عبثاً ، فلم تسلم مملوك لحكيم : فكانت
العجائب تجري عليه ، ولا يوجد منه تغير ، ولا من طبعه تأقف ، ولا يقول
بلسان الحال : لو كان كذا ، بل يثبت للأقدار ثبوت الجبل لعواصف الرياح .
هذا سيد الرسل صلى الله عليه وسلم ، بعث إلى الخلق وحده ، والكفر قد
ملا الآفاق ، فجعل يفر من مكان إلى مكان ، واستتر فى دار الخيزران ، وهم
يضربونه إذا خرج ، ويدمون عقبه ، وشق التلى على ظهره ، وهو ساكت
﴿ م ٢٨ - الخلق الكامل ﴾

ساكن ، ويخرج كل موسم ، فيقول : من يؤويني من ينصرفي ؟ ثم خرج من مكة فلم يقدر على العود إلا في جوار كافر ، ولم يوجد من الطبع استنكاف ، ولا من الباطن اعتراض ؛ إذ لو كان غيره لقال : يارب ، أنت مالك الخلق ، وقادر على النصر فلم أذل ؟ كما قال عمر رضي الله عنه يوم صلح الحديبية : « ألسنا على الحق ؟ فلم نعطي الدنية في ديننا ! ! » ولما قال هذا قال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « إني عبد الله ولن يضيعني » فجمعت الكلمتان الأصلين اللذين ذكرناهما : فقوله : إني عبد الله إقرار بالملك ، وكأنه قال :

أنا مملوك يفعل بي ما يشاء . وقوله : لن يضيعني : بيان حكمته ، وأنه لا يفعل شيئاً عبثاً . ثم يتلى بالجوع فيشد الحجر ، والله خزائن السموات والأرض ، وتقتل أصحابه ، ويشج وجهه ، وتكسر رباعيته ، ويمثل بعمه وهو راض . ثم يرزق ابناً ، ويسلب منه ، فيتعل بالحسن والحسين ، فيُخبر بما سيجري عليهما ، ويسكن بالطبع إلى عائشة رضي الله عنها ، فيُنغص عيشه بقذفها ، ويوالى إظهار دلائل نبوته ، فيقام في وجهه مسيلة والعنسي وابن صياد . وينشر لواء الأمانة والصدق فيقال : كذاب ساحر ، ثم يعلقه المرض الشديد وهو ساكن ساكت . فإن أخبر بحاله فليعلم الصبر . ثم يشدد عليه الموت ، فيسلب روحه الشريف وهو مضجع في كساء ملبد وإزار غليظ ، وليس عندهم زيت يوقد به المصباح ليلئذ ! ! كما فاق في صبره جميع من سبقه من الأنبياء : فهذا نوح عليه السلام يضج مما لاقى ، فيصبح من كد وجده : (لَا تَدْرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول : (اللَّهُمَّ اهْدِ قَرْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) ، وهذا السكيم موسى صلى الله عليه وسلم يستغيث على القدر عند عبادة قومه العجل : (إِنْ هِيَ إِلَّا قِتْلَتُكَ) وعيسى صلى الله عليه وسلم يقول : (إِنْ صَرَفْتُ الْمَوْتَ عَنْ أَحَدٍ فَاصْرِفْهُ عَنِّي) ، ونبينا صلى الله عليه وسلم يخير بين البقاء والموت ، فيختار الرحيل إلى الرفيق الأعلى . وهذا سليمان صلى الله عليه وسلم يقول : (هَبْ لِي مُلْكًا)

ونفينا صلى الله عليه وسلم يقول : « اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا » هذا فعل من عرف الوجود والموجد ، فماتت أغراضه ، وسكنت اعتراضاته ، فصار هواه فيما يجرى . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

الرضا وجمال العالم :

وعين الرضا عن كل عيب كلية كما أن عين السخط تبدى المساويا قرن الله تعالى الفرح بالرضا ، كما قرن الغم بالسخط : فالراضى يرى في كل ماتقع عليه عينه باعثاً لسروره وسبباً لسعادته ، إذا نظر إلى الشيء فبصره عن كل قبيح فيه كليل ، وإلى كل حسن حديد ، بل الناحية القيحة عنده مليحة : وليس ذلك عن بله أو جنون أو سوء تقدير ، ولكنه الرضا يستوى عنده قبح الأشياء وحسنها ، كما تستوى عنده الصحة والمرض والغنى والفقر والسراء والضراء والشدة والرخاء والراحة والعناء : ومعنى تساوى هذه الأمور عنده أنه لا يبالى على أيها كانت حالته ، فهو في غبطة دائمة ، وسعادة مقيمة

والساخط بضد ذلك : نظره حسير عن كل حسن ، حديد إلى كل قبيح ، بل الناحية المليحة عنده جد قيحة ، لا تراه إلا متبرماً ، ولا يقع نظرك عليه إلا ساخطاً : سواء في ذلك غناه وفقره ، ومرضه وصحته ، وعنته وراحته . فهو في هم دائم وشقاء ملازم .

ولسنا الآن بصدد السخط والساخطين ؛ لأن السخط من أسباب الشقاء ، ونحن الآن نتكلم في أسباب السعادة التي من أعظمها وأهمها الرضا :

الرضا يجعل كل منظر من مناظر هذا العالم سبباً من أسباب الابتهاج والغبطة والسعادة : فأشراق الشمس مشهد عجيب ، يغرى بامتاع النظر به ، وكذلك الغروب : منظر يأخذ بمجامع القلوب ، وصحو السماء يدعو إلى التأمل والابتهاج ، وكذلك تلبدها بالغيوم ونزول الأمطار ، وهكذا قل في مناظر القمر وضوئه الفضى اللطيف : ففي منظر الأفق المترامى الأطراف ، والسماء الضاحكة ، والكواكب المتألثة ، وما في القبة الزرقاء من المناظر المتنوعة

والمشاهد المختلفة المبتدعة - كل ذلك يقيد الأنظار ، ويجلب المسرة ، ويدعو إلى الفكرة والعبرة . بل مهما اختلفت مراتب الناس في الأذواق والمعرفة ، ومهما تباينت ميولهم ومشاربهم وأفكارهم - فإن مرأى السماء يؤثر في نفوسهم أثرا خفيف الروح لطيف الوقع ، يحدوهم إلى السرور والإعجاب والتأمل . إن الإنسان يعجب بما تجمله يد الصناعة الراقية والفن الجميل ، فكيف لا يعجب بما يدل على الإبداع والإعجاز ؟ إنه يعجب بما ترسمه اليدين المناظر ، ويلونه الذوق السليم بالألوان التي تقربه من صور الحقائق ، فعجيب ألا يرتاح نظره إلى مافي العالم من المناظر الصادقة والجمال الثابت .

من البدهة أنه ليس بين كل من نبغوا من المصورين ، وبين كل ذوى المواهب والقدرة من يستطيع محاكاة الخليفة في إحكام الصنع وإبداع المصنوع ، بل وليس منهم من يدانى الحقيقة عند نسخ صورها عن لوحة الكون ومناظرها الفتانة .

إن الإنسان يكبر ما يراه من الهندسة العجيبة والبنائات الفخمة ونسقها الشائق ، ويعظم شأن المنسق الماهر ، وينسب إليه القدرة والنوع ، ويشعر معهما نحوه بالإجلال . ومن الواضح أن مافي الكون من النظام المحكم والنسق البديع عمل القدرة والحكمة الإلهية ، وكله يشير إلى قصور الإنسان مهما ارتقى ، وإلى عظمة القدرة الإلهية في التكوين والإبداع ، فلا مكان للموازنة بين رافع السماء وباسط الأرض ، وبين منشىء القصور ومزخرف البنائات ، وليس هنالك تناسب في الأحكام بين نظام الأكوان والأفلاك وحركة السيارات مثلا ، وبين نظام الآلات الميكانيكية وحركة الطواحين !! ألا إن لله وحدة العظمة والقدرة ، وله الانفراد بالإبداع والخلق . فتبارك الله أحسن الخالقين . وكما يشعر المرء بعظيم الجور في مرأى البحار المضطربة أو الساكنة ، وفي مشاهد الجبال الراسيات ، والقمم الشاهقات ، والوديان والوهاد ، والمرتفعات والأنجاد ، والسهل والصعب ، والحزن والوعر ، والأشجار المورقة ، والأزهار

المونقة ذات الروائح العطرة التي إذا تضرعت أنعشت الإنسان ، وطابت ما يستنشقه من هواء .

وما أظن سرورا يشمل النفس ويؤثر فيها الأثر الجميل يعادل سرورها بالزهر ومرآه ، وشمه وتمعن تركيبه ، فإن الزهرة الواحدة التي تنظرها العين ، فلا يستوقفها منظرها الرائع - فيها من الأسرار والبدايع ومدحشات الصناعة ما لا يتصوره العقل ، أو يحصيه العلم . وإن الوردة الذابلة التي تلقيها اليد إلى الأرض ، فتهدم تركيبها ، وتبدأ أوراقها - فيها من دقة النظام ، وإحكام التركيب ، وإتقان الصناعة والإبداع ما ليس في جسم الإنسان نفسه على ما عرف من نظامه وإحكامه ، وفيها من الشعور الرقيق والحس ما ليس للإنسان مثله ، ولا يتفق إلا للنادر من أنواع الحيوان .

الحس ينكر ما لا يتحقق بالرؤية أو اللمس ، ولكن العلم وقف على هذه الأسرار الدقيقة ، فكشف للعقول ما غابت عنها معرفته ، وتعذر عليها إدراكه ، فأثبت تمتع النبات بالشعور والحركة والحياة ، حتى بالإدراك : انظر إلى الزهرة إذا وجدت بين ضوءين ترها تتحول إلى ناحية الأشد منهما حرارة وسطوعا . وما حصل هذا اعتباطاً ، وإنما لتدخر منه شيئاً من الحرارة تنتفع به وقت الحاجة . وهذا وحده دليل محس على وجود الحياة والشعور والإدراك ، بل والحس أيضاً . وقد حضر إلى مصر منذ عدة سنوات فيلسوف هندي كبير أقام عدة تجارب في الجمعية الجغرافية تؤيد ما تقدم . فما أبدع الأزهار ، وما أجمل ألوانها الزاهية ، وروائحها الزكية ، وما أطفأ تأثيرها في نفس الإنسان !! إنها بما لها من المنظر الفتان ، والثوب الزاهي ، والنضارة الأخاذة ، وبما لها من الوداعة واللفظ ، حتى في ذبولها - بما لها من كل ذلك تحرك العواطف ، وتهز النفس حركات وهزات تبعث على الانشراح والسرور .

كذلك يشعر الإنسان بكثير من الغبطة في تأمله عالم الحيوان : فاللذة

التي تشعر بها النفس من مشاهدة صورته واجتلاء حقائقه لا تكون مقصورة على علماء هذا النوع ، وإنما يشعر بها كل من تدفعه الرغبة ، ويعيشه على درس أحوالها الشوق ، وحب الاطلاع . ولو غنى الإنسان بمطالعة سفر مما كتب عن الكلب مثلاً ، وعما عرف عنه من الأمانة والإخلاص ، ومن تنبه الحواس فيه إلى درجة يصعب تصديقها ، ومن الغرائز التي تلصقه بالأخلاق الفاضلة ، والصفات الكاملة - لو غنى المرء بمطالعة هذا لوجده شائقاً جميلاً ، يحقق رغبة النفس في الانشراح والنشاط . والعقل في الاطلاع والمعرفة ، بل ويجلوه سرّاً من أسرار الوجود ، وقوة من القوى التي أوجدتها الحكمة ، وسخرتها لنفع الإنسان ، وتحقيق أسباب سروره وهناءته وكذلك مما يبعث السرور تأمل ذات الإنسان وتكوينها من مملكة تضارع تمام المضارعة المملكة الظاهرة في كل هيئاتها وفي جميع مراقبها ، وكذلك مما يشرح الصدر ويدعو إلى الإعجاب الوقوف على التغير والتبدل الذي يعتري الإنسان من طفولته إلى شيخوخته في جسمه وصفاته ، وقوة عقله وتهذيب نفسه إلى غير ذلك مما لا يشعر به في حينه

كل هذه المشاهد المتنوعة وغيرها مما لا يدخل تحت حصر تؤثر في النفس أثراً لطيفاً منعشاً وتنشط بالعقل إلى التصور البديع والخيال الراقى فيشرح القلب ، ويشعر بالراحة والسرور ، ويتعرف لذة الهناءة التي ينشدها الإنسان من غير طريقها

ذهب أفلاطون إلى أن استجلاء الجمال الرائع يضاعف قيمة الحياة ، وذهب آخر إلى أنه عزاء الروح وتسليته عن آلام سجنه في الجسد ، وقال الأستاذ المنفلوطي رحمه الله تعالى :

« اطلب السعادة في الحقول والغابات ، والسهول والجبال ، والأغراس والأشجار ، والأوراق والأثمار ، والبحيرات والأنهار ، وفي منظر الشمس طالعة وغاربة ، والسحب مجتمعة ومتفرقة ، والطير غادية ورائحة ، والنجوم

ثابتة وسارية . واطلبها في تعهد حديقتك وتخطيط جداولها ، وغرس أغراسها
وتشذيب أشجارها ، وتنسيق أزهارها ، وفي وقوفك على ضفاف الأنهار ،
وصعودك إلى قمم الجبال ، وانحدارك إلى بطون الأودية والوهاد ، وفي
إصغائك في سكون الليل وهدوئه إلى خريف المياه ، وصفير الرياح ، وحفيف
الأوراق ، وصرير الجنادب ، وتقيق الضفادع . واطلبها في مودة الإخوان ،
وصداقة الأصدقاء ، وإسداء المعروف ، وتفريج كربة المكروب ، والأخذ
بيد البائس المنكوب ؛ ففي كل منظر من هذه المناظر ، أو موقف من هذه
المواقف - جمال شريف ظاهر يستوقف النظر ؛ ويستلهم الفكر ؛ ويستغرق
الشعور ، ويحيي ميت النفس والوجدان ، ويملاً فضاء الحياة هنا ورغداً

يقولون : إن الحياة مدرسة تجارب عملية آخر دروسها الموت . فإذا
كان هذا حقيقة فلماذا لا يجرب الإنسان اعتياد النظر إلى المراثيات لاستجلاء
محاسنها بدل البحث عن عيوبها ؟ ولماذا لا ينزل إلى نفسه ليتعرفها ، بدلاً من
أن ينشط إلى التعرف بمن يشكو خبث نياتهم ، وقلة وفائهم ؟ إن تحقيق
هذه الأمور ينهض الإنسان إلى حال جديدة تيسر لها الهناء ، وتدنيه من
السعادة .

والنفس التي تسكن إلى الحسن ترق عواطفها وتتطهر ، ويصقل جوهرها
صقلاً ، فتفر من القبيح وترفع عن الصغائر ، وعن كل مالا يتفق مع
جوهرها الكريم ، وتكون حساسة إلى حد يكفل ارتقاء الفكر وسعة
المدارك وسمو الخيال : فالشعر الذي يتم به اتعاش النفس وسرورها ليس
في الحقيقة إلا من الصروح التي يشيدها الخيال ، وما هذه الصروح إلا
لسكنى النفس وترويحها ، وتسليتها بالخيال عن الحقائق المؤلمة .

وكم في العالم من أنواع المحسنات والحسن غير ما ذكرنا ، وكم بين المناظر
والمستحدثات من آيات الجمال التي تجلو عن الصدور صداً الهوم ، فتبعث

النفوس على الابتهاج عند تعرفها ، فهل للإنسان أن يسكن إلى مناظر الحسن ليرتاح إلى الحياة ، وإلى الرضا !! بالحال ؟

أسباب أخرى للسعادة يأتي ذكرها في بحوث الأخلاق العملية :

هذه الأسباب هي : العلم ، والعمل ، والعدالة ، والمحبة ، والصداقة ، والأسرة ، والوطن ، والتعاون .

أسباب السعادة

في رأى الفيلسوف الإنجليزى برتراند رسل في كتابه : « الظفر بالسعادة » السعادة نوعان رئيسان : أولهما مصدره الشعور ، والآخر مصدره الفكر . وجميع الناس سواء في الأول ، وينفرد بالآخر طبقات المتعلمين دون غيرهم . وعلى حرارة الشعور ، وقوة الميل إلى العمل - توقف السعادة في كلتا الحالتين : فالهمجى الأسترالى الذى يطارد الأرانب البرية يشعر بشئ من سعادته في حياته ؛ لقيامه بعمله هذا برغبة وحماسة عظيمتين ، وكذلك الحال عند العالم (البكتريولوجى) الذى يعمل على طرد الجراثيم من خلال منظاره ؛ ليكون جو بحوثه صحواً .

ولقد يختلف الإقبال على العمل باختلاف طبائع الأشخاص وسجاياهم : فمنهم من يزاوله بكبر وغرور ، ومنهم من يقدم عليه متواضعاً واثقاً من نفسه ثقة لا تذهب به إلى حد الغرور :

فالذين يقومون بأعمالهم مغرورين لا يشعرون بسعادة ، حتى في أوقات نجاحهم ؛ لأن غرورهم لا يجعل لهم من نجاحهم هذا وقعاً من المفاجأة الحسنة الأثر ؛ إذ يضعون نفوسهم في مكانة أكبر مما تستحقه في الواقع ، فيصبح نجاحهم - مهما عظم - شيئاً غير مذكور بالقياس إلى عبقريتهم الفذة الموهومة ، ويتألمون جدالاً إذا أخفقوا ؛ لأنهم يرون فيه حالة لا تلام ، وما زعموه في نفوسهم من كبر وغرور .

أما المتواضعون فإنهم يجدون في كل نجاح تصل إليه أيديهم هزة نفسية

جميلة الأثر من جراء تلك المفاجأة الجميلة عند نجاحهم .
 وقوة الإقبال على الأعمال تنشأ من شدة الاهتمام وقوة اليقين اللذين يقابلان عدم المغالاة وضعف الإيمان : فأسباب السعادة بين شبان أوربة قليلة ؛ لضعف إيمانهم بعالمهم وهبادتهم ، على عكس ما نرى بين شبان روسيا ؛ إذ لا يزال ذلك الإيمان فيهم قوياً . وما نسمعه الآن من أن حياة العمال لتشابهها قد سلبت الناس شيئاً من تلك السعادة الناشئة عن اختلاف ألوان الحياة الزراعية ، وسلبتهم لذة الدقة في الأعمال اليدوية . كل هذا غير صحيح ؛ فلا يزال نرى عمالاً يقومون بأعمال يدوية غاية في الدقة ، ولا تنس أن الحياة الزراعية تخلق في نفس المرء الاستسلام للفواعل الكونية والرضا بقضاء الله وقدره ؛ لما يراه من التقلبات الجوية التي يتقلب لها عمله الزراعى . أما الآلة فتبعث في النفس كبير الثقة بعدم تأثرها بهذه الفواعل .
 إن سر السعادة هو الإكثار في هذه الحياة من كل أمر يجذب النفس له ، ويرغبها فيه ، ويجعل الصلة بينه وبين المرء صلة حب وصداقة ، لاصلة بغض ولا نزاع :

السبب الأول - مبلغ الشعور بلذة الحياة : تتخذ الحالات النفسية التي يتقدم

بها بعض الناس إلى تناول الطعام أساساً لشرح مانعنيه من تعبيرنا هذا :

أ - فمن الناس من يقبل على الطعام إقباله على شيء لالذة له فيه ، مهما كان جيد الصنف والطهى ، وهؤلاء لم يجربوا الجوع ، ولم يحسوا إلحاح المعدة في طلب القوت إذا عسر الحصول عليه .

ب - ومنهم المرضى الذين يتناولون من الطعام المقدار المحدود وفقاً لأمر الطبيب .

ج - ومنهم الأيقوريون الذين يقبلون على الطعام بشغف ، فلا يكادون يصيرون شيئاً منه حتى يشرعوا في التبرم والنقد .

د - ومنهم النهمون الذين يقبلون عليه بشراه ، ولا يزالون يأكلون حتى يتخموا .

هـ - ومنهم أصحاب المعد السليمة والمزاج المعتدل ، يقبلون على الطعام ، ويأكلون بميل عظيم ، حتى إذا اكتفوا قاموا قانعين ، ورغبوا عن ملء معدهم بالطعام . والإِنسان السعيد يشبه تلك الطبقة الأخيرة من هؤلاء الآكلين ، وعلاقة الجوع عندهم بالطعام تشبه تماما علاقة الشعور بلذة الحياة .

إن أسباب سعادة المرء ترتبط ارتباطا وثيقا بأسباب جاذية الحياة ، وكلما زادت وسائل تلك الجاذية زادت وسائل السعادة وأسبابها ، وخلص من أسباب الانقباض والتواكل : فالمرء الذى يجد فى كثير من شئون حياته المختلفة ما يجذب نفسه لا يجد الانقباض والتواكل إليه سبيلا ، وكل إنسان كهذا المرء له فى كل شئ أمامه سبب من أسباب المتعة والسرور .

إن عقل الإنسان آلة ثمينة حقا ، تتناول المواد الأولية من العالم الخارجى ، ثم تحيلها لذة للنفس ، ولا تصلح للعمل إلا بتلك المواد : فالذين يُشغَلون بأنفسهم عن العالم الخارجى وما فيه ، يعطلون عقولهم ، ويحرمونها المواد اللازمة للعمل ، فتصدأ شر صدأ .

ولكن ماسيل العقل إلى جاذية الحياة ؟ وما سيله إلى المواد الصالحة للاستِـتاج ؟ ذلك هو إقباله بقوة على الحياة . وفقدان تلك القوة فى حياة الفرد يرجع إلى القيود الثقيلة التى تفرضها عليه نظم الحياة المدنية .

إن الهمجى بهم بصيد ما يقتات به تلبية لنداء الجوع الذى شعر به ودفعه إلى العمل ، والإِنسان المتحضر لا يقوم بالحصول على القوت إجابة لداعى الجوع المباشر : فأنت مثلا لا تذهب إلى عمـلك أو مكتبك ؛ لأنك جائع ، بل لتضمن قوتك ، وفى هذا فرق عظيم بين باعث المتحضر وبعث الهمجى .

الثانى - العطف : من أهم ما يجعل الإنسان فقيرا إلى قوة الحياة شعوره بأنه غير محبوب ، يقابل ذلك أن شعوره بأنه محبوب يذكى فيه قوة الحياة وحماسها .

وأسباب شعور المرء بأنه غير محبوب كثيرة ، والذى يشعر بذلك يتجه

في حياته اتجاهات كثيرة متنوعة ، هي نتيجة مباشرة لذلك الشعور : فقد يجهد نفسه في إرضاء غيره واكتساب عطفه ، فيؤء بالإخفاق المؤلم ؛ وذلك لأن الإنسان بطبعه ميال إلى عدم العطف على من يستجدى عطفه ، ولأن المرء الذى يجهد نفسه فى اكتساب عطف الناس يسيئه أقل جحود يناله منهم ، وقد يحمله الشعور بكرهيتهم له على الانتقام منهم ، فيشعل نار الثورة ، أو يقيم الحروب ، أو يلجأ إلى قلبه ، فيملأ أسماع التاريخ أساليب التهمك والسخرية بهم ، غير أن القادرين على هذه الألوان من الانتقام قليلون .

ومعظم الذين يتولاهم الشعور يبعض الناس لهم منعزلون فى أنفسهم ، مشغولون عن العالم وما فيه ، مقيمون داخل نفوسهم فى جو من التشاؤم والسخط ، وشعورهم بحاجتهم إلى عطف غيرهم المحرومين منه يولد فيهم القلق وعدم الاطمئنان فى حياتهم ، فيحرمون الجرأة والاقدام حرمانا يسبب لهم الإخفاق فى كل ما يعملون ؛ فالعطف المتبادل من أقوى العوامل التى تقوم عليها الجرأة والاقدام . ولنزيد المسألة وضوحا نستعمل كلمة إعجاب مكان كلمة عطف ونقول :

جميع الذين يظهرون فى الحياة من رجال السياسة والصحافة وغيرهم تظل حمة الحياة قوية فيهم مادام إعجاب الجمهور بهم قويا ، ولانغنى بالعطف ذلك العطف الشائن الذى تغمر به الأمهات أولادهن فينشئون على الاعتقاد بأن عالم عطف أمهاتهم عالمهم الذى لا حياة لهم فى جو غير جوه ، فإن خرجوا منه ضاعوا فى لجج الحياة ، فليعرف الوالدان ذلك ، وليعنوا كثيرا بمواضع العطف والإعجاب ، ومتى وكيف يعجبون أو يعطفون !!

الثالث - الأسرة : هى أكثر مخلفات الإنسانية اضطرابا ، وأمسها إلى

الإصلاح والتنظيم ، وهذا الشعور المتبادل بين الآباء وأبنائهم ، والذى هو أغزر مصادر السعادة - يحف معينه شيئا فشيئا . وعجز الأسرة عن توفير

أسباب السعادة للمرء سبب بعيد الأثر في اضطراب العصر وقلقه الدائم ، وشقاء الأسرة اليوم يرجع إلى عوامل نفسية ، واقتصادية واجتماعية ، وغيرها ، مما لا يتسع ذلك البحث له ، ولكن نكتفى بشيء يسير فنقول : نفور المرأة من مسئولية الأسرة بن الجماعة الذين توافرت لديها أسباب الرزق يرجع إلى أمرين :

أولا - انفتاح ميدان العمل أمامها ، ومساواتها في ذلك بالرجل .

ثانيا - اشمئزاز المرأة العصرية من خدمة البيت . وهناك مشكلة المسكن : فإن ازدحام المدن بدافع التجمع في المراكز الصناعية لم يمكن المرء من مسكن يضمن له حرته ، فهو في مسكنه الضيق يحس بنقص في راحته . وكذلك فترة الانتقال ، وانتشار الديمقراطية - ضيعت شعور الطاعة الماضية ، فاضطربت الرابطة بين الآباء وأبنائهم ، فأصبح كل منهم جاهلا بما يجب له وما يجب عليه ، فلا غرابة بعد هذا أن يقل التناسل في ذلك العصر قلة كثيرة بدافع الامتناع عن الزواج .

لا يمكن أن تدوم هذه المدينة إذا انقطع جبل التناسل ، واضطرب الاضطراب الحالى ، فكيف يتحاشى الناس أسباب الانقطاع ؟ يتخاشونه بمعالجة الأسرة وجعلها صالحة لبعث السعادة في نفوس الناس من طريق نظامها ، وإقامتها على أسس جديدة مثمرة .

إن غريزة الأمومة والآبوة هي أقصى ما يبعث السعادة في النفس ، والذين لا يتذوقون تلك الغريزة تظل نفوسهم تحس نقضا لا تعرف سببه . وليكون الإنسان سعيدا - ولا سيما بعد الشباب - لا بد أن يشعر أنه ليس بالفرد المنقطع الصلة بالحياة الدائمة ، والأولاد صلة الفرد بتلك الحياة : فإذا كان الإنسان غير متصل بالمستقبل بسبب أو نسب ظلت حياته جافة ، وظل مستقبله شيئا لا خطر له عنده ، فإذا ما اتصل بذلك المستقبل بطريق الأولاد امتدت أمامه أطراف السلوى ، كما تعزى إبراهيم عليه السلام حين علم أن

نفسه سوف يملأ الأرض

الرابع - آ لعل من أسباب السعادة أو من أسباب الشقاء ؟ :

كثير من الأعمال يضنى الجسم ، ويؤذى النفس ، ولكن من ذا الذى ينكر السعادة التى يحسها المرء فى العمل المعتدل المثمر ؟ إن غاية ما أثمرته المدنية الحديثة من الإبداع هو كيف يشغل المرء أوقات فراغه بما يفيد . والتبرم الذى يحسه الراح تحت أعباء العمل لا يعد شيئاً أمام الضجر الذى يحسه الراح تحت أثقال الفراغ الذى لا يعرف كيف يستخدمه . والعمل طريق الإنسان إلى النجاح ، ومهما خلا من أسباب الجاذبية فإنه يظل محتملاً مرغوباً فيه ، مادام هو طريق المرء إلى الشهرة ، وعلى ذلك فالغاية ودوام السير فى طريقها من ضروريات السعادة . وهناك عاملان رء يسان يجعلان العمل جذاباً : هما المهارة والإثراء :

كل إنسان يحنق عملاً يميل إلى الدأب على ممارسته ، ويظهر هذا الميل فى أيام الإنسان الأولى : فالولد الذى يحسن الوقوف على رأسه يميل إلى عدم الوقوف على رجليه ، والطيار الماهر فى الألعاب البهلوانية يظهر من ضروب مهارته ما يعرض حياته لخطر الموت ، ولكنه يشعر فى ذلك بسعادة كبرى ، وكل الأعمال التى تتطلب المهارة تسبب سرور النفس للإنسان الماهر بشرط أن يكون ميدان المهارة متسعاً للتلوين والاختلاف الدائمين : فالمسابق الذى يقتصر فى سباق مائة (ياردة) لا يشعر بالسرور إن هوجم عند هذا الحد ولم يسبق فى شيء آخر ، ومن حسن الحظ أن الأعمال التى تحتاج إلى مهارة متنوعة أسباب التغير والتبدل ، وهى مفتوحة الأبواب للإنسان حتى نهاية العمر : فالرجل لا ينضبج فى السياسة قبل الستين أو السبعين من العمر ، ولهذا كان السياسيون ورجال الأعمال والمشروعات العظيمة أسعدَ فى شيخوختهم منهم فى صباهم .

والإنشاء عنصر من عناصر السعادة ، فمن الأعمال ما ينتهى بأثر دائم ،
يبعث في نفس منشئه أكبر العزاء .

ومن ألوان الهدم ما يبعث في النفس الراحة ، ولكن هناك فرقا بين شعور
الهدم وشعور الإنشاء : فالهدم ينتهى عند حد معلوم ، في حين أن فكرة
الإنشاء لا تنتهى إلى حد معروف . وأغزر مصادر السعادة هي تلك التي تنبعث
من عمل أسباب نجاحه غير محدودة : فرجال العلم ورجال الفن يعملون أعمالا
تكثر لهم بطبعها ، ولكن في الغالب نرى رجال الفن يميل بهم مزاجهم إلى
التشاؤم والشقاء ، ولولا ما يحسونه من عزاء في أعمالهم لا تتحر معظمهم ، على
غير ما نرى في رجال العلم : فمعظمهم يسعدون بأعمالهم ، وبطبيعة أمرجتهم .
وما ينقص رجال الفكر من أرباب القلم هذا العصر راجع إلى شعورهم أنهم
مستعبدون للصحافة التجارية التي يديرها أصحاب الأموال ، فهم يشعرون
أنهم يسيئون إلى أقلامهم وأنفسهم بما يكتبون ، ولكنهم مضطرون إلى
ذلك ، وإلا ماتوا جوعا . والإنسان الذي يشعر أنه يحتقر نفسه تستحيل
عليه السعادة .

الخامس - الجهاد - ليست السعادة منحة ، إلا في أحوال نادرة ، ولكنها

حق مكتسب :

كل امرئ يحتاج إلى الجهاد ، وهذه الحقيقة ثابتة في الغرب أكثر منها
في الشرق ، وخاصة فإن جو الغرب يجعل العمل أحب إلى النفس من الكسل ،
وعلى هذا فالتسليم في الغرب لا يؤدي إلى أية سعادة ، ومعظم الناس في الغرب
يحتاجون في الحصول على سعادتهم إلى شيء أكثر من القوت الضروري ؛ لأن
النجاح عندهم أهم عوامل السعادة ، غير أن هذا النجاح يقاس اليوم بمقياس
مادى ، هو مبلغ ما يربحه المرء من أعماله . ولما كانت الأرباح تتفاوت في مقاديرها
ووسائلها فالغرب مضطر إلى شيء من التسليم في تقدير مراتب النجاح ، وسعادة
الزواج تتعلق بالزوجين ، ولكن ما قولك في هذا العصر الذي اتسعت فيه

حرية الفرد ، واضطربت نسبة الرجال إلى النساء ، فكل من الجنسين في إنجلترا يعلن عن نفسه أنه زاد عن الآخر . ولذلك فهما في هذا السبيل في حاجة إلى شيء من التسليم ، والعناية بالأولاد والجهاد في سبيلهم له خطرهم : فالغرب يجاهد في سبيل قوت الأولاد ، والمحافظة على صحتهم ، وتربيتهم وتعليمهم ، وتوفير أسباب السعادة لهم في حياتهم ، ولكن في الشرق العناية بالأولاد قليلة ، ولذلك كانت نسبة الوفيات عندهم عالية جداً .

وفي الإنسان ميل إلى طلب القوة ، وهذه تختلف أشكالها وألوانها : فمن الناس من ينشد النفوذ والسلطان على عقول غيره أو نفوسهم ، أو يطلب ذلك لتغيير نظم الاجتماع إلى غير ذلك ، وكل هذا محتاج إلى الجهاد . والغرض من ذلك أن الإنسان الذى لا يطلب القوة في الحياة هو الإنسان الذى لا يشعر بأية مسئولية تُجِبُّ عليه للإنسانية ، ولعل في هذا التقدير خير ما أستطيع توجيهه من النقد لإقبال الغرب على ما يسمونه : «حكمة الشرق» في حين أن الشرق نفسه قد رغب عن هذه الحكمة نفسها (١) .

السادس - التسليم : للتسليم شأن في تحصيل السعادة . . . ومن الناس من يضطربون لأقل عثرة ، فعلى هؤلاء أن يوفرُوا قواهم النفسية ، ولا يسرفوا في بعثرتها عند كل صدمة في العمل . والحدق في العمل لا يتعادل مع اندفاع العاطفة نحوه ، بل كثيراً ما تكون شدتها مما يعرقل حدق الإنسان ومهارته ، والأديان تنصح بالخضوع لإرادة الله ، وليس من شك في أن الإنسان مضطر إلى أن يستسلم إلى شيء من هذا القليل في كل أعماله وما يتعثر فيه ، وعلى المرء أن يعمل أقصى جهده ، ثم يسلم الأمور بعد ذلك لمدير الكون ، والتسليم

(١) يظهر من كلام « رسل » أنه لم يدرس الحكمة الشرقية دراسة تمكنه من فهمها ، فليست تدعو إلى الخلود والجود كما فهم ، وكما يفهم أمثاله من فلاسفة الغربيين الذين يكتفون بالقشور عن الباب ، بل هي تبحث على العمل لسعادة الدارين . والشقاء الذى حل بالشرق يرجع إلى إهماله هذا التراث العلمى الخلقى العظيم ! !

نوعان : نوع يتصل أكبر الاتصال باليأس ، ونوع يتصل بالأمل الذى لا يقهر : فالذين يندحرون اندحارا يفقدون كل أمل فى الأعمال العظيمة يلجئون إلى تسليم اليأس ، ويشرعون يعززون أنفسهم بترديد عبارات السلوى ، ولكن نفوسهم تظل غير سعيدة ، وأصحاب الأمل الذى لا يقهر مهما أصابهم من خيبة يظلون سعداء :

وذلك لأن الأمل العظيم هو الذى يتعدى حدود الشخص ، ويمتد إلى حدود الإنسانية جميعها ، والعالم مهما خاب فى مساعيه العلمية لا يشقى ؛ لأن أمله غير شخصى ؛ وإنما هو أمل السعى فى سبيل الحقائق العلمية ، ومثل هذه الحالات لا تدخل للتسليم فيها ، وإن صح شئ منه فهو تسليم الأمل ، والذين يفزعون لكل شئ يجب أن يتعلموا شيئاً من سجية تسليم الأمل فتبعث إلى نفوسهم بشئ من الراحة والهدوء .

السعيد :

يستمد الإنسان سعادته من مصدرين : عالمه الداخلى ، وعالمه الخارجى . وقد دار بحثنا بوجه عام على اختصاص العالم الداخلى بسعادة الإنسان ، وإذا توافرت للبرء أسباب القوت والسكن ، والصحة والنجاح فى الأعمال ، واحترام بيئته له . فليس ما يحول بينه وبين السعادة إلا مرض نفسى يجب معالجته بالطرق التحليلية النفسية الحديثة ، وإذا كانت ظروف العالم الخارجى ليست تعسة تعسا شاملا فليس ما يمنع الإنسان أن يكون سعيداً ، وعلى ذلك فالتعليم يجب أن يرمى إلى التوفيق بين عالم الإنسان الداخلى وعالمه الخارجى . إن الإنسان السعيد هو الذى يحيا للعالم لا لنفسه ، ويجد فى كل شئ من أشياء العالم سبباً من أسباب المتعة ، وبشعر فى ذاته أنه هو نفسه متعة لغيره وسبب مسرة له . ولعلنى لا أتهم بالتحامل حين أنكر على بعض علماء الأخلاق إسرافهم فى الكلام على نكران الذات حتى أصبح بموجب

التعاليم الخلقية المعروفة أكبر سبب من أسباب الاشتغال بالنفس ، وحين أنكر عليهم أيضا القول بأن الحب يجب أن يكون بعيدا عن المصلحة الشخصية ، فما قولك في أن تدعو سيدة إلى الزواج منك ؛ لأنك تريد إسعادها وشقاءك !! الحق أن شخصية الفرد جزء من الشخصية الإنسانية العامة : فمصلحة المجموع لا تغني إنكار مصلحة الفرد ؛ لأن الفرد والمجموع شيء واحد ، وسعادة الإنسان في هذا التوافق بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ، وفي المساواة بين عقل الإنسان الظاهر وعقله الباطن ، والإنسان السعيد هو الذي لا يشعر بأي تنافر بينه بوصفه فردا ، وبين غيره بوصفه مجموعا ؛ لأن الفرد والمجموع وحدة لا تتجزأ إلا للشقاء وضياع السعادة .

أسباب الشقاء

١

خطأ العقل وفساد حكمه

قد يخطئ العقل في تقدير السعادة ، أو في السبيل الموصل إليها ، أو في طول ذلك السبيل وقصره ، وما يعترضه من عقبات وعوائق : فقد يقدر العقل أن السعادة كل السعادة في أمر معين فيحفر صاحبه على أن يجد ويكد ، ويجمد العقبات التي تعترضه في سبيله إلى ما ظن فيه السعادة ، ويغالب العوائق التي تنجم في أثناء سلوكه إلى مبتغاه ، ثم لا يزال كذلك في عناء وشقاء حتى تتجلى له الحقيقة المؤلمة من أن ماسعى إليه لم يكن إلا سرايا خداعا حسبه عقله الواهم سعادة ، وما هو من السعادة في شيء ، بل بينه وبين السعادة التي ينشدها ما بين السراب والماء ، أو ما بين الثرى والثريا ، أو على الأقل ما بين الحقيقة والخيال من الملاصقة والقرب . هنالك يتضح له أنه أنفق العمر في طلب ما لا ينال ولا يدرك ، فيسقط في يده ، ويناله من الشقاء والحزن أضعاف ما كان يريد أن يناله من السعادة الموهومة ؛ إذ ليس أصعب على النفس من

الاندحار عند الانتصار ومن الخيبة في مقام الفوز ، وأصعب منهما عليها أن تقضى الحياة في طلب السعادة ، فتضيع الحياة ولا تنال السعادة .

ومن الناس من يقصد إليها من طريق يختاره بعد طول الإيمعان والتفكير ، فيقطع فيه شوطا طويلا ، ثم يلوح له أنه على غير الدرب ، فيعود أدراجه ، ويختار سبيلا آخر ، وقد يبدو له بعد أن يبلغ فيه شأوا بعيدا مابدا له فيما سبقه من السبيل التي حاد عنها ، أو تنتهى حياته قبل أن ينتهى إلى آخره .

يقولون : إن الشقاء يطرد مع تقدم العمران والمدنية ومع توافر أسباب الهناء ، ويؤكدون أنه يتضاعف مع كثر الأيام وتوالي الحقب . أفلا يكون مرد هذا أن حركة سير العالم إلى غير وجهة السعادة ، أو أنه سائر نحوها إلا أنه لم يدن من ألقها ؟

هذا ما يجب أن يتناوله البحث ، فإن من المؤلم أن تلقى النفوس الخيبة واليأس عند نهاية شوطها في الحياة بدلا من السعادة التي تتوق وتجد إليها . ومن الناس من يتحقق الغاية ويتعرف سبيلها ، ولكن البعد الذي يحول دونها كثير العقبات جم الحوائل ، لايسهل على الإنسان اجتيازه ، ولا الدنو من نهايته . وكم من طامع في الوصول إلى هذه الغاية تألم من بعدها ومن طول المزار ، فأعيته الحيلة ، ولم يبلغ ما قصد إليه . وهذا هو حظ الكثيرين ، ويقل بل يندر بلوغ الإنسان إلى الحد الذي يظن عنده السعادة من مثل هذه الحال وما تقدمها ، ومن خيبة الآمال ، وعدم نيل الأمانى . تكثر الآفات ، وتتوالى الزفريات ، ويسمع الإنسان من كل جوانب الأرض الدائرة صدى الشقاء والتعس ، فيؤثران في نفسه أثرهما المشجى ، وما خفى من الأحزان أعظم ، وما استتر في الصدور أنكى ، إذ أعظم الحزن ما تجمد معه العين ، وأبلغ الألم ما لا يقوى معه المرء على إظهاره .

يستنبط من ذلك كله أن ضروب الشقاء من خطأ العقل وفساد حكمه :

فكل ما تقع عليه العين من أسباب السعادة والشقاء بحسب تقدير العقل ،

وقد يخطئ هذا ، وقد يصيب في حكمه . فلو عرف الإنسان حقيقة ذاته ، وما تحتاج إليه ، وحقيقة السعادة وأسبابها - لقصر بحثه على الأسباب التي تتفق وحاجة النفس ، وتؤدي إلى سعادتها ، ولتمكن العقل من تقدير حقيقة الأشياء بصورة صحيحة ، فيكون ما يراه سببا للسعادة موصلا إليها على الحقيقة .

٢

السخط

عرفنا مما سبق أن الأفكار تختلف باختلاف النظر والغاية : فمن ينظر في شيء بقصد إظهار عيوبه لا تبحث عينه عن غير العيوب ، بل لا تبصر سواها ، بخلاف من يتأمل الشيء بقصد المدح ؛ فإنه يوجه نظره إلى كل المحاسن التي فيه ، ويقصره على ذلك . وبسبب هذا الاختلاف في النظر وفي الغاية يختلف حكم الناظرين : فمن يدخل حديقة غناء في فصل الربيع - فصل حياة الأزهار - لا لاجتلاء محاسن الحديقة ، وإنما يدخلها للبحث عما استتر فيها من العيوب - لا يصعب عليه أن يجد بين الأزهار العطرة المفتحة إلا كما وردة لفحتها حرارة الشمس فذبلت ، وأخرى تفجرت منها ينابيع الحياة تفجرا ، فانفطت أوراقها وتهدم بنيانها . ولا يتعذر عليه أن يرى بين الزنايق النضرة زهرة وقفت نحلة بين جفنيها تمتص منها ماء الحياة ؛ وما أكثر ما يجد من شقوق الغل في سيقان الشجيرات والأشجار ، ومن البعوض على الأوراق الخضراء تفسد نضرتها وتؤدي يبهجتها !! كل هذا يراه الباحث ، ولا ينكر وجوده أحد ، ولا يستطيع منعه إنسان ، وإن كان من العيوب التي لا تتفق مع كمال الحسن ، ولكن الواقع أن هذه العيوب مع وجودها لم تمنع محاسن الحديقة ، ولم تقلل من بهاء منظرها ، ولم تحل دون تأثير رونقها الجذاب ، إلا في نظر الذي قصر بحثه عليها : فالناس ينتعشون ويتهجون بمحاسن الحديقة وجمالها ، والآخر يتألم ويحزن من مساوئها وعيوبها .

وليست الحياة إلا على هذا المثال : تتمثل لمن ينعم النظر فيها على مثال الصورة التي يريد أن يصور الحياة على شكلها ، وتنوع في نظره مناظرها باختلاف المسافات التي يطل عليها منها ، وباختلاف الغاية التي يريد النظر إليها من أجلها والأوقات التي يختارها لرؤيتها فيها ، كما يختلف منظر الحديقة باختلاف الفصول : فبينما نجد إنساناً ينظر إلى الخليقة نظر المظلوم إلى الظالم نرى الآخر يشكر الله تعالى على رحمته ، ونرى واحداً يشكو من ظلام الليل وطوله ، وثانياً يقول : « يا ليل طل » ويلتذ من منظره الرهيب وثوبه الحالك ، ويرتاح إلى سكونه الشامل . فالخليقة والليل لا يتبدلان ، ولكن آراء الناس عنهما قد اختلفت بسبب اختلاف نوع النظر والغاية منه .

ومن يكون أمامه الحسن والقيح ويختار الثاني ، ثم يشكو قبح مأخذ ، ويندب حظه - فهو أحمق . وليس أدنى إلى هذا المثال من حقيقة حال الإنسان في الحياة : أمامه وجوها متنوعة : وصورها الكثيرة الحسنة منها والقيحة ، ثم لا يختار منها ما يتفق مع رغبته ، ويبعث في نفسه الرضا والاعتباط ، بل يقصر نظره على ما يراه غاية في القبح ، ثم يشكو من قبح الحياة وشناعتها ، وسوء حظه فيها وانقباض صدره وسأمته . وهو لو ميز بين الحسن والقيح واختار النظر إلى الأول لأنعش نفسه ، ولبعثها على الاعتباط والهناء .

٣

التطرف أو الشذوذ

إن شذوذ أفكار بعض الناس يؤثر في غيرهم وفي الجماعات البشرية تأثيراً سيئاً يبقى طويلاً ، وينتقل بالعدوى والوراثة . ولما كانت مصادر شقاء النوع الانساني كثيرة متفاوتة كان التطرف أو الشذوذ في المرتبة الأولى منها ، وكانت الشكاية منه عظيمة دائمة . إن من يكون دليل قافلة تجهل الطريق قد يصل بها إلى وجهتها ، أو يضل الطريق ، فتضل معه ، وتهلك جميعها . ومن

بين من يتصدون للكتابة والفلسفة كثيرون شأنهم مع الناس شأن الدليل الذى يضل الطريق ، فينفسون فى العقول ما يعقمها ، وفى الأفكار ما يطيشها عن بهجة الحياة ، كأنما قضى على ذلك النفر ألا يروا من الأحوال إلا ما فيها من أسباب التعس وانقباض الصدر ، وما يدعو إلى التذمر والسخط على العيش ، فيطبعون الأفكار على مثالهم ، وينغصون على الناس الحياة .

الاستياء من الحياة عام إلا أنه فى الحقيقة ناشئ من تأثير الأفكار الشاذة فى العقول ، ولولاها ما وصل السخط إلى حد تشويه الحسن وعدم الرضا به ، والناس يقبلون الآراء المتطرفة أو الشاذة : إما لاتفاقها مع ما يرون ، وإما للثقة بأصالة رأى الكاتب أو الحكيم . والفيلسوف لا يرى الحقيقة دائماً بل يكون ما يراه ويحكم به مماثلاً للصورة التى يمثّلها فكره عند تأثر نفسه بعوامل الحياة المؤثرة فيها .

ولو كانت آراء المستأمن جميعاً مرتكزة على أسباب واحدة لكانت متحدة فى جواهرها ، لكنها تختلف باختلاف العوامل المؤثرة فى نفس كل مفكر ، ولذلك لا تتماثل ، وكثيراً ما تتناقض : إن العين المتأثرة لا تبصر الأشياء على صورها الصحيحة ، بل بعيدة عن الحقيقة بعد العين عن حالتها الطبيعية . فكل أولئك الذين نقرأ كتاباتهم ، ونطبع فى عقولنا صور آرائهم - ما نظروا إلى الحياة إلا بعيون حواء ، وهم متأثرون بعوامل عارضة أثرت فى أفكارهم ، فصور كل منهم الحياة على ما تمثّلها فى تلك اللحظة ، لا على صورتها الحقيقية وشكلها البهيج . ولكن الناس ينظرون إلى القول كأنه الحقيقة ولا يعنون بالبواعث على النطق به ، فيؤثر فيهم ، ويمتزج بأفكارهم ، ثم يبرز منها كأنه حكمها الخاص ، فيؤيدونه بما شاءوا من الأدلة ، ولا يرجعون عنه ولو ظهر خطؤه

كل ما يلقى فى الماء النقى من المواد العكرة يعكره ويمنع صفاءه ، كذلك ما يحشر فى الفكر من الآراء الفاسدة يعكر صفاء النفس ، ويمنعها

اجتلاء جمال الحياة وبهجة العيش ، ويحزنها الفكر بتصوراته المشجية ، ويمثل لها الموت فى كل لحظة ، وسيفه مسلولا على الرأس ، والقبر مفتوحا على مصراعيه ، وهوامه وحشراتة تدب على الأرض جشعة متربصة لالتهام الجسد ، فتتفر النفس من الحياة ، وتتألم من الوجود ، ويلازمها الخمول ، ويضعفها اليأس . ولما كان الاستياء ناشئا فى الغالب من تأثير الآراء الفاسدة فى فكر الإنسان وفى نفسه - كان اطراح هذه الآراء حائلا دون تأثيرها وداعيا الإنسان إلى اجتلاء جمال العالم وأسباب الغبطة .

أسباب الشقاء

فى نظر (برترند رسل) الفيلسوف الانجليزى فى كتابه : « الظفر بالسعادة »
الأول - الأثرة : الاشتغال بالنفس . وحصر الإنسان إياها فى دائرة ذاتيته - يفسد جوال حياة : كالمصباح حين تضعه فى غرفة ثم تغلق نوافذها ؛ فإنه يفسد الهواء . والمشتغل بنفسه يجد فى أقل صدمة يصطدم بها فى حياته طعنة مقصودة موجهة إليه من القدر المشتغل عن العالم بمحاربة هذا الفرد الواهم . وفى هذا الاعتقاد الخاطىء كثير من أسباب الشقاء . وأول خطوة فى سبيل سعادة المرء هى خروجه من سجن ذاته ؛ واهتمامه بالحياة العامة للجماعة .

حقاً إن الاهتمام بالجماعة لا يخلو من عثرات للفرد ، ولكن ليس لهذه العثرات فى النفس الأثر الذى لها فى نفس المشتغل بذاته : فعثرة الرجل المهتم بسعادة المجموع لا تفسد عليه حركة نفسه ، كما تفسد أقل صدمة حركة نفس المشتغل بذاته : فالحرب العالمية مثلا لا تعرقل حركة حياة المرء الخاصة ، كما يعرقلها فكر ضئيل يطرأ عليه بايحاء من سلطان أثرته ، واشتغاله بنفسه عن العالم .
الثانى - الإسراف فى التنافس : سل الناس اليوم فى أوربة وفى أمريكا عما يشغلهم فى الحياة يجهلون فوراً : « يشغلنا فيها الكفاح للرزق » والحق

أن هذا الجواب غير صحيح : ذلك أن حقيقة ما يسعى إليه الناس هناك التغلب لا الرزق . وما أكثر الناس الذين يعيشون حياة يفضلها الموت ألف مرة بسبب التنافس والتطاحن في سبيل الفوز !! والنجاح عند أولئك الناس شيء مادي لا يكاد يعدو المال ، فالمال عندهم هو كل شيء في الحياة ، وقد بلغت شهوة الاندفاع وراء النجاح المادى مبلغاً خطراً حتى إن المرء يندفع اليوم في ألوان من المضاربات والمغامرات تجعل حياة أصحابها قلقاً مستمراً ، واضطراباً غير منقطع .

ولا أنكر أن الرغبة في النجاح عامل خير في حياة الناس ، ولكننى أنكر جعلها عنصر السعادة الوحيد . فلتكن رغبة النجاح عنصراً من عناصر السعادة في الحياة ، لا خلاصة عناصرها مجتمعة .

الثالث الملل : لا ينشأ الملل من فقدان وسائل السعادة ، بل من فقدان

ما يثير الرغبة ، وإثارة الرغبة في الإنسان غريزة بعيدة الغور في نفسه ، وأحسب أن هذه الرغبة كانت تجد كفايتها من الإثارة في العصور الأولى التى كان يقتات فيها الإنسان بما يصيد ، فلما انتقل إلى عصر الزراعة أخذت أسباب الملل تتسرب إليه ، ونحن مازلنا نشعر بلذة بعيدة الأثر في النفس حين نخرج للصيد ، فالميل إلى إثارة الرغبة ظاهرة قوية الوضوح بين الهمج ، وكثيراً ما نسمع عن ملل الحياة في هذا العصر الآلى ، ولكننا نرى أن هذا العصر الآلى أزال كثيراً من أسباب ملل الحياة الزراعية :

فساعات العمل بين العمال ليست ساعات وحدة وانفراد كساعات الزارعين ، أما ساعات فراغهم فيمكن أن تصرف في كثير من أسباب إثارة الرغبة بفضل الآلة . فأين ساعات الليل المظلمة بالأمس الزراعى من ساعات الليل في هذا العصر الآلى ؟ : كانت الأسرة في الماضى تجتمع ليلاً في غرفة أو في منزل ضئيل النور ليتحدث الأب وليصغى الأبناء ، ولم يكن الخروج من شارع إلى آخر ميسوراً لرداءة الطرق وقلة الأنوار ، بله العادات : فقد كانت

للزوم المنزل أوجب ، أما اليوم فالليل نهار ، والآلة التى أحدثت تلك الثورة الاقتصادية كسرت قيود الماضى ، فخرجت المرأة تعمل وترزق ، ولم تعد الأسيرة محصورة فى المنزل ؛ بل خرجت إلى ميدان فسيح الجوانب بفضل الآلة : فهناك دور الخيالة والمذيع ، والمرسح ، وما إلى ذلك ، تمهد سبلها طرق مرصوفة مضادة وسيارات ... ، وعادات جديدة لا تعرف تزمتا ولا شبه تزمت . والهروب من الملل إذا لم تتوافر أسباب إثارة الرغبة قد يكون سبباً فى شُرور كثيرة : فالاندفاع وراء المخدرات ، وأسباب الخلاعة - سببه نشدان الخلاص من الملل وبواعثه .

الرابع - الغيرة : الغيرة سجية أولية فى الإنسان ، يبدى الطفل مظاهر قوية منها قبل أن يتم السنة الأولى من حياته ، وليست الغيرة شراً كلها : فالعامل الحيوى فى إيجاد المساواة وازدهارها مرده الغيرة ، وهل ترى أن السواد من الناس كانوا يتطلعون إلى المساواة لولا ما يحسونه من أسباب الغيرة من الطبقات الأخرى ؟ وآفة الإنسان فى سجية الغيرة اعتياد المرء أن ينظر إلى الحياة نظرة موازنة ومفاضلة : فالواحد لا يقنع بما عنده ويسعد به ، ثم يحاول أن يزيده ، ويوازن بين ما يملك من أسباب السعادة ، وما يملك غيره منها ، فينفس عليه ويشقى بنفسه . والأجدى على الناس ألا يتجهوا فى حياتهم إلى المفاضلة إذا هم نشدوا الهناء وراحة البال . والغيرة خدن المنافسة : فالتاجر الصغير مثلاً لا ينفس على صاحب (الملايين) ولكنه ينفس على أمثاله . وهذا عصر اتسع فيه نطاق المنافسة والغيرة ؛ لأن المواصلات العصرية المختلفة ، وربط أنحاء العالم ببعضها بعض بشتى الوسائل : كالصحف ، والخيالة ، والمذيع وما إلى ذلك - تعرض على الناس مختلف ألوان الحياة الإنسانية عرضاً أخاذاً ، يوحد جذوة المنافسة والغيرة . وما حياة العصر إلا تنافس وتشاح بين الطبقات والأمم والشعوب ، وفى هذا يكمن الخطر الذى قد يودى بالمدينة ، أو يسرع إلى زوالها .

الخامس — الإجهاد : من المفيد للجسم أن يتعب بعض التعب ، ولكن ليس من الفائدة في شيء أن يرهق بالعمل ، وقد كان العمال قبل العصر الآلى يرهقون أشد الإرهاق ، فلما جاءت الآلة رفعت عنهم كابوس الإجهاد ، إلا أن هذا التعب الزائل حل مكانه آخر لا يقل عنه خطراً ، وهو إجهاد الأعصاب وإرهاقها :

يترك عامل اليوم منزله إلى المصنع ، فتلقف أذناه أصوات السيارات والعجلات الكهربائية والقاطرات البخارية ، وما شئت من جلبة الآلات ، فإذا وصل إلى المصنع استقبلته عاصفة هوجاء من الصخب والضوضاء ترهق الأعصاب شراً إرهاق ، وهو في هذا كله في قلق نفسى مستمر : فهناك خشية الطرد ، وغنت الرؤساء ، وخوف الاصطدام بآلة من الآلات . كل هذا وأمثاله يثير في نفس العامل شتى الاضطرابات مما يرهق النفس والأعصاب معاً .

هذه حياة العمال ، أما أصحاب العمل ففى شر آخر : في قلق مستمر من التنافس والمقامرات والمضاربات ، وما قد تؤدي إليه من خراب ودمار . لا ينكر أحد أن حياة اليوم جهاد مستمر في سبيل النجاح ، وهذا الجهاد العملى النفسى يفضى إلى الإعياء ، ومعظم هذا الإعياء من قلق النفس ، وليس أجدى على المرء من انتهاج محجة نفسية صحيحة تجعله متزن التفكير في أعماله ، متزن النفس ، سديد الحكم . وهناك عامل خفى شديد الأثر في تضاعف التعب في العصر الحالى : هو الحاجة إلى ما يثير العاطفة ويشحذها ، حتى تذوق السعادة : فالأحوال الاقتصادية الحاضرة ترجىء الزواج ، فلا يتمكن الرجل منه إلا فيما بين الثلاثين والأربعين ، وكذلك الزوجة تكون قد جاهدت جهاده ، وبلغت من السن ما بلغه ، فتجىء حياتهما الزوجية فاترة أشد ماتكون حاجة إلى إثارة العاطفة ، وفي هذا إرهاق مضن للأعصاب .

السادس — وخز الضمير : لاشك في أن وخزات الضمير لها أكبر الأثر في سعادة الإنسان وشقاوته ، والضمير عند الناس مصدر وحي يتعرف به المرء الخير من الشر ، ولكن أترى أن العلوم النفسية الحديثة تقبل هذا القول ؟ وهل الضمير إلا مجموعة المواد التى يتألف منها العقل الباطن ؟ إن أقوى نوازع هذا العقل الميل إلى التستر : فالإنسان ما يزال يحتفظ بسجية الاختباء التى كانت أم وسائل دفاعه عن نفسه فى عصوره الأولى ، وما تزال هذه السجية قوية الأثر فى نفسه : فمن الناس من لا يشعر بتأنيب الضمير من فعلة شنعاء إلا إذا افترض أمره ، فإذا استتر الأمر فالأغلب أنه لا يشعر بشيء من التأنيب والتبكي .

والضمير لا يوحى بخير ولا بشر ، وإنما ينضح بما رسب فى العقل الباطن من عادات ونوازع . والخوف من الاصطدام بهذه النوازع أو التساوق معها هو ما نعرفه نحن باسم الخير والشر . وهذه المواد التى تتألف منها عقولنا الباطنة مجموعة ما استقر فيها من وراثات ، وما نكتسبه من البيئة التى ننشأ فيها ، وتكون ضمائرنا .

نخلص من هذا كله بنتيجة خطيرة : هى خروج قوانيننا الخلقية من سلطان العقل . والناس يتناولونها كما يتناولون المخدرات ، وواجب المرء أن يتعد عنها . أنا لا أقول باطراح الناس القوانين الخلقية ، ولكنى أصر على وجوب اصطناع قوانين من وحي العقل ، لامن وحي الوراثة (١) والبيئة .

السابع — توهم عداة الناس : من ألوان الجنون أن يتوهم المرء وجود مطاردين له ، يقتفون خطاه لا يقاع الأذى به ، وكثيراً ما تنتهى هذه الأوهام إلى ضرورة حفظ المصاب بها فى إحدى المصحات ، ولكننا لسنا

(١) صريح أن المؤلف أراد بالقوانين الخلقية ما تكون من الوراثة والبيئة دون عقل وروية ، وجلى أن ذلك لا يسرى على قوانين الأخلاق الإسلامية ، فهى تساوق العقل ، ولا تناقضه .

نبحث فى هذه الحالات الشاذة ، بل هناك كثير من الناس فريسة هذه الأوهام ، فتراهم بها فى كدر مقيم : يتوهمون أنهم يحسنون إلى غيرهم فىسئ إليهم ، وأنهم يُصفونه النية والإرشاد ، فينالهم منه الجحود والكران ، ويذلون فى سبيل الإحسان إليه كل مشقة ، فيسرف هو فى الإساءة والشر . فهؤلاء يجب أن يذكروا أن كثيراً مما يتخلون مرض نفسى تسهل معالجته بقليل من العناية ، ونصيحتى أن يذكروا الأمور الآتية :

١ - ليست أعمالهم التى يتوهمونها مثلاً لنكران النفس فى سبيل غيرهم كما يظنون

٢ - ليجتهدوا فى تعرف حقيقتهم ، وفى تعرف هذه الحقيقة تخفيف لآلامهم : فمنهم من يقدر مواهبه مثلاً فوق قدرها ، فيتوهم أن غيره يسئ إليه حين لا يعطيه حقه من التقدير لتلك المواهب الفذة .

٣ - ليدكروا أن الناس لهم ما يشغلهم فى الحياة غير انقطاعهم لنكران صنائع هؤلاء الأفراد والإساءة إليهم

٤ - ليدكروا أن الناس ليسوا دائماً على استعداد لقبول كل ما يقدم إليهم من المعروف والإرشاد ، وما إلى ذلك .

الثامن - الخوف من الرأى العام : قل من يستطيع أن يسعد فى الحياة إذا تنافرت آراؤه وتقاليده الجماعة التى يعيش معها ، ومن أقوى مظاهر العصر الحاضر اختلاف الناس اختلافاً بيناً فى معتقداتهم المدنية والسياسية والدينية وغيرها . وإذن فأسباب عدم السعادة كثيرة كثرة هذه الاختلافات فى المعتقدات ، وحضارة اليوم تثب وثبات واسعة لا اتزان فيها ، وهذا من شأنه أن يوسع رقعة تباين المشارب واختلاف الآراء وتضاربها . وليس أثقل على النفس من التضيق على المرء فيما يعتقد أحقيقته .

ومن أشد الأخطاء الشائعة القول : بأن العبقري لا يعوق ظهورها عائق ما ، وأن المرء الصحيح النزعة والآراء لا بد أن تتغلب نزعته على الرأى العام . هذا خطأ سقيم : فكم من عبقرى نابغ دفن حيا هو وعبقريته دون أن يعرف الناس شيئا عنه : دفنه في الحياة جهل الناس وغباؤهم .

وليس من الإِصاف أن نكلف العبقري وحده تحدى الرأى العام ، بل الأحرى أن تفسح الجماهير المكان لكل فرد ، حتى يظهر ما عنده خيرا كان أو شرا .

وليدكر الأفراد الموهوبون أن الدهماء والكلاب سواء : فأنت حين تلتفت إلى الكلب يزداد نباحا وعراخا ، وإذا أهملته التزم الصمت ، وعاد كلبا بعد أن كان قد استأسد .

قلنا : إن المدنية حملت معها أسباب اثبتاين والاختلاف ، فنقصت أسباب السعادة عند بعض الناس من جراء التصادم والتنافر . ويجدر بنا أن نقرر أن هذه المدنية عينها حملت معها علاج هذا الأمر إن أحسن الناس الاستفادة منه : ذلك بأنه كان المرء بالأمس إذا تنافر في آرائه مع أفراد أسرته أو عشيرته من أهل القرية أو المدينة لم يكن من السهل أن يجذله بيئة أخرى فيها جو يتساق و ما يأخذ به من الآراء والمعتقدات ، أما اليوم فحين أجد عشيرتى متنافرة أفكارها مع أفكارى يسهل على أن أجد لنفسى بيئة أخرى أطمئن إليها وتطمئن إلى دون تجشم المشقات ، فالمواصلات ربطت أنحاء العالم بعضها ببعض . ومن هذا يتبين أن البيئة الاجتماعية اليوم تعدت حدود الأسرة وحدود القرية أو المدينة ، فأصبحت أوسع من ذلك ، وإذا كان الفرد قد تخلص بذلك من سلطان الأقلية الظالمة فهل تخلص من سلطان الصحافة ؟ لا ، لأن ما كانت عليه الأسرة بالأمس والمدينة والقرية من السلطان وشدة التحكم بالأفراد والجماعات - انتقل اليوم إلى الصحافة . فليترك رجال القلم ربهم في كل ما يكتبون .

أهم أسباب الشقاء

في رأى فضيلة العلامة الشيخ الدجوى

الأول — الترف الذى أمات خاق المروءة ، وألجأ ذويه إلى اكتساب المال من غير وجوه المشروعه ، واضطرهم إلى الذل فى تحصيله حتى يصلوا إلى ما يريدون من زخرف باطل ، ونعيم كاذب .

الثانى — الإسراف وهو نتيجة الترف ، ولكنه قد يكون ناشئاً من ضعف الرأى وعدم الحكمة فى التصرف ، فيكون بلا شرف ولا فائدة أصلاً ، ويلحق بالعبث الصرف .

الثالث — عدم تنظيم الأوقات وصرف الكثير منها فى غير ما ينفع : فعلى الإنسان أن يعمل لنفسه نظاماً يتبعه ، ولا يحيد عنه فى كل شئ ، ولا يصدق نفسه فى أنها غنية عن النظام ، وليست تفعل إلا اللائق أو اللازم ؛ فإنها جاهلة أو خداعة تهوى الإطلاق وتفر من التقيد ، وإن كان فيه صلاح حالها .

والإنسان طويل العمر جداً إذا كان من العاملين ، وما أظهر له أنه قصير العمر ، وأذهب حياته بلا فائدة — إلا عدم إلزام نفسه قانوناً مخصوصاً حتى ضاعت أوقاته ، واختلت أعماله .

الرابع — الاكتفاء بالعلم فى تهذيب النفوس ، وعدم تعويدها الفضائل .

الخامس — عدم غرس الدين فى نفوس النشء على ما يجب ، وعدم تمرينهم على ما جاء فيه ، وتركهم للتعاليم المدرسية ، أو ترك ولاية الأمور الاهتمام

بذلك . وليس مثل الدين شئ يردع النفوس عن القبيح ، ويأخذ بها عن شهواتها ، ويصل بها إلى كمالها .

السادس — عدم رياضة النفس وإشعارها بالفضائل : بالمطالعة في كتب الدين والأخلاق أنا فآنا ؛ (فإن النفوس تحتاج في حفظ صحتها إلى الرياضة بذلك العلم ، كما تحتاج الأبدان إلى الرياضة « المعروفة ») ، وعدم تحريك الإحساس الدينى فيها من وقت إلى وقت ، حتى ضعف في أغلب الناس ، أو كاد يقضى - عليه بالكلية ، « والغفلة والنسيان من طبع الإنسان »)

وإذا استمر القلب على التوجه إلى جهة واحدة كاد يجهل ماعداها ، أو يعلمه علماً لا يترتب عليه أثر . وتعهد النفوس في رياضتها يجب أن يكون قبل تعهد الأجسام .

السابع — إنكار الروحانيات وقصور النظر على الطبيعيات ، وهو أساس الشقاء ، وسبب البلاء ، وقد جاء ذلك من البعد عن علوم الدين وما ورد فيه ، ومن تقليد الغربيين الذين لا يعرفون غير علوم الأجسام ؛ لأنها وجهتهم : (وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيًا)

الثامن — عدم ملاحظة استعداد النشء : فكثيراً ما يكون الولد قوى البنية ميالاً للحركة تتعبه الأعمال الفكرية (لأنه لم يخلق لها) ويرتاح للأعمال البدنية ، ولو اشتغل بها لكان له نتيجة حسنة تعود عليه وعلى الناس ، فيسعد في نفسه وتسعد به أمته ، ولكن والده تحمله الألفة أو المحافظة على أن يكون مثله ، بل الجهل وعدم التبصر - ألا يعلم ما هو مستعدله من الصناعات والأعمال : فتراه يرسله إلى الأزهر أو المدارس طمعاً في الشرف الرفيع والمستقبل الباهر ، فيقهره على غير ما خلق له ، فلا يزال يعاني مشاق الحياة الجلوسية ومتاعب الأعمال العقلية ، حتى يغلبه استعداده أخيراً (وقد فات زمن التعليم) فيشقى شقاء طويلاً ، وتفقد الأمة عضواً من أعضائها كانت تنفع به لو لم

يكن أشل أو مجذوماً يخاف على جسمها منه . ولو تبصر الناس ، ولاحظوا ذلك ، وهو أصل كبير فى الترية ، وأرسلوا إلى التجارة من يصلح لها ، وإلى الصناعة من يميل إليها على اختلاف أنواعها ، وإلى العلم من خلق له — لآتوا الرقى من بابه ، والسعادة من أقرب طرقها :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

والحمد لله الذى هدانا لهذا : (وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ)
والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أرسل لإسعاد الإنسان فى دنياه
وأخراه ، وعلى آله وأصحابه الذين اهتموا بهديه ، فسلكوا سبيل السعادة ،
وفازوا بالحسنى وزيادة .

بعون الله تعالى تم الجزء الأول

ويليه بمشيئة الله تعالى الجزء الثانى وأوله : الخير :

تذبيہ

نسترعى نظر القارىء الكريم إلى أن جدول الخطأ والصواب لم يتضمن إلا الأخطاء الهامة التى أمكن إصلاحها ، وهناك أخطاء لا خطر لها مثل : همزات قطع متروكة ، ونقط لم تظهر ، ورس حروف لم تتبين ، وأواخر حروف لم تتضح ، ولهذا السبب لم نستطع إصلاح هذه الأخطاء ، ولأنها لا تخفى على فطنة القارىء اللبيب .

المؤلف



Bibliotheca Alexadrina



0235710